

العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي

تأليف

دكتور عادل اسماعيل محمد هلال

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٩٧

المشاريف

د . شحوشى عبد القرى حبيب

د ، على الماء ينبع د على

د. قاسم عبد العزیز

مسير المؤسس: محمد عبد الرحمن علييفي

تعميم الفلاط: محمد أبو طالب

الناشر : دار ابن القيم للطباعة والتوزيع - بيروت - لبنان

٣٦٢ شارع سلف ليمس = اسستانتس = الـ ٢٥٥ = ثالث بـ ٢٠١٧

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
6, Yusuf Salim Street, Elhamra, A.R.E. Tel.: 3851276

إهداً

وتحية وتقدير إلى الصديق النبيل،

والزميل الكريم :

الدكتور / رشوان محمد جاب الله

وإلى كل الشرفاء الذين يتقدون الله سرّاً وعلانية .

عادل هلال

المحتويات

صفحة

١١	مقدمة
	تمهيد تاريخي
١٥	الصلات بين آسيا وأوروبا قبل العصر المغولي
	الفصل الأول :
٣١	الاتصالات بين المغول وأوروبا من عام ١٢٣٧ إلى ١٢٥٥ م
	(ظهور المغول على مسرح الأحداث - غزو المغول لجنوب روسيا عام ١٢٢٢ - ١٢٢٣ م) غزو روسيا ١٢٣٦ - ١٢٤٠ م - موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا - غزو بولندا ١٢٤١ - ١٢٤٢ م - غزو المجر ١٢٤١ - ١٢٤٢ م - موقف غرب أوروبا من الغزو المغولي لبولندا - السفارات المتبدلة بين البابوية والمغول في عهد انوسنت الرابع - الاتصالات بين المغول ولouis التاسع - بعثة وليم روبروك إلى المغول ١٢٥٣ - ١٢٥٥ م) .
	الفصل الثاني :
٩٥	التحالف المغولي - اللاتيني ضد المسلمين
	(التحولات السياسية في الشرق الأدنى في بداية النصف الثاني للقرن الثالث عشر - موقف الصليبيين من الغزو المغولي لبلاد الشام - الاتصالات بين مغول فارس واللاتين في عهد هولاكو - السفارات المتبدلة بين الإلخانيين والغرب الأوروبي - أسباب فشل التحالف المغولي- اللاتيني) .
	الفصل الثالث :
١٦٥	السياسة الدينية للمغول وجهود البابوية لتنصيرهم
	(معتقدات المغول وسياساتهم مع الأديان المختلفة - جهود البابوية لتنصير قادة المغول ١٢٤٥ - ١٢٥٤ / سياسة هولاكو مع المسلمين والمسيحيين - علاقة الإلخانيين البوذيين برعاياهم المسلمين - محاولات الغرب الكاثوليكي تنصير مغول فارس البوذيين - سفارة راهبان صاباما للغرب وتبسيط كنيسة النساء لكتيبة روما - بعثة جون مرنت

كورفينو للمغول - جهود الراهب ريكولدمونت كرونسي التبشيرية - اعتناق غازان الإسلام وأثره على أهل الذمة - البعثات التبشيرية في عهد الإلخانين المسلمين - تقييم إنجازات الرهبان الفرنسيسكاني والدومينيكان- أسباب فشل البعثات التبشيرية في تنصير المغول .

الفصل الرابع :

٢١٧	تجار المدن الإيطالية في آسيا المغولية^١
٢٦٥	الخاتمة
٢٦٩	الملاحق
٢٨٧	المخطوطة
٢٨٩	قائمة المصادر والمراجع
٣٠٥	١- ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التي تناولتها هذه الدراسة - ٢- التقرير الذي قرأه سفير أبخاخان أمام مجمع ليون المskونى عام ١٢٧٤م - ٣- خطاب أرغون خان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا عام ١٢٨٩م - ٤- خطاب أولجاتسوخان إلى فيليب الرابع عام ١٣٠٥م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد: فموضوع العلاقات بين المغول وأوروبا موضوع تناولته أقلام المؤرخين المحدثين في الشرق والغرب على حد سواء . ولكن قلت دراسته من بعض الجوانب دون البعض الآخر واعتماداً علي مصادر مُعينة شرقية أو غربية حسب موقع المورخ ورؤيته للأحداث واهتماماته . ويُحسب لهؤلاء المؤرخين شرف الريادة في طرق موضوعات بكر وفتح أبواب جديدة لمن أتي بعدهم من جيلي ومن هؤلاء J.B.Chabot في دراسته القيمة للعلاقات بين أرغون خان والغرب التي نشرها عام ١٨٩٤ م ، و Paul Peletier في بحثه غير المسبوق عن البابوية والمغول الذي نشره في أعوام ١٩٣١، ١٩٢٤، ١٩٢٢ A.G, Moule في مقالاته وكتابه عن المغول والمسيحية في وسط آسيا وفي الصين التي نشرها في الفترة من ١٩١٤ حتى ١٩٣١ و J.J.Saunde في كتابيه عن تاريخ غزوات المغول وال المسلمين والمغول . والجدير بالذكر أن الكتاب الأخير نشر عام ١٩٧٧ بعد وفاة مؤلفه وبالفصل الأخير منه خطة بحث لموضوع العلاقات المغولية الأوروبية مات دون استكماله . وهذا ما استفادت منه فائدة كبيرة . وأنوه أيضاً برسالتي الدكتوراه لكل من Charles W.Connell و Barbra Rose Phaire على التوالي في موضوعات نفس الفصل الأول من هذا الكتاب، وكذلك كتاب Igorde Rachewiltz عن سفراء البابوية لقادة المغول المنشور عام ١٩٧٠ وكان يمكن أن يكون دراسة طيبة لواهتم الباحث بتوثيقه والأخذ في الاعتبار تأثير هذه العلاقات علي العالم الإسلامي .

ويسعدني ان أنوه أيضاً بجهد أساتذتنا الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد - وهو رائد الدراسات المغولية بلا منازع ، وحافظ أحمد حمدي و فايد حماد عاشور ، وغيرهم من كتبوا بعمق و اعتماداً علي المصادر الشرقية عن المغول و علاقاتهم بالقوى الإسلامية في وسط آسيا وغيرها .

ومن توفيق الله تعالى أن وفقني للعثور أو الاطلاع علي مجموعات المصادر الأولية الشرقية والغربية علي حد سواء عن طريق الاتصالات الشخصية بمكتبات الجامعات الأمريكية وبالاطلاع المباشر عليها في أرشيفات الجامعات الألمانية (الغربية) إبان دراستي لهذا الموضوع بجامعة كييل في الفترة من ١٩٨٥ حتى ١٩٨٧ م.

ويتكون هذا الكتاب من تمهيد تاريخي لموضوع الدراسة وأربعة فصول وخاتمة وأربعة ملخص .

فالتمهيد التاريخي عبارة عن نبذة مختصرة للاتصالات بين آسيا وأوروبا في العصور الوسطى الباكرة ، ودراسة لأسطورة الكاهن يوحنا وتطرفها وذلك لارتباط هذه الأسطورة في أذهان الأوروبيين بوجود مملكة مسيحية في آسيا خلف ظهر المسلمين على استعداد للتحالف مع الصليبيين لتطويق المسلمين ، وذلك لتطور نظرية الغربيين لهذه الأسطورة بظهور المغول وانتصاراتهم المتتالية علي المسلمين في وسط آسيا وغيرها وتصوروا أن خلفاء جنكيز خان يمكن ان يقوموا بالدور المأمول من «الkahen يوحنا» .

وتناول الدرس في الفصل الأول «الاتصالات بين المغول وأوروبا من عام ١٢٣٧ حتى عام ١٢٥٥ م. و درس الباحث بإيجاز غزو المغول لروسيا وبولندا والمنطقة و مورافيا في الفترة من ١٢٤٢-١٢٣٧ م ، و رد الفعل للغرب الكاثوليكي من اكتساح المغول لشرق أوروبا وما نتج عن ذلك من تدمير مدنها وكنائسها وذبح سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعهم . و تعرض الكاتب للسفارات المتبادلة بين البابوية وقادة المغول وللاتصالات المتبادلة بين الآخرين والملك الفرنسي لويس التاسع وكذلك لبعثات الرهبان الكاثوليك لقادة المغول في تلك الفترة .

و استعرض الباحث «محاولات التحالف العسكري بين مغول فارس والغرب الأوروبي ضد المالك » في الفصل الثاني ، فتلت دراسة موازين القوى السياسية في الشرق الادني في باكورة النصف الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي ، و موقف الصليبيين من الغزو المغولي لبلاد الشام ، والسفارات العديدة التي أرسلها إلخانات المغول للبابوية وكل من ملكي المجر وفرنسا طلباً للتعاون المشترك ضد المالك . و ربط الباحث جميع هذه السفارات وردوده الغرب الأوروبي عليها بالملابسات الإقليمية والمؤثرات السياسية الدولية لطرف التحالف والطرف المتحالف ضده (أى المالك) . و تناول المؤلف في نهاية هذا الفصل أسباب عدم خروج «مشروع» التحالف المغولي - اللاتيني ضد المسلمين إلى حيز التنفيذ بالصورة التي أرادها له الطرفان .

و عالج الفصل الثالث «السياسة الدينية للمغول وجهود البابوية لتنصيرهم». وفيه تم دراسة موقف قادة المغول - بوذيين أو مسلمين - من أتباع الديانات المختلفة من رعاياهم والظروف المحيطة بتواجد الرهبان الكاثوليك في إلخانية فارس والهند والصين وإنجازاتهم والمشاكل التي اعترضتهم وأهدافهم من تنصير المغول . ونظرًا لاعتناق قادة المغول في ثلاثة

إيلخانيات (من أربعة للمغول في كل آسيا وشرق أوروبا) للإسلام فكان من الأهمية بمكان - في نهاية هذا الفصل - تفسير أسباب نشلبعثات الكاثوليكية في تنصير المغول .

وخصص الفصل الرابع لدراسة «أوضاع التجار الإيطاليين في الأسواق المغولية» . وبدأ الباحث بدراسة سياسة المغول في فتح الطرق التجارية وتأمينها لجميع التجار ، والمزايا التي حصل عليها تجار المدن الإيطالية في أسواق المغول والسلع التي تاجروا فيها والمعاهدات التي عقدوها مع المغول . ولم يغفل الباحث دراسة تأثير الحصار الاقتصادي اللاتيني على الموانئ المصرية والشامية علي تجارة اللاتين في أسواق المغول . وأتبع ذلك بدراسة أثر انهيار الاستقرار السياسي في دولة مغول فارس بوفاة الخان أبو سعيد عام ١٣٣٥ دون وريث شرعى علي أوضاع التجار الإيطاليين في أسواق آسيا الداخلية . وانتهي هذا الفصل بدراسة لأسباب توقف تجار المدن الإيطالية عن ارتياح أسواق المغول في وسط آسيا وشرقها منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي .

وقد عرضت «الخاتمة» ملخصاً للنقط الهمامة في البحث و الجديد في الموضوع . وأرفق المؤلف بالكتاب أربعة ملاحق: الأول قائمة بأسماء حكام القوى السياسية في الشرق المغولي والعربي الإسلامي والغرب الأوروبي في الفترة التاريخية التي يعالجها البحث . و الثاني ترجمة- غير مسبوقة - للتقرير الذي قرأه سفير أبخاخان في مجمع ليون الثاني عام ١٢٧٤ ، والثالث والرابع ترجمة خطابين لهما أهمية خاصة لموضوع البحث من حكام مغول فارس الى الملك الفرنسي فيليب الرابع في عامي ١٢٨٩، ١٣٠٥م.

تقديم

المغول في التاريخ ، موضوع مثير ومحير ومرير . ذلك أنهم ومضوا في تاريخ البشرية مثل شرارة حارقة مذهلة . وحين خرجوا من بلادهم تحت قيادة جنكيز خان على خيولهم القصيرة ليتجهوا غرباً صوب المنطقة العربية والبلقان نشروا الرعب والفنز والذهول بين الشعوب التي قهروها ودمروا بلادها . ولهذا السبب تُسجّل حولهم أساطير كثيرة تجعل منهم قوة حارقة ، وتجعل من أفعالهم أفعالاً وراء تاريخية؛ أي تخرج عن نطاق قوانين التاريخ المعروفة . وشارك في نسج خيوط هذه الأساطير المزركون العرب المسلمين ومزركوا أوروبا على السواء . وربما كان اجتياحهم للخلافة العباسية في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وقضاؤهم على هذه الخلافة بقتل الخليفة وأهل بيته وتخريب عاصمته ، وراء الصدمة الكبيرة التي أصابت المسلمين وانعكست أصداؤها في كتابات مزركهم وأدبائهم ، وحالة الإحباط واليأس والقلق التي انتابت سكان المنطقة العربية بعد أن وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى في تاريخهم .

ومن ناحية أخرى ، كان العالم العربي مكشوفاً أمام الهجمة الأوروبية الكاثوليكية تحت راية الصليب ، وبات القلق والخوف عنواناً على الوجود العربي الإسلامي ذاته . لذا كانت معركة عين جالوت التي خاضها المسلمون بقيادة السلطان المملوكي سيف الدين قطز انعطافاً إيجابياً حاداً في تاريخ المنطقة العربية خاصة ، وفي تاريخ العالم الإسلامي كله بوجه عام . وتولت دولة سلاطين المماليك مهمتها التاريخية لتصفيه الوجود الصليبي على الأرض العربية من ناحية ، والتصدى لأهؤل الفزو المغولي وكسر موجته العاتية من ناحية أخرى . وكان هذا الوضع التاريخي إغراً للغرب الأوروبي الكاثوليكي لمحاولة تكوين حلف مغولي / أوربي لتطويق العالم الإسلامي وإنها الوجود الحضاري والسياسي للأمة الإسلامية . وهذا هو موضوع هذه الدراسة الجادة التي يقدمها الدكتور عادل هلال في صفحات هذا الكتاب . وهذه الدراسة تقدم للقارئ نوذجاً في العلاقات الدولية العدوانية : بين قوة شرقية وثنية صاعدة وقوة أوربية كاثوليكية طامنة لحصر الأمة العربية الإسلامية وتجريدها من أسباب قوتها وعناصر وجودها . وعلى الرغم من أن التنافس على المغول بين المسيحية والإسلام قد حسم بشكل نهائي لصالح الإسلام حين تحول المغول إلى الإسلام ولم يلبثوا أن صاروا قوة دفع إضافية في بناء حضارته على نحو ما يشهد به تاريخهم في فارس والهند . نقول إنه على

الرغم من ذلك فإن الدراسة تكتسب مشروعيتها من حقيقة أن العلاقات الدولية ، وهي تسعى إلى تحقيق مصالح أطرافها ، تغاضى كثيراً عن الاختلافات الدينية واللغوية والبشرية والثقافية .

لقد كانت بابوية أوريا العصور الوسطى مثالاً لهذا النمط من الانتهازية السياسية ، وهو الأمر الذي يكشف عنه الباحث في دأب وصهر يحسبان له . ولست أظن أن القارئ بحاجة لأن أكبر على مسامعه تفاصيل هذه الدراسة الجيدة والجادة ، فإن صفحات الكتاب تحمل الكثير مما يمكن أن يكتب أو يقال ، بيد أنني أود أن أشير إلى أن الدراسة التي بين أيدينا اعتمدت على كل ما أمكن الوصول إليه من المصادر التاريخية الأصلية في عدد من لغات البشر ، كما استشارت الدراسات الحديثة التي نشرت حول جزئيات هذا الموضوع . ولاغر أن جاءت هذه الدراسة متكاملة قوية تحمل بصمات منهجهية واضحة . ولست أزكي هذا الكتاب لأنه يزكي نفسه بجهد صاحبه ، والله الموفق والمستعان.

دكتور قاسم عبد قاسم

شكر وتقدير

أحمد الله - أولاً وأخيراً - أن هبأ لي أسباب التوفيق في جميع مراحل هذه الدراسة التي كانت في الأصل موضوعاً لرسالتي لدرجة الدكتورة التي نوقشت بآداب الزقازيق عام ١٩٨٧ . وأسجل شكري وتقديري للأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم الذي شرفت بأن تلملمت على يديه وشرف على هذا البحث - كما أنه بأسلوبه الديمقراطي في المناقشة واعطاء التوجيهات وتشجيعه لي على ارتياح مناطق مجهولة في مجال البحث - وأشكراً أيضاً الأستاذ الدكتور (المرحوم) صبحي لبيب الأستاذ السابق بجامعة كييل بألمانيا (الغربيّة) الذي أشرف على دراستي بتلك الجامعة وساعدني وأسرتي في حل جميع مشاكلنا هناك والذي قدمني للعديد من المختصين في مجال المغول والصلبيّات بالجامعات الألمانيّة .

ويسعدني أن أشير بالتقدير للأستاذ الأمريكي البروفيسير جون الدن ولیامز John.A.Williams لتفضله على تصوير كثير من المصادر الأساسية وثلاثة رسائل دكتوراه - غير مطبوعة - في موضوع البحث وهذا ساعدني كثيراً على الاطلاع على أهم ما كتب عن هذا الموضوع . وأشكراً أيضاً البروفيسور Franz Qudlbauer - أستاذ اللغة اللاتينية بجامعة كييل والدكتورة Viviana Amari بجامعة باليرمو بإيطاليا وصديقي الألماني - الإيطالي Helmut Weiser و الأب منصور مستريخ بمعهد الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة علي تفضيلهم بمساعدتي في ترجمة أهم الوثائق اللاتينية والإيطالية .

وأسجل تقديرني للصديق النبيل والزميل الوفي الدكتور رشوان محمود جاب الله علي مساعداته القيمة التي قدمها لي إبان مراحل هذا البحث وبعدها .

وأشكر عشرات الشخصيات الذين قدموا لي مساعدات علمية وإدارية ساعدتني علي أداء مهمتي علي خير وجه بجامعات ومكتبات الزقازيق والجامعة الأمريكية بالقاهرة ومكتبة المعهد الفرنسي بالقاهرة ، ومكتبة معهد الآباء الفرنسيسكان بالقاهرة أيضاً و في جامعتي كييل وهامبورج بألمانيا (الغربيّة) .

وأخيراً يسعدني أن أسجل بكل معاني العرفان بالجميل لوالدي الكريمين علي ما بذلاه من تضحيات وعرق في المراحل الأولى لدراستي وعلى دعواتهما لي بال توفيق من قبل ومن بعد . وكذلك أسجل بالتقدير لزوجتي الفاضلة السيدة / فايزه أبو بكر صالح حميدة أنه كان لها أكبر الأثر في منحى الاستقرار العائلي المنشود والصفاء الذهني اللازمين للتفرغ الكامل للبحث والدراسة .

و بعد :

فلا أدعني قد وفيت موضوع الكتاب حقه من البحث والدراسة فهذا اكبر من إمكانياتي البشرية ، فالموضوع يحتاج الي جهد جماعي لكتابه كثير من التفاصيل التي أغفلتها ، فعنوان كل فصل من فصوله بلغاتها يصلح أن يكون كتاباً مستقلاً بذاته ، وهناك عشرات الوثائق ما زالت مخطوطة الأصلية في انتظار باحثين يتحلون بالصبر واتقان اللغات القديمة لترجمتها ودراستها ونشرها . وأكمل الله وحده . وكيفني أتمنى اعتمدت علي المصادر الأصلية الشرقية والغربية علي حد سواء وعلي الدراسات التي كتبت فيه بعدة لغات أوربية ، وحسبى ارتياح موضوع صعب وطويل ، حاولت فيه كتابة بحث يغطي أهم جوانبه دون تطويل مُلْأَ أو اختصار مُخلَّ ، فإن أكن قد نجحت في مسعاي لهذا توفيق من الله سبحانه وتعالى وبفضل الذين عاونوني إشرافاً ومراجعة ، وإن كانت الأخرى فحسبني أنها فتحت للباحثين - باللغة العربية - أبواباً مغلقة يمكن أن يطرقوها لعلهم يوضحون بجهدهم غامضاً أو يفصلون مجملأً أو يُضيفون جديداً . وفوق كل ذي علم عالم .

عادل هلال

الموافق ١٩٥٦ مай ١٩٩٦ ميلادية

دمنهور في غرة محرم عام ١٤١٧

تمهيد تاريخي الصلات بين آسيا وأوروبا قبل العصر المغولي

إن الصلات بين وسط آسيا وجنوبها وأوروبا سواء على المستوى الفردي أو الرسمي موغلة في القدم . وقد ساعدت حملة الإسكندر الأكبر على الهند ٣٢٤ - ٣٢٦ ق.م على الاحتكاك المباشر بين الإغريق وسكان وسط آسيا بما في ذلك انتقال الثقافات والمؤثرات الإغريقية لهذه المناطق . وتصور مؤرخو الإسكندر وخلفاؤهم أمثال ستراابو Strabo وبليني Pliny وآريان Arrian أن صحراء الهند هي أرض الذهب والمعادن النفيسة، وأن وديانها هي موطن التوابل . والأعشاب الطبية، وأن أنهارها مصدر الحيوانات المفترسة والعجيبة . وقد انتقلت المنتجات الهندية والفارسية للجزر الإغريقية منذ ذلك الحين عن طريق الوسطاء وبالطرق البرية في وسط آسيا والخليج العربي والبحر الأحمر^(١)

وكان بين الساسانيين ٢٢٦ م - حتى منتصف القرن السابع الميلادي) والإمبراطورية الرومانية حروب مريرة وطويلة ترجع أساساً لرغبة الطرفين في السيطرة على المناطق الغنية في القوقاز وآسيا الصغرى . وبعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالسيجية كأحد الديانات المرخصة في إمبراطوريته في الربع الأول للقرن الرابع الميلادي ، فإن منافسة الفارسي شاهنشاهي الثاني (٣٧٩-٣٠٩ م) وحلفاءه اضطهدوا النصارى في إمبراطوريتهم نكاية في الرومان والبيزنطيين ، وإن كانت معاملتهم لرعاياهم المسيحيين قد مالت للاعتدال بعد أن تحول الآخرون للمسيحية النسطورية في نهاية القرن الخامس نظراً لاضطهاد البيزنطيين للنساطرة بعد مجمع إفسوس عام ٤٣١ الذي حكم علي نسطور بالهرطقة والاشتراك .

وفي ذلك الوقت كانت هناك أيضاً معتقدات ظهرت في إقليم فارس مثل المانوية والمزدكية فضلاً عن الزرادشتية التي كان لها مؤيدين خارج فارس ، ومن ثم تغيرت نظرية الأوروبيين لفارس من اعتبارها مركزاً لاضطهاد المسيحيين إلى اعتبارها « ملحاً للهراطقة »^(٢) .

ولما كان خسرو أنوشروان مغرياً بالفلسفة اليونانية ، فإنه عهد إلى صفوته بترجمة بعض مؤلفات أرسطو وأفلاطون وغيرها إلى اللغة البهلوية Pahlavi . وشاعت شهرته كإمبراطور فيلسوف يعمل على تحقيق جمهورية أفلاطون المثالية في مملكته حتى أنه عندما أغلق الإمبراطور جستنيان مدرسة أثينا المشهورة حينئذ بدراسة القانون والفلسفة ، فإن أشهر فلاسفتها فروا إلى فارس وعوملوا معاملة كرية من إمبراطور الشرقي الذي طلب من غريميه البيزنطي - أثناء مفاوضات الصلح بينهما - حسن معاملة هؤلاء الفلسفه في موطنهم.^(٣)

و من الناحية التجارية ، فقد كان الحرير الآسيوي يصل الى روما منذ عصر الجمهورية؛ فعندما رجع يومبي من رحلته في الشرق فإنه كان مرتدياً قلنسوة من الحرير الفاخر الذي كانت الصين المصدر الأساسي لمواده الخام . وكان يعاد تطريزه في مصر و سوريا ليناسب الذوق الروماني . وكان القلفل وغيره من البهارات من جنوب آسيا يقدم على موائد القادة الرومان كما أشار بليني المؤرخ الروماني . وفي العصر الامبراطوري المسيحي ازداد تدفق التوابيل لروما بعد وصول النفوذ الروماني للبحر الأحمر و ظهرت مملكة أكسيوم المسيحية في الحبشة و قيامها بدور هام في التجارة من المحيط الهندي للبحر الأحمر حتى ظهرت إسلام .^(٤)

و بعد انتقال مركز الثقل السياسي والاقتصادي للقسطنطينية منذ النصف الأول للقرن الرابع فإن مركز الثقل والتجارة قد تركز في الطرق البرية في آسيا الصغرى و الشام بجوار العاصمة الجديدة التي وصلتها تجارة الحرير و التوابيل الواردة إليها من الشرق من خلال التجار الفرس والسريان والسوريين . و لكن تجارة الحرير واجهت ضربة قوية عندما اكتشف الأوروبيون - بواسطة راهبين فارسيين - لغز صناعة الحرير وانتاجه . ولكن استمر ولع الطبقات العليا في روما والقسطنطينية - حتى قادة البرابرة الجerman - بالبهارات و المنتجات الآسيوية كبيرة ، حتى أن آلريك القائد الجermanي طلب أن تدفع له روما عام ٤٠٨ م التوابيل كجزء من ضريبة التبعية . بل إن الأباطرة البيزنطيين كانوا يقدمون الحرير و التوابيل لقادة القبائل الجermanية في القرنين الخامس والسادس كنوع من الهدايا أو الرشوة كيلا يغيروا علي ممتلكاتهم .^(٥)

و عندما كانت الحرب سجالاً بين الفرس والبيزنطيين ، فإن الأسرى الأوروبيين قد شاهدوا عن قرب الصناعات والحرف الفارسية التي كانت منتجاتها تصل لأوروبا عن طريق التجار البيزنطيين أو السريان أو الفرس ، ووصلت شهرة المنسوجات الفارسية حتى غالطة .

و باختصار فإن نظرة أوروبا لفارس الساسانية كانت مزيجاً من الاحترام لقواتها العسكرية التي حالت دون توسيع حدود إمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية في القوقاز و وسط آسيا ، و مزيجاً من الفضول والرهبة من معتقداتها الدينية وخشية انتقالها للحدود الرومانية ، و ازدراً لفلسفاتها الشركية ، وأخيراً إعجاباً بالمنتجات الآسيوية من حرير و توابيل بصفة عامة وبالمنسوجات الفارسية بصفة خاصة .^(٦)

وفي القرن السابع الميلادي استطاعت الجيوش الإسلامية الزاحفة شرقاً و غرباً تغيير موازين القوى في العالم ، ففي غضون حوالي قرن من الزمان تم الفتح الإسلامي للمنطقة الواقعة بين

نهر سينهون شرقاً والحيط الأطلسي غرباً ، وأصبحت أقاليم وسط آسيا وغيرها ومصر وكل شمال أفريقيا والأندلس خاضعة لخليفة المسلمين في دمشق . ومن ثم لم تعد هناك حدود أو صلات مشتركة بين أوروبا ووسط آسيا عامة وفارس خاصة ، وإنما هي علاقات عدائية بين الخليفة العباسية بعد ذلك والإمبراطورية البيزنطية للصراع على منطقة آسيا الصغرى ومحاولات مد الزحف الإسلامي إلى قلب بيزنطة . وقد بدأت اتصالات سلمية في عهد الخليفة هارون الرشيد مع شارلمان لبلورة مصالح الطرفين للتحالف ضد بيزنطة شرقاً والأمويين في الأندلس غرباً . ولكن هذا التحالف لم يخرج عن تبادل الوفوه والهدايا بين العاهلين العباسي والكارولنجي لأسباب كثيرة منها أن قوات البيزنطيين والأمويين في الأندلس كانت في حالة تسمح لهما برد الاعتداء بل وأحياناً بنقل ميدان المعركة لأرض الخصوم . ويعنينا هنا أيضاً أن التجار المسلمين واليهود حلو محل التجار البيزنطيين والسريان والفرس والأقباط في نقل التجارة بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي وظهرت الأهمية التجارية لمدن وموانئ جديدة في بغداد والبصرة وسياراً .

ولانعزل وسط آسيا وجنوبيها عن أوروبا فإن مؤلفات المؤرخين الإغريق والكتاب المقدس ظلت مصدراً جغرافياً لفكرة أوروبا عن الشرق الآسيوي . فروايات سفر التكوين عن الجنة التي تقع في الناحية الشرقية من العالم ، وتقسيم الأرض بين أولاد نوح وجود قبائل يأجوج و Majjūj التسوحشة^(٧) في مناطق مغلقة كان لها تأثيره على رؤية أوروبا العصور الوسطى الباكرة للمناطق الآسيوية شرق نهر دجلة .^(٨)

وفضلاً عن ذلك ، فإن الاعتقاد بوجود رفات القديس توماً-كأحد الموارين الذين ذهبوا إلى الهند للتبرير بال المسيحية ومات ودفن بها- جعل الأنظار تتوجه إلى الهند ليس فقط باعتبارها بلاداً للمعادن النفيسة والتوابيل بل أيضاً باعتبارها أحد المزارات المقدسة التي تحدث فيها معجزات للقديس الشهيد كل عام في ذكرى مولده.^(٩)

وتروي حولية الأنجلو-ساكسون في أحداث عام ٨٨٣ أن الملك الفريد السك소ني قد أوفد بعثة من قبله للبحث عن رفات هذا القديس أو معجزاته . ولكن لم يعثر على اثر مادي حتى الآن يدل على وصول هذه البعثة إلى الهند هذا إذا كانت قد خرجت من المجلبtra من الأصل.^(١٠) ولكن يهمنا ان تصور الغرب الأوروبي حينئذ بوجوده شعب مسيحي خلف جدران العالم الإسلامي كان مصدراً خصباً لروايات وأساطير عن إمكانية التحالف مع هذا الشعب ضد العالم الإسلامي ، أو على الأقل البحث في إمكانية تكملة مهمة القديس توما في الهند

وما يجاورها . وقد ارتبطت أسطورة القديس توما بأسطورة أخري كان لها دوياً كبيراً فيما بعد . وهي أسطورة القس أو الكاهن يوحنا أو «البرистرجون» Prester John كما يسميه الأوربيون . وتشير حوليات «أودو» Odo مقدم دير القديس رئيس (١١٥١-١١١٨) بمدينة ريس ST.Remi in Rheims انه في مايو عام ١١٢٢ قام أسقف شرقي يدعى هنا John بزيارة روما ، وادعى أنه أتي من الهند من بلاد الملابار (المعبر كما يسميه ابن بطوطة) وعدد للبابوية ولمن قابله في إيطاليا معجزات القديس توما ، و مدى اتساع مملكة المسيحيين بالهند وتراثها^(١١) بصورة مبالغ فيها جعلت أحد المؤرخين المحدثين يعتقدون انه إما أحد النساطرة أو أحد «الأدعية المحتالين»^(١٢) أو لكن مؤرخا آخر يعتقد أن هذا الأسقف قدم من غرب آسيا وبالتحديد من الراها التي كان لها دور كبير في انتشار أسطورة القديس توما .^(١٣)

وبعد عقدين من الزمان - وكانت السفارة الهندية السابقة ما تزال عالقة بالاذهان - انتشرت في الغرب الأوروبي قصة مؤداها أن حاكما آسيويا كبيرا يحكم مملكة مسيحية متراصة الأطراف قد وجه هزيمة كبيرة للمسلمين في الشرق ويدعى الكاهن يوحنا Prester John^(١٤)

وتحت أحداث عام ١١٤٦ كتب أوتو أسقف فريزيا في حوليته «تاريخ مدينتين» في الفصل الرابع من الكتاب السابع^(١٥) ما هو ترجمته :

و انه (اي أسقف جبله) يروي أيضاً أنه منذ سنين كثيرة مضت ، فان ملكا و كاهنا يدعى يوحنا الذي يعيش فيما وراء فارس وأرمينيا في الشرق البعيد (الأقصى) مع كل شعبه يعتقدون المسيحية ، ولكنه سطوري و انه (اي هذا الملك) قد شن حرباً ضد الآخرين ملكي فارس و ميديا الذي يدعى ساميبرادي^(١٦) Samiardi ، و دمر اكباتانا Ekbatana التي تم الاشارة إليها من قبل . وعندما تقابل معه الملكان المذكوران بجيش مكون من الفرس والميديين والآشوريين^(١٧) Assyrians فإن المعركة استمرت ثلاثة أيام ، لأن كلا الفريقين فضل الموت على الهروب من الميدان . و أخيراً فإن يوحنا Presbyter Johannes - كما هم معتادون أن يلقبوه - أجبر الفرس على الفرار بعد مذبحة بشعة توجت بانتصاره النهائي (عليهم) .

وقال أيضاً (أي أسقف جبله) انه بعد هذا الانتصار فإن يوحنا السابق الذكر قد نقل جيشه لمساعدة كنيسة بيت المقدس ، ولكنـه عندما وصل إلى نهر دجلة فإنه لم يستطع نقل جيشه عبر ذلك النهر بأية وسيلة ، ومن ثم فإنه تراجع ناحية الشمال حيث كان قد علم بأن هذا النهر متجمد بسبب برد الشتاء . وعندما مكث هناك عدة سنوات بدون أن تتحقق أمنيته القلبية ، فقد كثيراً من جنوده الذين لم يتعودوا على هذا المناخ غير المألوف لهم ، فإنه أجبر على الرجوع من حيث أتي .

ويقال أنه (أي الكاهن يوحنا) منحدر من سلالة ماجي Magi الذي ورد ذكره في الإنجيل، وأنه يحكم نفس الشعب الذي كان يحكمه (ماجي) ويتمتع بالمجده والرفاهية التي تجعل صوبجانه من الزمرد النقي. ومتى خطي أسلاله الذين اعتنقوا الدين المسيحي من المهد فإنه كان يعني أن يذهب إلى بيت المقدس ، ولكنه منع من ذلك لنفس السبب المشار إليه سابقًا ، وهذا ما يرويه الناس وكفى

ويجمع من تناول أسطورة الكاهن يوحنا بالنقد والتحليل على أن النص السابق ترجمته هو أقدم نص في المخواлиفات اللاتينية يذكر «الكاهن يوحنا» بالاسم.^(١٧) و هيـو Heugh أستف جبله قد تقابل مع أوتو الفريزي في مدينة Viterbo الإيطالية عام ١١٤٥ م حيث كان -كما روي الأخير- في مهمة للغرب الأوروبي لطلب نجدة الشرق اللاتيني بعد عام واحد من سقوط إمارة الرها^(١٨) في يد عماد الدين زنكي ، و الذي ترتب علي سقوطها انفصال الصليبيين عن الماطق المسيحية في وسط آسيا، وعن الماطق الغربية خارج بلاد الشام، هذا من ناحية .

ومن الناحية الأخرى فإن هناك اتفاقاً عاماً على أنه وإن كانت هذه الرواية غير صحيحة تاريخياً إلا أنها إنعكاس لأحداث تاريخية وقعت بالفعل في وسط آسيا وشرقيها في تلك الفترة وإن اختلف الأشخاص الذين قاموا بها ودوافعهم من وراء ذلك.

فإذ اصعد نسبة هذه الرواية لأسقف جبلة الصليبي فيان الذي قام بدور ما يسمى بالكافر يوحنا هو في الواقع يي لو تاشي-Yeh Lu Tashih حاكم القره خطاي، وأن المهزوم Samairdi أو Saniardes أى Sanjar سجنر السلاجوقى الذي هزم هو وأخوه مسعود عام ١٤١م وتلا ذلك هزيمة الخوارزميين على يد خلفاء يي لو تاشي في العام التالي مباشرة.^(١٩)

وليس صحيحاً أن بي لوتشي كان مسيحياً نسطوريًا ، إذ أنه أتخد الديانة البوذية ديانة رسمية لدولته . وبالرغم من ذلك فقد وجدت المسيحية مجالاً للانتشار بفضل البشرين النساطرة .^{٢٠} فقد كتب مصدر صيني معاصر عنه انه «في العام التالي (١١٢١) وفي الشهر الثاني وفي يوم كي يو Kia Wu فإن تي شي بعد أن ذبح ثوراً سوداً وحصاناً أبيضاً للسماء والأرض ولأسلافه فإنه رتب قواته وانطلق بها إلى الشرق»^{٢١} وهذه المعتقدات البوذية المحيطة لهذا الحاكم تنفي اعتقاده للمسيحية .

ومسألة أن تجحد نهر دجلة كانت حاجزاً لعبور قوات ما يسمى بالكافن بوجهنا تناقضها الأدلة الجغرافية والتاريخية التي تؤكد اعتدال مناخ هذه البقعة وندرة تجدد هذا النهر، وحتى في حالة تجحده فإن ذلك لا يستغرق عدة سنوات كما ذكر أوتو الفريزي نacula عن أسف جبلة.

كما أن هذا النهر لم يكن حائلا دون عبور العديد من القوات والغزاة عليه منذ اقدم العصور وحتى تاريخ هذه الرواية .

ويعلق المؤرخ الألماني فردرش زارنكا Friederich Zarncke على عبارة «فإن الكاهن يوحنا كمام معتادون أن يلقبوه» الواردۃ في رواية أوتو الفريزي ، أن هذا الاسم كان شائع الاستخدام من قبل وارتبط كاسم مسيحي شرقي مع أسطورة مملكة القديس توما في الهند.^(٢٢) ويرى باكنجهام Beckingham أن أسقف جبلة عندما روی هذه القصة لمركز صنع القرار في الغرب الأوروبي كان يبغى تحذيرهم من الاعتماد على اعتمانة متطرفة من شرق دجلة لأنه ليس في استطاعة الملك المسيحي شرقه الوصول إلى غرب آسيا لظروف جغرافية.^(٢٣)

والرأي عندي أن باكنجهام يحمل النص أكثر مما يحتمل لأن أسقف جبلة يربط بين هزيمة حاكمين مسلمين على يد حاكم مسيحي على حد قوله، وأن الأخير تحرك بقواته تجاه القدس وبالطبع ليس من أجل الموضوع الذي سافر له أسقف جبلة للغرب الأوروبي وهو نجدة الصليبيين وتدعيم صفوفهم بقوات جديدة في مواجهة الزنكيين بعد سقوط إمارة الرها في أيديهم. وهذا يتضح من خلع لقب كاهن مسيحي على ملك بوذى، لأن الراوي كان يحلو له أن يقنع سامييه بأن كل من يحارب المسلمين فهو مسيحي ومن أجل الأرض المقدسة.

وأن نشرهذه الرواية في الوقت الذي صدم فيه الغرب بسقوط الرها كان ليث الأمل في نفوس السلطتين الدينية والعلمانية في الغرب الأوروبي وفي الشرق اللاتيني على حد سواء في إمكانية هزيمة المسلمين بسهولة وامدادات حرية يمكن توقعها من خلف ظهر المسلمين شرقى دجلة .

ومهما يكن من أمر ، فإنه بعد عشرين عاماً من هذه الرواية وفي حوالي عام ١١٦٥ وصل أوروبا خطاب من يسمى بالكافن يوحنا Prester John قبل أنه أرسله في الأصل للإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنين (١١٤٣-١١٨٠) الذي أرسله بدوره للإمبراطور فردريك الأول باريروسا (١١٥٢-١١٨٩) وحوله الأخير للبابا الكسندر الثالث (١١٥٩-١١٨١). وهذا الخطاب -الذي ذاعت شهرته في أوروبا للدرجة التي وجد منه حوالي مائة نسخة مخطوطة ومحفوظة لأن المكتبات والمتاحف الكبرى في الغرب الأوروبي ، ومنها عشرة نسخ بمكتبة المتحف البريطاني وحدها^(٢٤)- كان ومايزال مثار جدل بين المؤرخين، ولم يتفقوا حول شخصية الراسل ومكانه ودفافعه من وراء ذلك ولغة الأصلية المكتوب بها، وذلك لأن أيها من

المصادر المعاصرة حينئذ لا يشير إلى محتويات هذا الخطاب العجيب سوى إشارة واحدة من المؤرخ البريكوس الذي بدأ في كتابة حوليته عام ١٢٣٢ م. أي بعد سبعين عاماً من وصول هذا الخطاب المزعوم لأوروبا، فضلاً عن أن هذا المؤرخ مشكوك في أمانته في النقل.^(٢٥)

ولكن هناك خطاب بابوي مزور في ٢٢ أو ٢٧ سبتمبر من رياحته بالبنديقية يعتبره المؤرخون رداً على خطاب الكاهن المزعوم. وهذا الخطاب البابوي والسفارة التي حملته للشرق وردت أخبارهما في العديد من المجليات اللاتينية حينئذ.^(٢٦)

ويتفق جميع من تناولوا هذا الخطاب بالدراسة على أنه مزيج من الأسطورة والخرافات فهو موجه من «يوحنا الكاهن: ملك الملوك، بقوة الرب وقوة ربنا المسيح عيسى وسيد الأسلاف»، إلى صديقه إيانويل أمير القسطنطينية». ويدعوه لزيارة ملكته كي يهديه ما يقدر على حمله من ذهب وفضة وأحجار نفيسة. ويقول الخطاب أن كاتبه يحكم كل المخلوقات التي تعيش تحت السماء، وأن سبعين ملكاً هم من توابعه وأن ضيوف مائته مائة وثلاثين ألفاً يومياً، ولا يوجد لص أو محتاج أرشير في مملكته، وأن رؤساً، أساقفة كنائس القدس توما وسرقند وسوسنة يرافقونه غدوة وعشية، وأن عنده أنهاراً لا تجف من العسل واللبن، ولا يضارعه ملك على وجه البسيطة في ملكية المعادن النفسية، وأن أقاليمه وأرضه وجيوشه أكثر من أعداد نجوم السماء...^(٢٧) وبهمنا هنا أن كاتب هذه الرسالة يقول على لسان ما يسمى بالكافن يوحنا «أنه مسيحي غيور، وحامي المسيحيين في إمبراطوريته، وأنه يدهم بالأعذاب وأنه قرر زيارة الضربي المقدس للرب بجيشه جرار طبقاً لمجد الرب في الأعلى كي يذل أعداء الصليب ويشتت شملهم»^(٢٨)

ويعتقد المؤرخ ألكسندر فازيليف أن كاتب هذا الخطاب إغريقي الأصل وأنه كتبه باللغة اليونانية ثم أعيدت ترجمته إلى اللغة اللاتينية^(٢٩). ولكن مالكوم ليتس Malcolm Letts Malcom Letts ليس هو المؤرخ الذي أثبت أن العجائب والأساطير التي وردت بهذا الخطاب مستمدّة من الأدب اللاتيني متمثلة في كتابات بليني وسولينوس وإيسيدور والقديس أغسطين.^(٣٠)، ويسوده في ذلك سلبيّاريف في أطروحته للدكتوراه عن «الكافن يوحنا: خطابه وأسطورته» التي قدمها لجامعة مينيسوتا عام ١٩٥٩ م.^(٣١)

وهناك اتجاه عام أن هذا الخطاب العجيب ربما يكون قد كتبه أحد الثقافتين الغربيتين على لسان الكاهن يوحنا، وأن كاتبه له اطلاع واسع على الأدب اللاتيني واليوناني على حد

سواء، وله خيال حصب ومعرفة عميقة بالأوضاع السياسية السائدة آنذاك في الغرب الأوروبي ، وذلك كي يلفت أنظار قادة أوروبا إلى خطورة التردد في الخلافات السياسية والعقائدية، ول يقدم لهم أملاً جديداً في وجود مملكة مسيحية قوية خلف نهر دجلة لمساعدةهم ضد أعدائهم المسلمين، خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٨-١١٤٧) التي باركتها وشجعوها، البابوية ، وقام بها اثنان من ملوك الغرب الأوروبي. ^(٣٢) ولهذا فإن هذا الخطاب تعبير عن العقلية الشعبية الأوروبية التي كانت تفرز في أوقات الأزمات من الأساطير والخرافات ما يعتبر تعريضاً عن الإحباط الجماعي .

والمهم أنه في سبتمبر عام ١١٧٧ وبعد أن فرغ البابا ألكسندر الثالث من حروبه ومشاكله مع الإمبراطور فريدرיך باريروسا ، فإنه كتب خطاباً لما يسمى بالكافن يوحنا وأعطاه لمبعوثه وطبيبه الخاص «فيليب» لكي يقوم الأخير بتسليمه لهذا الملك . ويفهم من هذا الخطاب أن فليب هذا أرسل للشرق في هذه المهمة كمبعوث بابوي. ويبدأ البابا بالفقرة المعتادة عن سمو كنيسة روما. ثم يستطرد البابا للمرسل إليه أنه سمع كثيراً أن الملك يوحنا يرغب في اعتناق المذهب الكاثوليكي «الذي ينجو معتقده من الآثام » . وأنه يريد منه حسن استقبال المبعوث البابوي الذي أوفد لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذا الأمر ، وعلى الملك يوحنا أن يرسل مبعوثين من قبله. وفي نهاية رسالته، فإن البابا يذكر الكافن يوحنا أنه سيستمع لطلباته لو أنه أظهر قدراً من التواضع في الحديث عن ثرواته وسطوته ونفوذه. ^(٣٣) والمحللة الأخيرة في خطاب البابا تدل على عدم تصديق الأخير للمبالغات الواردة في الخطاب المزعوم إرساله من يسمى بالكافن يوحنا.

ويعتقد البعض أنه ربما نزل فيليب في الأراضي المقدسة كي يخترقها إلى الشرق حيث مملكة الكافن يوحنا بعد برج بابل كما كان يعتقد آنذاك، وأنه ربما تقابل مع الرهبان النساطرة-في آسيا الصغرى- الذين أحاطوه علماً بصعوبات وصوله إلى الهند. ويعتقد البعض الآخر أن كلمة Indians الواردة في خطاب البابا للكافن يوحنا على أنه ملك الهند King of Indians ربما كانت تعني أيضاً مملكة جورجيا المسيحية أو النوبة أو الحبشة وأن يكون المبعوث البابوي قد ذهب لأحد هذه المناطق ولقي حتفه بها . ^(٣٤) ولكن هذه مجرد افتراضات، لأنه لقي حتفه حيشما ذهب ولم يترك أثراً مادياً عن وجهته، وكل ما نعرفه عن هذهبعثة البابوية هو هذا الخطاب الذي ورد في بعض المخطوطات اللاتينية المعاصرة حينئذ .

ولم تنتهِ أسطورة الكاهن يوحنا عند هذا الحد، بل استمرت حية في ذهان الغرب الأوروبي باعتبارها نوعاً من الإبداع الشعبي الذي عبر عن رغبات وأطامع المجتمع الكاثوليكي في ذلك العصر.

وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر استطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد الجبهة الإسلامية والاستيلاء على كثير من القلاع والموانئ الاستراتيجية للصلبيين، وأهم من ذلك كله استرداد مدينة بيت المقدس على أثر هزيمة كاسحة للصلبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧م. ومن ثم نجحت البابوية في حشد أكبر قوة عسكرية أوروبية ضد المسلمين بقيادة إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملكي فرنسا والإنجليز فيما سمي بالحملة الصليبية الثالثة (١١٩٠-١١٩٢م). ولكن الأول غرق في أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتت قواته على اثر ذلك، والثاني انسحب بقواته راجعاً لبلاده بعد خلافاته مع ريتشارد الأول، وكل ما كان في استطاعة الملك الإنجليزي هو وقف المد الإسلامي لتقدير بقية قواعد الصليبيين في الساحل الشامي فضلاً عن الاستيلاء على بعض المدن والمحصون. وهكذا فشلت هذه الحملة في إعادة الاستيلاء على المدينة المقدسة لحوزة الصليبيين.

ودعت البابوية إلى حملة أخرى يطلق عليها الصليبية الرابعة. ولكن البناية وقاده هذه الحملة وجدوا أن مكاسبهم الاقتصادية في القسطنطينية أكثر كثيراً منها في الأرضي المقدسة وأقل خطراً. ولهذا فإن قادة هذه الحملة عام ١٢٠٤ قد أضافوا رصيداً جديداً للحماقة الأوروبية في العصور الوسطى، لأن إستيلاهم على القسطنطينية لم يحقق الهدف الأساسي والاستراتيجي وهو التغلغل من القسطنطينية إلى الأرضي المقدسة.

وانشغلت البابوية في مواجهة مسلحة تحت شعار الصليب مع النشرين (الآلبيجنسيين) في جنوب فرنسا ، وفي جمع شمل الأوروبيين الذين صدمتهم مسألة انحراف الحملة الرابعة عن أهدافها . وفي مجمع اللاتيران عام ١٢١٥ استطاع البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) الحصول على موافقة كثير من قادة الغرب الأوروبي لتمويل وإرسال حملة صليبية بعد ذلك بعامين، ولكن وفاته عام ١٢١٦أجلت ذلك إلى ١٢١٨م فيما عرف بالحملة الصليبية الخامسة التي أوكل أمر قيادتها إلى جان دي بريين : الوصي على مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا وللمندوب البابوي بلاجيوس.

وقبيل تحرك هذه الحملة إلى الشرق فإن جاك دي فيترى - أسف عكا وأحد الذين يقع على عاتقهم الدعوة والتثمير بهذه الحملة والمشاركة في قيادتها وفشلها - كتب خطاباً للغرب

الأوروبي عام ١٢١٧ م أشار فيه إلى أن «الكافن يوحنا والعديد من الملوك المسيحيين الذين يعيشون في الشرق قد سمعوا باقتراب مجبي الحملة من الغرب وأنهم يستعدون لمساعدة القادمين لنصرة المسيح ضد المسلمين». ^(٣٥) وسواء سمع جاك دي فيتري بهذه الخرافات من الرهبان النساطرة أو من غيرهم أو قام هو وعاونه بتزييف الحقائق، فالمقصود هنا هو اثارة الحماسة بين الأوروبيين الرافضين الحضور للأراضي المقدسة فضلاً عن الصليبيين القابعين في بلاد الشام لمساعدة إخوانهم الأوروبيين الذين كانوا قد اتخذوا مصر هدفاً لحملتهم.

وليس هذا فقط بل انتشرت الشائعات بين صفوف الحملة الخامسة- قبل سقوط مدينة دمياط في أيديهم وبعدها- عن انتصارات للملوك المسيحيين في الشرق والجنوب على المسلمين ، وأن بعضهم قادم لاسترداد بيت المقدس من الآخرين . وأشارت واحدة من هذه الشائعات إلى أن ملك الجبنة المسيحي يستعد للانضمام لجانب الصليبيين ضد «أعداء الدين» وانه بالفعل قد استولى على مدينة مكة ^(٣٦) (المكرمة) ! ولم يتوقف الأمر على اطلاق الشائعات المقصودة بل تعداه لإرسال خطابات للغرب الأوروبي بعلومات لا أساس لها من الصحة.

فها هو خطاب كتبه بلا جيوس للبابا هنريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٩) وتسليم الأخير في مارس عام ١٢٢١ م ، وفحواه أن الملك داود King David قد حق انتصارات كبيرة على المسلمين ، وأن الرب أرسله ليقضى على «الكفرة أعداء الدين» ويسترد المدينة المقدسة . ولهذا فإن البابا أرسل خطاباً في ١٣ مارس لرئيس أساقفة تير Trier ولغيره من رجال الدين ليزف لهم الأنباء السارة التي أرسلها له مندوبيه في الشرق . وتقول سطور هذه الرسالة:

إن الرب قد بدأ يحكم في قضيته بصورة جلية لأنه مدرك للألام التي يعاني منها شعبه كل يوم وتوسلات الذين يدعونه . وكما تلاحظ فإن أخانا الباجل بلا جيوس: أسقف الباين Albano ومندوب الكرسي البابوي (في الحملة الصليبية الخامسة) قد أبلغنا أن الملك داود (ديفيد) الذي يسمى عادة بالكافن يوحنا Prester John ملك كاثوليكي يخشى الرب- قد اقتحم فارس بجيش جرار وهزم سلطانها في معركة ضارية وأنه توغل في مملكته مدة مسيرة عشرين يوماً واحتلها واستولى هناك على كثير من المدن والقلاع . وأن جيشه على مسافة مسيرة عشرة أيام فقط من بغداد وهي المدينة الكبيرة والمشهورة والمكان الخاص بأسطفهم رئيس كهنتهم الذي يلقبه «الملمون Saracens بال الخليفة . والمحروف من هذه الأحداث جعل سلطان حلب- وهو شقيق سلطان دمشق والقاهرة- يسحب جيشه - والتي كان يعدها لهاجسة الجيش المسيحي (الصيني) في دمياط- ووجهها ضد الملك (يوحنا) فضلاً عن ذلك، فإن مندوينا قد أرسل رسا إلى جورجيا- وهم رجال كاثوليكيين ولهم قوة حربية ضخمة- بسؤالهم

ويتسنى منهم أن يشعلوا الحرب مع المسلمين من ناحيتهم. ومن أجل ذلك فنحن نأمل أنه لو حصل جيشنا في دمبات على المساعدة التي يتوقعها هذا الصيف، فإنه سيكون بمساعدة رب من السهل احتلال أرض مصر بينما قوات المسلمين التي تم تجميعها من كل الجهات للدفاع عنها (أي عن مصر) ستكون مشتتة للدفاع عن حدود بلادهم (ضد ملك جورجيا من الشمال والكافن بروخا من الشرق) ^(٣٧)

ويكرر البابا في خطاب آخر - وتفصيل - كيف أن الملك داود يقود جيشا من ٤٠٠ ألف محارب من بينهم ١٣٢ ألف فارس مسيحي، وكيف أن قواته قد قوشت إقليم فارس، وأن سقوط بغداد متوقع في القريب العاجل. ^(٣٨)

وهذه الخطابات البابوية والشائعات التي أطلقها بلاجيوس وجاك دي فيترى وغيرهما تعبير عما كان يدور في مخيلة الصليبيين - سواء هؤلاء الذين كانوا في الأراضي المقدسة آنذاك أو في أوروبا نفسها. ويري البعض أن هذه الأنباء عن .. مجزرة تأتي من الشرق لوضع المسلمين بين فكي الكماشة كانت أحد الأسباب التي جعلت المندوب البابوي يرفض عروض الأبيوبين المغربية نظير جلا، الصليبيين عن مصر ويتصرف بحماقة أوردت بالحملة للفشل الذريع. ^(٣٩)

وإذا فرض أن بلاجيوس ومعاونيه صدقوا هذه الإشاعات التي أطلقها الرهبان النساطرة كي يضفطوا على الأمراء المسلمين في غرب آسيا ومصر لتحسين معاملتهم لأهل الذمة في بلادهم: ^(٤٠) فإن تصديق البابوية لها أمر يدل على المستوى الذي كان عليه الجهاز الإعلامي للبابوية خاصة ما يتعلق بأوضاع المسيحيين في الشرق. فلم تكن جورجيا الصغرى مملكة كاثوليكية، ولم يكن عندها جيش جرار ولم يكن بينها حدود مشتركة مع المسلمين في بلاد الشام، إذ أنها كانت أرثوذكسية تدين بالولاية لسلاجقة آسيا الصغرى ويفصلها عن سوريا السلاجقة ومملكة أرمينيا الصغرى.

ولا يتفق الباحث مع المؤرخين الغربيين الذين ألقوا مسئولية تغذية الصليبيين بالشرق بهذه النباءات والأساطير علي الرهبان النساطرة وحدهم: فالالأعم الأغلب أن هؤلا الأخيرين كانوا منها براء لأنه لم يكن لهم مصلحة فيها أو في رواجها . ويكتفي أن مرر طريق النساطرة في كل آسيا كان في مدينة بغداد التي هي مقر الخلافة العباسية التي كانت تقود العالم الإسلامي ولو من الناحية الإسمية.

ثم أن المسلمين - خاصة في أيام العادل والكامل الأيوبيين^١ - كانوا يعاملون أهل الذمة بصفة عامة باحترام وتقدير كاملين بصرف النظر عن أحداث فردية أو شخصية أو مؤقتة حدثت ضدهم هنا أو هناك. ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا يعاملونهم علي أنهم هراطقة !

ومن ثم فالرأي عندي أن الصليبيين أنفسهم كانوا وراء هذه التداعيات التلقائية التي تعبّر عن الروح العداتية للغرب الكاثوليكي ضد العرب والمسلمين التي تجلّت في تدمير الأساطير والحكايات عن ملك مسيحي يأتي من الشرق ليساعدهم في استرداد المدينة المقدسة أو يتحالف معهم ضد المسلمين. وكما سبق ذكره فإن أسطورة الملك المسيحي الشرقي بدأت بعد سقوط الرها ، أي في وقت حاجة الصليبيين للنجدة، وتكررت بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة، وأزدادت رواجاً أثناء، فشل الحملة الخامسة في تحقيق مكاسب سريعة متوقعة على المصريين. إذن هي محاولة ديناميكية مستمرة لتوحيد الصفوف في الغرب لاستعادة الأرضي المقدسة وللتغلغل في الشرق.

ويتضح أيضاً من هذه الخطابات أن الغرب الأوروبي كان يجهل تماماً ما يحدث في الشرق ، فما تصوروه علي أنه الكاهن يوحنا أو الملك داود ليس إلا جنكيز خان، ومسألة هزيمته لسلطان فارس في معركة ضارية وهذا صحيح إذأن قواته استطاعت فى الفترة ما بين ١٢١٨ و ١٢٢٢ أن تحطم أهم المدن الإسلامية فى وسط آسيا ، وتشتت شمل الخوارزميين . ولكن إمبراطورية جنكيز خان لم تكن مسيحية أو إسلامية ولم يكن يعمل لحساب أحد، وكان يعمل لتكوين إمبراطورية عالمية يحكمها هو وأولاده فى ظل الاعتقاد بأنه مفوض من السماء لحكم البشر. كما أن قوات جنكيز خان وخلفائه كانت ويا لا على شرق أوروبا وشمالها مثلما كانت نسمة على العالم الإسلامي .

وعلى الرغم من هذا كله ، لم تتعوق تفاصيل الأسطورة عند هذا الحد، فقد وصلت للغرب الأوروبي بعد ذلك معلومات (عن طريق الأرمن) عن جنكيز خان أنه إمبراطور مسيحي ، ثم عدلت هذه الأخبار بالقول بزواجه من ابنة أو حفيدة الكاهن يوحنا . وحاول الغرب الأوروبي أن يسقط أحلامه في الكاهن يوحنا علي جنكيز خان وخلفائه للتتحالف معهم ضد المسلمين أو لشغل الآخرين عن مواجهة الصليبيين ، أو تنصير المغول للاستفادة بهم في حسم الصراع مع المسلمين . علي أية حال تطورت أسطورة الكاهن يوحنا مع تطور الأحداث والظروف والملابسات تبعاً لتطور صلات وعلاقات الأوروبيين بالمغول وبقاراء آسيا .^(١)

الهوامش

- 1- Lach,Donald :Asia in the Making of Europe .Vol.I :The Century of Discovery . Chicago , 1965,p.9.
- 2- Lockhart, L., "Persia as Seen by the West,"in A.J. Arberry (ed.):The Legacy of Persia. Oxford, 1953,pp. 334 ,35 .
- 3- Ibid, pp. 336 ,37.
- 4- Lach, op.cit .,pp . 16-20.
- 5- Rachewiltz , Igor de :Papal Envoys to the Great Khans .London, 1970, P. 21.
- 6- Lockhart, op .cit .,p. 338 .

٧- كان الاعتقاد- في العصور الوسطى المبكرة- بأن آسيا هي موقع الجنة الأرضية وأن أنهار الجانج ورجبون والنيل والفرات هي مصادر جنة عدن . وأن أناساً مقيدين بسلسل حديدية يوجدون خارج حدود هذه الجنة . وفي الشرق الآسيوي يوجد أبناء يالث وهم برابرة ذو أشكال مخيفة سوف يخرجون في نهاية العالم ليتقصوا على البشر ، وأن هؤلاء يعيشون في أرض يأجوج وماجوج ، وأن الإسكندر الأكبر قد قام ببناء سور حديدي ونحاسي في معبر دارديل في القوقاز وشمال تفليس ليمنع هؤلاء البرابرة من تدمير العالم المسيحي . ويوجد في القرآن الكريم .(سورة الكهف آيات ٩٩-٨٢) رواية عن هؤلاء القوم . وستري أن الأوروبيين عندما سمعوا بفظائع المغول وروحيتهم في تدمير المدن وذبح من فيها دون تفرقة فإنهم اعتقادوا أنهم من قبائل يأجوج وماجوج وجماعاً ليدمروا العالم

عن مصادر وجذور أسطورة يأجوج وماجوج والرؤية اليهودية والمسيحية والإسلامية لها انظر

Andersen, R. :Alexande's Gate ,Gog and Magog ,and the Inclosed Nations .

Cambridge , 1932 ;

وعندما زار ابن بطوطة مدينة الزيتون الصنبية حوالي عام ١٣٤٠ م كتب يقول «وبينها وبين سد يأجوج وماجوج ستون يوماً فيما ذكر لي ويسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم ، لم أر بذلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه ..» رحلة ابن بطوطة : طبعة بيروت.د.ت، ص. ٦٣٥ .

- 8- Rachewiltz , op . cit ., p.26

- ٩- ماركوبولو: رحلات ماركوبولو ترجمتها للعربية عن الإنجليزية عبد العزيز جاويد. القاهرة ، Lach ,op . cit ., p . 25. ، ١٩٨٧ ص . ٣٠٠.
- ١٠- Lach, op . cit., pp. 25, 26:Slessarev , Vsevolod:Prester John :the Letter andthe Legend . Minnesota , 1959 ;pp. 7-9 .
- ١١- Slessarev, op.cit ., pp.10 , 11: Letts, Malocollm , Prester John:Sources and . Illustrations", in Notes and Queries , vol .188, 1945, pp179. 128.
- ١٢- Rachewiltz , op .cit.p .30.
- ١٣- Slessarev , op. cit., pp.23, 24 .
- ١٤- Lach, op. cit., p. 26;Rachewiltz, op . cit ., pp . 31-34.
- ١٥- Otto , Bishop of Freising :The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1146 A.D Trans. and Notes by Charles Christopher Mierow. Columbia University Press,1928, pp.443, 444 .
- ١٦- وردت هذه الكلمة في مخطوطة أخرى لأتو الفريزي على أنها Saniardes ويعني أوتو بها الحاكم السلاجوقى سنجر Sanjar
Cf . Rachewiltz , op. cit ., p. 33.
- ١٧- Ullendorff, Edward ; C . F. Beckingham :The Hebrew Letters of Prester John. Oxford University Press , 1982,p. 1.
- ١٨- يقول أوتو الفريزي إنه قد سمع أسقف جبلة وهو يشكوا بالدموع من المنظر الذي يحقق بالكتيبة الكاثوليكية وبالصلبيين في الشرق بعد سقوط الرها
Cf. The Two Cities, p. 343.
- ١٩- لظروف كثيرة انهارت دولة الخطا في شمال بلاد الصين ١١٢٥ م . وقبيل سقوطها تحت أسرة كين الصينية فر أحد أمرائها وهو يبي لوتا شبي نحو الغرب يصحبه بعض رجاله المخلصين حيث استقروا في بلاد التركستان ، وسعوا نفوذهم حتى وصلت حدود مملكتهم من صحراء جورجي إلى نهر سيحون ومن هضبة التبت إلى سيبيريا وتسمي بلقب غورخان أي ملك العالم ، ونقل عاصمته من بلاد بلاسماخون إلى كاشغر على حدود ممتلكات السلاجنة . وفي هذه الفترة كانت الدولة السلاجوقية في طور نهار يهدى وفاة سلوكيهم العظام وسيطرة السلطان سنجر بن ملکشاه على القسم الشرقي منها .
كان قطب الدين محمد خوارزمشاه الذي يسعى للاستقلال عن السلاجقة قد دخل في محركه مع

حاكم الخطا ولكن هزم واضطر أن يدفع له جزية كبيرة، ولكنه حرض عدو القرة خطايا على السلاجقة للتخليص منها أو من أحدعها. وفي عام ١٤١هـ / ٥٣٦م اندفع بي لوتشي في جيش ضخم إلى ماوراء النهر وأوقع هزيمة مذكورة بالسلاجقة وأسر زوجة سنجق قرب سمرقند ، ويروي ابن الأثير أن عدد قتلى السلاجقة بلغ مائة ألف فارس ، وفي العام التالي استدار المتصرون على الخوارزميين وهزموهم واستولوا على بعض أملاكهم وأجبروهم على دفع جزية كبيرة لهم . أنظر للمزيد من التفاصيل :

حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول (القاهرة ١٩٤٩) ، ص ٥٤٥ .
Slessarev,op. cit. , p.28.

٢- حافظ حمدى ، المرجع السابق ٥١ .

- 21- Si Liao, cf. E.Bretschneider (ed.&trans.) Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources (London,1910) vol. I, p.214.
- 22- Slessarev,op. cit. ,pp 29,30
- 23- Beckingham,C. F., "The Achievement of Prester John",An Inaugural Lecture at the SOAS. London,1965, pp.8-10
- 24- Ross, E. Denison,"Prester John and The Empire of Ethiopia", in Newton,A.P. (ed.) Travel and Travellers of the Middle Ages" London 1930, p.179.
- 25- Beckingham , op . cit ., pp. 10 , 11 .
- 26- Loc .cit ., Letts,op .cit ., Notes and Queries , vol .188, 1945, p.179.
- 27- Slessarev, op. cit ., pp. 67-80; Ullendorff:The Hebrew Letters of Prester John , pp.38-72.
- 28- Ross,"Prester John "op. cit,p. 175, Slessarev,op. cit., p . 35.
- 29- Slessarev ,op. cit ., p.41.
- 30- Malcolm Letts, op. cit ., vol. 188, pp .146-248,266.
- 31- Slessarev : Prester John, the Letter and the Legend ,p.41.
- 32- Letts, op.cit .,pp.266,7; Rachewiltz : Papal Envoys ,pp.35,36.
- 33- Beckingham, op. cil,pp.11 , 12; Rachewiltz, op .cit., pp.19,20.
- 34- Beckingham,op.cit ., pp . 12, 13; Ross,op. cit .,p.180;Rachewiltz, op. cit .,pp.12,13.

- 35- Rachewiltz:Papal Envoys to the Great Khans,pp. 37,38.
- 36- Ibid , pp.38,39.
- 37- Southern, R.W. (trans.):Western Views of Islam in the Middle Ages.Harvard University Press ,1962,pp. 45, 46.
- 38- Ibid,p.46.
- 39- Rachewiltz,op.cit . p.39.
- 40- Ibid,p.40.
- ٤١- لل Mizid من التفاصيل انظر -نضلا عما سبق ذكره من مصادر و مراجع عن أسطورة الكاهن بوجنا - :
 جوانفبل ، جان دي : حياة التقديس لويس ورحلاته . ترجمة حسن حبشي القاهرة ، د.ت، ماركوبولو :
 رحلاته ، ترجمتها إلى العربية عبد العزيز جاويد . القاهرة ١٩٧٧ ص ١٩٩-١٢٠
 Whitoker" An Historical Explanation of the Asiatic Myth of Prester John ١١٩-١٢١
 "Asiatic Review , 42, 1952, pp. 74-79:Nowell , Charles E.,"The Historical prester John
 "Speculum ,vol . 28, 1953 , pp. 4-35; Connell,. C. W." The Western Views of the Or-
 igin of the Tartars" The Journal of Medieval and Renaissance Studies, vol. 3, 1973, pp.
 115-137; Beckingham, C. F., " The Quest for Prester John""Bulletin of the John Ry-
 lands University Library 62 , Manchester ,1980 ,pp. 291 ,310 Rachewilts Igor de:
 Prester John and Europe's Discovery of East Asia Canberra , Australasian National Uni-
 versity Press,1972.

الفصل الأول
الاتصالات بين المغول وأوروبا من عام
١٢٣٧ حتى عام ١٢٥٥ م

العناصر

- ظهور المغول على مسرح الأحداث .
- غزو المغول لجنوب روسيا في عامي ١٢٢٢-١٢٢٣ م.
- غزو روسيا ١٢٣٦ - ١٢٤٠ م.
- موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا.
- غزو بولندا ١٢٤١-١٢٤٠ م.
- غزو المجر ١٢٤٢-١٢٤١ م.
- موقف غرب أوروبا من الغزو المغولي لبولندا .
- السفارات المتبادلة بين البابوية والمغول في عهد إنوسنت الرابع :

 - بعثة لودانس البرتغالي .
 - بعثة يوحنا الكاريبيني
 - بعثة آندريه لونجيجيمو الأولى .
 - بعثة آسيلين اللومباردي .

- الاتصالات بين المغول ولouis التاسع.
- بعثة وليم روبروك للمغول ١٢٥٣-١٢٥٥
- الخاتمة .

ظهور المغول على مسرح الأحداث :

أسهبت المصادر الشرقية والغربية على حد سواء في الحديث عن غزوات المغول وتوسعاتهم شرقاً وغربياً في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي . واهتم فريق من المؤرخين المحدثين بتناول هذه الغزوات بالنقد والتحليل .^(١) ومن ثم يعني الباحث هنا ليس تكرار ما سبق دراسته ، ولكن وضع الخطوط العريضة للتوسيع المغولي في أوروبا كتمهيد ضروري لتعريفة جوانب القوة والضعف في رد الفعل الأوروبي تجاه المغول ولدراسة أبعاد الاتصالات الإسلامية بين الطرفين في النصف الأول للقرن الثالث عشر الميلادي .

نشأ المغول في الهمبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراً جوبياً ، وهي صحراء قفراً مناخها قاري . واستطاع (تيموجين) - أحد قادة هذه القبائل الرعوية ، بما وهبته حياة الصحراء من قسوة وفراسة ، أن يوحد قبائل أقاليم آسيا الشرقية شمالي بلاد الصين تحت لوائه مستعيناً بقبيلة ضد أخرى ، ومتحالفاً مع القوى ضد الضعيف حتى تربع على عرشها واختير ملكاً عليها سنة ١٢٠٦ م وسمى نفسه جنكيز خان أي "إمبراطور كل البشر" .

وكانت عوامل الضعف والانحلال تنخر في الأقاليم الخصبة الغنية المجاورة لأملاك جنكيز خان ، ومن ثم عمل على الاستيلاء عليها . واستطاع المغول في الفترة من عام ١٢١١ حتى ١٢١٥ م أن يخضع مملكة كين الصينية والاستيلاء على بكين ، وقبل ذلك وأثناءه قضى على دولة الخطا المجاورة . وقد استفاد المغول من ثروات وكنوز المناطق المحتلة في تدعيم قوتهم الاقتصادية فضلاً عن استعانتهم بخبرة الأسرى الصينيين في فنون الحصار والقتال والإمداد والتموين .

وكان الهدف من وراء ذلك كله السيطرة على الأراضي الواسعة للدولة الخوارزمية ، وسواء قتل حاكم مدينة أو ترار الخوارزمي سفراً المغول أو جواسيسهم أو أبقى عليهم ، فإن المغول كان لديهم من المبررات لغزو الدولة الخوارزمية وغيرها من الدول والممالك في آسيا وأوروبا ، وأهمها ما كانوا يعتقدونه من أن زعيمهم مفوض من السماء لحكم العالم شرقه وغربه . ومن ثم ، فإن أي إقليم لا يعلن خضوعه الكامل للمغول ويسلمهم جزءاً من رجاله وخيموله ومحصولاته يعتبر عدوا يستحق القتل والتدمير . ولا غرو أنه في غضون أربعة أعوام (١٢١٩-١٢٢٣ م) اكتسحت قوات جنكيز خان الدولة الخوارزمية بعد أن قاد الهجوم بنفسه على أهم المعاقل والمحصون ، وزع أولاده وقواده لمحاصرة بقية المدن فيما وراء النهر وخوارزم وأذربيجان

وخراسان وغزنه وإخضاعها . ولم يتوقف المغول عن الوصول إلى بقية أطراف الدولة الخوارزمية في فارس والعراق إلا بسبب عودة جنكيز خان لإخضاع بقية القبائل الصينية ووفاته سنة ١٢٢٧ م .

غزو جنوب روسيا عامي ١٢٢٢ و ١٢٢٣ م :

وصلت القوات المغولية إلى أذربيجان وشواطئ بحر قزوين الجنوبيه أثناء مطاردة إثنين من الفرق المغولية بقيادة سويداي Subudey وجيبي أو شيببي Jebe لفلول قوات السلطان جلال الدين خوارزم شاه (١٢١٩-١٢٣١) شمال مملكته سنة ١٢٢١ م، ومن ثم استأذن قائداً الفريقتين جنكيز خان في التقدم شمالاً إلى القوقاز لاستكشاف المناطق الغربية والشمالية ^(١) .

ويبدو أن الروس لم يعرفوا شيئاً عن المغول قبل ذلك ، إذ أن حولية "نوفوجارد" الروسية تشير إليهم للمرة الأولى في أحداث عام ١٢٢٣ بقولها : "وفي هذا العام قدمت قبائل شير معرفة لنا بسبب ذنبينا ، ولا أحد يعرف من هم ولا من أين أتوا ، ولا أحد يعرف لغتهم أو جنسهم أو دينهم ، فأطلق عليهم تارتار Tartar مرة وتورمان Tourman (تركمان ؟) مرة أخرى ، كما وصفوا مرة ثالثة بأنهم شعب البيشناق Pecheng ، والرب وحده هو الذي يعلم من هم ولكننا سمعنا أنهم استولوا على كشمير من البلاد وذبحوا عدداً هائلاً وشردوا آخرين وأن الرب الرحيم أراد تحطيم شعب الكومان الشير من أبناء اسماعيل الذين أرافقوا دماء الكثيرين من المسيحيين ... " ^(٢) .

وهكذا ، نرى أن الانطباع الأول لدى الروس أن الرب أرسل هؤلاء الغزاة لتخليصهم من قبائل الكومان الذين يعيشون في شمال القوقاز والذين كانوا يغيرون على الأقاليم الروسية باعتبارهم قبائل رعوية غير مستقرة ^(٤) واعتنتقت قبائل كثيرة منها الإسلام بسبب الاحتكاك مع المناطق الإسلامية المجاورة وفضل التجار المسلمين .

وقضى الحولية في سرد تفاصيل اكتساح القوات المغولية لمناطق روسيا التي يسكنها العديد من القبائل التركمانية . كما توضح أن ملك الكومان قد أرسل سفراً للاستنجاد ببقية الأمراء الروس حتى لا يلتقهم المغول إماماتهم الواحدة تلو الأخرى ، وأن الأمراء الروس قتلوا السفراً المغول الذين طلبوا منهم التسليم . وانتهى الأمر بهزيمة ساحقة للقوات الروسية والتركمانية المتحالفه على نهر كالكا Kalka في ٣١ مايو ١٢٢٣ م، ونتج عن ذلك دمار وتحطيم المناطق المحبيطة بموقع المعركة وقتل معظم القوات المتحالفه وأسر الباقى ، ثم عاد الغزاة عن طريق نهر الدنيبر من حيث أتوا ^(٥) .

ومن المدهش أن رواية ابن الأثير عما فعله التتار بقفقاس الروس تتفق في مضمونها مع حولية نوفوجارد مع اختلاف في بعض التفاصيل هنا. أو هناك. وربما يرجع هذا إلى أنها استمدتا معلوماتهما من تجار الرقيق الذين وجدوا في هرب الآلاف من أبناء القبائل التركمانية فرصة لجمعهم وحملهم إلى أسواق الشام حيث اهتم الأيوبيون بشرائهم وأضمهم إلى جيوشهم . ويرجع ابن الأثير سبب الغزو المغولي إلى "أن بلاد القفقاس كثيرة المراعي في الشتاء والصيف" ^(٦).

والملهم أن هذه الغارة الاستكشافية لم تكن غزواً منظماً ، ومن ثم انسحب الغزاة ولم يعودوا إلا بعد أربعة عشر عاماً لأن المغول توقيعوا عن الغزو بوفاة جنكيزخان سنة ١٢٢٧ م وما تبع ذلك من فترة استرخاء في منغوليا .

وكان جنكيزخان ، قبيل وفاته، قد وزع أجزاء مملكته على أولاده الذكور من زوجته الأولى؛ وهم تولوي وجيشى وأوجوداي وجفطاي . وكانت المناطق الجديدة شمال بحر آرال من نصيب ابنه جوشى الذى توفي قبل والده ، ومن ثم منحت لباتو أكبر أبنائه . وفي اجتماع للقوريلتاي ، أى المجلس الأعلى الذى يضم أبناء جنكيزخان وأحفاده وقواده ، عام ١٢٣٥ م في قراقوزق قمت الموافقة على تسيير الجيوش في أربعة اتجاهات رئيسية :

أولاً : ضد كوريا التي ترددت على المغول بعد خضوعها سنة ١٢٣١ م.

ثانياً : ضد مملكة سونج في جنوب الصين .

ثالثاً : ضد العراق وسوريا ومنطقة بحر قزوين ، وسلامقة آسيا الصغرى ومملكة أرمينيا الصغرى .

رابعاً : ضد روسيا والغرب الأوروبي . ^(٧)

غزو روسيا ١٢٣٦-١٢٤٠:

أصدر الخاقان أوجوداي (١٢٤١-١٢٢٧ م) أمراً يلزم كل قواط المغول بإرسال فرقه حربية لمساعدة باتو في حملاته في روسيا وأوروبا . ومن ثم انضم تحت لوائه مجموعة كبيرة من أمراء بيت جنكيزخان أشهرهم جويك Guyuk وقادان Kadan أبني أوجوداي ، ومونجو Mongka ، ابن تولوي ، وبيدار Baidar وبيرى Buri ابن جفطاي وحفيده . وتم تعيين سويداي فيما يسمى اليوم أركان الحرب لأنه كان على علم وخبرة بيدان القتال من خلال تجربته في حملته السابقة

على جنوب روسيا عامي ١٢٢٢-١٢٢٣م. وقيل إن جيش باتو كان يتألف من حوالي خمسين ألفاً من المغول ، فضلاً عن سبعين ألفاً من عناصر التركمان الذين جندهم باتو لجيشه من المناطق التي احتلها في جنوب روسيا عند بدء حملته^(٨).

وكان على المغول أن يبدأوا بإخضاع مملكة البلغار ، التي كانت قابعة في منطقة الخوض الأعلى لنهر الفولجا حتى جبال الأورال ، وذلك لتأمين خطوط الاتصال بين القوات المزمع تقدمها غرباً وبين مركز الإمداد في أقصى الشرق . وتشير حولية "توفوجارد" في عام ١٢٣٧ إلى أن «التيار الأشرار قد أتوا واستولوا على كل بلاد البلغار وأخذوا مدینتهم الكبيرة وذبحوا كل السكان : رجالاً ونساء وأطفالاً^(٩)» وهكذا استطاعت القوات المغولية توجيه ضربة مفاجئة لهذه المملكة تحولت على إثرها للتبغية المطلقة للغزا . وتم بعد ذلك إخضاع قبائل الباشكير Bashkirs التي كانت تعيش في منحدرات نهر الأورال . وفي نفس الوقت أرسلت فرقة مغولية بقيادة مانجو إلى الخوض الأدنى لنهر الفولجا شمالي بحر قزوين حيث طارت قبائل القفجاق (الكومان) وحاكمهم في نهر الفولجا والغابات المحيطة ، كما أعدم قائد الكومان على الطريقة المغولية^(١٠) ثم واصلت إحدى الفرق المغولية إخضاع القفجاق على حين فر الآلاف منهم بقيادة ملكهم كوتان Kutan إلى سهول المجر حيث منحوا حق الإقامة هناك . وكان تعقب المغول لهؤلاء الفارين وبالاً على المجريين بعد ذلك بقليل.^(١١)

وفي نهاية عام ١٢٣٧م اتجه المغول غرباً تجاه مدينة ريازان Riazan وأرسلوا لأميرها يوري إجورفيتش Iurii Igorvich إنذاراً بتسليم عشر السكان وكل العتاد والخيول للمغول ؛ فضلاً عن تدمير حصن المدينة . ولكن الأمير الروسي منع سفراً المغول من دخول مدینته وأبلغهم "أن كل شيء سيُؤول إليهم بعد فنائهم جميعاً" وهذا يعني تفضيله الموت على الاستسلام للشروط المغولية . وأرسل يوري مبعوثيه إلى أمير مدينة فلاديمير القوي لنجدته ، ولكن الأخير رفض الذهاب إليه مفضلاً ملاقاة المغول بمفرده . والمهم أنه في ديسمبر ١٢٣٧م دمرت القوات الغازية الإماراة ومدنها Kolomna, Riazan, Pransk,Murom مفتوحة تبكي الموتى " على حد تعبير حولية روسية معاصرة^(١٢)

والأمر الذي يسترعي الانتباه أن المغول قد بدأوا عملياتهم في شمال روسيا في فصل الشتاء القارس الذي كان حائلاً فيما بعد ضد قوات نابليون وهتلر من تحقيق الانتصار على الروس . ويرى المؤرخ الروسي جورج فيرنادسكي أن الجنود المغول قد تعودوا في منغوليا على

البرد القارس وقسوة الظروف المناخية وأنهم كانوا يرتدون الفراء وجلود الحيوانات لكي تقيهم قسوة الطبيعة في هذه المنطقة ، وأن وسيلة الانتقال المغولية كانت الخبول القادمة من شرق آسيا حيث تعودت البرد والجليد، وكانت تنشر بحوارها الجليد الرخو للوصول إلى جنور النباتات التي كانت تتغذى عليها، كما أن تجدد الأنهر والقنوات والبحيرات الكثيرة في شمال روسيا في فصل الشتاء كان يجعل عبور القوات المغولية عليها أمرا سهلا دون مشقة بناء القنطر أو الجسور في غير فصل الشتاء^(١٢).

وبعد حصار استمر ستة أيام فقط استطاعت قوات سويداء الاستيلاء على مدينة فلاديمير الحصينة في ٨ فبراير ١٢٣٨م وحرقها بن فيها ، حتى أن بقية السكان هربوا إلى كنيسة الأم المقدسة للاحتماء فيها ، ولكن المغول أشعلوا النار فيها لتحترق وهم داخلها . وكان حاكمها يوري الثاني قد هرب إلى الشمال للإعداد للمعركة القادمة في أعلى نهر الفولجا ولكن تقل قوات المغول شمالاً جعل اكتساح هذه التحصينات أمراً ميسوراً في ٤ مارس ، كما تم قتل دوق فلاديمير . ولم تجهد قوات باتو سويداء صعوبة خلال شهري فبراير ومارس في الاستيلاء على ما يجاورها من مدن : وهي موسكو (التي كانت مدينة صغيرة آنذاك) وسوزدال Suzdal ودميتروف Dmitrov وسوريف Yuriev وتيفير Tver وتسورزوك Torzhok وقتلوا ما استطاعوا قتلها وشردوا وأسروا الباقين ولم يعد أمامهم من المدن القوية في شمال روسيا سوى مدينة نوفوجارد القوية^(١٤) .

وفي الوقت الذي كان فيه الغزاة على بعد خمسة وستين ميلاً فقط من مدينة نوفوجارد ، وارتعدت فرائص سكانها خوفاً من موت عاجل ، ولكن « تراجعت قوات باتو عن الشمال وانسحبت إلى الجنوب وبذلك أنقذت المدينة من المصير المحقق الذي لقيته بقية المدن الروسية التي واجهت المغول . وتعزو حلية نوفوجارد سبب هذا التوقف الفجائي للمغول إلى "بركة الرب وبركة كاتدرائية سانت صوفيا ودعوات وابتهالات رجال الدين المخلصين وأميرها التقى ورهبانها الأسوياء»^(١٥) والتفسير الديني للأحداث ليس غريباً عن حلية كنسية في العصور الوسطى لأن ذات الحولية فسرت الغزو المغولي بأن الرب أراد تطهير المسيحيين من ذنوبهم فسلط عليهم التتار.

وهناك من المؤرخين من يرى إن دفء مارس وبداية فصل الربيع قد جعل الجليد يذوب وأن الأنهر والقنوات العديدة التي تصب في بحيرة إلمان Elman ، الواقعة جنوب نوفوجارد قد

فاضت وغطت الأرض الواقعة جنوب المدينة ومن ثم فقدت القوات المغولية ميزة سرعة الحركة على الجليد^(١٦).

والرأى عندى أن هذا وحده غير كاف لانسحاب القوات المغولية التى لم تكن تعوقها الأنهر أو الفيضانات ، لأنهم اكتسحوا الأراضي البولندية وال مجرية بما فيها من أنهار وفيضانات فى أبريل ١٢٤١م ، أى فى وقت ذوبان الجليد ، كما أن المغول الذين لم يتأثروا فى زحفهم على شمال روسيا بقسوة البرد ونزول الجليد ، لم يكن دفعه الربيع عائقا أمامهم ، إن لم يكن ميزة فى حد ذاته^(١٧) .

ولهذا أعتقد أن القوات المغولية اتجهت إلى شمال روسيا لتأمين القوات فى الوسط ناحية كيف والزاحفة جنوبا ناحية المجر وذلك لقطع الإمدادات من الشمال . وأن هذا الهدف قد تحقق تماما بتحطيم كبيريات المدن الروسية فى الشمال وإلقاء الرعب واليأس فى قلوب سكان نوفوجارد للدرجة التى لا يستطيعون بها مجدة مدن أخرى فى الجنوب تبعد عنها مئات الأميال، فى الوقت الذى يتوقعون أن يبعيد المغول الكثرة عليهم بين الحين والأخر . ولهذا وجد المغول أن هدفهم قد تحقق تماما دون مشقة الذهاب إلى نوفوجارد ولهذا انسحبوا جنوبا.

وأثناء تراجع المغول من الشمال إلى الجنوب اتخذوا طريقا غير الذى تقدموا منه قبل ذلك ودمروا المدن والمراعى التى مروا بها ، وصمدت أمامهم مدينة كوزيليسك Kozelesk الصغيرة فى إقليم كالوجا Kaluga فترة من الوقت ، واستولى عليها المغول بعد أن قتلوا جميع من فيها ثم وصلوا إلى الحوض الأدنى لنهر الدون حيث استراحت القوات المغولية وجاءتهم إمدادات حربية جديدة من جراء الاستيلاء على خيول قبائل الكومان .

وفى عام ١٢٣٩م قتلت عمليات حربية محدودة . إذ قامت قوة بقيادة مانجو بغزو قسم كبير من القوقار شمال بحر قزوين. وفى الوقت نفسه أجبرت قوات باتو معظم قبائل القفجاق على الاعتراف بالسيادة المغولية، ومع ذلك فر حوالي أربعين ألفا منهم بقيادة ملكهم كوتستان إلى المجر حيث منحهم ملكها بيلا الرابع حق الاستقرار^(١٨) .

وفى عام ١٢٤٠م أعيد تنظيم القوات المغولية وتخطيط عملياتها على ضوء التجارب السابقة مع المدن الروسية وعلى ضوء المعلومات التى جمعها قواد المغول من حكام المدن التعيسة وأسرابها الذين وقعوا فى أيدي الغزاة. وسقطت مدينتنا Pereiaslav, Chernigov فى أيدي القوات المغولية فى صيف ذلك العام^(١٩). وبعد ذلك أرسل باتو سفراه إلى مدينة

كيف، التي كانت أهم المدن الروسية، للإنذار بالتسليم أو التدمير. وبعد أن قتل أمير كييف السفراء المغول حاصر الغزاة المدينة من جميع الجهات حتى بات من المستحيل علي أي فرد الخروج منها أو الدخول اليها، لدرجة أن "ضجيج العربات وصهيل الخيول وصوت الآلات وأنفاس الآلاف المؤلفة من المحاصرين جعل من الصعب على السكان أن يسمع أحدهم صوت الآخر" (٢٠). وأسر أهل كيف أحد المغول الذي أخبرهم بأسماء قواد المغول وأن باتو قد أمر بإحضار آلات الحصار التي نقبت جدران المدينة ليل نهار حتى أحدثت فيها فتحات دخل منها الغزاة، الذين رموا السكان المدعورين بالسهام والأقواس، وقتلوا معظمهم وفر الأحياء منهم إلى كنيسة المدينة التي سقطت جدرانها وسوقوها من كثرة الزحام، واستولى المغول على كل المدينة يوم ٦ ديسمبر ١٢٤٠ م بعد هروب أمراء المدينة وقادتها إلى المجر (٢١).

وبسقوط مدينة كيف القوية صار الطريق مفتوحا عبر غاليسيا Galicia وبولندا إلى وسط أوروبا وغيرها. وأنه بسقوطها أيضا سارع أمراء منطقتي أوكرانيا وأدراوها بتقديم فروض الطاعة والولاء للإمبراطورة الجديدة وتعهدوا لهم بتقديم محصولاتهم غذاء لجيوشهم وخيوطهم. وهكذا استطاعت القوات المغولية في غضون سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة اكتساب مساحات جغرافية هائلة وإخضاع قبائل الباشكير والبلفار والقفجاق للسيادة المغولية ، فضلا عن الاستيلاء على معظم المدن الروسية واعتراف الباقي بالولاء للمغول . ولا ريب أن تفكك الإمارات الروسية وعدم توحدها أمام جحافل المغول، فضلا عن عدم وجود تحصينات قوية أو موانع طبيعية حاجزة أمام الغزاة، بالإضافة إلى الأثر النفسي السيء الذي نجم عن سرعة اكتساب المغول للمدن الروسية وذبح سكانها وأسرهم، كل هذا ألقى الرعب والفزع في قلوب سكان المدن الأخرى حتى شكوا في جدو الصمود فاستسلموا للیأس .

أما العوامل التي أدت إلى النجاح السريع للمغول فهي كثيرة: إذ كان الغزاة يعملون في تنسيق بارع وتحت قيادة خبيرة ويختارون الوقت المناسب للحصار أو الهجوم أو الانسحاب، مع تخطيط مدهش لتنظيم وسائل الإمداد والتوصين والاتصال . وبطبيعة الحال كان سقوط مدينة في أيديهم يضيف قوة جديدة لهم لأنهم كانوا يستخدمون الأسرى الأشداء في حصار أو قتال بنى جلدتهم وأخذون من الأسرى معلومات كاملة عن الضحايا القادمين، فضلا عن أنهم كانوا يستولون على ما يكفيهم من مؤن وعتاد. ولا شك في أن قوة الجندي المغولي وشدة بأسه والفرق الشاسع بين العسكرية المغولية، التي تطورت وازدادت خبرة من برأه، حصار وقتال

عشرات المدن والشعوب من الصين شرقاً حتى شمال روسيا غرباً، والعسكرية البدائية للقبائل الرعوية مثل الباشكير والبلفار والكومان والمدن الروسية المفككة، كان لها الدور الحاسم في تحقيق هذه الانتصارات السريعة.

موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا

وفي خضم حوادث الاتساح المغولي للمدن والأقاليم الروسية (١٢٣٦ - ١٢٤٠) وصلت أخبار كثيرة عن الغزو والغزاة إلى أوروبا سوا، بحكم الموقع الجغرافي أو من التهار أو من فرار العديد من قادة المدن الروسية إلى المجر وبولندا. ولكن لم يتحرك أحد أو يأبه بمساعدة الروس، ربما لأن الآخرين كانوا يدينون بال المسيحية الأرثوذكسية وكانتوا بعد سقوط القسطنطينية في يد اللاتين عام ١٢٠٤م يعتبرون أن كنيستهم رائدة الأرثوذكسية في العالم. وبالطبع نظر اللاتين للروس على أنهم هراطقة. وهذا يدل على عنصرية الكاثوليك الغربيين وعجزهم عن فهم حقيقة ودّوافع الغزو المغولي إذ كانوا لا يتصورون بالطبع إمكانية وصول المغول بعد شهور قليلة من القضاء على آخر مقاتل الروس إلى بولندا والمجر ووسط أوروبا.

بل إن بعض القوى الأوروبية اللاتينية اعتبرت أن الظروف الصعبة التي تمر بها الأقاليم الروسية في مواجهة الاتساح المغولي هي اللحظة المناسبة للهجوم على روسيا. ولهذا حاول الفرسان التيوتون وقبائل السويديين الاستفادة من مصائب الروس وانشغالهم وقاموا بهاجمة المناطق الشمالية والشرقية عام ١٢٣٨م من خليج فنلندا حاملين السيف والصلب على اعتبار أن الروس الأرثوذكس مثل الوثنين.

وفي يوليه ١٢٤٠م هاجم السويديون وحلفاؤهم مصب نهر نيفا Neva لقطع مدينة نوفوجارد عن البحر البلطي مستغلين انشغال المدينة بالغزو المغولي. وتقدم حولية نوفوجارد تفصيلات هذا الغزو ودّوافع الحقد لدى اللاتين من تمجيل الروس "لأنباء المقدسين في خلقونيه" إشارة إلى أرثوذكسيتهم ولكن قوات المدينة الروسية شنت شمال الغزاة^(٢٣). ومن المستبعد ألا تكون أخبار الغزو المغولي لوسط آسيا وشمالها قد وصلت للغرب الأوروبي عن طريق التجار البنادق في منطقة البحر الأسود والقسطنطينية أو عن طريق الصليبيين في بلاد الشام.

ومهما يكن من أمر فإن أقدم وثيقة لاتينية عشر عليها حتى الآن عن المغول وتوسعاتهم وخططهم وأهدافهم هي تقرير جولييان المجري ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان الذين أرسلوا عام ١٢٣٧ م إلى جنوب روسيا في بعثة تبشيرية لتنصير قبائل الكومان ولكن رجع فور مقابلته لأحد سفراً المغول للأمراء الروس حيث أخبره الأخير أن "المغول عازمون على احتلال المانيا Alemania وأنهم يتوقعون وصول فرقة مغولية أخرى من إقليم فارس وأنهم قد أخضعوا خمسة عشر شعباً وأنهم يدمرون كل من يقابلهم" ^(٢٤) . ولهذا رجع جولييان لإبلاغ ملكه بيلا الرابع بما سمعه ورأه ، وقد ذهب جولييان بنفسه للمقر البابوي لإبلاغ البابا بذلك راجياً أن يحفزه على القيام بشيء لإنقاذ العالم المسيحي من كارثة محققة ^(٢٥) .

وفضلاً عن ذلك ، فإن جولييان المجري قد حمل معه - في طريق عودته لبلاده رسالة شخصية من دوق مدينة سوزادال الروسية إلى بيلا الرابع يخبره فيها أن المغول « يتآمرون ليلاً نهار ضد المجر ، وأنهم قد خططوا لمد توسعاتهم حتى إلى روما وما وراءها ^(٢٦) - كما أن حاكم المدينة الروسية قد أعطى جولييان الرسالة التي كان قد بعثها باتو القائد المغولي - إلى ملك المجر . وقد أورد جولييان - في تقريره - ترجمة لاتينية لهذه الرسالة ومنها :

إنني قد سمعت أنك قد أويت (قبائل) الكرمان الخاضعين لنا تحت حمايتك ، وإنني آمرك بوقف إيوائهم وتجنب تحريضهم على معادتنا . وإنه لمن السهل عليهم أن يهربوا لأنهم لا منازل لهم وهم يعيشون في الخيام ، ولكنه ليس من السهل عليكم ذلك ، لأنكم تعيشون في منازل وتقطبون في مدن فكيف تستطعون الهرب منها؟ ^(٢٧) .

وقدم جولييان المجري للغرب الأوروبي - لأول مرة - معلومات وافية وصحيحة عن الجيش المغولي وتقسيماته وأسلحته ، واستخدام الأسرى في قتالبني أوطنانهم وخوف المغول من الحصون ^(٢٨) وغير ذلك من معلومات أكدتها المبعوثون الرسميون للبابوية بعد ذلك بعقد من الزمان ^(٢٩) .

وهكذا فإن الملك المجري قد أحبط علمًا بخطط المغول ضد غرب أوروبا عامة وبلاده خاصة سواء من تقرير جولييان نفسه أو من رسالة دوق سوزادال له أو من إنذار القائد المغولي له . وعلى أقل تقدير فإن الملك المجري قد أبلغ البابوية وبقية قادة غرب أوروبا بهذه الأخبار للاستعداد والتحوط لهذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن أخبار الاتساع المغولي قد وصلت الغرب الأوروبي أيضاً عام ١٢٣٨ م عن طريقين :

أولاً : سفارة من طائفة الإسماعيلية^(٢٠) في فارس أو بلاد الشام لبعض ملوك الغرب .
بغرض طلب معاونتهم ضد المغول .

ثانياً : التجار الأوربيون

وفي أحداث عام ١٢٣٨ يروى المؤرخ الإنجليزي المعاصر متى البارسي^(٢١) ما ترجمته :
وفي هذا الوقت وصل سفراً خصوصيون من المسلمين Saracens^(٢٢) وبصفة أساسية
بالنيابة عن شيخ الجبل الكبير إلى ملك فرنسا كيبي يخبروه أن جنساً غريباً من البشر
الهمجيين قد ظهر في الجبال الشمالية ، وأنه استولى على بقاع واسعة من الأرضين الفنية
والمزدحمة بالشوق ، وأنه قد جرد منطقة هنفاريا الكبرى^(٢٣) من سكانها وأنهم (أى
الستار) قد أرسلوا خطابات تهديد مع سفراً في شكل كريه . وأن رئيسهم قد أعلن أنه
مفوض من رب إخضاع الشعوب التي تشمّر ضده ... وأن رئيسهم رجل عدواني شرير
يسمى خان . وأن هؤلاء الأقوام يعيشون في المناطق الشمالية إما في جبال القوقاز أو في
المناطق المجاورة ، وأن اسمهم ترتار Tartars نسبة إلى نهر التار Tar . وأنهم كثيرون جداً
ويعتقد أنهم أرسلوا كرياء للجنس البشري . وعلى الرغم من توسعهم (للأمام) في مناسبات
كثيرة ، إلا أن شرورهم وخطورهم هذا العام أكثر عنة من ذي قبل .

وإن سكان جزء تلانت Friesland وفريزريا Gothland - الذين يخشون هجومهم (أى
الستار) لم يحضرموا إلى مينا يارموث Yarmouth في الجبلترا كما هي عاداتهم في موسم
وفرة سمك الرنجة حيث تقتلا به سفنهم - ولهذا السبب ، فإن الرنجة هذا العام (١٢٣٨م)
 Roxiehisa جداً بسبب وفرتها حتى أن أربعين أو خمسين قطعة منها - رغم جودتها - كانت
تبيع بقطعة فضية واحدة ، حتى في المناطق البعيدة قاماً عن البحر .

وأن هؤلاء، النبلاء : سفراً المسلمين الذين أتوا للملك الفرنسي قد أرسلوا نيابة عن كل
شعب الشرق كي يخبروه بهذه الأمور وأنه (أى شيخ الجبل) قد طلب المعونة من شعوب
الغرب (الأوربي) كي يكبح جماح التترار ، وكان (شيخ الجبل) قد أرسل أيضاً سفيراً من
طائفته إلى ملك الجبلترا كي يخبر عن هذه الأحداث ، ويقول لو أنهم (أى الإسماعيلية أو
شعوب الشرق) لم يستطعوا التصدي لهجمات هذا الشعب (الستاري) ، فإن أحداً لن يمنع
تدميرهم لبلاد الغرب (الأوربي) طبقاً لقول الشاعر : عندما محرك النار منزل جارك دون أن
تفعل شيئاً لإنقاذك ، فإنها ستلتهم منزلك تباعاً . ولهذا فإن شيخ الجبل قد طلب المساعدة

العاجلة والطارئة حتى يتمكن المسلمون والسيحيون من مقاومة هجمات هذا الشعب (التارى) .

ولكن أستف ونشستر (Winchester) الذى كان موجوداً حينئذ (عند الملك الإنجليزى) مرتد يا علامة الصليب قاطع حديثه وأجاب هازلا : دعنا نترك هذه الكلاب (يقصد المغول وال المسلمين) كى يفترس أحدهما الآخر حتى يهلكوا ويفنوا ، عندئذ تتحرك ضد أعداء المسيح لندحرهم وننظف وجه الأرض منهم وبذلك يخضع العالم للكنيسة الكاثوليكية . ويكون حينئذ راع واحد «أى البابا» لقطيع واحد «أى المسيحيين» .

ويوجد فى نص متى البارى ثلثة أمور جديرة بالتعليق . أولها السفارة الإسماعيلية ، وثانيهما موقف الغرب الأوروبي من هذه السفارة لوصحت رواية متى البارى عنها . وأخيراً عدم مجبن التجار لاستلام اسماك الرجحة من الموانى الإنجليزية .

وبادئ ذى بدء لم يرد ذكر هذه السفارة فى جميع المصادر الإسلامية من قريب أو بعيد وهى مصادر معنية بالأمر ، وربما بسبب موقف المصادر السنوية من أخبار الحشاشين الخاصة . كما أن متى البارى لم يحدد أسماء السفرا ، ولا هو يتهم ولا من أين جاؤوا سوى أنهم سفرا ، "The Old Man of the Mountain" أي شيخ الجبل وهو لقب معروف للأوروبيين عن طائفة الإسماعيلية أو الحشاشين "Assassians" كما كانوا يلقونهم . ولكن هذا لا يمنع القول أنهم اتصلوا بالغرب لأن تحركاتهم فى الشرق كانت تحاط بالسرية . كما أن المركز الرئيسى لهذه الطائفة فى قلعة «الموت» Alamut فى شمال فارس كان يتعرض لخطر مغولى محقق . فالمجيوش المغولية قد اكتسحت التركستان وما وراء النهر فى الفترة من ١٢١٨ حتى ١٢٢٢م . وبعد ذلك أرسلت المجيوش لتعقب الخوارزميين الفارين فى شمال فارس . وفي عام ١٢٣١ دخلت القوات المغولية بقيادة جورماغان لإقليم أذربيجان وغزت جورجيا للمرة الثانية عام ١٢٣٦ وكذلك منطقة آسيا الصغرى . وبعد ذلك مباشرة كانت قوات أخرى بقيادة باتو تغزو جنوب روسيا وشمال القوقاز . ولهذا ظل المخطر المغولى المدمر يهدد إسماعيلية فارس من كل ناحية . ومن المنطق السليم أن طائفة الإسماعيلية كانت لها مصلحة فى التحالف مع الغرب الأوروبي طالما أنه لا قائدة ترجى من الشرق الإسلامي ، لأن رصيد هذه الطائفة من الكراهية لدى كلقوى الإسلامية فى الشرق كان كبيراً ، وأن إسماعيليين يعلمون تماماً أنه لا خلافة العباسية الضعيفة ولا الإمارات الأيوية المتنازعة فى بلاد الشام والعراق يستطيعون

مدد المساعدة لهم أو لغيرهم لأنه لم يجرؤ أحد منهم من قبل على القيام بنجدة الخوارزميين ولا أمهات المدن الإسلامية التي تعرضت للتدمير وتعرض أهلها للذبح والفناء .

ولهذا حاول سفرا، الإسماعيلية اتباع الغربيين أن الدور سيحل عليهم ما لم يقدموا العون للشرق الإسلامي باعتباره منطقة فاصلة بين المغول وأوروبا .

وإن كنا لا نعرف رد الفعل الفرنسي تجاه هذه الفارة ، إلا أنه من السهل استنتاجه . فالذكريات المزيفة التي يحملها الغرب الأوروبي من «الخاشين» من جراء محاولة اغتيال أو قتل بعض قادة الصليبيين في الشرق ، يجعلهم لا يحملون إلا الكراهية والازدرا لهما^(٢٤) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن فكرة التحالف بين المسلمين والمسيحيين الكاثوليكي في غرب أوروبا لم تكن سهلة التحقيق بعد عدة قرون من الحروب والعداء منذ ظهور الإسلام ، تلك العداوة التي ازدادت اشتعالاً منذ بداية المواجهة المسلحة بين الطرفين في بلاد الشام في نهاية القرن الحادي عشر فيما يعرف بالحركة الصليبية .

ولكن رد الفعل الإنجليزي كان حاسماً وعلنا على لسان أسقف ونشستر الذي قيل أنه كان بالأراضي المقدسة أثناء حملة فردريك الثاني عام ١٢٢٩م وهو رد يدل على الفرحة والتشفى في المسلمين بقوله «دعنا نترك هذه الكلاب يفترس أحدهم الآخر» . وبطبيعة الحال هذه وجهة نظر قاصرة ، لأن المغول حظموا عدة مالك مسيحية في شرق أوروبا بعد ذلك بثلاثة أعوام . ولولا وفاة الخاقان المغولي أوجوداي عام ١٢٤١م ، وما نتج عنه من انسحاب مفاجئ للقوات المغولية من أوروبا لربما تغير وجه التاريخ . وعموماً تغيرت هذه النظرة بعد قليل ، ليس للتحالف مع المسلمين ضد المغول ولكن للاتجاه العكسي تماماً باعتبار أن المسلمين عدو مشترك للطرفين .

وأخيراً فإن متى البارسي يبرر كсад تجارة سمك الرنجة في الموانئ الإنجليزية بعدم حضور تجمار جوتلاند وفريزيا لنقله لأسوق الاستهلاك كما هي عادتهم ، وهذا بالقطع أضر باقتصاديات المدن الساحلية في ذلك العام (١٢٣٨) . ويفسر فيرنادسكي Vernadsky هذا الأمر بوجود علاقات تجارية بقتضى معايدة عام ١١٩٥م بين مدينة نوفوچاراد الروسية (والتي كانت حلقة الوصل بين المدن الروسية الداخلية وبين الأقاليم الأوروبية الساحلية) وجزيرة جوتلاند (في البحر البلطي) وموانئ فريزيا (الأراضي الواطئة الآن) لاستيراد الأسماك وسلع أخرى ، وإن تجمار المناطق الأخيرة كانوا يقومون بدور الوسيط بين نوفوچاراد والموانئ الإنجليزية^(٢٥) .

ولكن عندما اكتسح المغول روسيا وكانوا غير بعيدين عن نوفوجارد نفسها ، فان حاكم المدينة الأخيرة جند كل سكانها القادرين على حمل السلاح للدفاع عن مدينتهم والسهير ليل نهار خلف الحصون وأمام الأسوار انتظارا للنكبة التي ستحل بهم ، لهذا لم يفكروا في بنود معاهداتهم مع جوتoland وفريزيا^(٣٦) ، وفي نفس الوقت لم يكن البوسنه من سكان نوفوجارد وقتذاك في حاجة لأكل السمك في ذلك الوقت العصيب .

ولكن لهذا الحديث دلالة تشير الانتباه ، لأن قراراً أصدره الحاقدان الأعظم في الطرف الشرقي للكرة الأرضية بغزو روسيا وأوروبا يصب الشعب الإنجليزي - في الطرف الغربي للعالم المعروف حينذاك - في رزقه وقوته اليرموسي . وهذا أكبر انذار وإشارة تحذير لغرب الأوروبي كى يستعد لهذه الطامة الكبرى ، ولكن أحداً لم يستفده من هذه الإشارة مثلما لم يستفيدوا من تحذيرات جولييان المجرى وسفراء الإسماعيلية .

غزو بولندا : ١٢٤٠-١٢٤١ م.

لما كانت الاستراتيجية الثابتة لجنكيز خان وخلفائه من الأباطرة العظام هي إخضاع العالم بأسره للحكم المغولي ، فإنه بعد الانتهاء من إقليم روسيا فقد أصبح الطريق مفتوحاً إلى بولندا غرباً وال مجر جنوباً . وكان هروب معظم أمراء غرب روسيا وحكامها لهاتين الدولتين ، فضلاً عن إيواء ملك المجر للكومان الفارين أمام المغول وخاصة الآخرين لراغب جديدة تخبيئهم حافزاً للقوات المغولية في أوروبا على المزيد من التوسيع .

وببدو أن هدف المغول من غزو بولندا كان لتأمين قواتهم الموجهة بقيادة بيدر Baidar وقادان Kadan لغزو بولندا بجيش لا يزيد عن ثلاثين ألفاً^(٣٧) رغم المبالغات التي قيلت في هذا الصدد^(٣٨) . وقد انسحبت هذه الفرقـة للحـاق بالجـيش الرئـيسي الذـي اتجـه إـلى المـجر بمـجرد تحطـيم القـوة العسكريـة البـولنـدية .

وقد ظهرت القوات المغولية في بولندا^(٣٩) في أواخر عام ١٢٤٠ م ، ودمرت مقاطعة Lublin ولكنها تراجعت إلى غاليسيا الروسية ، ومرة ثانية عبرت هذه القوات نهر فيستولا المتجمد وعاشت فساداً في مدينة ساندومير Sandomir ، ووصلوا إلى مسافة سبعة أميال من مدينة كراكوف Gracow ، وفي أثناء تراجعهم دمروا الكثير من القرى والأديرة وحملوا معهم الغنائم والأسرى . وفي طريق عودتهم فاجأهم أمر المدينة الأخيرة وأنقذ منهم كثيراً من الغنائم والأسرى ، ولكن المغول استداروا عليه وقتلوا وحطموا قواته^(٤٠) .

وفي بداية عام ١٢٤١ انقسمت القوة المغولية الزاحفة على بولندا إلى جزئين : فرقة تحت قيادة بيدر الذي زحف إلى كراكوف ، والجزء الآخر تحت قيادة أخيه قادر إلى - Sieradia Cu- , Lancitia , javia وفى ١٨ مارس من ذات العام سحقت القوة المغولية بقيادة بيدر قوة بولندية فى Chmielnik وبعد ذلك وجد المغول مدينة كراكوف خالية من سكانها الذين هجروها (خشية الغزارة) ومن ثم سوت بالأرض .

وبعد ذلك تجمعت القوات المغولية وتقدمت غرباً وعبرت نهر الأودر Oder ووصلت مدينة بريسلاؤ Breslau في إقليم سيليزيا حيث تجمع سكانها في قلعتها . ومن ثم حرق المغول المدينة ، ولكنهم تركوا حصار القلعة عندما علموا بأن القوات البولندية المؤلفة من عشرين ألفاً توازرتها قوات من الفرسان التيوتون الألمان وقوة من مورافيا تجتمع تحت قيادة هنري الثاني دوق سيليزيا في منطقة ليجنز Liegnitz لانتظارهم ^(٤١) .

وقد ظهرت - في هذه المعركة - العبرية الحربية للمغول والمدعمة بالخبرة الصينية والتي صقلتها ممارسة القتال في العديد من المبادين والأجواء ، ضد الكثير من الشعوب والقبائل . فقد استخدم المغول ما يشبه اليوم بالغازات السامة ، وذلك باشعال النيران في الغابات المحيبة بميدان القتال ، واستخدام مداخن سامة وتوجيه كرات النقط المحتقرة تجاه القوات المتحالفه . وظهرت كذلك براعة المغول في تطريق الأعداء والالتفاف حولهم وغير ذلك من وسائل أحبطت البولنديين قبل بدء المعركة . ولاغروا أنه في يوم ٩ أبريل عام ١٢٤١ حصدت القوات المغولية زهرة فرسان بولندا والتيوتون ومورافيا وعلى رأسهم هنري الثاني دوق سيليزيا . وطبقاً لرواية مؤرخ بولندي معاصر ، فإنه بعد انتهاء المعركة قطع المغول أذناً واحدة من كل جندي أعدائهم وملأوا بها تسعه أجولة كبيرة ^(٤٢) . وربما فعلوا ذلك لأنهم قوم بدائيون لا يعرفون القراءة والكتابة ، وأراد قواد هذه الفرقة تقديم الدليل على مهاراتهم العسكرية إلى باتو قائد العمليات في أوروبا والموجود وقتذاك في المجر ، فوجدوا أن هذه الطريقة البربرية خير وسيلة لإحصاء قتلى ضحاياهم !!

وبعد هذه الهزيمة الساحقة للقوات المتحالفه في بولندا ، لم تجد القوة المغولية أدنى مقاومة في بقية بولندا أو مورافيا ، وتم تدمير الإقليم الأخير . ولأن باتو كان قد أصدر أوامره لقواده في بولندا للتحرك شرقاً لللاقاته في المجر ، فإن القوة المغولية التي كانت في بولندا قد دمرت المدن الصغيرة والأديرة المجاورة لها في إقليم بوهيميا (في تشيكوسلوفاكيا السابقة) ، وهرب الناجون إلى الكهوف والغابات . ولم يكن هناك وقت يسمح للقوة المغولية بتدمير بوهيميا أو منازلة ملكها - رغم ادعاءات بعض المصادر التشيكية في هذا المجال ^(٤٣) .

غزو المجر : ١٢٤٢-١٢٤١ م

كانت القوة المغولية الرئيسية تحت قيادة باتو سويداي في طريقها عام ١٢٤٠ لغزو المجر وذلك بعد تحطيم قوة مدينة كييف الروسية ، وكان ملك المجر يتوقع هذا الغزو - للظروف التي سبق دراستها - ورغم ذلك كانت الحالة الداخلية للمجر وقتذاك لا تسمح لها بمواجهة هذا الغزو الضارى (٤٤).

حاول بيلا الرابع تحصين مرات جبال الكاريبيا التي تفصل بلاده عن جيرانه الروس وذلك لمنع تقدم القوات المغولية لبلاده . وعهد لقائد جيشه بحمايتها ، وأرسل كذلك لاستدعاء جميع النبلاء وكبار رجال الدين لمقابلته فى مدينة بودا Buda فى ١٧ فبراير ١٢٤١ م ومعهم جبوشهم وأسلحتهم وعتادهم ، وكذلك استدعى كورتان - قائد الكومان - للمثول بين يديه بقواته . ولكن حدثت خلافات بين النبلاء ومليكهم لرغبة الآخرين فى الحصول على امتيازات اقطاعية حرمهم منها والده أندرو الثاني (١٢٣٥-١٢٥٠ م) ، وكذلك لرغبتهم فى طرد قبائل الكومان من المجر باعتبارهم سبباً مباشرًا للتهديدات المغولية للمجر . ولكن إذا كان الملك قد رفض شروط نبلاته فإنه اعتقل قائد الكومان ، ولهذا عاثت قوات الأخير فى البلاد فساداً فى وقت الحاجة بجهودهم . بل واستطاع المغول بعد ذلك مباشرة استخدامهم ضد المجريين . والمهم أنه فور علم ملك المجر باقتحام المغول دفاعاته فى مرات الكاريبيا فإنه أرسل زوجته وأولاده وجزءاً من ثرواته بصحبة رئيس الأساقة إلى دوق النمسا (اوستريا) للاحتماء بقوته وطلب نجاته وعون بقية قوى الغرب الأوروبي (٤٥).

ولكن القوات المغولية زحفت على المجر - فى تحطيط عسكري بارع يقوده الخبرير سويداي - من ثلاثة جهات : من مرات الكاريبيا فى الشمال ، ومن ناحية الشرق ومن بولندا فى الغرب . وبعد أن حقق المغول بعض الانتصارات الصغيرة ، أسرعوا عدداً كبيراً من الكومان واستخدموهم فى قتال المجريين . وحدث أن تقابلت فرقة مغولية بقيادة باتو مع القوات المجرية بقيادة ملك المجر وشقيقه يوم ١١ أبريل ١٢٤١ قرباً من قرية موهي Mohi على نهر Saje حتى قبل أن تجتمع بقية القوات المغولية وكانت مذبحه مريرة للقوات المجرية ، قتل وأسر فيها جميع قادة المجر وخمسة وستين ألفاً من قواتهم باستثناء ملكها الذى هرب متخفياً بمعجزة (٤٦) . وهكذا انهارت مقاومة المجريين بعد يومين فقط من انهيار قوة بولندا فى موقعة ليجنتر فى ٩ أبريل .

ودون الدخول في تفاصيل بقية العمليات العسكرية المفهولة في المجر والبلقان ، يكفي القول أن قوة مغولية قد حطمت مدينة جران وإقليم ترانسلفانيا (المجرين) ووصلت على مقرية من فيينا ، بينما تتبع فرقة أخرى الملك المجري الهاوب ناحية الجنوب الغربي من خلال كرواتيا (في يوغسلافيا السابقة) إلى زغرب ، ثم إلى داماشيا ، حتى هرب بيلا الرابع في جزيرة تراو Trau (أمام سواحل ألبانيا الحالية) . وزحفت هذه الفرقة المغولية إلى Cattaro على البحر الأدرياتي وعاشرت في ألبانيا فسادا ، ثم انضمت لقوات باتو في بلغاريا ^(٤٧) . ولم تجده هذه الفرقة ولا غيرها أية مقاومة . وفي مايو ١٢٤٢م انسحب الفرق المغولية من المجر والبلقان بنفس السرعة والتنظيم التي دخلت بها هذه المناطق دون أن تجد في طريقها أحدا يقاومها ، وعسكرت في جنوب روسيا في منتصف ذلك العام على الضفاف الجنوبية لنهر الفولجا .

ويتفق جميع من تناولوا الغزو المغولي لأوروبا بالدراسة أن وفاة الخاقان المغولي أو جوداى في ديسمبر عام ١٢٤١م ، ووصول الخبر لقادمة المغول في وسط أوروبا في ربيع ١٢٤٢ هو السبب الرئيسي للانسحاب باعتبار أن باتو - قائد الجيش - كان أفضل المرشحين لهذا المنصب ، فهو أكبر أحفاد جنكيز خان ، وأكثرهم تحقيقا للانتصارات . ولهذا سحب قواته من وسط أوروبا إلى جنوب روسيا ليشارك هو وبقية أحفاد جنكيز خان في القوريكتاي الذي سيختار الخاقان الجديد وبذلك يكون قريبا من مركز صنع القرار في قراقوز .

وهناك وجهة نظر أخرى مفادها أنه حدثت خلافات شخصية بين باتو من ناحية وبين جوينك ابن الخاقان (المتوفى) وبين حفيده جفطاي من ناحية أخرى أثناء حصار كيف في ديسمبر ١٢٤٠م ، ورجوع الأخيرين حائنين عليه فورا إلى فراقوز . وعندما علم باتو بوفاة الخاقان فإنه اضطر للانسحاب إلى جنوب روسيا خشية وصول أحدهما للمنصب الخاقاني (وهذا ما حدث فعلًا بتولى جوينك لهذا المنصب عام ١٢٤٦م) وقد يمنع عنه الإمدادات الحربية من الشرق وهو في وسط أوروبا ^(٤٨) . وربما لإدراك باتو أن الفترة التي تعقب وفاة الخاقان وتوليه غيره تكون فترة استرخاء عسكري . ولهذا خشي باتو من رد فعل فوري للغرب الأوروبي بعد المذابح التي ارتكبها في شمال أوروبا وشرقها وأن يؤدي ذلك إلى تدمير كل جيوشه .

موقف غرب أوروبا من الغزو المغولي لبولندا وال مجر :

لقد سبق الإشارة أن أسقف ونشستر حينما علم بالكارثة التي حلّت بالشرق الإسلامي فانه هلل وقال : « دعنا نترك هذه الكلاب تفترس بعضها » ، وأن قبائل السويدين والفرسان التيوتون وجدوا في انشغال المدن الروسية بالغزو المغولي فرصة سانحة للإغارة على ممتلكات المدن الأخيرة من ناحية الشمال والشرق وعلى الطرق التي تربط مدينة نوفوجاره بالبحر البلطي.

ولم يتغير هذا الموقف حتى حينما كانت الضحايا شعوبًا تدين بال المسيحية الكاثوليكية وتقط في أوروبا ومجاورة تماماً للإمبراطورية الرومانية المقدسة .

سبق القول أن ملك المجر قد أرسل زوجته وأولاده بصحبة رئيس الأساقفة لدوق النمسا للاحتماء عنده وطلب نجاته العاجلة . وبعد مرحلة Mohi في ١١ أبريل عام ١٢٤١م وتدمير قواته وانسياط القوات المغولية في مملكته ، فإن بيلا الرابع فر أمام الغزاة إلى حدود النمسا حيث وصلته دعوة من دوقيها فردرريك بالطبع، إليه والاحتماء عنده . ولكن للأسف - كما تقول حولية معاصرة « كان ملك المجر مثل سمكة حاولت الهرب من الشلنج فألقت بنفسها في النار » فبمجرد وصول الملك عند دوق النمسا فإن الأخير اعتقله وطلب منه قدية ضخمة قدرها ثلاثة أقاليم مجرية مجاورة لحدود دوقيته وبمبلغها ضخماً من المال . ولم يساعد الملك على أمره إلا أن يتعهد له كتابة بذلك ، وأن يترك رهينة جزءاً كبيراً من الذهب والفضة التي كان قد أنقذها من مخالب المغول . وليس هذا فقط بل وهاجم دوق النمسا مملكة المجر المنكوبة حتى وصل إلى الناحية اليمنى لنهر الدانوب لاحتلال مدينة Gijor التي أحرقها المجريون بأنفسهم حتى لا يستفيد بها الدوق الغادر^(٤٠) . ومن ثم ترك ملك المجر مضيقه الخائن وفر إلى كرواتيا ثم إلى زغرب ثم لجا إلى إحدى الجزر في البحر الإدربياني أمام سواحل ألبانيا .

وفي هذا الوقت ، كان الشغل الشاغل للبابوية وأنصارها هو تحطيم الإمبراطور فردرريك الثاني (ت ١٢٥٠م) وليس الدفاع عن العالم المسيحي ، حتى أنه في منتصف فبراير ١٢٤١ أي قبيل اكتساح المغول للأراضي المجرية بعدة أيام - قام المندوب البابوي في المجر بالدعوة إلى حملة صليبية ليس ضد المغول كما هو متوقع ولكن ضد الإمبراطور^(٤١) وكان فردرريك الثاني هو الأخير مشغولاً بمحاربة أنصار البابوية في مدينة Faenza واستولى عليها عام ١٢٤١ بالقوة المسلحة ، وكان مقيناً في قلبة تاركاً شئون الإمبراطورية لابنه وولي عهده: كونراد.

ولم يكن ملك المجر يتوقع العون من الإمبراطور المشغول لأذنيه في صراعه مع البابوية وأنصارها من المدن الإبطالية . ومع ذلك فإنه أثناء وجوده في النمسا ، أرسل مبعوثيه برسائل يتضمن فيها للبابوية بالدعوة لحملة صليبية ضد المغول ، ويتوصل إلى الإمبراطور للعمل على حشد قواته وإرسالها لنجدته . كما عرض عليه في مقابل ذلك ولاعه وتبعيته له في حالة إرسال نجدة عاجلة تخلص بلاده من المغول (٥٢) .

وحتى قبيل تلقي نداءات بيلا الرابع ، فإن أخبار الكارثة التي كانت قد حلّت بالمدن الشمالية ليولندا (قبل موقعة Liegnitz) كانت قد وصلت إلى الغرب الأوروبي عن طريق رسالة كتبها هنري كونت اللورين في ١٠ مارس عام ١٢٤١ م إلى والد زوجته هنري الأول دوق برابانت (١٢٤٨-١٢٣٥) . وفي هذه الرسالة يلفت كتابتها نظر الغرب إلى أن عدداً لا يحصى من التتر قد استولت على الأقاليم المحيطة به ، وأن ابن عمده ملك بوهيميا قد أبلغه بعمّ الغزارة على غزو مملكته بعد عيد القبامة ، وأن هؤلاء «البرابرة» يتقدموه - وقتذاك - باكتساح بلاد المجر وذبح من يقابلونه وتدمير الأخضر واليابس ، وفي نهاية الرسالة طلب من دوق برابانت حث الهيئات الدينية عنده بل وحث كافة رجال الدين للدعوة لحملة صليبية ضد الغزاة باعتبار أن هذا العمل يرتبط بالسيد المسيح وأعداء المسيحية قبل أن يدمروا العالم المسيحي (٥٣) .

وعلى الفور قام دوق برابانت بإرسال نسخ من هذه الرسالة إلى كل من أسقف باريس وملك إنجلترا ورئيس أساقفة كولونيا كي يعملوا على وقف النزاع بين البابا والإمبراطور والالتفات لهذا الخطر المحدق بهم .

وذهب أسقف باريس - فور تلقيه هذه الأنباء - لمقر مليكه لويس التاسع ووْجَدَ والدته الملكة بلاش وعرض عليها هذا الأمر . ومن ثم استدعت الملكة ولدتها لويس التاسع على عجل وقالت له باكية «أين أنت يا ولدي ؟ ماذا سنفعل إذاً هذه الأحداث المفجعة التي نقلها هذا التقرير المخيف مما يحدث في أراضينا (تُقصد العالم الكاثوليكي) ؟ إن - تدميراً شاملًا لنا جميعاً وللكنيسة المقدسة وشيك الواقع في زماننا هذا بسبب هذه الغزوات التترية» وطبقاً لرواية متى الباريسى ، رد عليها ملك فرنسا بنفمة مفعمة بالحزن والأسى «أرجوا يا أمه أن تتنزل علينا سكينة من السماء ، ولو أتي هؤلاء القوم الذين نسميهم ترتاراً فـإما أن ندفعهم ثانية إلى أقاليم الجحيم التي أتوا منها أو أنهم سيرسلوننا جميعاً إلى السماء (كتابية عن الاستشهاد) (٥٤) .

وكتب فردريك الثاني رسالة - على أثر تلقيه توسلاط ملك المجر - في ٣ يوليه (١٢٤١) وأرسل نسخا منها إلى جميع قادة الغرب الأوروبي . وقد نشر متى البلارسي رسالته لملك المجر كما في رسالة كاملة وجاء فيها « .. إننا لا نستطيع السكوت على أمر لا يخص فقط الإمبراطورية الرومانية بل أيضا كل المالك التي تعتنق المسيحية في العالم » . وبعده الإمبراطور للملك الإنجليزي المعلومات التي وصلته عن المذابح التي ارتكبها المغول ضد الجميع دون تفرقة بين جنس أو نوع أو ديانة أو طبقة معينة لضحاياهم . ولم ينس فردريك الثاني أن يلقي باللائمة على الملك المجري لأنه « رجل تافه كرسول ... لم يأخذ حذره ولم يستعد لهذا الخطير .. » !! وألقى الإمبراطور بمسؤولية ذلك أيضا على البابوية وكيف أن طمع البابا وعدوانيته هي سبب انقسام العالم المسيحي ومشاكله . وطلب فردريك الثاني من الملك الإنجليزي التدخل فورا مع كل القادة الأوروبيين لدى البابا كي يعدل الأخير عن حروبه ضد الإمبراطور ويبتعد عن تأليب المتمردين عليه حتى يتفرغ فردريك بكل قواته ضد المغول . كما أبلغ فردريك المرسل إليه بأن البابا « قد أمر بالدعوة لحملة صليبية ضدى وأنا حامي الكنيسة والمدافع عنها ، ومن واجبه بل ومن الأفضل له أن يفعل ذلك ضد الغزو التتاري » .

ويطلب الإمبراطور من هنري الثالث (١٢١٥-١٢٧٠) أن يجند قوة من خيرة فرسانه مجهزين بالعدد والعتاد ويرسلها إلى الأرضي الألمانية للاشتراك مع بقية القوات للدفاع عن الدين المسيحي تحت قيادة ابنه كونراد « لأنه لو أن التتار غزوا الأرضي الألمانية لاقدر الله بدون مقاومة تصدhem ، فإنهم سيخضعون كل الغرب ويدمرون الدين باسم المسيح » . وفي نهاية رسالته يلعن الإمبراطور « من بيدهم أمور العقيدة والدين الذين غرقوا في شرور الريا ومختلف أنواع الطمع والسيمونية » (٥٥). وتلك إشارة واضحة للمساوى العديدة للبابوية وقتذاك .

وهكذا فان الإمبراطور - من ناحيته - وجد في الخطير المفولي المدحى بأوروبا فرصة لتوحيد الغرب تحت لوائه ، والقاء المسؤولية على البابوية على أنها المسئولة عن انقسام العالم الكاثوليكي بين مؤيد لها ومعارض ، وأنها السبب في استنزاف قواته ضد المتمردين عليه بدلا من توجيهها ضد المغول .

والمتتبع للصراع الدامى بين البابوية وفردريك الثاني لا يجد صعوبة في استنتاج أن دعوة الأخير لتكوين قوات من غرب أوروبا للدفاع المشترك عن القارة ضد المغول لم تجده آذانا صاغية ، وذلك لأن الداعي نفسه كان في نظر الكنيسة والغرب الكاثوليكي « كافرا » لأنه

صدر ضده قرار الحرمان ، ولم يحلل منه بعد ، وطبقاً لهذا القرار فان من يتعاون أو يتحالف معه يستحق نفس الجزاء ، ولم يكن في استطاعة أى قائد أوروبى وقتذاك المجاهرة بمعاداة البابوية حتى لا يتعرض لأسلحتها التي أذلت العروش الأوروبية منذ هنرى الرابع فى حادثة كانوسا عام ١٠٧٦ م حتى الملك جون الإنجليزى فى العقد الثانى من القرن الثالث عشر . كذلك كان تلبية هذه الدعوة فى إرسال قوات تحت إمرة فردرريك الثانى أو ابنه معناه تعريض مركز البابوية للخطر . وقد كانت البابوية تنظر بعين القلق لأى تقارب بين أى حاكم أوروبى وبين هذا الإمبراطور ، خاصة وأن متى الباريسى يرى أنه فى تلك السنة أيضاً (١٢٤١) قبض فردرريك الثانى على مجموعة كبيرة من الأساقفة والكرادلة والمندوبيين البابويين من عدة دول أوروبية وهم فى طريقهم إلى المقر البابوى فى روما^(٥٦) . بل وحاصرت قواته - فيما بعد - روما نفسها لإرغام البابوية على تخليله من قرار الحرمان بالقوة . ولهذا فان البابا - عندما دعا إلى عقد مجمع مسكونى عالمى - اختار مدينة ليون الفرنسية ليكون تحت حماية لويس التاسع وليس لديه دعوة من يشاء من معارضى الإمبراطور وتقرير ما يشاء ضده دون إمكانية تدخله .

ولهذا كان على الإمبراطور سرعة التحرك بفرد لهماية بلاده من المغول الذين كانوا وقتذاك داخل إمبراطوريته من الناحية الشمالية . فأمر ابنه هنرى فى صقلية بالانضمام إلى أخيه كونراد فى إيطاليا على رأس أربعة آلاف فارس للدفاع عن الإمبراطورية . وفي نفس الوقت دعا البابا جريجورى التاسع (١٢٤١-١٢٢٧) لحملة صليبية ضد المغول . وفي ١٩ مايو ١٢٤١ م تقلد كونراد شعار الصليب وتتوالت التبرعات والإمدادات عليه من ألمانيا . ولكن دوق النمسا لم ينضم له بحجة أن جنوده مشغولين بالدفاع عن حدود دوقيته (وهم فى الحقيقة كانوا ينهبون ما تبقى من المجر) . وكتب فى ١٣ يونيو يشجعه على الضغط على ملوك فرنسا وأسبانيا والمملكتا الإمداد بقوات وعتاد ، ودعا الفرسان للمرور من دوقيته على نفقتهم الخاصة^(٥٧) .

وفي تلك الفترة ، كانت القوات المغولية العسكرية فى وسط المجر - بعد تحطيم مقاومة المجر وفار ملكها - قد أرسلت فرقة استطلاعية صغيرة إلى الشمال الغربى للمجر . وقد تجولت هذه الفرقة على حدود النمسا وداخلها ، ولكن قوات دوق النمسا - التي كانت فى طريقها لاحتلال مدينة مجرية - أجبرت هذه التجريدة المغولية على التراجع وأسرت منها أسيرا

واحداً اتضح فيما بعد أنه المجلizi الأصل . وعلى الفور كتب هذا الدوق إلى كونراد تفاصيل معركة بين جنده «ال بواسل » وبين قوة ضخمة للمغول ودبيجها بالبالغات . فادعى أنه كبدتهم فيها ثلاثة قتيلاثة قتيلاثة ثم كتب بعد أسبوع واحد لأسقف كونستانس ببلغه بتفاصيل المواجهة مع المغول ويرفع عدد ضحايا عدوه إلى سبعمائة^(٥٨) !

وقد مرت عدة شهور على قوات كونراد دون الاشتباك مع المغول الذين كانوا حينذاك في فترة استرخاء في وسط المجر . ولم يكن كونراد ساذجا ، كي يذهب على رأس قواته لطرد الغزاة من المجر . ومن ثم بدأ القلق يسيطر على المتطوعين في جيش كونراد . وصدرت أوامر مندوبي البابا لهؤلاء الفرسان بالعودة إلى منازلهم إلى أن يحين الوقت لدعوتهم لحملة ضد الامبراطور الذي كانت قواته تحاصر روما نفسها في ذلك الوقت . «وقبيل أن يعود الأساقفة والأمراء (المشاركون في قوات كونراد) للمناطق التي جاءوا منها ، فإنهم أخذوا كل الأموال التي جمعت للاتفاق على الجنود ووزعواها على أنفسهم»^(٥٩) !!

ولكن الرحيل المفاجئ للقوات المغولية عن شمال أوروبا وشرقيها في ربيع عام ١٢٤١ لم يعط الأمان للأوربيين الذين كانوا يتوقعون عودة الغزاة مرة ثانية ، خاصة وأن عشرات الآلاف من جنود البولنديين والمجريين لم تجد من يدفنها ، وأن حطام عشرات المدن والكنائس لم تجد من يرفعها بعد . ولهذا ظلت نذمات الذين يحيطون بالواقع التي دمرها المغول تحبوب الغرب الأوروبي لطلب النجدة ضد عدو يتوقعون قدومه ثانية .

فها هو هنري دوق ثورنجيا وساكسوني يرسل لدوق برابانت يصف له ما فعله الغزاة من خراب وتدمير « وأن الشعوب المسيحية كانت تفر أمامهم كما تفر الحيوانات أمام الأسد»^(٦٠) . وفي خطاب مشترك كتبه اثنان من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان في نهاية عام ١٢٤١ موجهاً إلى جميع قادة هاتين الهيئتين الدينيتين وأعضائهما ، وذلك لإبلاغهم بتفاصيل الدمار الذي أحدثه المغول في شمال أوروبا وقوة الغزاة وأسلحتهم^(٦١) .

وفي خطاب من مقدم دير السيدة العذراء في المجر ، مؤرخ من النمسا في يناير ١٢٤١ « إلى كل رجل دين يمكن أن يراه أو يقرأه أو يسمع عنه » للإخبار بتفاصيل اكتساح المغول لل مجر وقتلهم خمسة وستين ألفاً في هذه البلاد ، وأربعين ألف بولندي ، وعدد لا يحصى من الروس وعلى رأسهم خمسة وعشرين درقاً ، وأن الغزاة ارتكبوا المفاسد في الكنائس ولم يراعوا أية حرمات . ويتوسل الراسل - في نهاية رسالته - إلى رجال الدين أن يفتحوا صدورهم لكل اللاجئين الفارين أمام الغزاة^(٦٢) .

وينشر متى الباريسى - ضمن أحداث عام ١٢٤٣ م - خطابا مطولا من إيفو الناريونى Ivo of Narbonne إلى جيرالد رئيس بوردو ، كتبه من إحدى المدن النمساوية التى اقترب منها المغول قبل ذلك بعامين . ويتفق خطابه - فى عرض تفاصيل الغزو المغولى لأوروبا والنتائج التى ارتكبواها هناك - مع الخطابات الأخرى السابق دراستها ، ويضيف إليها بعض المعلومات الجديدة ومنها أن النمساويين قد أسروا أحد رجال القوات المغولية ويدعى بيتر^(٦٣) . ويروى عن لسان الأخير أن هدف المغول من حروبهم هو إخضاع العالم كله لسيادتهم . كما يحکى عنه تفاصيل كثيرة عن جيش المغول وتقسيماته وأسلحته . هذا فضلا عن عدم احترام المغول لنصوص المعاهدات المبرمة مع غيرهم إلى جانب تدميرهم لكل من يقاومهم^(٦٤) .

ويتساءل إيفو الناريونى - ساخرا - عن مهمة رجال الدين عامة إذا لم يكن لهم دوراً فى إنقاذ العالم المسيحي من الخطر المحدق به ، ويطلب منهم أن يصرخوا في الآذان لايقاظ الغافلين عن الخطر المغولى ، ويستذكر غفلة مستشارى الملوك والأساقفة ومقدمى الأديرة عن الدعوة لحملة صليبية ضد الغزاة ويقول أيضا :

إن ست ممالك مسيحية قد دمرت بالفعل ، وأن نفس المصير معلق على رقباب الآخرين ، بينما لم يأخذ الأحياء عظة وعبرة من الذين هلكوا ، ولكننا نحمل أسوأ أعدائنا بين ظهرانينا (أى المغول) ونهاجم هؤلاء الذين لا يؤذوننا فيما وراء البحار (أى المسلمين) . ولهذه الأسباب أرجو منك أن تتصحّح ملوك فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ... أن يدعوا جانبًا خلافاتهم الخاصة للأبد أو مؤقتا ، وأن يعقدوا اجتماعا سريعا وحكيمًا فيما بينهم كي يقرروا كيف يواجهون هذه الآلاف من البرابرة^(٦٥) .

ولكن لم تنشر كل هذه النداءات شيئا ، حتى أن متى الباريسى يقول - بعد أن نشر النص الكامل للخطاب السابق «أنسد النزاع بين الإمبراطور والبابا كل شيء» وقال أيضا أنه رغم أن هذا الخطاب قد أرعب قلوب الملوك والأمراء الذين قرأوه ، كما أثار الحماسة فيهم للانتقام من الأضرار التي لحقت بالعالم المسيحي ، فإن الانقسامات والنزاعات بين الإمبراطور والبابا نشرت القلق والفوبي في كل مكان^(٦٦) .

أما البابا جريجورى التاسع فلم يصنع شيئا لأنه شغل بالصراع مع الإمبراطور وأعوانه ولم يكن في جعبته سوى الدعوة لحملة صليبية في ألمانيا فقط ضد المغول . ولم يأخذ خطوات أخرى أكثر من ذلك ، ربما لخرج موقفه ، إذ أن قوات فردریک الثانی قبضت على أغوانه ،

ولأنها كانت تحاصره في روما . واجهت وفاة جريجورى التاسع في ٢٢ أغسطس عام ١٢٤١ م خلو الكرسي البابوى لمدة عامين تقريباً إضافة جديدة لفتور رد الفعل الأولي تجاه المغول .

فالامبراطور الذى لم يعد أمامه أية أذى يتعلل بها بعد أن ساعده القدر في التخلص من جريجورى التاسع وعدم وجود من يخلفه لمدة عامين - لم يتقدم بقواته ليعسكن بها في المجر أو في كرواتيا أو حتى على حدود امبراطوريته انتظاراً لرجوع المغول ، أو المشاركة في اصلاح الدمار الذى سببه الغزاء في كبريات المدن البولندية والمجرية . ولكنه بقى بجوار روما للضغط على الكراดาلة ، زاعماً بأن فى يده وحده إنقاذ أوروبا من غزو تشارى وشيك الوقوع لو أنهم اختاروا أحد أصدقائه من الكرادالة للكرسى البابوى (٦٧) .

ووجه أنوسنت الرابع فور اعتلاء الكرسى البابوى (١٢٤٣-١٢٥٤) اهتماماً شديداً للمسألة المغولية . فقد جدد جهود سلفه في الدعوة لحملة صليبية ضد المغول ، وأرسل مندوبه في الامبراطورية الرومانية لترغيب الفرسان وال العامة على حد سواء لحمل الصليب ضد المغول بهنحهم نفس الامتيازات المنوحة للصلبيين المتوجهين إلى الأرض المقدسة . وأرسل إلى الكرادالة في بوهيميا ومورافيا للاستعلام عن حجم الخسائر التي الحقها الغزاة بأراضيهم ، كما أرسل إلى دوق النرويج طالباً منه الانضمام لملك المجر في حالة عودة المغول لأراضي الأخير (٦٨) .

وبالاً أحد رؤساء الأساقفة الروس ويدعى بيتر لأنوسنت الرابع طالباً منه المساعدة العسكرية ضد المغول الذين حطموا الكنائس والأديرة في إقليميه . وحصل البابا الجديد على معلومات وافرة عن المغول من هذا المطران الروسي . ومنها - طبقاً لرواية متى الباريسى - أن التتر يعتقدون بوجود حاكم واحد فقط للعالم هو خليفة جنكىيز خان ، وأنهم يعتقدون أيضاً « أن God and His Son في السماء وأن جنكىيز خان في الأرض ، وأنهم يرفعون أيديهم كل صباح ناحية السماء ليعبدوا خالقهم وأنهم « يتخدون من يوحنا المعمدان قدوة لهم ، وأنهم يتوجهون كذلك عند رؤية كل قمر جديد » . كما أنهم يستقبلون السفرا بكل لطف ويسرون مهمتهم ويعيدونهم سالمين (٦٩) .

وكان هذا التقرير على درجة كبيرة من الأهمية لأنوسنت الرابع في تقرير سياسته نحو المغول ، وقيل أنه وضعه أمام مجمع ليون المسكوني في العام التالي (٧٠) ، وذلك لأن البابا وجد في أقوال المطران الروسي عن معتقدات المغول شيئاً شبهاً بالمسيحية الكاثوليكية خاصة

في الاعتقاد «بالأب والابن» في السماء وأن البابا مثل الرب على الأرض ، وكذلك رفع اليد ناحية السماء ، وتبجيل يوحنا المعمدان ، ولهذا اعتقد أن هؤلاء القوم أقرب إلى المسيحية ، وأنه يمكنه تحويلهم للدين المسيحي لأن في اعتقادهم ديانة مشتركة مع الغرب الأوروبي إنقاذاً لأوربا من أخطارهم المتوقعة . وقد شجعته شهادة المطران الروسي عن احترام المغول لسفراء وتسهيل مهمتهم على التفكير في إنفاذ مبعوثين من قبله لقادة المغول .

وقد وقعت أحداث مقلقة في الأرض المقدسة - في هذا العام أيضاً (١٢٤٤م) - أثارت الغرب الأوروبي عامة والبابوية خاصة وهي استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس . وكان أولئك الخوارزمية هم قلول الفارين أمام المغول الذين استدعاهم الأيوبيون للاستقرار في بلاد الشام . وقد ألحقو أضراراً كبيرة بالمدينة المقدسة ، واستطاعوا بعد عدة شهور إلحاق هزيمة ضاربة بقوات الصليبيين قرب غزة . وقد وصلت خطابات الصليبيين في الشرق للبابوية لطلب النجدة العاجلة^(٧١) . وقد انعشت هذه الخطابات - بإضافة المبالغات للواقع - الروح الصليبية من جديد بعد أن فترت لإساءة البابوية للصورة المثالية للجهاد الصليبي .

وتحت تأثير هذه الخطابات ، وللfoxatus التي ارتكبها المغول في شمال أوربا وشرقيها ، وخطورة الصراع مع الإمبراطور ، أرسل أنوسنت الرابع خطابات لكل القوى المسيحية للدعوة لعقد مجمع مسكوني عالمي في مدينة ليون التي كان قد لجأ إليها - مختاراً - للهرب من مدينة روما التي أصبحت تحت رحمة قوات الإمبراطور .

وبهمنا أنه في خطابه لرجال الدين في إنجلترا في نهاية يناير عام ١٢٤٥ للمدعوة لعقد هذا المجمع في العيد التالي للقديس يوحنا المعمدان ، حدد أنوسنت الرابع للمدعويين أهداف هذا المجمع ومنها «كى تجد المعونة ضد التمر»^(٧٢) .

إذا كانت جلسات هذا المجمع قد بدأت في ٢٠ يونيو من ذات العام (١٢٤٥م) فإن البابا قد أرسل عدة سفراء من قبله لقادة المغول في شمال ووسط آسيا وشرقيها قبل ذلك بثلاثة شهور تقريباً^(٧٣) ، وذلك كى يتفرغ في جلسات المجمع لما هو أهم من المغول بالنسبة للبابوية وقتذاك : وهو الترتيب لاستخدام سلاح الحرمان ضد الإمبراطور وقطعه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه . ومع ذلك ففي الخطبة الافتتاحية جلسات هذا المجمع التي حدد فيها البابا جدول الأعمال فاته بدأ بـ «وحشية التتر الهمجيين الذين دمروا العالم المسيحي»^(٧٤) .

وفي نهاية الجلسات أعلن البابا باسم المجمع القرارات التي توصل إليها أعضاؤه ومنها المادة رقم ١٦ (Canon 16) التي تتعلق بالغول . وقد ورد في مقدمتها وصفاً لوحشية الغزاة الذين « دخلوا بولندا وال مجر ومالك مسيحية أخرى ، وأحدثوا قتلاً وتدميراً لم يسبق له مثيل » . وما جاء في هذا الشأن :

وبنا، على توصية المجمع المقدس ، فاننا نتح ونذكر وندعو كل المؤمنين إلى فحص كل الطرق والمرات التي يمكن أن يعبر منها هذا الجنس (القتاري) إلى البلاد المسيحية فحصاً جيداً ليتم تقويتها بالخنادق والموانئ وكل التحصينات التي يمكن أن تكون ضرورية ... وفي حالة العودة الفعلية لهؤلاء (الغزاة) ، فيجب أن تبلغ الكتبة الرسولية بذلك في حينه ، حتى يستطيع البابا أن يحصل على معونة المؤمنين ... وسوف نساهم كثيراً في هذه التكاليف التي ترونها ضرورية ومنفعة .

ونحن نرى (أنه من الأفضل) أن يشارك كل المسيحيين من كافة الأقاليم بدرجة مناسبة لمواجهة هذا الخطر العام . كما أننا سنبعث برسائل مشابهة لهذا القرار لكل المسيحيين الذين يتحملون مير هذا الجنس السابق الاشارة إليه في أراضيهم^(٧٥) .

ولم يكن باستطاعة انوسنت الرابع أن يفعل أكثر من هذا البيان الفاتر الذي يدعوه لاتخاذ اجراءات دفاعية لتحسين الطرق التي يتحمل أن يعبر منها الغزاة إذا رجعوا ثانية لأوروبا .

والدراسة المتأخرة الفاحصة لجلسات هذا المجمع والقرارات الصادرة عنه ترجع أن البابا لم يعط للمسألة المغولية ما تستحقه من اهتمام . ومن الجلى أن لها لم تدل نفس الاهتمام الذي أعطاها لمسألة الأرضي المقدسة . فانوسنت الرابع قد للجمع الأساقفة الحاضرين من هذه البقاع ، واختار أحد الفرنسيسكان المشهورين بالبلاغة والفصاحة لقراءة الخطابات التي حملوها من الأرضي المقدسة ، والتي تصور - بعد المبالغات التي أضفت إليها - كيفية استيلاء الخوارزمية على المدينة المقدسة ، ولاغروا أن « بكى كل الحاضرين »^(٧٦) . وخرجت قرارات هذا المجمع تدعى وتبشر وتحث على إعداد حملة صليبية عاجلة لإنقاذ الأرضي المقدسة . وإنhalt التبرعات لهذا الغرض ، وتحولت ضربة العشور الصليبية لتجهيز حملة تحت قيادة ملك فرنسا وحامي مجمع ليون : لويس التاسع . وكان البابا ذكياً في التعامل مع هذه المسألة لأنّه يعرف أنها قضية مخدرة لشاعر العامة والخاصة على حد سواء ، وأن الاهتمام بها سوف يظهر هيبة البابوية وزعامتها وحرصها على كل ما يخص الدين والمسيح ، وذلك لشغف الحاضرين في

المجمع والرأي العام فيما بعد عن الترتيبات والإجراءات والقرارات التي اتخذها البابا بموافقة الحاضرين في المجمع ضد الامبراطور فردريلك الثاني من حرمائه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه الامبراطوري^(٧٧). أما بالنسبة للمغول ، فكل ما وعد به البابا هو « دعوة المؤمنين للنجدة » إذا رجع الغزاة لأوروبا .

وقد حاول البابا استغلال مأساة الخطر المغولي على أوروبا لإقناع الأمراء الروس بالانضمام تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية ثمناً لممازرتهم في حالة عودة المغول مرة ثانية وطمئناً في الاستفادة بهم في إمداد البابوية بمعلومات عاجلة في حالة تقدم الغزاة للأراضي الأوروبية باعتبار أنهم أول من سيواجه المغول في أوروبا . ولهذا فإنه منح الأمير دانيال الروسي دوق غاليسيا لقب « ملك روسيا » وتبادل معه السفراء لهذا الغرض .

وطبقاً للأرشيفات البابوية ، فإن أنوستانت الرابع أرسل الأخ الكسيوس من جماعة الرهبان الدومينikan في ٣ مارس عام ١٢٤٦م إلى ملك روسيا كي يولى الأخير أذاناً صاغية للبابا . وفي ٢٢ يناير ١٢٤٨م طلب أنوستانت الرابع من دانيال الروسي سرعة إمداد جماعة الفرسان التيوتون في بروسيا بأية معلومات جديدة عن تقدم التتر ضد العالم المسيحي . وفي نفس اليوم أرسل البابا خطاباً لقديم جماعة التيوتون في بروسيا يأمره فيه بسرعة إمداد البابا بكل ما يصله من معلومات من الأمراء الروس عن التقدم المغولي^{(٧٧) بـ} .

ولكن دانيال الروسي - الذي حضر موقعة كلكا عام ١٢٢٣ حيث هزمت فيها القوات الروسية أمام المغول وكان أيضاً شاهد عيان لما حدث بلاده من دمار في الفترة من ١٢٣٧ حتى ١٢٤٠ - لم يكن من السذاجة بحيث يعتمد على البركات الرسولية التي يبعثها له البابا من مدينة ليون الفرنسية - التي اتخذها الأخير مكاناً حتى وفاة الامبراطور عام ١٢٥٠م لأنَّه لم يكن بإمكانه حتى حماية مدينة روما نفسها . ومن ثم ذهب دانيال إلى مقر باتو عند (سرائي) نهر الفولجا حيث أقسم له يمين الطاعة والولاء ، ولهذا انقطعت العلاقات بينه وبين البابا منذ عام ١٢٤٩م . هذا بالنسبة لتطور الموقف البابوي من روسيا^(٧٨) .

أما بالنسبة لل مجر التي قتلت خط الدفاع الثاني ضد المغول فقد أرسل ملوكها : بيلا الرابع في نوفمبر عام ١٢٥٤م خطاباً للبابا أنوستانت الرابع يبلغه بالأنباء التي وصلته عن حشود مغولية قادمة لأوروبا ، ويخبره أنه لا يفتر من عمل حائط تحصينات دفاعية على نهر الدانوب لحماية أوروبا مستقبلاً من القبائل الأسيوية بصفة عامة ومن المغول بصفة خاصة . وطلب الملك

المجرى من الباب مساعدات فعلية إعمالاً لنص المائة السادسة عشر من قرارات مجمع ليون الأول ، وليس مجرد وعد وابتهالات وبركات رسولية . وأُعلن بيلا الرابع استعداده للخضوع الكامل للبابا في حالة إرسال هذه المساعدة . ولم يرد البابا ، ولم تصل المساعدة المرجوة لملك المجر . ربما لأن أنوست الرابع نفسه لم ير هذا الخطاب المؤرخ في نوفمبر - لأنه توفي في ٧ ديسمبر (١٢٥٤م)^(٧٩) وربما كان قد رأه ولكنك قمع بالاتصالات الدبلوماسية مع المغول .

السفارات المتباينة بين البابوية والمغول في عهد أنوست الرابع :

اكتسب أنوست الرابع - من الناحية الدبلوماسية - شهرة كبيرة من جراء اتصالاته مع قادة المغول . فقد أدرك هذا البابا مدى الخطر الذي يحيق بأوروبا من جراء المغول ، وليس بنفسه مدى تفكك الغرب ومدى وطأة الصراع مع الإمبراطور فضلاً عن عجزه عن تأليف قوة حربية لمواجهة هذا الخطر الداهم . ولهذا وجد أن أفضل السبل المتاحة له هو إيفاد رسل وبمبعوثين للمغول . وشجعه على تحقيق هذه الخطوة رواية بيت الأسفير الروسي عن معتقدات المغول واحترامهم للسفراء . ولهذا أرسل أربعة سفارات قبل انعقاد جلسات مجمع ليون الأول وذلك في مارس من عام ١٢٤٥م . اثنين منها من جماعة الرهبان الفرنسيسكان^(٨٠) : جون (أو يوحنا) بلاتو الكاريبي^(٨١) أو جون بيلاروس John of Plano Carpini ولوانس البرتغالي ، والأخيرتين بقيادة اثنين من جماعة الرهبان الدومينيكان^(٨٢) يقودهما آسيلين اللومباردي وأندريه لونجيجيموه .

وقد يبدو أن إيفاد سفراً من هاتين الهيئتين أمراً غريباً خاصة إذا كان الأمر يتعلق بأقوى قوة عالمية حينئذ . ولكن ارتکز هذا الاختيار إلى خبرة هاتين الجماعتين في التبشير بالدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي في شرق أوروبا وشمالها وفي شمال آسيا وغيرها ، فضلاً عن محاولاتهما توحيد الكنائس الشرقية تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم في روما . هنا إلى جانب دورهما الكبير في غرب أوروبا أيضاً ، إذا اعتمدتا عليهما البابوية في الدعاية لها عند أنصار الإمبراطور وفي جمع الهبات والضرائب الكنسية ، ولقد كان رهبان هاتين الجماعتين مندوبيين مخلصين للبابوية إلى الملوك والنبلاء ورجال الدين . ونظراً لانتشار أعضاء هاتين الجماعتين بين عامة الناس وخاصتهم على حد سواء في مختلف بقاع الغرب الأوروبي ، فإنهم أمدوا البابوية بمعلومات كاملة وسريعة عن الأوضاع في الغرب ومن ثم فإن المحافظة على هيبة البابا وعلى السلطة البابوية في القرن الثالث عشر - رغم الأزمات العنيفة التي مرت بها - يرجع إلى حد كبير إلى هاتين الهيئتين^(٨٣) .

ولهذا فإن انوشت الرابع لم يجد حوله خيراً منهم للتبشير بالدين المسيحي بين المغول وبجمع المعلومات عنهم . فهؤلاء الرهبان نذروا حياتهم للتتبشير بالدين بين «الكفرة» وأوقفوها لهذا الغرض رغم ما يتطلب ذلك من عبر آلاف الأميال في الغابات والأحراش والقفارى بدون مئون أو عتاد ، ودون الخوف من موت محقق بسبب الجوع أو الحيوانات المفترسة أو بسيوف المغول .

بعثات الفرنسيسكان :

كان مقرراً لبعثة لورانس البرتغالي السفر إلى المغول في ٥ مارس عام ١٢٤٥م ، ولكن البابا غير مسارها إلى الشرق اللاتيني لتؤدي رسالة أخرى . كما حملت خطابات منه إلى الأمراء المسلمين في بلاد الشام وآسيا الصغرى لخthem على اعتناق الديانة المسيحية ، وكان من مهامها أيضاً إقناع رجال الدين النساطرة واليعاقبة والإغريق لتوحيد كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية في روما . ومن ثم فإنها لا تدخل في نطاق هذا البحث ^(٨٣) .

بعثة يوحنا الكاريبي (١٢٤٧-١٢٤٩م) :

تعد سفارة يوحنا (جون) بلاطو الكاريبي واحدة من أشهر بعثات البابوية للمغول وذلك لأنها أول بعثة أوروبية تصل إلى قراقورم : عاصمة الإمبراطورية المغولية ، وأول فرصة للاحتكاك المباشر وتبادل المعلومات بصورة علنية ومكتوبة بين المغول وأوروبا . وترجع أهمية هذه السفارة أيضاً إلى دقة وغزارة المعلومات التي دونها الرحالة الفرنسيسكاني - في تقريره الذي قدمه إلى البابا - عن حياة المغول ونظمهم الاجتماعية وجيوشهم وخططهم الحربية ، ومعتقداتهم الدينية ، وشرائعهم ، وطريقة غزوهם ، وأسلوب حكمهم للبلاد التي احتلوها ، فضلاً عن معلومات جغرافية وتاريخية لم تكن معروفة للغرب الأوروبي من قبل عن مناطق وسط آسيا وشرقها . كما أن الكاريبي ورفاقه الذين حضروا حفل تنصيب كيوك خان خاقانا على المغول في أغسطس عام ١٢٤٦م قد تقابلوا مع كبار قادة المغول وتحدثوا معهم لأول مرة واستمعوا إليهم ، ونقلوا للغرب الأوروبي ما سمعوه ورأوه . ومن ثم فإن هذه السفارة قد وضعت الأساس للاتصالات السياسية والتجارية والدينية بين المغول والغرب الأوروبي في المائة عام التالية .

وقد غادر الكاريبي ورفاقه مدينة ليون الفرنسية - حيث مقر البابا المؤقت - في ١٦ أبريل عام ١٢٤٥م ، وفي ٢٢ يوليه ١٢٤٦ وصلوا إلى خيمة المغول قرب فرافقورم ^(٨٤) .

ويشرح الم Burton البابوي الأهداف الكاملة لسفارته - في تقريره - من خلال حديثه مع أول قائد مغولي يقابلة في جنوب روسيا قائلاً :

عندما تقدمنا إلى خيّتهم ، فإن رؤسائهم قابلونا وسألونا عن سبب مجئتنا لهم وما هي مهمتنا عندهم . ونحن أجبنا قائلاً : إننا مبعوثون من السيد البابا : سيد وأب لكل المسيحيين - وأرسلنا إلى ملوك القبر وأمرائهم ، لأن رغبته أن يكون كل المسيحيين أصدقاء للقبر ، وأن يكونوا في سلام معهم . كما أنه يرغب أن يكون للقبر عظماً أمام الرب في السماء أيضاً (مثلكم هم في الأرض) . ولهذا فإن السيد البابا يعثّم - سواء عن طريقنا ، أو من خلال الخطابات التي أرسلها معنا لهم - كي يكونوا مسيحيين وأن يعتنقوا دين سيدنا عيسى المسيح ، وإلا فانهم لن ينتقدوا (من الهلاك في الآخرة) . كما أن البابا يبلغهم باستيائه من المذابح الوحشية للناس من القبر ، خاصة رعاياته من المسيحيين المجريين والمورافيين والبولنديين ، وذلك لأنهم لم يحدّثوا ضرراً للقبر بل ولم يحاولوا أن يضرّوهم . ولأن السيد البابا قد أُوذى بصورة محزنة من جراء ذلك ، فإنه يعثّم على تحجّب ارتكاب هذه الأفعال (الآثمة) في المستقبل ، وأن يكفروا عن خطایاهم السابقة . ونحن (أي السفراء) أضفنا لذلك أن السيد البابا طلب منهم (أي من قادة المغول) أن يكتبوا له عما يريدونه في المستقبل ، وما هي نوایاهم وأن يعطوننا الإجابة في خطاب عن كل النقاط الواردة بعالیة ^(٨٥) .

ومن ثم فإن أهداف سفارة هنا الكاريبي يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

أولاً : دعوة المغول لاعتناق المسيحية .

ثانياً : التساؤل عن سبب المذابح التي اقترفوها ضد الدول الكاثوليكية.

ثالثاً : جمع المعلومات عن أهداف المغول في المستقبل وطلب هذه المعلومات من قادة المغول شخصياً أو عن طريق شخص السفير .

وعند وصول أعضاء السفارة البابوية إلى العاصمة المغولية فإنهم انتظروا حتى انتهت مراسم تعيين الخاقان الجديد : كيوك خان (١٢٤٨-١٢٤٦م) الذي تم في مجمع مغولي عام (قريلتاي) حضره عدد كبير من المبعوثين والسفراء من معظم أنحاء آسيا وشرق أوروبا - قدرهم كاريبي بأربعة آلاف مدعو ^(٨٦) . ويصف الكاريبي مراسم تولي كيوك خان للسلطة ، وكذلك الهدایا الفاخرة التي قدمها له هؤلاء السفرا - رغم أنوفهم بطبيعة الحال - وكيف أنه وجد العديد من الأسرى الروس والجريين الذين يعرفون اللغتين الروسية واللاتينية ويشغلون وظائف لدى المغول و «عن طريقهم عرف القبر كل شيء عن أوروبا» ^(٨٧) .

وقد حمل يوحنا الكاريبي خطابين من البابا : أولهما مُؤرخ في ٥ مارس ١٢٤٥ م وهو خطاب غير موجه لشخص معين بل مفتوح لكل المغول .

والخطاب الثاني مُؤرخ في ١٣ مارس وموجه إلى «امبراطور التتار» دون تحديد اسم معين لأنّه لم يكن معروفاً وقتذاك شخص الخاقان الجديد .

وقام البابا - في الخطاب الأول - بشرح خطبته آدم ورسالة السيد المسيح «الذى تنازل وعاش بين البشر ول يكون فداء عن خطاياهم» وبعد قيامته ترك لبطرس وخلفائه سلطان الخل والعقد على الأرض وفي السماء . وأبلغ انوسنت الرابع المغول أنه لهذا السبب أرسل مبعوثيه لهم وهم على درجة كبيرة من التقوى والدرأة بالكتاب المقدس . وطلب البابا من امبراطور المغول وأمرائهم الاستماع إليهم لعلهم «يعتنقوا شعائر عيسى المسيح ابن الله ويبجلوا اسمه المجيد ويمارسوا العقيدة المسيحية» . وطلب البابا من المغول حسن معاملة الرسل كأنهم يعاملون الراسل شخصياً ، ويزودونهم بالمؤن والمساعدات إبان رجوعهم . وفي نهاية رسالته قال انوسنت الرابع إنه يعتقد «أن هؤلاء سيكونون مصدر عنون كبير للمغول ، لأنّهم في تواضعهم يقتفيون أثر منقذنا» ، وأنّه لن يتتردد في إرسال المزيد من رجال الدين الأقوية للمغول لو علم أنّهم سيكونون مصدر نفع وقبول عندهم (٨٨) .

ومن الواضح أنّ هدف هذا الخطاب هو دعوة المغول لاعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، لأنّه لو تحقق هذا الأمر فان زملاءهم في الدين سيامنون جانبيهم وريما يستفيدون بهم ضد أعدائهم ، وكان بهم انوسنت الرابع مخاطبة قادة المغول في ذلك الأمر لأنّ في اعتناقهم المسيحية ، انتشاراً لهذه العقيدة بين الملايين من رعاياهم . ولهذا فان البابا يبلغهم باستعداده لإرسال المزيد من رجال الدين لو وجد منهم استجابة لهذا الأمر .

وفي الخطاب الثاني المُؤرخ في ١٣ مارس عام ١٢٤٥ م والموجه «لامبراطور» المغول شخصياً، يبدأ انوسنت الرابع بابداً دهشته وانتقاده لغزو المغول للكثير من المالك المسيحية وتدميرها وقتل سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعها . ولهذا فانه مقتفيًا أثر «ملك السلام» ورغبة في أن يعيش كل البشر في وئام ويخشون رب (فقط وليس المغول) «فإن البابا يحثهم ويرجوهم الإقلاع عن هذه الاعتداءات وخاصة على المسيحيين والتکفير عن الخطاب السابقة ، لأنّهم لو لم يفعلوا ذلك فانّ رب سينزل عليهم عقابه في الدنيا والآخرة . ويكرر انوسنت الرابع طلبه السابق بحسن معاملة السفراء والتناقش معهم في المسائل التي

تخص السلام بين الطرفين، وأنه على المغول إبلاغ البابا (كتابة) بالأسباب التي دفعتهم إلى تدمير الشعوب الأخرى ، وكذلك أحاطته علمًا بنوياهم في هذا الشأن مستقبلا . وفي نهاية رسالته طلب البابا إعادة المبعوثين مزودين بالمؤن والضروريات حتى يعودوا إليه سالمين (٨٩).

وهذا الخطاب السياسي يعكس وضع البابوية في العصور الوسطى المتأخرة التي كانت لا تترك ما لقيصر لقىصر، ولكنها كانت تعزل الملوك وتعين غيرهم ، وتعتبر نفسها مسؤولة عن أرواح «المؤمنين» وكذلك عن علاقاتهم بملوكهم وشئونهم الدينية . فها هو انوسنت الرابع يرى أنه إذا كان مسؤولاً عن «هدایة أرواح البشر جميعاً» ، فإنه مسؤول أيضًا عن أمن بولندا وال مجر ومورافيا ، و يجعل سفراً يتفاوضون باسمه في مسائل سياسية خاصة بأمور الحرب والسلام ، ولم يترك هذا الأمر مثلاً لسفراء من قبل السلطة العلمانية في إنجلترا أو فرنسا أو الإمبراطورية الرومانية ، وهذا التصرف يعكس وضع البابوية وقذفها في الهيمنة على الشؤون الروحية لغرب أوروبا والتدخل أيضًا في الشؤون السياسية .

وتحمة ملاحظة أخرى - ألا وهي اللهجة العنيفة في انتقاد تصرفات المغول في شرق أوروبا ، وهي لهجة لم يتعد - من يعتبرون أنفسهم - سادة العالم على سماحتها . ولهذا فإنه مجرد اعتلاء الخاقان الجديد العرش المغولي في ٢٤ أغسطس عام ١٢٤٦ ، استمع - عن طريق المترجمين - للخطابات البابوية ، وظهر الامتعاض على وجهه ، حتى أن بلاتو الكاريبي يقرر أنه لم يشاهده - ضاحكاً أو حتى متباًساً . وأمر بسفراء البابا - الذين تعودوا على كرم الضيافة في قراقورم أربعة أسابيع كاملة قبيل اعتلاء كيوك خان العرش - أن يوضعوا في مكان أشبه بالسجن حيث حرموا من الطعام والشراب حتى كانوا يتضورون جوعاً لولا أن قدم لهم أحد الروس - الذين يعملون في خدمة المغول - الطعام خفية . ولهذا فإن المبعوث البابوي كتب يقول أن الخاقان «كان يود إعلان الغرب على العالم الغربي» في اليوم التالي لمقابلته . ومعرفته لفحوى خطابات البابا (٩٠).

وهكذا كانت سياسة البابوية من وراء إرسال بعثة بلاتو الكاريبي تهدف إلى محاولة إقناع قادة التتار لاعتناق المسيحية والانضواء تحت لواء البابوية وبذلك تضمن كسباً كبيراً لأوروبا وللمسيحية الكاثوليكية ، وكذلك استطلاع نواياهم إزاء الغرب الأوروبي (٩١) . وجُمِعَ كل المعلومات عنهم لبحث أفضل السبل لاستبعاد خطرهم أو الاستعداد لهم . ولكن ليس هناك أية إشارة على الإطلاق سواه في تقارير بلاتو الكاريبي أو زميله بندكت البولندي أو في

خطابي اتوسنت الرابع المشار إليهما بعاليه لمسألة «إشراك التهار مع اللاتين في القيام بحرب صليبية عامة لانتزاع الأرضى المقدسة من الحكم الإسلامى»^(٩٢). وذلك لأن البابا فى أول اتصال مباشر مع المغول - الذين كانوا يعرفون فى أوروبا باسم ترتار وهو تعبير لاتينى يطلق على الشيطان - كان يحتاج بشدة على المذابح الجماعية من المغول ضد رعاياه ، ومن ثم فليس معقولا أن البابا أو حتى مبعوثيه فكروا فى تحويل المغول فى لقاء واحد من ألد أعداء أوروبا إلى حلفاء لهم . ولكن فكرة التحالف هذه جاءت بعد ذلك بعده سنوات فى خطاب يشك الباحث فى صحة نسبته لقادة المغول^(٩٣).

ومهما يكن من أمر فقد جاء الرد المغولى محبطا للأمال . ورغم وجود نسختين - بينهما بعض الاختلافات^(٩٤) - للخطاب الذى أرسله الخاقان المغولى للبابا اتوسنت الرابع فى نوفمبر عام ١٢٤٦م، فليس هناك خلاف فى العناصر الأساسية لمضمون الرد المغولى .

وردا على طلب البابا بعقد سلام بين الطرفين يقول الخاقان للبابا (طبقا للنص الفارسى) :

عندما يصلك أمرنا ، فانك أيها البابا تحضر مع جميع الأمراء (يقصد ملوك الغرب الأوروبيى) بصفة شخصية لخدمتنا ، وحينئذ فإنهن سوف أبلغك جميع أوامر البابا^(٩٥).

(وطبقا للنص اللاتينى) :

أنه بعد ما اتفقتم على عقد السلام معنا ، فانك أيها البابا وجميع الأمراء قد أرسلتم لنا بمعوثرنا كما سمعنا منه وكما أعلنت خطاباتكم . وحيثما تكونوا ، فانكم لو رغبتم فى سلام معنا ، فانكم : البابا وجميع الملوك والحكام تحضرون إلينا بدون تأخير كى توقعوا بنود هذا السلام ، وحينئذ سوف تسمعون أيضا إجابتنا وإرادتنا^(٩٦).

وهكذا فإن الخاقان المغولى طلب من البابا وملوك الغرب الأوروبيى أن يحضروا بأنفسهم ليقدموا له فروض الولاء والطاعة - مثلما فعل معظم حكام آسيا حرفا أو سلما - ويرکعوا أمامه وليوعدوا له الجزية عن رعاياهم وهم صاغرين .

وردا على طلب البابا بأن يستمعوا لمبعوثيه ومواعظه ويتنصروا على يديه فإن الخاقان المغولى يقول - طبقا للنص الفارسى - « وأنتم تقولون أنكم قدمتم (النا) الصلوات والابتهالات كى أجد مدخلا طيبا للمعمودية ، ولكنى لم أفهم صلواتكم »^(٩٧). ولكن الكاريبينى ينقل هذه العبارة - فى ترجمته اللاتينية - كالأتى « أن محتويات خطاباتكم تقول

أنه لابد وأن نعمد ونصبح مسيحيين وعلى هذا نجيب باختصار أننا لم نفهم بأية طريقة يجب أن نفعل ذلك»^(٩٨).

والاختلاف البسيط هنا بين النصين ر بما يكون متعمداً من الكاريبياني نفسه ، وذلك لأن النص الفارسي - الرسمي - يدل على رفض قادة المغول الدخولة البابا للدخول في المسيحية ، ولكن إضافة الم Burton البابوي لكلمته « إننا لم نفهم بأية طريقة يجب أن نفعل ذلك » ، تدل على أن المغول لم يرفضوا الدخول في الديانة المسيحية ولكنهم فقط لايفهمون ممارسة شعائرهم. والكاريبياني - باعتباره أحد أعضاء جماعة الفرنسيسكان ، ووظيفته التبشير بالدين المسيحي بين من لايعتنقه - لم يرد أن يغلق باب دخول المغول في دياته ، ولكنه تركه على الأقل مواريا ، بدليل أنه في تقريره - الذي رفعه إلى البابا فور عودته - ركز على رؤيته لكثير من المسيحيين في عاصمة الخاقان وقصره ، وأنه سمع من بعضهم أن الخاقان نفسه «على وشك أن يكون مسيحيا » ويدلل على صحة وجهة نظر من نقل عنهم هذا الرأي بأن كيوك خان يستخدم كثيراً من المسيحيين في الوظائف الهامة وأن هداباه لهم عبارة عن متعلقات مسيحية ، وأنه يحتفظ بجوقة ترتيل Chapel أمام خيمته الرئيسية ، وأنهم يرتدون على الطريقة الإغريقية ، وأن كثيراً من التتر يستمعون لهذه التراتيل^(٩٩).

ويمضي الخاقان - في رسالته إلى لبابا - قائلاً :

وفي بقية محتويات رسائله تتوجه من المذايak الكثيرة للبشر خاصة المسيحيين البولنديين والمرافئيين والجريئين منهم ... فذلك لأنهم لم يطبعوا كلمة الرب وأمر جنكيز خان والخان (أو جودا ١٢٤١-١٢٢٩) ولكنهم اتفقا على قتل مبعوثينا (إليهم) ومن ثم فان الرب أمرنا بأن ندمّرهم وأعطيهم لأيدينا ... وكيف يستطيع أي فرد أن يأس أو يقتل معتقداً على قوته (فقط) على غير مشيئة الرب ؟ ... فالأرض التي تقع بين شرق الشمس وغروبها قد خضعت لسلطانى . ومن يستطيع أن يفعل ذلك على غير مشيئة من الرب ؟ ولكنكم يا معاشر الغرب تعتقدون أنكم فقط مسيحيون وتحتقرن الآخرين^(١٠٠).

وفي هذه الفقرة يؤكد كيوك خان بأن تدمير المالك المسيحية - وبالتأكيد الإسلامية أيضاً - قد تم بأمر من الرب الذي أبلغه إلى جنكيز خان ، وأنه ينفذ مشيئة الرب في إخضاع العالم لخلفائه . وهذه اللهجة توضح اعتناق المغول لفكرة السيادة العالمية وأنهم مبعوثون من قبل السما . حكم العالم بأجمعه . وعلى الرغم من أن شعوبنا كثيرة ما زالت غير خاضعة

لحكمة ، فانهم يعتبرونها أعضاء داخلون لا محالة في الامبراطورية المغولية العالمية ولهذا فالخاقان اعتبر الشعوب الأوربية التي دمروها شعورياً متمردة على حكم السماء^(١٠١) ، ومن ثم استحقت القتل والتدمير بواسطة المغول الذين أخضعوا الأرض من شرق الشمس حتى غربها بموافقة السماء^(١٠٢) .

وفي نهاية رسالته يبلغ الخاقان أنوشت الرابع بما هو آت :

والآن يجب أن تقول بقلب صادق : سوف أخضع لك وأخدمك ، وأنت بنفسك على رأس جميع الأمراء (الملوك) تأتون في الحال لخدمتنا وتنتظرون (على أبوابنا) . وفي هذه الحالة فانني سوف أقبل خضوعكم ، ولو لم تطع أمر الرب ، ولو تتجاهل أوامرنيسوف أعرف أنك من أعدائي . وفي هذه الحالة لا أعرف ماذا سبحدث (لك) فالرب وحده يعلم^(١٠٣) .

ومسألة اعتناق المغول لفكرة السيادة على العالم لم تكن غائبة عن المبعوث البابوي ، ففي موضع آخر من تقريره للبابا يقول «أنهم تلقوا الأوامر من جنكيز خان باخضاع كل العالم لهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً» . ويقول الكاريبيني أن كيوك خان كتب للبابا - لهذا السبب أيضا - عبارات «بقوة الرب ، امبراطور كل البشر» ، وأن ختم الخاقان على الخطاب «الرب في السماء ، وكيوك خان على الأرض ، ختم امبراطور كل البشر» . ومن ثم يفسر المبعوث البابوي رفض المغول إبرام أي سلام مع أي شعب احتكوا به إلا بعد خضوعه التام لهم باعتقادهم أنهم سادة البشر^(١٠٤) .

وبناء على ما تقدم ، فإن بلاتو الكاريبيني يحذر البابا بأن الدور سيحل على الغرب الأوروبي ، لأن الخاقان السابق كان ينوي إخضاعه لولا وفاته مسموماً ، ولهذا فهو يناشد البابا وملوك الغرب بتوحيد الصفوف وجمع الجيوش الجرارة تحت قيادة مشتركة ليقاتلوا المغول قبل دخول الآخرين للأراضي الأوربية ، لأنهم - طبقاً للكاربيني أيضاً - لو قاموا بغزو أوروبا فإن كل حاكم سيشغل بالدفاع عن بلاده ولن يستطيع مساعدة الآخرين . ولو حدث ذلك فانهم لن يصدوا أمام الغزاة^(١٠٥) .

ولا غرو أن المبعوث البابوي رفض اصطحاب سفراً للمغول معه إلى الغرب الأوروبي رغم طلب المغول ذلك . وفي تبريره لهذا التصرف أورد الكاريبيني عدة أسباباً :

أولاً : « خشينا أن يروا (أى سفراً المغول) الخلافات والخروب المنتشرة بيننا وهذا يشجعهم على مهاجمتنا » .

ثانياً : خشية أن يكون الهدف الحقيقي للمغول من إرسال السفرا ، هو التجسس على الغرب .

ثالثاً : أن جموع الأوربيين كانوا وقتذاك في حالة غليان من جراء تدمير المغول لعشرات المدن والكنائس والأديرة وذبح عشرات الآلاف من السكان بلا رحمة أو تفرقة . ولهذا خاف الكاريبي من مقتل أو أسر سفراً المغول بواسطة هذه الجموع الفاضحة وليس معه قوة تحميهم . ولهذا فهو يقرر أن من عادة التتر عدم عقد أى سلام مع الشعوب التي تقتل سفراً هم حتى ينتقموا منهم بالذبح والأسر (١٠٥) .

ولهذا فضل المبعوث البابوي قيامه بهمة نقل رسالة المخاican السابق ترجمتها وذلك لتجنب مخاطر اصطحاب السفرا ، وأن الرد المغولي نفسه لا يشجع على تبادل السفرا .

وهكذا رجعت هذه السفارة بخفى حنين . فالخطاب الذى كتبه كيوك خان إلى البابا يخاطبه فيه كأحد اتباعه . وعادت البعثة من نفس الطريق الذى قدمت منه ، حتى وصلت إلى مدينة ليون فى نوفمبر عام ١٢٤٧ م ، ورغم ذلك قريلت بحفاوة بالغة من البابا وذلك بسبب المعلومات غير المسبوقة التى قدمت له عن المغول من خلال تقرير السفير . ومن ثم أوفد البابا بلاتو الكاريبي إلى لويس التاسع فوراً لإبلاغه تفصيلاً بنتائج سفارته وببعض المهام الأخرى المتعلقة بحملة الأخير الصليبية التى كانت ستقلع من فرنسا عن قريب (١٠٦) .

سفارات الدومينikan :

أما عن المبعوثين الدومينيكان الذين أرسلهم البابا أنوشت الرابع للمغول عن طريق منطقة الشرق الأدنى ، فمعلوماتنا قليلة عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى ، ولكن التقرير الذى تركه سيمون أوف سانت كويينتين Simon of Saint- Quentin رفيق آسيلين اللومباردي فى بعثته لغرب آسيا ووسطها ، جعلت سفارتهم محظى بشهرة قريبة من سفارة بلاتو الكاريبي .

أولاً : بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى :

ما نعرفه عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى أن البابا أنوشت الرابع أرسله على رأس مجموعة من الرهبان الدومينيكان عام ١٢٤٥ م لتسليم رسائله لقادة المغول فى فارس وآسيا

الصغرى ، وكتابة معلومات وافرة عنهم ، وكذلك تسليم رسائل منه للأمراء المسلمين في بلاد الشام والعراق وإيران ودعوتهم لاعتناق الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، وكذلك إبلاغ خطابات أتوسنت الرابع إلى كبار رجال الدين النساطرة واليعاقبة والأرثوذكس تدعوهم للاتضواء تحت لواء البابوية^(١٠٧).

ولايهمنا هنا تسجيل مدى نجاح أو فشل هذهبعثة مع الأمراء المسلمين أو رجال الدين المسيحي : الأرثوذكس والنساطرة واليعاقبة^(١٠٨) ، ولكن يهمنا أن أندريله لونجيجومه قد تقابل مع فرقة مغولية في منطقة تبريز ، وقام بتسليم خطابي البابا لقائد هذه الفرقة الصغيرة ، ولكنه فشل في مقابلة القائد المغولي بايجو Baijou في غرب آسيا^(١٠٩) . ومن ثم رجع هو ورفاقه إلى مدينة ليون الفرنسية مقابلة البابا عام ١٢٤٧م . ويعتقد البعض أن الخطابات البابوية لم تصل إلى بايجو أو الخاقان المغولي نفسه في قراقرم . ومن ثم فان النجاح الذي حققه هذهبعثة يتمثل في لقائهما بأسقف النساطرة في تبريز والحصول على معلومات عن خطة المغول في غزو العالم وعن روايات جديدة لأسطورة الكاهن يوحنا^(١١٠) .

ثانياً : بعثة آسيلين اللومباردي:

ترأس الراهب آسيلين اللومباردي البعثة الثانية من جماعة الرهبان الدومينيكان إلى الشرق وقد غادرت هذهبعثة مدينة ليون الفرنسية في مارس أو أبريل عام ١٢٤٥م ، ورجعت لنفس المكان في سبتمبر أو أكتوبر عام ١٢٤٨ بعد غياب ثلاثة أعوام وسبعة شهور تقريباً^(١١١) .

وهذهبعثة - مثل بعثة أندريله لونجيجيم الأولي - أرسلت لمنطقة الشرق الأدنى ، وذلك لخشية البابا أن يفشل اندريله في الوصول إلى المغول من الشمال فيستطيع آسيلين توصيل خطابات البابا لقادة المغول من طريق آخر أقل خطراً . وقد استطاع المغول في هذه الفترة إخضاع مملكتي جورجيا الصغرى وأرمينيا الصغرى المسيحيتين : الأولى بعد السيف والثانية طواعية واحتياراً . ولهذا خشي البابا من أن يكتسح المغول أملاك الصليبيين ومواقعهم في الأرضي المقدسة ، ولهذا أرسلت هاتين البعثتين المنفصلتين^(١١٢) للتتفاهم مع الغزاة ، وكذلك لتوحيد الكنائس الشرقيّة تحت لواء البابوية ، وجمع معلومات عن نية المغول وأهدافهم في غرب آسيا ، كما كانت البابوية تهدف من وراء ذلك حث المغول على اعتناق المسيحية الكاثوليكية والتکفیر عن ذنوبهم والکف عن قتل السكان المسيحيين أو تدمير أملاکهم والدعوة إلى حسن معاملتهم^(١١٣) .

ولما كان آسيلين اللومباردي قد خرج من مدينة ليون بمفرده ، فانه أشرك معه أربعة من الرهبان الدومنيكان من الأديره التي كان ير بها حتى أصبحت البعثة تتالف من خمسة أفراد أهمهم آسيلين نفسه ، وسيمون أوف سانت كوينتين ، وجوشارد دي كريمونا وكان الأخير من أعضاء الدومنيكان في تفليس عاصمة جورجيا المسيحية ويجيد لغات تلك المنطقة ويعرف عادات سكانها وتقاليدهم ، وعن طريقه حصل السفراء على معلومات تاريخية هامة دونها سيمون في تقريره عن غزو المغول لآسيا الصغرى .

ومن مدينة أبياس عبر السفراء أرمينيا وجورجيا حتى تقابلوا مع القائد المغولي في آسيا الصغرى في منطقة سيسان Sisiens (أو) قرب الشط الجنوبي الغربي لبحر قزوين شمال تبريز . ولما كانت تعليمات البابا لهم بتسليم رسائله لأول قائد مغولي يقابلونه ، فان بعثة آسيلين سلمت هذه الخطابات للقائد بايوجو Baiju (وينطق أحبيانا أو Baiotney) الذي طلب من الرسل التوجه شرقا لتسليمها إلى الخاقان شخصيا (١١٤).

ويصف سيمون أوف سانت كوينتين ما حدث لهذه البعثة في مقر القائد المغولي في يولية عام ١٢٤٧م وكيف رفض الرهبان الركوع للقائد المغولي بحججه أنهم مثلوا الأب الأعلى لكل المسيحيين على الأرض . كما أن عدم إحضارهم هدايا - كما تعود المغول من بقية السفراء - تعنيهما عن الولاء للمغول - حمل بايوجو على أن يصدر حكمه بإعدام أعضاء البعثة كلها . ولكن بعض قواه اقتربوا لإعدام بعضهم - ومنهم آسيلين نفسه - وإرسال رؤوسهم مع الأحياء منهم للبابا . ولم ينتقدهم من هذا المأزق سوى وصول مبعوث من الخاقان المغولي في قراقورم وهو الجيجداي Eljigidei وكان على دراية ببعثة بلاتو الكاريبي إلى قراقورم ورد الخاقان عليها في العام السابق . وطلب الجيجداي من بايوجو إطلاق سراح آسيلين ورفاقه والرد على الرسائل التي حملوها من البابا بثل ردود الخاقان على الأخير مع بلاتو الكاريبي ، ولهذا كانت إحدى الرسائلتين اللتين بعث بهما بايوجو للبابا مائة تقريرا لسابقاتها ، حيث طلب بايوجو من أنوست الرابع المثول بنفسه أمام «سيد البشر» في قراقورم . وفي رسالته الثانية ندد بايوجو للبابا من غطرسة السفراء ورفضهم الرکوع أمامه وحمّاقاتهم المتكررة بقولهم أن سيدهم أعلى مقاما من الخاقان نفسه (١١٥).

وبناء على طلب الرهبان فان بايوجو أرسل معهم اثنين من السفراء ، هما أبيج Ai-beg وسرجييس ، ويعتقد أن الأول من أصل تركي ، والثانى نسطوري ، وذلك لتوصيل رسائله للبابا ، وريا للتجسس على الغرب (١١٦).

وهكذا فشلت بعثتا الدومنيكان - مثلما فشل الفرنسيسكان من قبل - في تنصير المغول . أو تحقيق تقارب معهم أو حتى حثهم على وقف اعتدائهم على المسيحيين . والنجاح الوحيد لهذه السفارات ينحصر في التقارير والمعلومات التي حملها الرهبان للغرب الأولى عن المغول وحياتهم وعقائدهم ونظمهم الاجتماعية والقانونية ، إلى جانب المعلومات التاريخية والجغرافية الكثيرة عن المناطق التي زاروها والطرق التي ارتدواها . وكان لهذه المعلومات أثيرها المباشر على فتح طرق التجارة أمام تجار المدن الإيطالية ، وكانت هذه البعثات رائدة لغيرها من بعثات تبشيرية في المائة عام التالية » .

والهم أن سفارة بايجو وصلت - برفقه بعثة آسيلين اللومباردي - إلى مدينة ليون الفرنسية في سبتمبر أو أكتوبر عام ١٢٤٨م . ويقرر متى الباريسى في حوادث ذلك العام «أن مبعوثين تاريين قد حضرا من قبل أميرها إلى البابا» ويقرر متى الباريسى أيضًا أن البابوية قد أحاطت السفارة المغولية بالكتمان الشديد ، « وأن الرسائل التي حملتها قد ترجمت من لغة غير معروفة ». ويفض النظر عن تأويلات متى الباريسى لغرض هذه السفارة ، فإن البابا قد تقابل مع سفيرى بايجو وعقد معهما عدة اجتماعات ليعرف مدى استعداد المغول لاعتناق المسيحية ، وبعد ذلك سمح لهما بالعودة ، بعد أن زودهما بالرسائل والهدايا للقيادة المغول ومنع البابا هدايا «من الذهب والفضة» لشخصى السفيرين طبقاً لرواية متى الباريسى^(١١٧).

وكانت رسائل أنسنت الرابع إلى بايجو وزملائه تمايل في المضمون تقريراً تلك التي حملها بلاط الكاريبي للخاقان المغولي قبل ذلك بثلاثة أعوام . فيبعد أن أبلغ المرسل إليهم باستقباله الحار لسفرائهم ، ذكر أن من واجبات منصبه السامي أن يحقق الوحدة بين كل البشر أمام رب لتخلص أرواحهم من الذنوب قبل الموت المحقق . ولهذا - على حد قول البابا - فهو قد أرسل المبعوثين ليشرحوا مبادئ العقيدة لهم . ومضى البابا يقول إن استمرار العناد المغولي جعله يشعر بالقلق والألم معاً ، ومن ثم فهو يعاود حثهم على اعتناق المسيحية لأنهم بذلك سوف يتوقفون عن سفك الدماء خاصة ضد المسيحيين لأن هذا «عمل عدائي ضد الرب»^(١١٨) .

وهكذا فإن كل الردود التي تسلّمها أنسنت الرابع من المغول تأمّره بالمشور بين أيديهم والاعتراف بأنه أحد أتباعهم وتقديم الطاعة والولاء والجزية لهم . كما أن رسائله إليهم كانت تدعوهם لاعتناق المسيحية ، والكف عن قتل المسيحيين (لأنه لم يكن بهم غيرهم) . وتعتبر السفارة المغولية برفقة آسيلين اللومباردي هي السفارة المغولية الأولى للغرب . ولكن البابوية

لم تجد ما يشجعها على الاستمرار في إرسال السفارة للمغول خوفاً على حياتهم ، وذلك لأن أعضاء بعثة آسيلين نفسها كان مُقرراً لهم الإعدام. وهكذا فشلت البعثات في عهد أنوشت الرابع في تحقيق الأهداف السياسية والدينية المرجوة. لأن الجانبين كانوا على طرف تقىض فكلاهما كان يدعى السمو على الجانب الآخر والسيطرة على العالم ، وكلاهما ادعى أنه مثل السماء على الأرض ، وأن قراراته لها صفة القداة. كما أن المغول لم يكونوا حتى ذلك الوقت بحاجة إلى التعاون مع الأوروبيين أو التفاوض معهم . فانتصاراتهم كانت كاسحة ، وجيوشهم لا يقف أمامها أحد ، وأمر رئيسهم الأعلى نافذ على الجميع، ولم تكن امبراطوريتهم الواسعة قد قسمت بعد إلى عدة أقاليم متنازعة .

الاتصالات بين المغول ولويس التاسع^(١١٩) :

كان أول رد فعل إيجابي من المغول تجاه الغرب الأوروبي مرتبطة بحملة الملك الفرنسي لويس التاسع على مصر (١٢٤٨ - ١٢٥٠) فيقول جوانفيلي - الذي كان مراقبنا للحملة الصليبية السابعة ومؤرخها - أنه « بينما كان الملك مقيماً في قبرص أ Ferdinand إلى ملك التتار العظيم رسولين من قبله يحملان له رسائل طيبة كريمة وكان من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لمساعدة الملك (الفرنسي) في غزو الأراضي المقدسة وتخلص بيت المقدس من أيدي المسلمين »^(١٢٠).

وثمة شكوك كثيرة حول حقيقة إرسال هذين «الرسولين» برسالة من قبل أى قائد مغولي في وسط آسيا أو آسيا الصغرى أو في قراقورم لعدة أسباب منها : -

أولاً : أن السفيرين داود ومارك - وهما موظفون من بايجرو - من المسيحيين النساطرة وليسوا من المغول أو واحداً منهم على الأقل ، مثلما كان الأمر في أول بعثة مغولية للغرب. إذ كيف يأمن المغول - وهو في أوج قوته - أن يتفاوض أثنان من رعاياهم من السكان المحليين باسمهم مع الغرب الأوروبي - تلك المنطقة التي كانوا يخططون للاستيلاء عليها - كما يقول بلانو الكاريبياني نفسه ؟ .

ثانياً : أن الخطاب الذي حمله هذا السفيران إلى لويس التاسع في قبرص - حسبما أوردده متى الباريسى^(١٢١) ، يختلف نصه جملةً وتفصيلاً عن الخطابات التي أرسلها نفس الخاقان : كيوك خان إلى البابا مع بلانو الكاريبياني وتلك التي أرسلها بايجرو ومعه الجيجداي - El jijidei - القائد المغولي الجديد في فارس - إلى الباب . وقد درسنا آنفاً أن هذه الرسائل

دعت البابا إلى المشول بنفسه على رأس ملوك الغرب الأوروبي لتقديم الولاء للمغول . وليس معقولاً أو متصوراً أن الموقف قد تغير تماماً في مدى ستة شهور .

ثالثاً : أن النص الكامل الذي أورده متى الباريسى لهذه الرسالة - التي وصلت إلى لويس التاسع في قبرص في ديسمبر عام ١٢٤٨م - يختلف تماماً عن المقتطفات التي أوردتها جوانفيلي عن فحوى هذه الرسالة . فالنص الذي نشره المؤرخ الإنجليزي يتعلق بكيفية معاملة التتار للمسيحيين والدعوة وعدم التفرقة بين مذاهبهم ، وليس بها إلا التمنى بنصرة المسيحية « فوق أعدائهم الذين يحتقرن الصليب » ولكن جوانفيلي يقول صراحة « أن من بين ما ذكره ملك التتار استعداده لعاونة الملك (لويس) في غزو الأراضي المقدسة وتخلص بيت المقدس من المسلمين » ورغم أن جوانفيلي كان موجوداً مع ملكه إبان وصول رسول المغول ووادعهم ويفترض فيه أنه أكثر ثقة وموضوعية من متى الباريسى ، ولكن واقع الأمر يدحض ذلك تماماً لعدة عوامل هي :-

أ- أن المندوب البابوي في حملة لويس التاسع أرسل نسخة من هذه الرسالة - من قبرص - إلى البابا انوسنت الرابع - ومعها أخبار مبالغ فيها عن تحول المغول إلى المسيحية بناء على هذه الرسالة . ومن ثم نقل المؤرخ الإنجليزي هذه الرسالة وتلك الأخبار فوراً في حوليته (١٢٢)، ولكن جوانفيلي كتب مذكراته بعد قرابة خمسة وخمسين عاماً من أول مصاحبة له للويس التاسع في حملاته على مصر والشام أي في الفترة بين ١٣٠٥ و ١٣٠٩م حينما كان في العقد التاسع من عمره (١٢٣).

ب- وبناء عليه ، ربما تكون الذاكرة قد خانت جوانفيلي في تسجيل وقائع هذه السفارة المغولية مثلما خانته في مواضع أخرى من مذكراته منها أنه ذكر أن سقوط بغداد في يد المغول كان في أثناء وجود لويس التاسع في بلاد الشام (١٢٤-١٢٥٤) وهذا ليس صحيحاً لأن ذلك حدث بعد أربعة أعوام من رحيل الملك الفرنسي وقواته من الشرق .

ج- رعاً أدى تقدم العمر بالمؤرخ الفرنسي للخلط بين العديد من سفارات مغول فارس التي ذهبت مارا إلى فرنسا بدءاً من العقد السابع من القرن الثالث عشر حتى العقد الأول من القرن الرابع عشر لعرض التحالف مع الملوك الأوروبيين ومنهم ملك فرنسا ضد الماليك نظير مساعدة المغول «للفرنجة» في تخلص بيت المقدس من المسلمين - وبين سفارتهم إلى لويس التاسع في قبرص عام ١٢٤٨م.

ومهما يكن من أمر ، ففى الرسالة - موضع الشك - يخاطب الراسل الملك الفرنسي بكل الود والاحترام ويصفه بأنه «الملك العظيم» ... سيف العالم ، نصير الملة المسيحية » ، ويدعو الرب «لنصرة المسيحية فوق أعدائها الذين يحتقرن الصليب» ويفضى الراسل فى سرد ما فعله للمسيحيين فى إقليمه من عدم التعرض لهم وإعادة بناء كنائسهم وإعفائهم من الضرائب . ويبلغ الملك الفرنسي أن المبعوثين (مارك وداود) سوف يخبرانه شفاهة بهذه الأخبار الطيبة بالتفصيل . وما يجعل الباحث أن يعتقد أن كاتب هذه الرسالة هو جائيليق (أو بطريق) النساطرة فى تبريز - (وليس القائد المغولى فى آسيا الصغرى كما يعتقد متى البارسى أو «ملك التتار العظيم» كما كتب جوانفيلي) وأنه أرسل بها هذين المبعوثين على أنها من قبل المغول العبارة التى وردت فى نهاية هذه الرسالة وترجمتها : «وبعد ذلك فانه طبقا لناموس المسيح فانه لا يوجد هناك أية فروق بين (المسيحيين) اللاتين والإغريق والأرمن والنساطرة واليعاقبة وغيرهم من يبجلون الصليب لأنهم جميعا فى درجة واحدة فى نظرى . ومن ثم فتحن نطلب من الملك (لويس) العظيم ألا يضع تمييزا بينهم ، بل تكون رحمته دائمة فوق كل المسيحيين ... » (١٢٥).

فالنساطرة وحدهم هم الذين كانوا يعانون من هذه التفرقة منذ الحكم على زعيمهم نسطور بالهرطقة فى مجمع أفسوس عام ٤٣١م (١٢٦). وكان بين هذا الطريق والبابا انوسنت الرابع رسائل متبادلة عن طريق مبعوثى الرهبان الدومنيكان : آندريه لونجيجيمو - وأسيلين اللومباردى قبل ذلك بعده شهور . ومن ثم فرما أرسل الطريق سفاره من قبله للبابا وأن هذه السفاره - حين علمت بوجود لويس التاسع وقواته فى قبرص - عرجت على هذه الجزيرة ، وقامت بتسلیم الرسالة للملك الفرنسي ، وحينما تأثر السفيران بحرارة الاستقبال فانهما أضافا الكثير من المبالغات ، خاصة وأن نص الرسالة يوضح أنها سيبلغوا المرسل إليه شفاهة بـ «أخبار طيبة» كما أنه لو حدث ذلك فعلا لكان الحجاز لهم يباهون به الغرب الكاثوليکي الذى ينظر إليهم على أنهم منشقين وهراطقة . حتى أن وليم روبيوك - الراهب الفرنسيسكاني الذى زار قادة المغول فى روسيا وقرقرورم (١٢٥٥-١٢٥٣م) قال إن النساطرة « تعودوا أن يبالغوا فى الحقيقة بعشرة أمثالها وأنهم ينشرون الإشاعات من لا شئ » (١٢٧).

ومهما يكن الراسل أو مضمون الرسالة ، فإن لويس التاسع استقبل السفيرين بحفاوة بالغة وأرسل معهما بعثة من قبله على رأسها آندريه لونجيجيمو - باعتبار أن الأخير له خبرة سابقة

في السفر إلى المغول والتعامل معهم ، وزودها برسائل وهدايا ثمينة منها خيمة على هيئة كنيسة صغيرة وبعض الرفات المسيحية وبعض الأشيا ، الالزمة لإقامة القدس (١٢٨). وقطعت هذه السفارة الرحلة من قبرص إلى انطاكية ثم إلى الموصل ، ومنها إلى تبريز ، حيث أرسلها القائد المغولي الجيجدار إلى قراقوز . وكانت زوجة كيوك خان وصية على العرش بعد وفاة زوجها . ولضعف مركزها في البلاط المغولي ، فانها استدعت ممثلين عن أتباع المغول الآسيويين لمشاهدة ما اعتبرته رمزاً لولا ، الملك الفرنسي . عبرت عن ذلك بقولها « أيها السادة ، لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمنسا عطفنا للدخول في طاعتنا ، وهاكم الجزرية التي أنفذها إلينا فانظرواها ، فإذا لم تستسلموا لنا فاننا مرسلون في طلبه للقضاء عليكم » (١٢٩).

ولهذا فإن الرد المغولي الذي حمله أندرية لوبيجيجمو إلى لويس التاسع لا يختلف عن ردودهم السابقة على البابوية وجاء فيه « ... لن تعرف معنى السلام إلا إذا عقدته معنا ... لذلك ننصحك أن تبعث إلينا عاماً بعد عام بشئ من ذهبك وفضتك ... فإن لم تفعل هذا دمناك أنت وشعبك كما فعلنا مع غيرك من الملوك ... » وكان طبيعياً إزاء هذا الرد المحبط - كما يقول جوانفيلي - أن يندم لويس التاسع « أشد الندم على إرساله رسالة » (١٣٠) للمغول. والمهم أنه في تلك الأثناء هزمت قوات لويس التاسع وأسر الملك الفرنسي بالنصرة ورحل ملك فرنسا وقواته من مصر بعد دفع فدية ضخمة ، ووصلته بعثة أندرية لوبيجيجمو - ومعها السفراء المغول بالرد السابق اقتباسه - وهو في قيسارية في مارس عام ١٢٥١ (١٣١). ولهذا لم يكن لهذه الاتصالات مع المغول أدنى تأثير على مجريات الأحداث ، ولم تحرز أى تقدم في تقارب أوروبي - مغولي دينياً أو سياسياً .

بعثة وليم روبيوك للمغول (١٢٥٥-١٢٥٣ م)

أثناء وجود لويس التاسع وقواته في بلاد الشام (١٢٥٠-١٢٥٤) ترامت إليهم الأنباء - عن طريق المسيحيين الشرقيين عامة والأرمين خاصة - عن حسن معاملة المغول لرجال الدين المسيحيين ، وأن سارتاك بن باتوخان قد تنصر ، وأن عدداً من قادة المغول في طريقهم إلى اعتناق المسيحية وأنهم بحاجة إلى رهبان يعلموهم أصول تلك العقيدة ، وأن كثيراً من الأسرى الأوربيين - الذين أسرتهم القوات المغولية من أوروبا في عامي ١٢٤١-١٢٤٠ م متواجدون في وسط آسيا ومعزولون عن الكنيسة وعن أية مساعدة وأنهم بحاجة إلى رجال الدين لإقامة الشعائر الدينية لهم (١٣٢).

ولهذا فان الراهب الفرنسيسكانى وليم روبروك William Rubruck استاذن مقدم، الفرنسيسكان فى الاراضى المقدسة ومليكه (لويس التاسع) فى الذهاب إلى مغول روسيا (القفجاق) لقابلة سارتك للتبشرير بين المغول ، والبحث عن الأسرى الأوروبيين وذلك بمبادرة شخصية منه فى بعثه دينية للمغول .

وقد انقسم المؤرخون فى تفسير ماهية رسالة روبروك فى الشرق : هل كان مبعوثا رسميا من الملك الفرنسي لقادة المغول^(١٢٣) ، أم أن بعثته كانت مبادرة منه باعتباره راهبا فرنسيسكانيا من واجباته ومسئولياته للتبشرير بال المسيحية بين من لا يدينون بها^(١٢٤) . ورغم أن هؤلاء المؤرخين لم يوضحوا أسبابهم لنفي إحدى وجهتى النظر أو تأييدها ، إلا أنه بعد الرجوع إلى التقرير الذى كتبه وليم روبروك نفسه والذى نشر وترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية الحديثة، يمكن كشف الغموض عن هذا الأمر بجلاء .

فالذين يقولون بالطابع الرسمي لبعثة وليم روبروك لهم عدة مبررات من أهمها :-

أولا : أن وليم نفسه كان فرنسيسا من منطقة روبروك بجوار مدينة كاسل باقليم الفلاندرز الفرنسي

ثانيا : أن الملك لويس التاسع أرسل معه أحد الفرنسيسين محملا بالهدايا إلى قادة المغول وأيضا زوده بخطاب إلى سارتك ، وأن المخاقاد المغولى قد أرسل بدوره رسالة إلى الملك الفرنسي مع وليم روبروك ونشرها الأخبار فى تقريره .

ثالثا : أن وليم روبروك كتب تقريره الطويل عن كل ما صادفه وسمعه ورأه عن المغول على هيئة خطاب مرفوع إلى ملك فرنسا ، وهذا كله يؤيد الطابع الرسمي لهذه البعثة .

ولكن الدراسة النقدية الفاحصة لتقرير وليم نفسه تنفي أنه كان مبعوثا رسميا للملك الفرنسي للأسباب الآتية :

أولا : أعلن وليم روبروك نفسه - عدة مرات وفي عدة مناسبات فى تقريره وأمام القادة المغول أنفسهم - أنه ليس مبعوثا من قبل الملك الفرنسي ولكنه قدم إليهم بصفته راهبا فى هيئة الفرنسيسكان^(١٢٥) . وكان أيسرا وأفضل لوليم روبروك أن يقول لهم أنه مبعوث ملك فرنسا لأن ذلك أدعى لمزيد من التقدير والتجليل له ، لهذا وجد كثيرا من القسوة والمجافاة لأنه لم يكن يمثل أحدا من ذوى الحيبة والنفوذ ، وأنه - على حد روايته - كان يتنقل فى قصورهم حافى القدمين عارى الرأس فى ملابس الرهبان الرثة ، لأنه لا يمثل إلا نفسه فقط باعتباره أحد الفرنسيسكان الذين تدربيوا على حياة التقشف وشظف العيش .

ثانياً : أن خطاب لويس التاسع إلى سارتكا - كما يروى وليم نفسه - كان لتهنئة باعتناق الدين المسيحي ، ويدعوه لحسن معاملة المسيحيين ، وكذلك حسن استقبال روبيوك ورفاقه والسامح لهم بالبقاء ، بين ظهرانى المغول للتبشير بالعقيدة المسيحية (١٣٦) . أى أنه بتشابه خطاب تذكيره لتقديم الحماية المعنية لروبيوك حتى إذا رفض رجال القصور السماح لهذا الراهب حافى القدمين عارى الرأس بمقابلة سادتهم ، فعلى الأقل سيقرأ هؤلاء القادة خطابات ملك فرنسا ويعرفوا أهمية هذا الراهب وغرضه .

ثالثاً : أن وليم روبيوك في نهاية تقريره يقول للملك الفرنسي أنه وصل إلى طرابلس (في ١٥ أغسطس عام ١٢٥٥م) وأن مقدم هيئة الفرنسيسكان بالأراضي المقدسة رفض السماح له بالذهاب إلى فرنسا ، وطلب منه أن يكتب ما يريد إلى الملك كي يرسله مقدم الفرنسيسكان مع أحد الرهبان لفرنسا ، ومن ثم فأن وليم يعتذر للملك الفرنسي عن عدم مقابلته بل ويقول له « ولأنني أرجوكم أن تكتب إلى الرئيس (يقصد رئيس دير الفرنسيسكان بالأراضي المقدسة) وتطلب منه أن يأذن لي بأن أحضر إليك وبعد مقابلتك سوف أعود ثانية للأراضي المقدسة بعد وقت قصير » (١٣٧) . وتروى مصادر أخرى أن لويس التاسع بعد تسلمه تقرير وليم روبيوك عن المغول والتناسه هذا فانه تدخل لدى رئيسه في الشرق ، وذهب وليم إلى فرنسا فعلاً بعد ذلك . وهذا يدل دلالة واضحة على أن وليم ذهب للمغول - كما يقول هو نفسه - باعتباره أحد أعضاء الفرنسيسكان وليس سفيراً من قبل ملك فرنسا ، لأنه لو كان سفيراً لما كان في حاجة للذهاب للأراضي المقدسة (بعد رحيل لويس التاسع عنها) لاستثنان رئيسة للذهاب إلى فرنسا ، ولما كان بحاجة إلى تدخل الملك الفرنسي بنفسه لدى رئيسه كي يلتزم منه الإذن لوليم روبيوك بالذهاب إليه في فرنسا .

ولكن هذا كله لا ينفي أيضاً رغبة الملك الفرنسي في إعادة فتح باب المفاوضات مع قادة العمليات المغولية في شمال آسيا وشرق أوروبا ريشما يفلح فيما فشل فيه سابقاً مع قادة المغول في وسط آسيا وشرقها . ولهذا فإنه شجع رحلة وليم روبيوك وياركها وزوده بالهدايا والرسائل والمؤن ، وطلب منه أن يكتب له عن كل كبيرة وصغرى يراها أو يسمع عنها عند أو عن المغول كي يعرف نواياهم تجاه الغرب الأوروبي وإمكانية تحويلهم إلى المسيحية - خاصة بعد الانباء التي وصلته عن تنصر سارتكا وحسن معاملة المغول للمسيحيين بين ظهرانיהם .

ومهما يكن من أمر فقد غادر وليم روبيروك ورفاقه مدينة عكا في بداية عام ١٢٥٣م ، ووصلوا إلى القسطنطينية التي أقاموا فيها حتى أول يونيو للراحة والتزود بالمؤن وجمع المعلومات عن مغول روسيا . وبعد رحلة لمدة شهرين في جنوب روسيا فانه تقابل مع سارتكا وسلمه رسالة لويس التاسع في أول أغسطس ١٢٥٣ مع ترجمة لها بالعربية والسريانية (١٢٨).

وفي اليوم التالي أخبره كوياك : الراهب النسطوري القائم على خدمة سارتكا « أن (الملك الفرنسي) كتب عبارات ثناه لسيده (سارتكا) ولكن (خطابه) يحتوى على مسائل صعبة لا يجرؤ على أن يفصل فيها بدون نصيحة والده (باتو) ومن ثم يجب عليكم أن ترحلوا لوالده» (١٢٩) . وذلك في إشارة واضحة لرفض سارتكا السماح لوليم ورفاقه بالبقاء في إقليمه للتبشير بال المسيحية ، وفي موضع آخر من تقريره فان وليم روبيروك يقول إن سارتكا وما يجوحان (الخاقان الجديد ١٢٥٩-١٢٥١م) لا يعتنقا المسيحية بل أنها فقط يعطيان احتراما كبيرا للمسيحيين (١٤٠) .

والمهم أنه بعد وصول وليم روبيروك إلى حضرة باتوخان - (مؤسس مغول القبيلة الذهبية وعاصمتها سراي في الموضع الأدنى لنهر الفولجا) - فانه رکع أمامه طبقا للعادة المغولية حتى لا يتكرر معه ما حدث مع آسيلين اللومباردي . وخاطب باتوخان قائلا بأنه «لن ينال مغفرة السماء دون أن يكون مسيحيا » ، حتى أن قادة المغول في حضرة باتو قد ذهلا من هذه اللهجة غير الودية ، ويقول روبيروك أن المترجم «ارتعدت فرائصه وحبست أنفاسه ، ولكنني شجنته على لا يخاف» (١٤١) . وكالعادة لم يستطع باتوخان أن يفصل في الأمر بفرده ، فأرسل الرهبان الفرنسيسكان إلى قراقورم التي وصلوها في يناير ١٢٥٤م (١٤٢) .

وقد شاهد وليم روبيروك كنيسة صغيرة قربة من القصر الامبراطوري بها مجموعة من الأيقونات الشمينة وبها راهب أرمني . وأبلغه الأخير أن عليه أن يبلغ الخاقان بأنه لو اعتنق المسيحية فان كل العالم سيخضع لسلطانه وأن الفرنج والبابا نفسه سيكونوا تابعين له . ولكن وليم أبلغ محدثه أنه يسعده لو أن الخاقان اعتنق المسيحية لأن هذه هي مهمته ، ولكن سعيد، أن البابا والفرنج سيكونون أصدقاء وآخوه في الدين ولكن لا يستطيع أن يبعد أنهم سيكونوا له أنصالا يقدمون له الجزية مثل بقية الشعوب (١٤٣) .

وقد تناول وليم - في تقريره - بشئ من التفصيل أوضاع المسيحيين في عاصمة المغول والمحاورات - تحت إشراف الخاقان - بين ممثل الأديان المختلفة (١٤٤) بصورة توضح أن المغول كانوا غير متذمرين لديانته بعينها .

وعند مقابلته لانجوخان ، فان وليم روبروك أبلغه بأن سبب ذهابه لبلاده هي سماوه باعتناق سارتك لل المسيحية ، وأنه حضر مقابلته حاملا رسالة من الملك الفرنسي ولكن سارتك أرسله لوالده باتو خان والأخير أرسله ورفاقه إلى قراقرم .

وقد شرح وليم للخاقان بأن من واجباته «تعليم الناس أن يعيشوا وفقاً لشريعة الله ... وأنت رجل قد أعطاك الله مالك شاسعة على الأرض ، ولهذا فنحن نرجو أن تعطف علينا بالسماح لنا بالبقاء هنا في بلادك كي تقوم بخدمة شئون الله نيابة عنك وعن زوجاتك وأولادك . نحن لأنفسنا ذهباً ولا فضة ولا معادن ثمينة لنقدمها هدية لك ولكننا نملك فقط أنفسنا التي نقدمها لخدمة الله والدعاء له من أجلك ..»^(١٤٥) . وأجابه الخاقان بنفحة متعالية أن مالكه تنتشر في كل مكان مثل أشعة الشمس وأنه ليس بحاجة إلى الذهب والفضة^(١٤٦) .

والمهم أن مانجوخان سمح للرهبان بالبقاء في عاصمته عدة شهور . وأرسل الخاقان في ٣٠ مايو ١٢٥٤م يخبرهم أنهم قضوا عدة شهور في بلاده وعليهم الرجوع إلى بلادهم وسألهم عما إذا كانوا يرغبون في اصطحاب سفراً للمغول معهم لأوروبا ، ولكن الرهبان أجابوه بالنفي المذهب بدعوى عدم ضمان سلامتهم^(١٤٧) .

وبهمنا هنا أن نذكر أن الخطاب الذي أرسله الخاقان إلى الملك لويس التاسع - مع وليم روبروك ، وأورد الأخير نصه كاملاً في تقريره - لا يختلف في لهجته المتعالية عن خطابات كيوك خان وزوجته للبابوية ولويس التاسع قبل ذلك بعدهة أعوام .

فيبدأ الخاقان المغولي - رسالته بقوله : «هذا مرسوم الله الخالد ، يوجد في السماء رب واحد خالد ، ويوجد في الأرض سيد واحد هو جنكيز خان ابن الله»^(١٤٨) . ويعنى الخطاب قائلاً أن العالم سيكون في سلام وأمان في حالة واحدة فقط هي خضوعه من مطلع شروق الشمس إلى موضع غروبها تحت إمرة الخاقان المغولي «سيد العالم» وأنه على الملك الفرنسي أن يسرع ب تقديم الطاعة والولاء وإرسال الرسل والجزية . وحضر مانجوخان لويس التاسع من الاعتقاد بأن بلاده بعيدة وأن جباله مانعة وأن بحاره واسعة^(١٤٩) ، لأنه لن يفلت من قبضة المغول .

ولهذا السبب فان وليم روبروك ينصح ملك فرنسا بعدم إرسال رهبان إلى التتار ، ولكن من الأفضل - على حد قوله - إرسال أستقنا بصحبة عدة مترجمين أكفاء للرد فقط على حماقات التتار ويدعوهم إلى البابا وإلى الملك الفرنسي عدة مرات^(١٥٠) .

وهكذا فشلت أيضاً بعثة وليم روبروك في جذب قادة المغول للمسيحية أو حتى البقاء بين المغول للتبشر بهذه الديانة ، أو في تحقيق أي درجة من درجات التقارب بين الغرب الأوروبي من ناحية وبين المغول (السادة الجدد للعالم كما كانوا يعتقدون) من ناحية أخرى .

المقدمة :

كان اهتمام أوروبا بوسط آسيا وجنبها في العصور الوسطى المبكرة يرجع إلى حاجتها إلى التوابل والخمير والمنسوجات وغيرها من منتجات آسية وجدت رواجاً في الأسواق الأوروبية . وبعد ظهور الإسلام وسيطرة المسلمين على غرب آسيا وشمال أفريقيا ، فإن الاتصال المباشر بين أوروبا ووسط آسيا أصبح صعباً إلا عن طريق وسطاء من التجار المسلمين وغيرهم . وقد انتشرت شائعات وأساطير - في عصر الغزوات الصليبية - في الغرب الأوروبي عن وجود مملكة مسيحية في الهند ، ثم عن مملكة الكاهن يوحنا المسيحية وذلك في مناسبات وأوقات حاجة الصليبيين في الشرق إلى نجدة جديدة كلما حقق المسلمون انتصارات عليهم ، وتطورت هذه الأسطورة - في نظر الأوروبيين - بتطور الأحداث السياسية في آسيا ، وحاول الغرب أن يجد في جنكيز خان وخلفائه صورة لما توقعوه من أحلام في الكاهن يوحنا وملكته المسيحية التي تحالف معهم ضد المسلمين .

ولكن القوات المغولية دمرت معظم مدن روسيا وبولندا وال مجر ومورافيا وعاثت فساداً في منطقة الأدرياتي وبيلغاريا دون أن تجد أية مقاومة منظمة من الغرب الأوروبي في وجهها . وكان الصراع بين البابوية والإمبراطور فريدرิก الثاني وتدور مركز البابوية من أسباب فتور رد الفعل الأوروبي تجاه الغزو المغولي ، ولم يشغل ملك المجر نفسه بالأمر لأنّه يعرف أن المغول لا يستطيعوا عبور القناة الانجليزى ، والمملك الفرنسي وعد بالتحرك ولكن إذا قدم المغول إلى بلاده ، والإمبراطور فريدرick الثاني وعد بالتحرك بعد هزيمته للبابا ! وكانت وفاة الخاقان المغولي (أوجوداي في ديسمبر ١٢٤٠م) إنقاذاً لبقية أوروبا من دمار محقق وخضع للسيطرة المغولية .

ولم يكن في جعبـة البابـا اتوـنـتـ الرـابـع (١٢٤٣-١٢٥٤م) سـوى الـاتـصالـاتـ الدـبلـومـاسـيةـ التـىـ كانـ لهاـ طـابـعـ دـينـيـ وـسيـاسـيـ معـ قـادـةـ المـغـولـ :ـ لـتنـصـيرـ الـآخـيـرـينـ وـلـإـبعـادـ خـطـرـهـمـ عنـ أـورـباـ .ـ ولـكـنـ خطـابـاتـ قـادـةـ المـغـولـ أـمـرـتـهـ بـالـذـهـابـ بـنـفـسـهـ لـتـقـدـيمـ الـولاـءـ لـسـادـةـ الـعـالـمـ الجـنـدـ .ـ وجـاءـتـ الفـرـصـةـ لـلـوـيـسـ التـاسـعـ عـنـ طـرـيقـ مـبـادـرـةـ مـغـولـيـةـ ،ـ وـلـكـنـ اـكـتـشـفـ أـنـ السـيـاسـةـ المـغـولـيـةـ

لم تتغير بعد . وذهب إليهم وليم روبروك (١٢٥٣-١٢٥٥) في بعثة دينية للتبشر بينهم ، ولكنهم رفضوا بقاها في بلادهم ، وأرسلوا للبيك للمساعدة بتقديم فروض الطاعة والولاء لهم . وهذا كله لأن ميزان القوى كان يميل بشدة لصالح المغول وأن الآخرين لم يكونوا في حاجة للأوروبيين بعد .

ولكن بعد أن استقر الأمر على تقسيم الامبراطورية المغولية إلى أربعة أجزاء ، بين أحفاد جنكيز خان في باكورة النصف الثاني للقرن الثالث عشر بدأت مرحلة جديدة في العلاقات بين إحدى هذه الأجزاء : وهي مغول فارس - مع الغرب الأوروبي وذلك لحدوث تغيرات جذرية في ميزان القوى في منطقة الشرق العربي الإسلامي منذ بداية النصف الثاني للقرن الثالث عشر وهذا هو موضوع الفصل الثاني من هذه الدراسة .

الهواش

- ١- للتفاصيل انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء التاسع ، حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول : غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وأثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية . القاهرة ، ١٩٤٩ ، فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، J.J. Saunders :The History of the Mongol Conquests .London ,1971 ; Chambers , James : the Devil's Horsemen The Mongol Invasion of Europe . London ; 1979 ، وكذلك المصادر والمراجع الواردة في هواش هذا الفصل .
- 2- Vernadsky : The Mongols and Russia . New Haven , 1953 , p. 40 .
- 3- The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 . Trans . from Russian by Robert Michell and N. Forbes . Camden Third Series , vol . XXV , London . 1914 , p. 64 .
- ٤- كانت منطقة جنوب روسيا الواقعة في الموضع الأدنى لنهر الفرغاجا والدون وشمال بحر قزوين والبحر الأسود مصدراً لا ينضب للعديد من الهجرات للقبائل البدائية لأوروبا . فأولاً وفده الم忽ون في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، والآتالاف في النصف الثاني للقرن السادس (والذين حطّهم شرمان بعد ذلك) ، وقبائل البشناق من ٩٠٠ حتى ٨٩٠ تقيباً ، من قبلها قبائل الماجبار الذين استقروا فيما يعرف بال مجر في الدانوب الأدنى في منطقة الاستبس المتعددة من الدون حتى الدانوب . وبعدها قبائل الكومان (القفجاق) الذين استقروا في الدانوب الأوسط وهاجروا أمام الزحف المغولي إلى المجر . وجميع هذه القبائل تشارك في كثير من الصفات مع المغول أنفسهم . وفي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ظهرت قبائل الكومان على مسرح الأحداث كقوة ي العمل حسابها من جيرانهم البيزنطيين والإمارات الروسية والمجر . وفي نهاية القرن الحادي عشر استخدمهم император البيزنطي الكسبي كومين ضد قبائل البشناق والأتراك السلاغنة في آسيا الصغرى واستخدمهم أيضاً أحد أمراء المجر ضد المجر في نزاعهما على مناطق الحدود بينهما ، Cf . Denis Senior : History of Hungary . London . n . d . , pp . 66 , 67 ; Cheshire , Harold . T. , "The Great Tartar Invasion of Europe , "in the Slavonic Review , vol . 5 , 1926- 7 , pp . 89-90 .
- 5- The Chronicle of Novgorod , pp . 65-66 .
- ٦- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جه ٩ ، ص . ٣٤١،٣٤ .
- 7- Vernadsky : The Mongols and Russia , pp. 48,49 .
- 8-Loc . cit .
- 9- The Chronicle of Novgorod , p. 81 .

- 10- Chambers , James : The Devil's Horsemen : The Mongol Invasion of Europe . London , 1979 , pp. 70-71 ; Saunders , J.; The History of the Mongol Conquests . London , 1971 , pp. 81, 82 .

١١- انظر حاشية رقم ٤ من هذا الفصل ، وما هو جدير بالذكر أن الكومان والماجيار (المجرين) من أصل واحد ومنطقة واحدة ، ويتحدثون لغة . واحدة ولكن الكومان ظلوا في المنطقة الأم يعيشون على الرعى وكمرتقة في المروءات لدى حكام الأقاليم المجاورة . واهتم الدومنيكان المجريون بتنصير إخوانهم قبائل الكومان وأرسلوا لهم العديد من البعثات التبشيرية حتى أن أمير الكومان تنصر على المذهب الكاثوليكي على يد روبرت رئيس أساقفة المجر عام ١٢٢٧ م وتبعه خمسة عشر ألفا من أتباعه . ولهذا أولى ملك المجر جهوده لتنصير الكومان حتى أن الملك بيلار الرابع (١٢٣٥-١٢٢٠) عند اعتلاته عرش المجر تلقب أيضاً بملك الكومان . ومن ثم فانه بعد أن سحق المغول الكومان في عام ١٢٢٣ فان هذا الأمير الكوماني المسيحي وأتباعه وضعوا أنفسهم تحت حماية ملك المجر . وبعد توغل المغول في روسيا بدءاً من عام ١٢٣٦ وتشتيتهم للكومان فان زعيمهم كوتان Kutan أرسل سفراً إلى بيلار الرابع عام ١٢٣٩ م يعرض عليه بحثه وأتباعه البالغين حوالي أربعين ألفاً للأراضي المجرية نظير اعتمادهم المسيحية الكاثوليكية ودفعهم عن المجر ووجدت هيئة الدومنيكان في المجر في ذلك فرصة لتنصير الكومان ، واستقبل الكومان وزعيمهم بحفاوة بالغة من الملك المجري الذي أراد استخدامهم في الدفاع عن بلاده ضد المغول الذين كانوا يبعدون مئات الأميال نقطاً عن حدوده الشمالية ، ولكن عدم تعود هذه القبائل الرعوية على الاستقرار والزراعة وحبة التحضر والتكيف مع المجتمع الجديد خلق مشاكل كثيرة للمجريين في أصعب مراحل تاريخهم ، فضلاً عن أن استخدامهم في الدفاع عن المجر جاء بنتيجة عكسية تماماً لما أراده الملك ، كما أنه خلق مبرراً للمغول في اكتساح المجر بحجية تعقب هؤلاء الكومان الفارين أمامهم .

Cf . Sinor : History of Hungry , pp. 67-71 .

- 12- Cf . Dmytryshyn , Basil (ed. & trans .) Medieval Russia : A Source Book , 900-1700 . New York , 1967 , pp. 87, 88 .

- 13- The Mongols and Russia , p. 50 .

- 14- The chronicle of Novgorod , pp. 82-83 .

وتشير حولية روسية أخرى معاصرة للأحداث أن المغول في فبراير عام ١٢٣٨ استولوا في إمارتى روستوف وسوزادال على أربعة عشر مدينة بالإضافة إلى توابعها من القرى ومتلكات الكنائس -

Cf . Dmytryshyn . op . cit ., p. 90; Chambers : وللمزيد من التفاصيل انظر :

The Mongol Invasion of Europe , pp. 72-76 .

15- The Chronicle of Novogored , p. 84 .

16- Vernadsky , op . cit . p. 51 ; Chambers , op . cit . , p. 76 .

١٧ - وما يزيد ما ذهبت إليه أن الأنهار لم تكن عائقا أمام المغول رواية ابن الأثير نفسه عن عبود قوات سويدي - نفس القائد الذي انسحب من أمام نوفوجاره - لنهر جيحرن وذلك لتبع فلول قوات وشخص السلطان الخوارزمي علاء الدين تحت أحداث عام ٦١٧هـ أن القوات المغولية «لم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبوسوا جلود البقر لتلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وأنقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذنابها . وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض الملئ بالسلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة ولم يشعر بهم خوارزمشاه إلا وهم قد صاروا معه على أرض واحدة » (الكامن في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٣٣، ٣٣٤). هذا وقد أيد يوحنا الكاريبي - المبعوث البابوي إلى المغول عام ١٢٤٥ م - في تقريره الذي رفعه إلى البابا هذه الرواية على أساس أن هذه الطريقة كانت شائعة ومعروفة عند المغول في عبور جميع الأنهار الواسعة والضيقة على حد سواء.

Cf . John Plano Carpini , History of the Mongols , Ed , in Christopher Dawson . The Mongol Mission . New York , 1955 , pp. 35-36 .

18- Vernadsky , op . cit . , pp . 51, 52 ; Saunders , op . cit . , p. 83 .

19- Bretschneider , E . (ed- & trans) Medival Researches from Eastern Asiatic Sources . London , 1910 , pp. 317, 318 .

20- Cf . Dmytryshyn , op . cit . , pp . 92-93 .

21- Loc , cit ., Bretschneider , op . cit . , pp. 317, 320 .

22- Vernadsky , op . cit . , pp . 54و55 .

23- The Chronicle of Novgorod , pp . 84-5 .

24- Cf Diens , M . , " Eastern Missions , " Isis , vol . 27, 1937 , pp. 238 , 9 .

25- Ibid , p. 235.

26- Cf . Dienes , " Eastern Missions " , op . cit . , p. 240 .

27- Saunders : The History of the Mongol Conquest , p. 221, n . 35 .

28- Dienes , op . cit . , p. 234 .

29- Cf . John of Plano Carpini , op . cit . , pp. 32-38 .

٣٠- سميت هذه الطائفة بالاسماعيلية لأن أتباعها كانوا يديرون باسمة اسماعيل بن جعفر الصادق ، كما عرّفوا بالباطنة لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون ، وسموا بالملائحة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد ، وقد سموا أيضا بالخشبيّة لاعتمادهم على مادة مخدرة في نشر مذاهبهم الهدامة . التلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ، ص ٢٤٥ ، انظر أيضا ما يلى حاشية رقم ٣٤ .

31- Matthew Paris : English History from the Year 1235 to 1273 . Trans . from Latin by J.A Giles . London , 1852 , vol . I , pp. 131,132 .

٣٢- تعبير « Saracens » تعبير شائع في المصادر الأوروبية لعصر المروءين الصليبية للدلالة على أعدائهم المسلمين . وكان الإغريق والرومان يستخدمون تعبير Saraceni على القبائل العربية التي تقيم في الصحراء السورية شرق البحر الأحمر والذين كانوا يعيشون على أطراف الامبراطورية الرومانية ، ولقد استخدم أبو زبيوس وجروم في القرن الرابع الميلادي لفظ Saraceni مرادفا لأولاد اسماعيل مشيرين إلى أن نفس القبيلة تعرف أيضا بالهاجرين أو أولاد هاجر . وفي القرنين الخامس والسادس استخدم اسم Saracens لكل القبائل العربية على حد سواء ، وبعد ظهور الإسلام فان الأغريق وأشاروا بكل المسلمين بهذا الاسم . وانتقل هذا التعبير - في عصر المروءين الصليبية - للغرب الأوروبي ليعني أي شخص في البقاع الإسلامية ، ولما كان هذا الاسم أطلقه الرومان أساسا على القبائل التي تعيش على أطراف أمبراطوريتهم وكانت نظرتهم في أعين الرومان أنهم وجدوا للسلب والنهب والاغارة والاعتداء على أمبراطوريتهم ، فقد ظل الأوروبيون يستخدمون نفس التعبير لأن المسلمين - من وجهة نظرهم - سلبوهم كل ملكاتهم في أفريقيا وغرب آسيا وطردوهم من الأرض المقدسة التي يعتقد الغرب أنها تخصهم دون غيرهم . ولهذا ظل هذا التعبير شائعا للدلالة على رسوخ هذا المفهوم عند الغرب وليس عن خطأ أن العرب أولاد « سار » وليسوا أولاد « هاجر » .

Cf . Connell , Charles William : Western Views of the Tartars , 1240 - 1340 . Unpublished Ph . D . Diss . The State University of Rutgers , 1969 . pp. 28و29 .

٣٣- هنفاريا الكبرى : المقصود بها المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين والبحر الأسود وهي مركز قبائل القفجاق والتي هاجر منها الماجيارات في القرن التاسع الميلادي إلى المجر أو هنفاريا . والإقليم الأول تعرض للغزو المغولي عامي ١٢٣٦-١٢٣٧ ، ولكن المجر لم تتعرض له إلا عام ١٢٤١ م .

٣٤- يجدر بالباحث عرض فكرة أكثر وضوحا عن هذه الطائفة ، فمنذ أن استتب الأمر للناصريين في مصر أخذوا يروجون للمذهب الشيعي في بلاد المشرق وذلك لإضعاف الخلافة العباسية ، غير أنه حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الناصري (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) فادعى البعض أنه أوصى بالخلافة من بعده لإبنه نزاره وادعى البعض الآخر أنه أوصى بها لإبنه المستعلمي . واتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق ملجا لها بزعامة الحسن بن الصباح ، وقد

اتخذ الأخبر من قلعة آلموت - التي كان قد بناها ملكشاه السلاجقى قريباً من بحر قزوين - مركزاً لنشر دعوته . وقد استولى الاسماعيلية فى فترة ضعف السلاجقة على كثير من البلاد والقلاع المجاورة فى قوهستان وخوزستان حتى بلغت خمسين قلعة . وكانوا يهددون لاسقاط الخلافة العباسية بطرق القتل وسفك الدماء وساعدهم على ذلك جماعة الفدائين من الشبان المتحمسين الذين كانوا يدينون بالطاعة العبياء لرئيسهم ، ومهروا فى فن التخفي واستعمال السلاح ، وقد أزعز السلاجقة لهم بقتل الخليفة المعرشى عام ١١٣٤هـ - ١١٣٦ م وولده الراشد عام ١١٣٧ م . وكانوا يقومون بحملات منظمة على القرى المجاورة للسلب والنهب والقتل وقطع طرق التجارة والمعج . وكان لهم فروع فى سوريا واشتراكوا فى قتل بعض الامراء الصليبيين والمسلمين على حد سواء لفرض الاتاوات والسلب والنهب . وقاد صلاح الدين الايوى الكبير من الحملات على فروعهم ببلاد الشام ودمر معظمها ، واستطاع الظاهر بيبرس تدمير الباقى . وفي فارس استطاع هولاكو عام ١٢٥٦ م تدمير قلاعهم وقتل قادتهم (حافظ أحمد حمدى : الدولة المغوارمية والمغول ص ٩٧-١٠٠) .

ومن بين قتلى الحشاشين من زعماء الصليبيين رينولد الأول كونت طرابلس عام ١١٥٢ م وتروى بعض المصادر أيضاً أنهم قتلوا كونراد أمير اوستريا فى ٢٩ ابريل عام ١١٩٢ أثناء وجوده فى الحملة الثالثة . ويقول أحد المؤرخين المختصين بعلاقات هذه الطائفة بالغرب الايوى أن سفارة الاسماعيلية جاءت إلى فرنسا عام ١٢٣٧ لقتل الملك لويس التاسع نفسه (وليس عام ١٢٣٨) للتحالف معه ضد المغول كما روى متى الباريسى ، ومهما يكن من أمر فإن مؤرخى لويس التاسع وادوارد الأول ملكى فرنسا والمملوكين أفادوا فى نسج حكايات عن تعرض هذين الملكين أثناء وجودهما فى الأراضى المقدسة ١٢٥٤-١٢٥٥ و ١٢٧٠ م لمعارلات قتل من الحشاشين .
للمزيد من التفاصيل انظر :

Nowell , C.E., "The Old Man of the Mountain , Speculum , vol XX 11 , 1947 , pp. 497-519 .

35- The Mongols and Russia , pp. 53 , 54 .

36- Saunders , J.J., " Matthew Paris and the Mongols" in Essays in Medieval History Presented to Bertile Wilkinson , ed. T. A. Sandquist and M.R. Powicke . Toronto , 1969 , pp. 118 , 119 .

37- Boswell A. Bruce , " Territorial Division and the Mongol Invasions , 1202-1300 " , in the Cambridge History of Poland ; vol . I, Cambridge , p. 92 .

٣٨ - يذكر Shinabu Iwamura نقلاً عن مصدر ألمانى أن عدد القوات المغولية فى معركة ليجنتر فى بولندا كانت مائة ألف وأن عدد البيولنديين وحلفائهم كانوا عشرين ألفاً فقط .

Cf . his , "Mongol Invasion of poland in the Thirteenth Century" in Memoirs of the Research Department of the Tayo Bunko , Tokyo , No . 10 , 1938 , p. 110 .

ويذكر Harold T. Cheshisr أن قوات المغول تحت قيادة باتو في روسيا كانت نصف مليون وأن ربعهم قد أرسل إلى بولندا .

Cf . his : "The Great Tartar Invasion of Europe " The Slavonic Review , vol.5, 1926-7 , p. 94 .

بينما يرى Boswell أن كل جيش باتو كان مائة وثلاثين ألفاً وأن ثلاثين ألفاً فقط منهم قد أرسلوا إلى بولندا . ويقول أن المصادر الأولية صنفت من تعداد جيش المغول لعدة أسباب منها السرعة الفائقة للفرسان المغول في الدوران والالتفاف والكر والفر ، وكذلك وجود عدد ضخم من الخيول الاحتياطية للفرسان ووجوده عدد كبير من الأسرى يسيرون في أعقاب الجيوش المغولية ، فضلاً عن أن المصادر البولندية بالفت في عدد المغول لتبرير هزائم البولنديين أمامهم . Cf . Bos- well , op . cit . pp . 92 , 3 .

-٣٩- كانت حدود بولندا حينئذ : بروسيا من الشمال ، وليتوانيا وإمارة غاليسيا الروسية من الشرق ، وجبال كاراثينا تفصل بينها من الجنوب وبين البحر ، ومن الغرب سيليزيا وغم براندنبورج . وفي عام ١١٣٩ م فان ملكها بوليسلاف الثالث قسم مملكته إلى أربعة أقسام على أولاده الأربع تاركاً وراءه خلافات وصراعات داخلية بين الآخوة المتزاugin . وفي عشية الغزو المغولي لبولندا كان بها تسعة إمارات مستقلة ، ولها لم يوجد بها حكومة مركزية قوية لتوحيد كل مصادر القوة البولندية للتصدي للغزاة .

ولا يدخل في خطة هذا البحث تتبع الغارات المغولية على الأراضي البولندية بعد ذلك وبالتحديد في أعوام ١٢٥٩ - ١٢٦٠ - ١٢٦٤ ، ١٢٧٩ ، ١٢٧٤ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٩ م ، ولكن يهمنا هنا فقط وضع الخطوط العريضة للهجوم المغولي الأول على تلك البلاد بغية توضيع رد الفعل الأوروبي منه . وللتفاصيل انظر : Iwamura , op . cit . , pp . 157-103 .

حيث نشر النص اللاتيني والترجمة الانجليزية لخمسة عشر وثيقة من المخطوطات البولندية وأرشيفات البابوية في القرن الثالث عشر من هذا الموضوع ، وكذلك Szczesniak Boleslaw , " Hagiographical Documentation of the Mongol Invasions of Poland in the Thirteenth Century , " Memoirs of the Research of Department of the Toyo Bunko , Tokyo , 1953 , pp. 167-195 ,

حيث نشر أيضاً النص اللاتيني والترجمة الانجليزية لاثنين وعشرين وثيقة من المخطوطات الكنسية البولندية المرتبطة بالغزو المغولي لبولندا حتى عام ١٣٠٠ م ، وكذلك Boswell , " Territorial Division and the Mongol Invasions of Poland , 1202 - 1300 . " op . cit . , pp . 85-107 .

- 40- Iwamura , op . cit ., p. 107; Bretschneider , op . cit , vol . I , p . 321 .
- 41- Cheshire , op . cit ., p. 95 ; Chambers , op . cit ., pp . 98 , 99 .
- 42- Iwamura , op . cit ., p. 110 ; Vernadsky , op . cit ., p. 55 ; Rachewiltz , op . cit ., p. 76 ; Chambers , op . cit ., pp . 98,99 .
- ٤٣ - للمزيد من التفاصيل انظر of Europe, p. 95 ; Cheshire , “ The Great Tartar Invasion Saunders, The Hist. of the Mongol of Europe , p. 85 op . cit ., p. 95 ; Chambers , op . cit ., pp . 99,100 ; Vernadsky , op . cit . p. 56 , n . 148 .
- ٤٤ - انظر ما سبق حاشية ١١ ، كانت مملكة المجر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من القوى القوية في أوروبا . واستطاع العديد من ملوكها من أسرة آرپاد Arpad أن يوسعوا حدودها ويؤمنوها ضد اعداءات الألمان والبيزنطيين . وكانت كنيستها كاثوليكية . وساهم كثير من نبلائها وفرسانها في الحروب الصليبية في الشرق ، وكانت هذه المملكة أيضاً ضعيفة أمام الأطماع البندقية عام ١٢٠٢ حيث استولت الحملة الرابعة على المجر لأنها باع المدينة الأخيرة للبنادقة أيضاً ، ورغم كثيرة من الاقطاعيات للبيهود وللنبلاء ، وحطمت جيوشه في مغامرات عسكرية فاشلة مع جيرانه الروس للصراع على مناطق الحدود . وكانت خلافاته مع النبلاء وغيرهم لا حدود لها . وكان ابنه بيزلا الرابع (١٢٧٠-١٢٣٥) شخصية متزنة . ولكن الانقلاب الاقتصادي الذي ورثه عن والده وليوه أربعين ألفاً من الكومان واستقرارهم في بلاده، فضلاً عن عدم وجود جيش منظم كل هذه الاعتبارات وغيرها كانت حائلة دون تكوين دفاعات قوية للمجر أمام المغول

Sinor : The History of Hungry , pp . 57 , 71 .

- 45- Ibid , pp . 72, 3 ; Saunders , op cit ., pp , 86,87 .
- 46- Sinor , pp . 72 , 3 ; Vernadsky , pp . 56 , 7 ; Chambers , pp . 101,105 .
- 47- Cheshire , op . cit ., pp . 98 , 9 Vernadsky , op . cit . p . 57 .
- 48- John of Plano Carpini , op . cit ., pp. 44 , 5 , Sinor ; op . cit ., p . 75 ; Vernadsky ., op. cit ., p. 58 .
- 49- Vernadsky , op . cit .p. 58 .
- 50- Sinor , op . cit . pp . 70-74 ; Chambers , op . cit ., pp . 104-107 .
- 51- Sinor , op . cit ., pp . 70 .
- 52- Ibid , pp . 70-74 ; Chambers , op . cit ., pp . 104-107 .

- ٥٣- Cf . Matthew Paris , op . cit ., vol . I . pp . 339-340 .
- ٥٤- Ibid , vol . I , p. 340 (حيث أورد نص هذه الرسالة)
- ٥٥- Ibid , op . cit ., vol . I , pp . 341 , 6 .
- ٥٦- Ibid , p. 356 .
- ٥٧- Ibid , vol I , pp . 356 , 7; Chambers , op . cit ., p. 107 .
- ٥٨- Chambers , op . cit ., p. 108 .
- ٥٩- Ibid , p. 109 .
- ٦٠- Matthew Paris , op . cit . vol III , pp . 450 , 1 (حيث نص الخطاب)
- ٦١- Ibid , III , pp . 454 , 55 . (حيث نص الخطاب)
- ٦٢- Ibid , pp . 453 , 54 . (حيث نص الخطاب)
- ٦٣- كان بيتر المجلبي الأصل ، وكان قد طرد من بلاده قبل ذلك بسنوات عديدة وذهب للأراضي المقدسة وبحول شرقا حتى وقع في يد المغول الذين استخدموه في جيشهم في أوريا . ثم استعن به باتو في أعمال التجسس على الآرمنيين لعرفته بعدة لغات أوروبية ومعرفته كذلك بلغة المغول
Cf . Matthew Paris , op . cit . vol . I , pp . 467 , 8 .
- ٦٤- Ibid , pp . 467-472 .
- ٦٥- Ibid , p. 473 .
- ٦٦- Loc . cit .
- ٦٧- Connell , Western Views of the Tartars , pp. 120 , 121 .
- ٦٨- Ibid , pp . 122 , 3 .
- ٦٩- Matthew Paris , op . cit ., II , p . 29 .
- ٧٠- Saunders . "Matthew Paris and the Mongols" , op . cit ., p . 125 .
- ٧١- نشر متى الباريسى النص الكامل لجميع هذه الخطابات (op . cit ., I . pp . 29-49)
- ٧٢- Ibid , vol . II , pp. 48 -49 .
- ٧٣- أنظر تفاصيل هذه السفارات ص ٥٩-٧١ .
- ٧٤- Matthew Paris , op . cit ., II , pp . 67-68 .
- ٧٥- Sohoeder , J . : Disciplinary Decrees of the General Councils , Text , Translation and Commentary . London , 1937 , p. 311 .

- 76- Matthew Paris , op . cit . , II , p. 67 .
- 77- For details, Cf . Ibid , vol . II , pp . 66 , 68 - 73 , 77 - 86 .
- 77B- Iwamura , "The Mongol Invasion of Poland in the Thirteenth Century," op . cit . Documents no . vii - xii , pp . 122- 124 ; also cf . Connell , op . cit ., p. 127 .
- 78- Iwamura , op . cit ., pp . 112 , 113 . Szczesniak Boleslaw , "The Mission of Giovanni del Plano Carpini and Benedict the Pole of Vratislavia to Halicz" . in the Journal of Ecclesiastical History , vol . VII , no . I , April 1956 , pp. 12-20 .
- 79- Connell , op . cit ., pp . 129 , 130 .

٨- هيئة الفرنسيسكان أو الأخوة الصغار Minor Friars هيئه دينية أسسها فرانسيس الأسيسي Francis of Assisi (١٢٠٩-١٢٢٦-١٢٥١م) في أحد الأديرة في منطقة Assisi بآيطاليا ، وحصلت على موافقة البابوية الشفوية في عام ١٢٢٣ م والرسمية عام ١٢٢٩ م . وسرعان ما أصبح لها فروع في جميع أنحاء الغرب الكاثوليكي وكان الهدف منها التبشير بالدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي ، وخدمة المسيحيين الفقراء . وكان نظام حياتهم قائماً على العمل البدوي ، أو التسول وعدم إدخار شيء للبيوم التالي ، وتحريم الملكية الخاصة . وقد حضر لرنسبيس نفسه إلى الشرق مع الحملة الصليبية الخامسة بهدف التبشير بين قادة المسلمين ووضع سياسة - اتفق أثراها خلافاً - مفادها أن أيسر الطرق لهزيمة الأعداء هي تحويلهم إلى الدين المسيحي . ومن ثم كان لهذه الهيئة فروع عديدة في شمال أفريقيا والأراضي المقدسة وبين المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . المفاصيل انظر :

Moorman , John: A History of the Franciscan Order from its Origins to the Year 1517 . Oxford , 1968 ; Daniel E . Randolph : The Franciscan Concept of Mission in the High Middle Ages . Kentucky , 1975 .

Friars Preachers

٩- جماعة الدومينikan أو الأخوة المبشرin

أسسها دومينيك (١٢٠٩-١٢٢١م) في مدينة تولوز في بداية القرن الثالث عشر وحصلت على موافقة البابوية عام ١٢١٦ . ومن المبشرة الشخصية التي اكتسبها دومينيك من التبشير بين الإلبيجنيسين (١٢٠٥-١٢١٥) في جنوب فرنسا ، فإنه أنشأ هذه الهيئة الدينية للتبرير بين الهرطقة والملحدين في جميع أنحاء العالم . ومبادئها - المشابهة لنظم الفرنسيسكان - تقوم على عمل أعضائها في الدفاع عن العقيدة والتبرير بين «الكفرة» واكتساب قوتهم اليومي من التسول والهبات . وكان لها فروع في معظم أنحاء أوروبا وشمال آسيا ووسطها .

· Cf . The Encyclopedia Britannica , vol . 7 , pp . 517 - 520 , arts . Saint Dominic & Dominicans) .

82- Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , pp . 85 , 6 .

Phaire , Barbara Rose : ٨٢- للتفاصيل عن هذه السفارة انظر :

Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245 - 1254 : An Analysis . Unpublished Ph . D . Diss . New York University , 1972 , pp . 28 - 39 .

84- John of Plano Carpini , " History of the Mongols , " in C . Dawson (ed .) : The Mongol Mission . New York , 1955 , p . 3 .

85- Ibid , pp . 53 , 54 .

86- Ibid , p . 62 .

87- Ibid , p . 66 .

88- Cf . Dawson : The Mongol Mission , pp . 73 - 75 .

(حيث أورد النص الكامل لهذا الخطاب مترجمًا إلى الإنجليزية) .

89- Dawson , op . cit . , pp . 73-75 .

(حيث أورد الترجمة الإنجليزية الكاملة لهذا الخطاب أيضًا) .

90- John of Plano Carpini , op . cit . , pp . 65-66 .

٩١- جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ١٢٤٥-١٢٥٠ م . القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٣٨ .

٩٢- جوزيف نسيم يوسف : نفس المرجع والصفحة ، ويشاركه هذا الرأي J . J . Saunders

Cf . , "John of Plan Carpini , " in History Today , vol . xxll , 1972 , p . 552 .

٩٣- انظر ص ٧٣-٧١ من هذا الفصل .

٩٤- يقول بلاطو الكاريبي أنه في آخر مقابلة له مع كيوك خان فإنه سئل عما إذا كان سعادته يستخدمون لغة المسلمين (المقصود بها هنا الفارسية) أو اللغة الروسية أو لغة المغول ولكن أجاب بالنفي مقترباً أن تكتب الرسالة باللغة المغولية ثم تترجم له بواسطة الأوروبيين - الذين يعلمون في خدمة المغول - إلى اللاتينية . وهذا ما تم فعلاً ، إذ أنهم أعادوا على مسامعه عدة مرات نص خطاب الخاقان مترجماً حتى تأكروا من فهمه لما قصدوه ، وهذا ما دونه الكاريبي وزميله بندكت البولندي في تقاريرهما أي ترجمة ما سمعوه من النص المغولي الشفوي . ولزيادة التأكيد

فإن رجال المغاقان أعطوهما نسخة رسمية لهذا الخطاب باللغة الفارسية ، والأخيرة عشر عليها الباحث الفرنسي باول بليو في أرشيفات الفاتيكان عام ١٩٢٠ م وقام بترجمتها إلى الفرنسية وأجرى لها دراسة نقدية فاخصة في سلسلة مقاله عن «البابوية والمغول» (Cf . Revue de L'Orient Chretien , vol . XX III , 1922 , pp . 13-23) .

وقد اعتمد الدارس على الترجمة الإنجليزية لكل من الأصلين اللاتيني والفارسي في : Dawson : The Mongol Mission , pp. 83-96 .

ويوجد عدة ترجيسات أخرى لهذا الخطاب نشرها كل من :

Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , p. 213 ; Voegelin , Eric , " The Mongol Orders of Submission to European Powers , 1245-1255 " { Byzantium , xv , 1944 , pp. 386 , 7 ; Spuler , Bertold . History of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts of the Thirteenth and Fourteenth Centuries . Eng . trans by Helga and Stuart Drummond . London , 1972 , pp. 68 , 9 .

95- Cf . Dawson , op . cit ., p. 85 .

96- Ibid , p . 83 .

97- Ibid , p . 85 .

98- Ibid , p . 83 .

99- John of Plano Carpini , cf . Dawson , op . cit ., p . 68 .

100- Cf . Dawson , op . cit .pp . 83-86 .

(الترجمة عن النصين الفارسي واللاتيني)

101- Rachewiltz : Papal Envoys , pp . 104 , 5 .

102- cf . Dawson , op . cit ., p. 86 .

103- John of Plano Carpini , in Dawson , op . cit ., pp . 43 , 44 .

104- Ibid , pp . 45, 46 .

105- Ibid , pp . 68-69 .

106- Rachewiltz , op . cit ., p. 111 .

107- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate 1245-54 , pp . 60 , 61 ; Rachewiltz , op . cit ., pp. 112 , 113 .

١٠٨ - للمزيد من التفاصيل عن بعثة أندريه لونجيجيمو الأولى، انظر :

Paul Pelliot "les Mongols et la Papaute " , Revue de l' Orient Chretien , xxiv , 1924 , pp. 225 ff ; Phaire : Papal Motivations , pp . 62-69 .

109- Guzman , Gregory G . , " Simon of Saint - Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju " , Speculum , XLVI , 1971 , pp. 235 , 36 , 242 .

110- Rachewiltz , op . cit ., pp . 114 , 115 ; Phaire , op . cit ., pp . 69-70 .

111- Guzman , op . cit ., pp . 237-239 .

١١٢ - تعتبر كثير من المراجع المكتوبة باللغات الأجنبية والعربية على حد سواء، أن أندريه لونجيجيمو كان عضواً في بعثة آسيلين اللومباردي ، ولكن الدراسات النقدية المعاصرة - خاصة بعد اكتشاف تقرير سيمون أوف سانت كونتين (أحد أعضاء بعثة آسيلين) ونشره وترجمته - أثبتت أنهما بعثتان منفصلتان ، وإن كانت أهدافهما ووجهتهما واحدة ، وقد تولى الباحث الأمريكي جريجوري جوزمان - في أطروحته للدكتوراه بجامعة كنكتاتشي عام ١٩٦٨ بالفقد والتحليل المصحوبين بنشر الأصل اللاتيني لهذا التقدير - دراسة - كل ما ورد أو أثير حول هذه البعثة في المصادر الأوربية عامة وفي السجلات البابوية خاصة ، ومن ثم قام بتصحيح وتعديل وتحليل كل النقاط التي أثيرت حول هذا الغرض .

Cf . Guzman , Gregory G . : Simon of Saint Quentin and the Dominican Mission to the Mongols , 1245 - 48 . (Unpublished doctoral Diss ., Univ . of Cincinnati , 1968) , pp . 38-40 , 52-55 .

113- Ibid , p. 69 .

114- Guzman , " Simon of Saint - Quentin , " Speculum , XLVI , 1971 , p. 236 note جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٦ ; Phaire, op . cit , p. 45,

115- Guzman : Simon of Saint - Quentin and the Dominican Mission to the Mongols , pp . 52 - 65 ; Rachewiltz , op . cit ., 115-117 .

116- Guzman " Simon of Saint - Quentin , " op , cit . p . 70 ; Rachewiltz , op . cit ., pp . 116 , 117 . جوزيف نسيم يوسف المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

117- Matthew Paris , op . cit ., II . p . 280 .

118- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate , pp . 46-47 .

- ١١٩- تناول الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف (المراجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٧٠) السفارات المتبادلة بين المغول ولويس التاسع بأسهاب يغنى عن المزيد من الإيضاح ، ومن ثم فإنني اكتفيت هنا بمناقشة النقاط الجديدة والتي أثارت اهتمام أكثر من غيرها في ضوء الوثائق والمراجع الجديدة في الموضوع والتي ظهرت بعد دراسة سعادته في الموضوع . انظر كذلك الفصل الثاني من هذا البحث عن مراسلات هولاكو إلى لويس التاسع .
- ١٢٠- جوانفيلي ، جان دي : مذكريات جوانفيلي ، التidis لويس حباته وحملاته على مصر والشام .
ترجمة وتعليق حسن جبشي . الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ٨٤ ، ٨٥ .
- 121- Matthew Paris , op . cit ., III , pp . 419 , 20 .
- 122- Matthew Paris , op . cit ., III , p. 319 .
- ١٢٣- حسن جبشي : مذكريات جوانفيلي ، ص ٨ .
- ١٢٤- مذكريات جوانفيلي ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
- 125- Matthew Paris , op ., III , pp . 419 , 20 .
- ١٢٦- للتفاصيل عن مقدمات هذا المجمع ووثائقه انظر :
Schroeder H . J . Disceplinary Decrees of the General Councils . London , 1938 ,
pp . 69-77 .
- 127- William Rubruck's Report , in Dawson : The Mongol Mission p . 122 .
- ١٢٨- مذكريات جوانفيلي ، ص ٨٥ .
- ١٢٩- المصدر السابق ، ص ٢١٨ .
- ١٣٠- المصدر السابق ، ص ٢١٩ ، ٢١٨ .
- ١٣١- للتفاصيل انظر : جوزيف نسيم يوسف ، المراجع السابق ص ٢٥٣-٢٥٤ .
- 132- Rachewiltz , op . cit ., pp . 126 -8 ; Dawson : The Mongol Mission , op . cit ., pp .
xxi , xxii .
- ١٣٣- يزيد هذا الرأي عزيز سوريان عطيه وجوزيف نسيم يوسف (المراجع السابق ، ص ٢٥٤)
The Crusade in the Later Middle Ages , p. 243.
- ١٣٤- يزيد كثيرون من المؤرخين المحدثين هذا الرأي ومنهم ، Barbara Phaire (pp . 51 , 2)
Rachewiltz (op . cit ., p . 125) ; Dawson , (op . cit ., p . xxi xxii) .
- 135- William Rubruck's Report , in Dawson : The Mongol Mission , pp . 91 , 204, 205.

- 136- Ibid , pp . 93 , 120 , 127 , 128 , 190 .
- 137- Ibid , pp . 218 , 219 .
- 138- William Rubruck , op . cit . , pp . 117 - 119 .
- 139- Ibid , pp . 119 , 120 .
- 140- Ibid , p. 122 .
- 141- Ibid , p. 128 .

١٤٢ - جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

- 143- William Rubruck , op . cit . , pp . 150 , 151 .
- 144- Ibid , pp . 191-194 .
- 145- Ibid , p. 155 .
- 146- Loc . cit .
- 147- Ibid , p. 190 .
- 148- Ibid , pp. 202 - 4 .
- 149- Ibid , p. 220 .

الفصل الثاني

التحالف المغولي - اللاتيني ضد المسلمين

العناصر :-

- المتغيرات السياسية في الشرق الأدنى في بداية النصف الثاني للقرن الثالث عشر .
- خضوع مملكة أرمينيا الصغرى للمغول والتحالف معهم ضد القوى الإسلامية .
- موقف الصليبيين من الغزو المغولي للشام .
- رد فعل الصليبيين من الصدام بين المغول والماليك في عين جالوت .
- الاتصالات بين مغول فارس واللاتين في عهد هولاكو .
- السفارات المتبادلة بين الإيلخانيين والغرب الأوروبي في عهد كل من :

أبغاخان (١٢٦٥-١٢٨١م)

أرغون خان (١٢٩١-١٢٨٤م)

غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤م)

أوجايتوخان (١٣١٦-١٣٠٤م)

أبو سعيد (١٣٣٥-١٣١٦م)

- أسباب فشل التحالف المغولي - اللاتيني ضد المالك .

طرأت عدة أحداث هامة على منطقة الشرق العربي مع نهاية النصف الأول للقرن الثالث عشر الميلادي منها : فشل حملة لويس التاسع (ت ١٢٧٠م) على مصر في تحقيق أهدافها المرجوة عام ١٢٥٠م، وقيام دولة المماليك البحرينية في مصر ، ونجاح قوات المغول في القضاء على آية مقاومة تقف في طريقها شرقى نهر دجلة وفي آسيا الصغرى .

ولذا سارع هيشوم الأول ملك أرمينيا الصغرى بتقديم فروض الطاعة والولا ، للسفول مدركاً أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مملكته الصغيرة من مصير محظوظ ، وكذلك لإنقاذ المسيحيين في غرب آسيا من براثن البربرية الجدد حتى لا يلاقوا نفس مصير المسلمين في الدولة الخوارزمية^(١) . وكان ملك الأرمن قد قام بتسليم قادة السلاجقة الفاريين أمام المغول للأخيرين . وأرسل شقيقه سباد Sempad القائد العام للجيش - إلى قراقوز عام ١٢٤٦م محملاً بالهدايا لحضور القوريلتاي الذي قرر اختيار كيوك خاقاناً على المغول في أغسطس من ذلك العام^(٢) . ولهذا فإن الخاقان الجديد أرسل تقليداً لهيشوم الأول اعتباره فيه أحد تابعيه ومنحه وثائق تتضمن إعفاء بلاده وأديرته وكل المسيحيين من الضرائب المغولية^(٣) . وإذا كانت وفاة كيوك خان عام ١٢٤٨م قد حالت دون تنفيذ هذه الامتيازات بل وأدت إلى تعريض مملكة أرمينيا الصغرى للسلب والنهب من قبل الفرقة المغولية في آسيا الصغرى ، فإن زيارة هيشوم الأول لقراقوز عام ١٢٥٤م وحضوره تتويج مانجو خاقان على المغول (١٢٥٩-١٢٥٤م)^(٤) كان لها أكبر الأثر في تحرير سياسة هذه المملكة تجاه المغول وال المسلمين فيما بعد .

فلقد كانت جهود الملك الأرمني في المدة التي قضاها في العاصمة المغولية منصرفة إلى إقناع الخاقان المغولي بالقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين . ويوجب معايدة الصداقة والتحالف بين الطرفين ، أكد مانجو خان على عدم تعرض المغول للأرمن بسوء ، بل ومساعدتهم ضد أعدائهم ، وإعفاء الكنائس والأديرة الأرمنية وجميع المسيحيين الشرقيين داخل الإمبراطورية المغولية من الضرائب . وتعهد هيشوم الأول - في مقابل ذلك - بمعاونة المغول وإمدادهم بالجيش والمؤن وأن يدخلهم على جميع الطرق والمعابر عند الحاجة^(٥) .

ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح ملوك أرمينيا الصغرى تابعين للمغول عامة ولغول فارس (فيما بعد) خاصة ، ويؤلبونهم ضد جيرانهم المسلمين ، ويشاركون معهم بجيوشهم ضد المماليك كما سرر .

وتحسن العلاقات بين مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية الصليبية بفضل جهود وساطة الملك الفرنسي لويس التاسع أثناء وجوده بالشام (١٢٥٤-١٢٥٠م). ومن ثم توالت روابط الصداقة بزواج حكام أنطاكية وتبرص وصيدا من بنات الأسرة الأرمنية الحاكمة^(٦). وكان لهذا الأمر أكبر الأثر في جر إمارة أنطاكية هي الأخرى في علاقات صداقة وتحالف مع المغول ضد جيرانها المسلمين مما جلب عليهما المتاعب فيما بعد.

كما أن ملك أرمينيا الصغرى حاول فرض حصار اقتصادي على الماليك. فأصدر أوامر في الشدة عام ١٢٦٠م بمنع الأهالي من الاتجار مع الماليك. وكانت بلاده معبرا لكثير من المواد الأساسية لصناعة السفن وكذلك المواد الغذائية وتجارة الرقيق وهي مواد أساسية للنظام العسكري الذي قامت على أركانه دولة الماليك في مصر والشام، في الوقت الذي كانت فيه العرات وإيران تحت حكم المغول، وكانت موانئ البحر الأسود والقدسية ما زالت في يد اللاتين. وكذلك جاء إلى تخفيض الضريبة المفروضة على بضائع التجار الأوروبيين المارة ببلاده وأصدر هو وخلفاؤه العديد من الامتيازات لهؤلاء التجار لجعل موانئه منافسا قويا وديلا عن الموانئ المصرية^(٧).

ولكن « سرعان ما أثبتت الأيام أن ملوك أرمينية الصغرى راهنوا على الجواد الخاسر وأنه صار عليهم أن يدفعوا ثمنا باهظا مقابل المكافأة السريعة التي حصلوا عليها »^(٨). فالماليك حرضوا سلاجقة الروم ضد الأرمن، وشنوا الغارات العديدة - في فترات انشغال المغول بحروبهم ومشاكلهم الداخلية - على أرمينيا الصغرى، كذلك فان الهزائم التي الحقها الماليك بالمغول تركت آثارها السلبية على الأرمن تتمثل في خسارتهم في القتلى والأسرى والعتاد، ومنذ عهد المنصور قلاون (١٢٧٩-١٢٧٠م) وجه الماليك ضربات قوية للأرمن حتى دفعوا لهم الجزية وهم صاغرون. وفضلاً عن ذلك كانت جيوش الماليك تقوم بعملية تشبيط لأرمينيا الصغرى كلما أبدى الأرمن تمردا أو امتنعوا عن دفع الجزية حتى استولوا على هذه المملكة نهائيا عام ١٣٦٨م بعد اضمحلال دولة مغول فارس.

ولقد أسهبت المصادر التاريخية في الحديث عن تقدم قوات هولاكو صوب العراق^(٩). ويكتفى القول أنه باختفاء آخر السلاطين الخوارزميين من الميدان عام ١٢٣١م، توغلت الفرق المغولية التي أرسلت للاحتجة حتى وصلت إلى حران والرقة ونصيبين والخابور والموصل واريل لا ينبعهم ماء. وسارع الأمراء المحليون بتقديم فروض الطاعة والولاء للقيادة المغول. ولم

يكتف هؤلاء الأمراء بالخنوع للذل المغولي بل وسارعوا عند وصول هولاكو في طريقه نحو بغداد إلى تحديد طاعتهم وأبدوا استعدادهم لمرافقته نحو حاضرة الخلافة العباسية ، بل وشارك بعضهم في حصار بغداد عام ١٢٥٨ وسقوطها^(١٠) .

وقد عبر هولاكو وقواته نهر جيجون في أوائل سنة ١٢٥٤هـ / ١٢٥٦م . وسارع سلطان سلاجقة الروم وأتابك فارس بارسال الرسل لتعبيته ، وقضى هولاكو هذا العام متنقلًا بين مدن فارس المختلفة وأرسل الحملات للقضاء على طائفة الاسماعيلية وقتل آخر حكامهم وأزال حصونهم . وفي ٢١ سبتمبر ١٢٥٧م - ٩ ربيع الثاني عام ١٢٥٥هـ أرسل هولاكو إلى الخليفة المستعصم العباسى رسالة يدعوه فيها إلى تقويض حصون بغداد وأسوارها والحضور بنفسه إلى حضرته وتسليم المدينة وإلا فالحكم للسيف وحده . وكان من اليأسير على قوات هولاكو وقواته تابعيه من الأرمن والجورجانيين والإمارات الإسلامية الاستسلام على بغداد وإزالة أهم المعالم الحضارية والعلمية للمدينة في صفر عام ١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م . وقتل آخر المخلفاء العباسيين في بغداد على الطريقة المغولية ومعه حوالي مليون نسمة ، إذ أن قوات المغول "حرقوا الأخضر واليابس ماعدا قليلاً من منازل الرعاة وبعض الغرباء" ^(١١) .

وبعد سقوط بغداد في يد قوات هولاكو أصبح الطريق إلى بلاد الشام مفتوحاً خاصة وأن رسول الناصر صلاح الدين يوسف - أمير حلب ودمشق وزعيم البيت الأيوبي في الشام - كانت قد وصلت إلى هولاكو تدعوه إلى القديم إلى الشام لمساعدته على تخلص مصر من المالكية . وأسرع هولاكو بارسال قوة من عشرين ألف فارس إلى الشام لانتهاز هذه الفرصة . ولكن قوات المغول بصاحبة قوات من الأرمن والجورجانيين وإمارة أنطاكيا الصليبية استباحت مدينة حلب في يناير عام ١٢٦٠م / صفر ١٢٥٨هـ حتى امتلأت الطرق والمسالك بجثث القتلى . وقيل أنهم أسرروا زيادة على مائة ألف من النساء والأطفال . ثم دخل الغزاة دمشق بعد فرار الناصر يوسف عنها في فبراير ١٢٦٠م وتسليمها بالأمان . وسلمت لهم بقيمة مدن شمال سوريا وقلاعها طوعاً أو عنوة فعاثوا فيها فساداً وقتلاً وتدميراً ^(١٢) ، وبات الطريق إلى مصر مفتوحاً أمامهم .

موقف الصليبيين من الغزو المغولي للشام

كان ميسوراً على هيشوم الأول - ملك أرمينيا الصغرى - أن يقنع زوج ابنته - بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس - بالتحالف مع المغول ضد الإمارات الأيوبية في الشام .

وعندما ظهر هولاكو في شمال بلاد الشام أسرع بوهيموند بزيارة في معسكره عدة مرات^(١٣): وقد اشترك الأخير بقواته مع قوات هولاكو وصهره ملك أرمينيا في الاستيلاء على حلب . وفي المقابل أعاد هولاكو إلى بوهيموند السادس جميع الأراضي التي كان المسلمين قد اقتطعواها من إمارته منذ عصر صلاح الدين الأيوبي^(١٤).

وعندما تقدم جيش هولاكو إلى دمشق كان يعاونه الأرمن وقوات بوهيموند السادس . وطلب هيثوم الأول وبوهيموند السادس من كتبغا - قائد الجيش التترى - إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس ففعل ذلك ضاراً بعرض الحائط باستعطافات المسلمين . بل وطاف هيثوم وبوهيموند وكتبغا بشوارع دمشق علانية تجرا وعتيا^(١٥).

وقد رفضت بقية القوى الصليبية في بلاد الشام موقف بوهيموند السادس من التحالف لخوفها من المغول الذين سبق لهم توجيه الإنذار إلى حكام عكا بتدمير أسوار مدنهم وحصونهم وقد مالاً الصليبيون قادة المغول بالهدايا حتى تصلكم نجدة من الغرب الأوروبي بعد أن أرسل مقدموا الهيئات العسكرية خطابات بالفعل إلى قادة الغرب الأوروبي لطلب هذه النجدة^(١٦) . كذلك فإن موافقة بوهيموند على إعادة بطريرك أنطاكيه البيزنطي إلى منصبه-استجابة لأوامر هولاكو وإرضاء ملك أرمينيا - اعتبر شرحاً كبيراً في وحدة مسيحي الشرق اللاتيني^(١٧).

كما أن صدام بعض القوى الصليبية مع قوات المغول قد نبه بقية القوى اللاتينية إلى خطورة الفزاعة الجدد . فقد حدث أن اللورد جولييان Julian حاكم صيدا - وزوج ابنة ملك أرمينيا - أرادا استغلال فرصة تحالف صهره مع المغول في الاغارة على إقليم البقاع - الذي كان تحت سيطرة القوات المغولية حينئذ - للاستيلاء عليه من المسلمين . ولكن كتبغا - القائد المغولي - أرسل فصيلة صغيرة لدفعه من حيث أتى . وكان قائدها ابن أخي كتبغا فقتله حاكم صيدا ، ومن ثم أرسل كتبغا قوات توغلت في صيدا ودمتها . وحاول جون الثاني حاكم بيروت وقوات الداوية هناك مناصرة حاكم صيدا ولكن قوات المغول قامت بتاديبيهم بشدة وأسر جون نفسه الذي تم افتداؤه ، وربما أراد كتبغا الهجوم على بقية الصليبيين لولا علمه بقدوم المصريين لملاقاته^(١٨).

وبالإضافة إلى ما تقدم ، كان خوف الصليبيين من المغول أكثر من خوفهم من المسلمين . فالتجربة كانت قد أظهرت لهم أن المغول لم يتركوا دولاً مستقلة تعيش بجوارهم ولكن حلفاء لهم كانوا بالنسبة لهم مجرد تابعين . أما المالك فانهم منذ استيلاتهم على السلطة في

مصر عام ١٢٥٠ م لم يقتربوا من الصليبيين ولم يؤذوهم بعكس المغول الذين دمروا الأخضر واليابس^(١٩). ويؤكد الباحث الإنجليزي بيتر جاكسون Peter Jackson اعتماداً على رواية لرشيد الدين الهمذاني بأن هولاكو كان قد أصدر أوامر لقائده في آسيا الصغرى بالتحرك ضد الفرنجية ، وعلى رواية متى الباريسى بانذارات هولاكو لقيادة الصليبيين فى سوريا وعلى رواية المؤرخ ابن العميد ، أن كتبغا قائد هولاكو بالشام بعد رحيل الأخير إلى الشرق - «قد ترك حراسة البلاد ولن يكون قبلة نجدة الفرنج من جهة مصر » وهذا معناه بوضوح أن الصليبيين كانوا أيضاً مستهدفين في الغزو مثل المسلمين تماماً من ناحية المغول^(٢٠).

وأيضاً كانت استهانة قادة المغول برسل البابوية وملك فرنسا قبل ذلك بعدها أعواماً ، والخراب الذي ألحقه هولاكوهزة الغزاة بشرق أوروبا في الفترة من - ١٢٣٧-١٢٤٢ ، وهجوم مغول روسيا في ذلك الوقت أيضاً (١٢٥٩-١٢٦١) على بولندا وال مجر والمانيا وإرسالهم انذاراً لملك فرنسا بالخضوع والتسليم^(٢١) من العوامل الرئيسية لكرافيهة الغرب الأوروبي للمغول عامة وللتحالف أو التعاون مع أحد فروعهم خاصة .

ولهذا فإن البابا الكسندر الرابع (١٢٥٤-١٢٦١) أصدر قراراً حرماناً ضد بوهيموند السادس حاكم أنطاكية وطرابلس لتحالفه مع المغول وإرجاعه للبطيريك البيزنطي لأنطاكية^(٢٢) . ولا غرو أيضاً أن موقف بقية القوى الصليبية كان متعاطفاً مع المالك في صدامهم المسلح الرشيق مع القائد المغولي في سوريا .

ومهما يكن من أمر فإنه بعد استيلاء المغول على دمشق طواعية فإن الرسل قدمت من ناحية الشرق لهولاكو تمنى له أخيه ماجبو الخاقان الأعظم للمغول . ومن ثم فإن هولاكو ترك كتبغاً للمحافظة على الشام وذلك في جمادى الآخرة عام ١٢٥٨هـ / مايو ١٢٦٠ ورجع إلى قراقورم لمواجهة الأحداث الجديدة الناجمة عن وفاة الخاقان . وخاصة وأنه حدثت خلاقات وحروب بين إخوته قوبيلاي وأريق بوقا حول أحقيته كل منها في العرش المغولي . وربما وجد هولاكو في نفسه أنه المرشح المناسب للمنصب الشاغر ، ولهذا فإنه جمع جيشه المغولي ورجع بها إلى الشرق ولم يترك مع قياداته كتبغاً بالشام سوى عشرة آلاف فارس^(٢٣) .

وريما يكون في وفاة ماجبو خان عام ١٢٥٩ م إنقاذاً لبقية العالم الإسلامي من الخضوع للسيطرة المغولية مثلما كانت وفاة أو جوداى خان عام ١٢٤١ م إنقاذاً لغرب أوروبا من الدمار الذي لحق بشرقها قبيل وفاته . ولهذا فإن بقية العالمين المسيحي والإسلامي قد استفاداً من مصائب المغول في وفاة قادتهم في عامي ١٢٤١ ، ١٢٥٩ على التوالي .

ويؤيد ما نحن بصدده رواية ابن العبرى أن قوات هولاكو كانت أربعين ألف من العساكر عندما دخل الشام^(٢٤). وفي رواية رشيد الدين الهمذانى أن كتبغا نفسه قال للملك قبيل مقتله على أيديهم أن جيش هولاكو ثلاثة ألف^(٢٥). ومع التسليم بالمبالفة فى هذين الرقين إلا أنهما يدلان على التفوق العددى الكاسح لقوة هولاكو التى كانت تمكنه - لولا رجوعه الفجائى إلى الشرق - من تحقيق انتصار كاسح على الملك.

وكان هولاكو - قبيل رجوعه إلى فراقorum - قد أرسل إنذارا إلى الملك فى مصر جاء فيه "أى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيفونا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخبيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، والمحصون لدينا لاتقنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايسمع^(٢٦)". وفي نهايته طلب منهم الخضوع له والتسليم لأوامره دون قيد أو شرط .

ولم يكن أمير الملك سوى توحيد صفوفهم وتبئنة الرأى العام فى مصر للجهاد. وقام قطر - الذى تولى السلطة لمواجهة هذا الخطر الداهم - بتعليق رموز سفرا المغول على باب زويلة ليلهب مشاعر العامة وال خاصة على السواء للجهاد دفاعا عن الدين والوطن . وأرسل بيبرس البندقدارى على رأس فرقة استطلاعية كسرت فرقه مغولية ماثلة فى غزة . والتقيى الجمuan فى عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ھ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠ حيث منى المغول بهزيمة ساحقة قتل فيها كتبغا وقيقة أمراء المغول الذين كانوا معه ، وتعقب الملك أعداءهم فى حمص وتعقبهم العامة فى دمشق وفى شمال الشام حتى نهر الفرات حتى أفنوا كثيرا منهم وأسروا الباقي^(٢٧).

وإذا كان هناك شيء إجماع على أن موقعة عين جالوت تعتبر من المعارك الحاسمة فى العصور الوسطى لنتائجها على الصراع بين المسلمين والمغول وبين المسلمين - والصلبيين فى النصف الثانى للقرن الثالث عشر الميلادى^(٢٨)، فإنها تعد كذلك مرحلة تحول هامة فى سياسة هولاكو وخلفائه - الذين أسموا إيلخانية فارس بعد هذه الموقعة مباشرة - نحو الصلبيين . فبدلا من نظرة هولاكو للأخترين قبيل هذه الموقعة على أنهم مجره تابعين يتوقع انضمامهم لدولته ، بدأ ينظر إليهم على أنهم خلفاء ضد أكبر قوة تخوضت عنها هذه الموقعة وهى سلطنة الملك.

رد فعل الصليبيين تجاه الصدام بين المغول والمالك

كان تقدم قوات المالك - بقيادة قطر - لملاقاة المغول بالشام قد قوبل بترحيب من القوى الصليبية في عكا لأنها سيخلصهم من الخطر المغولي في الوقت الذي لن يكلفهم شيئاً خاصة وأن أحداً من الغرب الأوروبي لم يتحرك لنجدهم^(٢٩).

ولما كانت قوات المالك مضطرة إلى عبور أراضي في حوزة الصليبيين ، فإن قطر قد أرسل رسلاً من معسكره في غزة (قبيل موقعة عين جالوت) لقيادة عكا لطلب المساح له بالعبور ، وطبقاً للمصادر الصليبية فإنه عرض عليهم إمداده بالمؤن وطلب منهم المساعدة العسكرية .^(٣٠) وعندما اجتمع قادة المدينة الذين يمثلون مختلف الهيئات العسكرية والدينية والتجارية فانهم كانوا يمبلون لتلبية كل طلبات المالك ، ولكن مقدم فرسان التييرتون Anno Sangerhausen عارض هذا القرار بأنه «ليس من الحكمة أن تضيع حياة المسيحيين في نصر قد يشجع المصريين على أن يستدروا بعده ضد الفرنسية» . ولهذا فإن المجتمعين اقتنعوا برأيه ورفضوا مساعدة المالك عسكرياً ، ولكنهم أعطوهن تصريحًا بالمرور من أراضيهم وشراء المؤن من أسواقهم^(٣١).

. ولم يكن هناك أي ندم في عكا عند سماع انتصار المصريين على كتبغا . بل ويرى المؤرخ بيتر جاكسون - اعتماداً على مصادر أوروبية معاصرة للأحداث - أن الغرب الأوروبي قد قابل هذا الانتصار على أن المصريين كانوا يحاربون معركة الفرنجة أيضاً . وهذا كله في ضوء أن أحداً لم يكن يتوقع مقتل قطر ومجيئ ببروس بما فعله مع الصليبيين بعد ذلك^(٣٢).

وأراد هولاكو أن يرسل جنوده مرة ثانية إلى الشام لينتقم لقتل قائده كتبغا وجنوده في عين جالوت ، ولكن الظروف الداخلية في الإمبراطورية المغولية لم تكن تسمح له بذلك بسبب وفاة صالحوج خان وظهور الخلافات بين أخيه هولاكو : أريق بوكا وقويسلاي في النزاع على العرش المغولي وكذلك الخلافات بين هولاكو - باعتباره حاكماً لإيلخانية فارس التي تضم كل المناطق الغربية لنهر جيحون وبين بركه خان حاكم مغول القفقاس أو مغول القبيلة الذهبية في جنوب روسيا^(٣٣).

وكان الأمر الأكثر تأثيراً على السياسة الخارجية لهولاكو وخلفائه هو صراعهم الطويل والممتد مع أبناء عمومتهم إيلخانات مغول القبيلة الذهبية في جنوب روسيا ، ويتفق المؤرخون على أن باتوخان - أكبر أحفاد جنكيز خان والقائد المغولي الذي فتح روسيا وشرق أوروبا

للسيطرة المغولية والذى أسس سرای Sarai وجعلها عاصمة لملكته فى الخوض الأدنى لنهر الفوجا - هو صاحب القول الفصل فى اختيار مالجو بن تولوى خاقانًا على المغول عام ١٢٥١م (٣٣). ولكن بوفاة باتو عام ١٢٥٦م ووفاة مانجوخان عام ١٢٥٩م انتهت العلاقات الودية بين أبناء العصومة . ومن ثم بدأت الخلافات تطفو على السطح بين بركة خان آخر باتوخان وخليفته من ناحية وبين هولاكو خان عام ١٢٦٠م من ناحية أخرى حتى أنفس الطرفان وخلفاؤهما فى حروب بدأت منذ ذلك الحين .

وهناك أسباب كثيرة لهذه الخلافات تجملها فيما يلى : أولاً أن بركه خان قد مد يد العون لأريق بوقا ، واعترف به خاقانًا على المغول وهو ما أغضب كلا من قوبيلاي وهولاكو ومعظم أحفاد جنكيز خان (٣٤). ثانيا : أن قوبيلاي بعد توليته خاقاناً أصدر فرماناً يقضى باقرار شقيقه هولاكو على البلاد " من ضفاف نهر جيحون حتى ديار مصر والشام، (٣٥) وإداماج بلاد آران وأذربيجان داخل أملاك هولاكو" وهذا الأمر لم يعجب بركه خان باعتبار أن أذربيجان براعيها من إرث والد الأخير - جوشى - حسب وصية جنكيز خان (٣٦). ثالثا : أن بركه خان كان قد اعتنق الإسلام هو وقادته ومعظم جيشه ، وسأله ما فعله هولاكو ببغداد عام ١٢٥٨م . وينقل رشيد الدين عن بركه خان قوله عن غريميه " أنه دمر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ، ولم يميز بين الصديق والعدو ، وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة (المغولية) ، فلو أمنى الله تعالى لطالبه بدم الأبراء" (٣٧) ، وأهم من هذا وذاك أن هولاكو قد منع عن بركه خان نصيبيه المعتمد - حسب تقاليد المغول - من مغانم الحروب فى وسط آسيا وغيرها . فأرسل الأخير اثنين من أقاربه إلى هولاكو برسالة ضمنها ما جرت به العادة من إعطاء بيت باتوخان نصيبيهم من فتوح البلاد ومغانم الحرب ، ولكن هولاكو قتلهمما وقال عن بركه " ولو أنه كبير الأسرة (أى أسرة جنكيز خان ، وسيدها إلا أنه لا يرعى الحياة والخجل ، وبخاطبني بتهديد وعنف وإنى لن أحابيه بعد هذا" (٣٨) .

ولهذه الأسباب فان بركه خان قد أرسل قائده بوقا على رأس ثلاثين ألفا من قواته ومن أقارب رسوليه اللذين قتلهموا هولاكو للمطالبة بدمائهم . والتقى الجمعان فى مرات دريند ، ومنيت جيوش هولاكو فى النهاية بهزيمة كاسحة أعقبتها استعدادات ومناوشات وحروب بين الطرفين استمرت حتى انهيار حكم دولة مغول فارس (٣٩) . وكان لها أثرها البعيد على علاقة هولاكو وخلفائه ببقية القوى السياسية فى منطقة الشرق الأدنى .

ولقد كانت للحروب بين مغول فارس ومغول روسيا (١٢٦١-١٢٦٣) نتائج مباشرة وغير مباشرة يهمنا منها أولاً انشغال الطرفين بصراعهما عن التوسيع غرباً على حساب جيرانهم الذين سبق لهم أن أخضعوهم من قبل . فمن ناحية هولاكو لم يستطع الشار لهزيمة قواته في عين جالوت أو إعادة إخضاع بلاد الشام لحكمه . واكتفى فقط بارسال غارات صغيرة مؤقتة لاختبار قوة المالك أو للزود عن حلفائه الأرمن ، وذلك لأنشغاله باعداد جيوشة ومعداته في أذربيجان للاقتاة قوات بركه خان والانتقام من هزيمته منه . وبالنسبة لبركه خان فإن قواته كانت في عام ١٢٥٩ قد قامت بغزو لبولندا وهددت المجر وألمانيا وأرسل بركه إندارا ملك فرنسا بالتسليم والخضوع له^(٤٠) . ولكن تفجر الصراع مع مغول فارس أرغم بركه خان على سحب قواته من شرق أوروبا وتحويلها إلى ميدان الصراع الجديد تحاه بحر قزوين .

ومن الناحية الأخرى فإن كلاً من هولاكو وبركه خان بدأ البحث عن حليف قوي ضد منافسه وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ الإمبراطورية المغولية التي يستعان فيها بقوى أجنبية ضد قوى مغولية ، وما تبع ذلك من طلب علاقات متوازنة مع الخلفاء (وليس باعتبارهم أتباعاً لهم) ، والتخلص عن نغمة السبادة العالمية والقدسية التي كانوا يدعون أن السماء أعطتها لجنكيز خان وخلفائه في إخضاع البشر لحكمهم . وكانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام هي الخليفة المأمول لمغول فارس باعتبارهم العدو التقليدي للمالك الذي هزموا قوات هولاكو والذين توّلّت علاقتهم بحكام مغول روسيا .

ومن اليسير معرفة عوامل التقارب بين بركه خان وسلطان المالك بدءاً من عام ١٢٦١ وأقواها العداء المشترك لهولاكو ورابطة الإسلام التي كانت تجمع الطرفين^(٤١) وفضلاً عن ذلك كان الظاهر بيبرس (١٢٧٧-١٢٦٠) ومعظم قادة المالك من منطقة القفجاق التي كان يسيطر عليها وقتذاك بركه خان ، ومن ثم فإن الحنين للموطن الأصلي قد شجعهم على التقارب مع الأخير . كما أن هذه المنطقة ظلت المورد الأساسي للرقيق - الذين كانوا عماد العسكرية بالنسبة لسلطنة المالك - وكان بهم الطرفين استمرار فتح طرق التجارة بينهما^(٤٢) عن طريق القسطنطينية - بعد سقوطها في يد آل باليو لويس عام ١٢٦١ م .

وقد وصلت أبناء الخلافات بين هولاكو وبركه للقاهرة في ذى الحجة عام ١٢٦٠ / نوفمبر ١٢٦٢ بوصول مائتين من القوات التابعة لمغول روسيا والتي كان بركه خان قد أرسلها لإمرة هولاكو لمساعدته في فتح قلاع الاسماعيلية . وعندما تفجرت الصراعات بينهما فإن بركه خان

أرسل لقواته بالحضور إليه وإن لم يستطعوا فعلهم الذهاب «إلى عسكر الديار المصرية» وقد قوبل هؤلاء «القتار المستأمين» بحفاوة بالغة من الماليك . ويروى ابن عبد الظاهر «أن السلطان بيبرس نظر في مصلحة عامة للإسلام ، وهي إنفاذ رسول إلى الملك بركه .. وكتب له كتابا فيه شيء عظيم من الاستعمال والتحث على الجهاد ... والإغراء بهلاوون (هولاكو) خذله الله! وتهين أمره وتقبع الفقلة عنه .. »^(٤٣) .

وهكذا تلقي الماليك هذه المبادرة من بركه خان وردوا عليها بارسال سفارة لتشجيعه على الجهاد ضد هولاكو وما تبع ذلك من تبادل للسفارات والخطابات بين الدولتين . وتوطدت هذه العلاقة بزواج بيبرس وقلاؤن الألفي وغيرهما من قادة الماليك من بيت بركه خان ورعاياه . وكانت هذه العلاقات على قدم المساواة بين الماليك - باعتبارهم أكبر قوة إسلامية في المنطقة - وبين مغول روسيا . وكان التحالف مع الآخرين جزءا من سياسة الماليك لمواجهة مغول فارس منذ ذلك الحين ^(٤٤) .

الاتصالات بين مغول فارس واللاتين في عهد هولاكو

إذا كانت هناك خلافات في وجهات النظر بين العديد من المؤرخين المحدثين حول التوقيت الدقيق لبداية تبادل السفارات بين اللاتين في عكا وهولاكو من ناحية وبين هولاكو والغرب الأوروبي من ناحية أخرى ، فإن هناك شبه اجماع على أمرين : أولهما أن هولاكو بدأ يتصل باللاتين بعد هزيمة قواته في موقعة عين جالوت ، وبعد دخوله في صراع مسلح مع مغول روسيا عام ١٢٦١م ، وذلك لأنَّه كان بحاجة فعلية للتعاون معهم . ثانياً : أنَّ الغرب الأوروبي - الذي سبق له إرسال عدة سفارات للمغول (١٢٥٤-١٢٤٥م) باهت جميعها بالفشل ، والذي وصلته عدة نداءات للنجدة من الصليبيين في عكا إبان غزو هولاكو لبلاد الشام ، في نفس الوقت تقرِّبا الذي كانت قوات مغولية (من فرع مغول القفقاق) تغزو شرق أوروبا - لم يتحقق في مراسلات هولاكو ولم يعطها آذانا صاغبة^(٤٥) هذا إذا افترضنا أنَّ الغرب الأوروبي كان لديه القوة والقيادة الموحدة التي يجعله يرحب بالتحالف مع مغول فارس سواء بعمليات حربية ضد مغول روسيا في شمال أوروبا أو بعمليات عسكرية مباشرة ضد الماليك أو عن طريق الكيانات الصليبية في شرق البحر المتوسط .

ويتضح من خلال التقرير الذي قرأه مبعوثوا أبياخان بن هولاكو (١٢٨٢-١٢٩٥م) أمام مجتمع ليون الرابع عشر عام ١٢٧٤م ، أنه أثناء وجود هولاكو في بلاد الشام عام ١٢٦٠م ،

أرسل بطريرك مملكة بين القدس في عكا سفارة استطلاعية للقائد المغولي لعرفة نواياه تجاه الصليبيين في الشام . وكان على رأس هذه السفارة الراهب الإنجليزي الدومنيكانى ديفيد الأشبي David of Ashby « وأنه بعد أن جاء هؤلاء المبعوثون إلى الملك العظيم (هولاكو) حدثوه كثيرا عن عقيدة الدين المسيحى وعن قداسة الكرسي الرسولى (البابوية) وعن عظمتة الملوك اللاتين الذين يدعون بالفرنج » (٤٦).

ويستنتج من تلك الوثيقة ومن تطور الأحداث بعد ذلك أن هولاكو قد احتجز « ديفيد الأشبي » لديه لاستخدامه في بلاطه ، حيث مارس الأخير مهامه التبشيرية في إيلخانية فارس حتى أرسله أبغا بعد ذلك على رأس بعثة مغولية للغرب الأوروبي في عام ١٢٧٤ م (٤٧).

وفي عام ١٢٦٢ أرسل هولاكو خان سفارة من قبله تحمل رسائل للبابا وللملوك الغرب الأوروبي (٤٨) . ولكن ما نفرد هوهنشتاوفن - ملك صقلية الذي كان في المرحلة الخامسة لحربه مع البابوية وحليفها شارل الألبيو في ذلك الوقت - قبض على أفراد السفارة المغولية وصادر الوثائق التي كانت تحملها (٤٩) ، رعا لكراسيته للمرسل إليهم ورعا لأنه وجد فيها عروضا بتحالف مغولي أوربي ضد أصدقائه المسلمين . وكان جون الهنغاري John the Hungarian ضمن أفراد هذه السفارة ويعتقد أنه غافل رجال مانفريد وهرب منهم واستطاع الوصول إلى البابا أوريان الرابع (١٢٦٤-١٢٦١ م) وحكي له مقتطفات من الخطابات المفقودة وهدف السفارة المغولية (٥٠).

ورغم أن أحد الباحثين وهو باول ميفارت Paul Meyvaert عثر حديثا على خطاب هولاكو المرسل مع هذه السفارة إلى الملك الفرنسي لويس التاسع ، إلا أنه ليس هناك دليل واحد على أن الأخير قد تسلم هذه الرسالة ، والمهم أن هولاكو يكرر فيها نفس النغمة القديمة عن الرسالة السماوية التي تلقاها جنكيز خان بالسيادة العالمية ، وأنه يجب على كل أمراء البسيطة بما فيهم لويس التاسع نفسه الخضوع لإمرة المغول . وبعد هولاكو - من قبيل الفخر - الولايات والأقاليم التي أخضعها لسيطرته بحد السيف . ويطلب في نهاية رسالته من الملك الفرنسي « محاولة اقناع القوات اللاتينية (في سوريا) بأن تستعد على طول السواحل وأن تستخدم السفن الحربية (ضد الماليك) حتى إذا ما هاجم المغول عدوهم المشترك فإن المسلمين لا يجدون مكانا يتراجعون فيه (أو يهربون إليه) وبذلك يمكن تدميرهم » ولم ينس هولاكو أن يحذر الملك الفرنسي بأنه إذا لم تأته هذه المساعدة فإن مصيره يوما ما سيكون مثل

هؤلاء (الكفرة) العصاة . وفي محاولة من الباخان المغولى لاستمالة الملك الفرنسي لقبول اقتراحه فإنه يذكر له حبه للمسيحيين فى ابليخانيته وإعفافه للكنائس ورجال الدين من الضرائب . وأنه قد أمر أن مدينة بيت المقدس - بعد استردادها من المسلمين - سوف تعطى للبابوية عن طريق جون الهنگاري حامل هذه الرسالة^(٥١) .

ونظراً لضياع الخطابات الأخرى التي أرسلها هولاكو للقوى الكبرى في الغرب الأوروبي فلما تستطيع القول بأن هولاكو قد خص لويس التاسع بهذه الرسالة ، وعموماً كان هولاكو يعلم تماماً - كما أورد في رسالته - بسفارات الملك الفرنسي للمغول من قبل ، وأن لويس التاسع كان آخر ملك أوروبي في الشرق العربي (حيث رحل منه - عام ١٢٥٤) . ومن ثم فكلمته مؤثرة على اللاتين في الشرق والغرب على حد سواء .

دومهما يكن من أمر فقد كان لوصول جون الهنگاري للمقر البابوي وإحاطته علماء بمحفوظات الرسائل المفقودة تأثيره على قيام البابا أوريان الرابع بكتابة رسالة إلى هولاكو في ذلك العام (١٢٦٢م) .

وفي هذه الرسالة - غير المحددة التاريخ ولا اسم الراسل -^(٥٢) يبدأ البابا بابداً سعادته لما سمعه من جون الهنگاري عن رغبة هولاكو في اعتناق الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي وأنه في حاجة لشخص ذي حيشية لتعيمده . ويبارك أوريان الرابع هذه الخطوة من هولاكو ويبلغه أنه وكل رعاياه الذين سيقتلون أثره سوف ينالون الشوارة في الآخرة إذا ما نالوا العمودية . ويدركه كذلك بقصر الحياة وقرب دنو الأجل ويطلب منه سرعة التعيميد . وبدأ البابا يلقى الطعم لهولاكو بقوله أنه لو عمد فعلاً فإنه سيرى «كيف ستزيد قوتك في حربك مع المسلمين لو أن الجنود المسيحيين يساعدونك علاتية وبكل قوتهم بفضل معونه الرب ، ومن ثم فإنك ستزيد قوتك في الدنيا وبالتالي تأكيد سوف تضمن المجد الخالد في الآخرة ...» . ويفضي البابا بأنه نظراً لأن جون الهنگاري لم يقدم الأدلة الدامنة على حقيقة نية هولاكو بالتنصر والتحالف مع الغرب نظراً لمصادرة ما نفرد للخطابات التي معه فإنه (أي أوريان الرابع) قد أرسل لبطريرك مملكة بيت المقدس للتحري عن هذا الأمر . ولهذا فإن البابا يبحث الخان المغولي على إبلاغ رغباته للبطريرك باعتباره مثلاً للبابا في الشرق اللاتيني وحينئذ فإن الأخير سينظر في الإجراءات الضرورية لهذا الأمر^(٥٣) .

والمهم أن خطاب البابا وصل إلى هولاكو وهو في أخيرات حياته ، وكانت استعداداته للثأر من هزيمته من مغول روسيا ومشاكله الداخلية سببا في عدم مردوده على رسالة البابا . ثم مات هولاكو في ربيع الآخر سنة ١٢٦٣هـ / ١٢٦٥م . والأمر المؤكد أنه مات بوذيا بقول رشيد الدين أنه في آخر حياته «بني معابد للأصنام في مدينة خوي» ^(٤٤) . ومن ثم فان خطاباته السابقة للغرب الأوروبي عن نيته التنصر على المذهب الكاثوليكي لم تكن إلا طعماً للغرب الأوروبي الذي كان يعلم بتنصر قادة المغول لجرهم للتحالف معه ضد المسلمين : العدو المشترك للطرفين.

فترة أبيغا خان (١٢٨٢-١٢٦٥م)

تعتبر فترة حكم أبيغا خان فترة هامة في تاريخ العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوروبي وذلك لازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكري ضد المسلمين عن ذي قبل . فتفجر النزاع بين أبيغا وبين مغول التركستان أو الجفطائيين بدءاً من عام ١٢٦٨ ، وانشغال جزء هام من قواته في حروب على الحدود الشرقية في الوقت الذي لايزال النزاع مستمراً على حدوده الشمالية مع روسيا جعل الإيلخان مغولي في فارس يرسل العديد من السفارات للبابوية وملوك غرب أوروبا طلباً للتحالف العسكري معهم ضد المماليك ليأمن شر أعدائه على حدوده الغربية .

ولقد عاصر ذلك الإيلخان الظاهر بيبرس الذي كان رجلاً سياسياً حاذقاً بعيد النظر في التعامل مع أعدائه من الصليبيين والأرمن والمغول . وبعد سلسلة إصلاحات داخلية وعلاقات دبلوماسية لتطويق أعدائه . استطاع بيبرس أن يقود أكبر قوة عسكرية ضاربة في المنطقة والانفراد بخصومه واحداً بعد الآخر ، وبعد تحطيم أو تحبييد أحد خصومه يستدير للخصم الآخر ولهذا كان الصليبيون في الشرق بحاجة ماسة أيضاً للتحالف مع مغول فارس في ضوء انشغال البابوية بمشاكل سياسية في جنوب أوروبا وكذلك انشغال بقية قادة الغرب الأوروبي بمشاكلهم الإقليمية عن نجدة الصليبيين ضد المماليك .

فقد تمكنت قوات المماليك في عامي ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ من الاستيلاء على قيساريه وحيثما وأرسوف وصعد من أصحابها الصليبيين بالإضافة إلى بعض القلاع الأخرى لفرسان الداوية . وعقد بيبرس معاهدات مع القوى الصليبية الأخرى يلزمهم فيها بعدم التحرش بالمسلمين أو مساعدة أحد ضدهم ^(٤٥) . وكان ضرورياً للسلطان المملوكي أن يقوم بتحبييد هذه القوى الصليبية في صراعه المرتقب مع أهم أعدائه - بعد المغول - وهم الأرمن وإمارة انطاكيه الصليبية اللذين تحالفوا مع المغول ضد المسلمين عام ١٢٦٠م .

ومن ثم فان بيبرس أرسل تجريدة عسكرية للاغارة على أملاك بوهيموند السادس فى طرابلس لشفل قواته عن مد يد العون لصهره وحليفه ملك أرمينيا الصغرى الذى تعرضت بلاده فى أغسطس عام ١٢٦٦ - ذى القعدة ٦٦٤ لهجوم كاسح من قوات المماليك التى انتهزت فرصة انشغال مغول فارس على حدودهم الشرقية . واستطاعت قوات المماليك هزيمة الأرمن وتدمير قلاعهم وحصونهم وقتل أحد أبناء هيشوم الأول وأسر ابن ثان له (اليفون) مع عدد كبير من الأسرى والغنائم^{٥٦} . وكانت هذه ضربة قاصمة لملك أرمينيا الصغرى تعلم منها أن المغول لا يعتمد عليهم وأنهم لا يستطيعون حماية مملكته من المماليك .

وأسرع كل من هيشوم الأول وأبغاخان بارسال السفارات للغرب الأوروبي لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك وذلك فى نهاية عام ١٢٦٦م . ونظراً لعدم العثور على خطاب أبغاخان للبابا كليمين الرابع Clement IV (١٢٨٢-١٢٦٥م) فيتمكن من خلال الرد الذى أرسله البابا عام ١٢٦٧م على هذه الرسالة بالإضافة إلى خطاب أبغا مع سفارته الثانية فى العام التالى لسنة ١٢٦٨م للغرب الأوروبي استنتاج أهم النقاط الواردة فى الخطاب الأول لأبغا .

إذ يتضمن هذا الخطاب تهنئة للبابوية على انتصارها فى موقعة Benevento (٢٢ فبراير ١٢٦٦م) على ما نفييد بن فردريك الثانى ويطلب أبغا كذلك من البابا إرسال جيوش الغرب الأوروبي بالتعاون مع قوات (صهره) ميخائيل الشامن باليولوجس (١٢٨٢-١٢٦١م) للشام لمحاصرة قوات المسلمين (الكفرة) بين المغول شرقاً والقوات الأوروبية غرباً ، ويستفسر أبغا خان من البابا عن الطريق الذى ستسير فيه هذه القوات وعن موعد وصولها إلى الشرق .

ولما كان هذا الخطاب مكتوباً باللغة المغولية ولم يستطع أحد فى روما ترجمته ، فان البابا اعتمد على مبعوث الإيلخان المغولي فى فهم محتواه . ويبدو أن هذا المبعوث قد أفهم البابا بأن الإيلخان المغولي قد اعتنق الديانة المسيحية فعلاً وذلك لكسب الغرب الأوروبي لاقتراح أبغا خان فى مشروع التحالف العسكري^{٥٧} .

ولهذا فان كليمين الرابع فى خطابه عام ١٢٦٧م من مدينة Viterbo الإيطالية والذى أرسله مع مبعوثه Jaymo Alarich يبدى أسفه لأبغا خان أن أحداً فى بلاطه لم يستطع أن يقرأ خطابه لأنه غير مكتوب باللغة اللاتينية . ويبداً البابا رسالته بشكر الرب أن أبغا قد اعتنق الدين المسيحى ، ويشكر الأخير على تهنئته له بالانتصار على ما نفييد هو هنشتاوفن، ويستمر البابا فى قوله أن ملوك فرنسا ونافار وكثيراً من البارونات وعدداً لا يحصى من الجنود

يستعدون للذبح للأراضي المقدسة ليها جموا أعداء الدين . ويقول لأبغا « وأنت قد كتبتم أنكم تنوون الانضمام لصهرك (الإمبراطور البيزنطي) لمساعدة اللاتين (في الشرق) ، ونحن سوف نفعل ما في وسعنا لمساعدتك ولكننا لاستطيع القول- حتى نستفسر من هؤلاء أنفسهم أى الطرق سوف يسير فيها شعبنا (الأراضي المقدسة) ... » وكتب البابا لأبغا أنه سيرسل لهؤلاء الملوك والأمراء برغبته حتى يعدلوا من خططهم ويطروروها وأنه سوف يخطره (أى أبغا) في موعد لاحق عن طريق مبعوث موثوق فيه بما طلبه . وطلب كليمون الرابع من الإيلخان المغولي أن يستمر في خططه ومشروعه هذا وأن يعتقد في الرب مانع النصر والحياة « والذي بيده الملوك وقلوب الملوك ، ويرفع منهم من يشاء ويدل من يشاء بغير حساب»^(٥٨) .

وأرسل كليمون الرابع خطاباً بطريق بيت المقدس في عكا لمساعدة ملك أرمينيا الصغرى وأمير أنطاكية حينما يتقدمان بقواتهما مع قوات المغول ضد الماليك . وأرسل أيضاً وعداً بالمساعدة لهيثوم الأول من قوات لويس التاسع عندما تصل للشرق . وأرسل البابا كذلك للإمبراطور البيزنطي يحثه على العودة لمحظيرة كنيسة روما والمشاركة مع صهره - الإيلخان المغولي - في مساعدة الصليبيين ، وأخيراً فانه أرسل بجسمى الأول ملك أراغون ولويس التاسع لتشجيعهما على سرعة إعداد قواتهما^(٥٩) .

والمهم أنه بوصول مبعوث البابا لأبغا خان قام الأخير على الفور بارسال سفارة للغرب الأوروبي بخطاب متأخر من أذريجان في ٣ أغسطس عام ١٢٦٨م ، وذلك لأن موقف حلفاء المغول فارس في الشرق الأدنى كان قد بلغ - حينئذ - درجة من السوء لم تحدث من قبل.

فقبل ذلك بعامين كانت قوات الماليك قد حطمت أرمينيا الصغرى وقتلت ابن ملكها وأسرت ابنها آخر في إطار خطة السلطان الظاهر بيبرس لتحطيم هذه المملكة أو إخراجها من صرائعه مع إمارة أنطاكية . وفي مايو عام ١٢٦٨م / رمضان ٦٦٦هـ قاد بيبرس جيشاً ضخماً وحاصر أنطاكية فجأة من عدة جهات . ولم يتمكن أحد من نجاتها ، سواء من الأرمن أو المغول أو الصليبيين ، وكان أميرها بوهيموند السادس في طرابلس ولم يستطع شيئاً لإنقاذ امارته ، وطبقاً لرواية ابن عبد الظاهر كان بانطاكية «مائة ألف نفر»^(٦٠) ، وجميعهم إما قتل أو أسر . وحصل الماليك على غنائم لا تُحصى حتى «طال الوزن ، فقسمت النقود بالطاسات... ولم يبق غلام (مسلم) إلا له غلام (صليبي) ، وبيع الصبي بائني عشر درهماً ، وباجارية بخمسة دراهم ... وركب (السلطان) إلى قلعة أنطاكية وأحرقها وأخذ الناس حديد أبوابها ورصاص كنائسها»^(٦١) .

وما يدل على حنكة بيهيرس الدبلوماسية تأجيله تسليم ليون بن هيشون الأول - لوالده - رغم الشمن النادح الذي قبله الأرمن نظير إطلاق سراحه - إلى ما بعد الانتهاء من أمر الاستيلاء على أنطاكية شهر واحد فقط حتى يضمن تماماً عدم تدخل قوات ملك الأرمن وحلفائه المغول لمساعدة صهره بوهيموند السادس . وبعد أن تحقق للسلطان الملوكي ما أراد ، أطلق سراح ليون الذي أخذه والده لابغا خان كى يوافق على توليته عرش أرمينيا الصغرى . واعتزل هيشون بقية حياته في أحد الأديرة ^(٦٢) . وهكذا وجه المالك ضربة قاصمة للتحالف المغوليالأرمني الصليبي وذلك بتعطيب أرمينيا الصغرى والاستيلاء على أنطاكية ولم يعد لقبة الصليبيين أية حدود مشتركة مع الأرمن أو مع مغول فارس .

ولهذا كان أبيغاخان كان يتوقع استجابة فورية من الغرب الأوروبي للتحالف معه ضد المالك بعد سقوط أنطاكية . ففي خطابه الذي أرسله في أغسطس عام ١٢٦٨ م - يدخل أبيغاخان في تفاصيل مشروع التحالف المشترك وبلغ البابا أنه سيرسل أخيه Ejei على رأس قوة كبيرة إلى بلاد الشام وأن جيش البابا (الذي أخبره المعمور البابوي أن ملك فرنسا سيفولى قيادته) وجيش ملك أرagon سوف يهاجمان المالك من الناحية الأخرى لخسار وتدمير عدوهما المشترك بينهما . ولم ينس الإلخان المغولي من قبيل تحفيز الغرب الأوروبي للاستجابة له أن يشير لانتصاراته على أعدائه في الداخل والخارج وجبه للمسيحيين وحمايته لكتناسهم ^(٦٣) .

وعندما وصلت سفارة أبيغا بصحبة المعمور البابوي إلى روما عام ١٢٦٩ م وجدت أن كليمانت الرابع قد مات . ومن ثم ذهب إلى جيمي الأول ملك أرagon وبقية ملوك غرب أوروبا . وكانت أخبار سقوط أنطاكية قد وصلت للغرب ، وكانت استعدادات لويس التاسع وعدد من أمراء الغرب لحملة صليبية جديدة لنجدمة الصليبيين في الشرق في مراحلها النهائية ، وإزاء الأنباء التي بعثها أبيغا بوجود جيشه على أهبة الاستعداد لغزو سوريا فور ظهور الجيوش الأوروبية على سواحلها ، فإن جيمي الأول قاد أسطوله للشرق ، ولكن ريعا صرصرا عاتية حطمت معظم سفنـه أمام السواحل الفرنسية ورجع بلاده ، ولكن ولديه أكملـا الرحلة إلى عكا مع قوة صغيرة حيث أعتقدـا أنه يمكنـهما بقوـتهم الصغـيرة هزـيمة المالـك ، ولكن نـبلـاء عـكا نصـوحـهما بالـعدـول عن اـسـتـخدـام القـوـة ، وبعد غـارـة على قـرـية مـسـلـمة رـجـعاً من حيث آتـياـ ^(٦٤) .

ولكن الحملة الكبيرة التي كانت تضم عدداً كبيراً من النساء وبارونات الغرب الأوروبي وقواته تحت قيادة لويس التاسع انحرفت إلى تونس ضد المخصوصين الذين لم يكن بينهم وبين غرب أوروبا أية علاقات عدائية . والمهم أن الملك الفرنسي ومعظم قواته ماتوا بالطاعون بعد نزولهم لقرطاجة ، ومن ثم رجع أولاده بجثمانه ويقول جيشهم من حيث أتوا بعد أن حقق شقيقه شارل الأنجو أهدافه مع المخصوصين ^(٦٥).

وكان الأمير إدوارد بن الملك هنري الثالث ملك إنجلترا قد قاد نحو ألفاً من قواته للحاق بحملة لويس التاسع ولكنه وصل قرطاج في ٩ نوفمبر ١٢٧٠ أي بعد وفاة الملك الفرنسي بشهر واحد . ولم يعد إدوارد بلاده مثل بقبة قوات حملة لويس التاسع باعتبار أنه كان عليه الوفاء ببنر عليه وعلى والده سبق أن تعاهد للبابوية بحمل الصليب ومساعدة الصليبيين في الشرق ^(٦٦) ، وكذلك لتقويت الفرصة على بارونات إنجلترا باعادة التمرد ضد الملكية ، ووصل إدوارد بحملته الصغيرة إلى عكا في ٩ مايو عام ١٢٧١ وأنعش أعمال الصليبيين في الشرق وعلى الفور أرسل إدوارد ثلاثة من رفاته إلى أبياخان لطلب إرسال جيشه وهو الوعد الذي سبق أن أبلغه للأوربيين فور نزولهم للشرق ^(٦٧).

ونظراً لانشغال قوات أبياخان على الحدود الشرقية آنذاك فإن الأخير أبلغ الأمير الإنجليزي في ٤ سبتمبر ١٢٧١ بأنه أرسل أوامره لقائده صفار Samagar في أناضوليا لغزو بلاد الشام ، واقتصر على إدوارد الترتيب مع هذا القائد لمواجهة المالك . وقاد صفار قوة مغولية من عشرة آلاف فارس واحتلت حلب وتقدمت قواته في البقاع حتى وصلت إلى ٢٠٠ ميل من مدينة عكا . ولكن القوة المغولية انسحب إلى شرق الفرات بمجرد وصول القوات المملوكية بقيادة بيبرس إلى تلك المنطقة . وهذه الغارة على شمال بلاد الشام كانت هي كل ما فعله أبيغا لمساعدة حليفه الإنجليزي . أما قوة إدوارد فلم تفعل أكثر من غارة مماثلة على قلعة صغيرة ^(٦٨).

ويعلق المؤرخ الإنجليزي Powicke على ذلك بقوله «إن حملة إدوارد التي لم تكن قادرة على انتزاع قلعة صغيرة ، لم تكن مؤهلة بأي حال لاسترداد مدينة بيت المقدس ولو أن أبيغا كان حراً من خطر المغطانيين (مغول التركستان) وانضم لحملة إدوارد بكل قواته ، فإن اللاتين كانوا من الضعف والانقسام بالدرجة التي يجعلهم لا يستفيدون بهذا التحالف بل على الأكثر سيكونون خاضعين للحكم المغولي » ^(٦٩).

ولا عجب في ضوء ما تقدم أن شجاع الأمير الإنجليزي مبادرة شارل الأنجوي - الملك الإسمى لملكة بيت القدس الصليبية لأمراء عكا بعقد هدنة مع المالكين مدتها عشرة أعوام وعشرين شهرًا للمحافظة على البقية الباقية من أملاك الصليبيين . وبعد ذلك أسرعت بقية المدن والقلعات الصليبية بطلب هدنة مماثلة من الظاهر بيبرس ، وفي ٢٤ سبتمبر ١٢٧١ غادر الأمير الإنجليزي وقواته سواحل الشام عائداً لبلاده حيث تولى ملكية الجبلترا حتى عام ١٣٠٨ لوفاة والده أثناء وجوده بالشرق^(٧٠) . وهكذا لم ينجح هذا التحالف في أول تجربته عملية له .

ولكن زوال خطر حملة أدوارد وانتهاء حملة لويس التاسع بوفاته أطلق يد المالك في المنطقة ، فقام بيبرس بهجوم على ممتلكات أبيغا شرق نهر الفرات . وعبر السلطان المملوكي هذا النهر سباحة بنفسه مع قواه للإغارة والسلب والنهب لتعذيب أبيغا على حملته التي أرسلها إلى بلاد الشام فترة وجود أدوارد بها ، ورفض عرض الأخير للصلح التي أرسلها عن طريق ملك أرمينيا الصغرى تارة وحكام سلاجقة الروم تارة أخرى . ومن الناحية الأخرى ، لم تتوقف قواته عن الإغارة على القلاع الصليبية بها وأرسل سفنه لغزو قبرص نفسها عام ١٢٧١ ولكنها تحطمت قرب الجزيرة وأسرت قواته هناك^(٧١) .

ولم يكن الغرب الأوروبي غافلاً عن حقيقة أنه ما لم ترسل نجادات سريعة للصليبيين في الشرق فإن البقية الباقية سوف تنهار أمام المالك ، خاصة وأن البابا الجديد جريجوريو العاشر (١٢٦١-١٢٧٦م) كان بظيرته لملكة بيت المقدس في عكا من قبل وكان عضواً في حملة الأمير أدوارد . ولهذا دعا هذا البابا إلى عقد مجمع مسكوني عالمي في مدينة ليون الفرنسية في مايو عام ١٢٧٤ ليبحث على رأس موضوعاته وسائل تقوية الكيان الصليبي وإرسال حملة صليبية عاجلة لإنقاذهم .

وقد أرسل أبيغا خان سفارته لحضور هذا المجمع مكونه من ستة عشر عضواً من بينهم عدد من الرهبان اللاتين والترجمين . وقد قدم البابا سفراً إلى أبيغا خان للحاضرين في نهاية الجلسة الرابعة لأعمال المجمع في يوم ٧ يوليه (١٢٧٤) حيث تلقت رسالة الإيلخان المغولي باللغة اللاتينية . وجاء بها «لهذا نريد أن نعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملوكنا صاحب العظمة أبيغا خان يريد التحالف ، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين للكنيسة الرومانية»^(٧٢) .

وفي حركة إعلامية بارعة من أبيغا خان فإن ثلاثة من سفرائه المغول طلبوا من البابا تعزيزهم على المذهب الكاثوليكي . وقام بذلك كاردينال أوستيا Ostia^(٧٣) أمام المجمع في

جلسة يوم ١٦ يوليه ، وقد قوبل هذا التصرف بترحيب عام من مثلثى كنائس غرب أوروبا . وتشير إحدى الموليات الإيطالية إلى أنه سرت إشاعة - حينئذ - في الغرب الأوروبي مفادها أن أباً خان سيعحضر إلى روما للتعهد على يد البابا وتلقى التاج من الأخير شخصيا (٧٤) .

وقد ذهب سفراً المغول بعد انتهاء جلسات مجمع ليون إلى العاصمة الكبرى للفرب ، وقد نشر المؤرخ هنري هوارث خطاب أدوارد الأول إلى أباً خان المؤرخ في ٢٦ يناير عام ١٢٧٥ م من مدينة Beaulieu بمقاطعة هامبشير الإنجليزية ، وفيه يبلغ الملك الإنجليزي الإيلخان الفارسي أنه قد تلقى خطابه عن طريق سفيره ديفيد الأشبي وجاء فيه :

وقد علمنا منه مقدار الحب الذي تحملونه للدين المسيحي ومدى التصميم الذي قررتوه لتخلص المسيحيين والأراضي المقدسة من أعداء المسيحية ، وهذا جميل كبير لنا ونحن نشكركم عليه ، ونحن ندعو بجلالكم لتنفيذ هذا المشروع المقدس . ولكننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نبلغكم بأية أنباء مزكدة عن موعد وصولنا للأراضي المقدسة ولا عن سير القوات المسيحية الأخرى ، لأن البابا لم يقرر شيئاً بعد فيما يتعلق بهذا الأمر ، ولكننا سوف نخطركم (بأى جديد في هذا الشأن) بمجرد العلم به . ونحن نوصيكم خيراً بسألتى الأرض المقدسة وبكل المسيحيين الشرقيين (٧٥) .

‘ وقد عرج سفراً المغول - في طريق عودتهم للشرق على روما - لتسليم رسالة البابا جريجوري العاشر لملكهم . وفي رسالته المؤرخة في ١٣ مارس عام ١٢٧٥ م ، فإن البابا أشار إلى الوعد الذي تلقاه من مبعوث الإيلخان بأن سيدهم سيعتنق الدين المسيحي . ووعد جريجوري العاشر في رسالته أباً خان برسالة سفراً من لدنـه في موعد لاحق لإبلاغـه بما يتلقـاه من معلومات من الأمـراء العلمـانيـن بخصوص الحملـة الصـليـبية التـي يـجري إعدادـها للـشرق لـلاتـضـام لـقوـاتـ المـغـول ضـدـ المـسـلمـين . وـيـبلغـه أـيـضاـ أـنـ «ـالـكـرـسـيـ الـبـابـويـ يـكـرسـ الـوقـتـ وـالمـجـهـدـ مـعـاـ لـيـسـ فـقـطـ لـصـيـرـ أـرـضـ المـسـيـحـ ، وـلـكـنـ أـيـضاـ لـسـعـادـ الـمـلـكـ الـفـارـسـيـ وـالـشـعـبـ الـذـي يـحـكـمـهـ » (٧٦) .

وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلـها جـريـجـوريـ العـاـشـرـ لـتهـيـئةـ المناـخـ فـيـ أـورـوـبـاـ لـلتـقـيـامـ بـحملـةـ صـلـيـ比ـيـةـ لـلـشـرقـ ، فـانـ الـوعـدـ التـيـ تـلـقاـهـ مـنـ الـأـمـراءـ الـعـلـمـانـيـنـ كـانـ مـجـرـدـ شـعـارـاتـ لـمـ تـجـدـ طـرـيقـهاـ لـلـتـنـفـيـذـ لـاـشـفـالـ كـلـ مـنـهـ بـشـاـكـلـ الـاقـلـيـمـيـةـ (٧٧) . وـمـاتـ جـريـجـوريـ العـاـشـرـ فـيـ ١٠ يـانـايـرـ عـامـ ١٢٧٦ـ مـ ، وـمـوـتـهـ خـيـاتـ الـحـمـاسـ الـصـلـيـبـيـةـ التـيـ أـذـكـرـتـهاـ شـخـصـيـةـ هـذـاـ الـبـابـاـ الـذـيـ يـعـتـبرـ أـكـثـرـ الـبـابـوـاتـ فـيـ النـصـفـ الثـانـيـ لـلـقـرنـ الثـالـثـ عـشـرـ اـهـتـمـاماـ بـالـكـيـانـ الـصـلـيـبـيـ فـيـ الشـرقـ .

وفي تلك الأثناء كانت قوات المالك قد وجهت ضربة أخرى لأرمينيا الصغرى عام ١٢٧٥م ، وذلك لأن ملكها ليسون الثالث (١٢٨٩-١٢٧٠م) «قد حصلت منه أذية للتجار المسلمين» ... وصار يستميل الفرنج إلى التتار ... ^(٧٨) ومن ثم غدت مملكته مسرحاً للسلب والقتل والسيء والحرائق من قوات المالك دون أن يتقدم حلفاؤها مغول فارس لمساعدتها .

بل أن بيبرس أراد أن يوجه لطمة أخرى مباشرة إلى ايلخانية فارس . فاختار أن يهاجم بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بالحماية المغولية وذلك بالتعاون والدسيسة من وزير السلاجقة ، واستطاعت قوات المالك تزيق الجيش المغولي في الأناضول عند ابลستين في ١٣ من ذى القعدة ١٢٧٥هـ / ١٩ أبريل ١٢٧٧م . وبعد عودة بيبرس إلى سوريا ، فإن ابغاخان حضر بقواته لمكان الواقعة ، وبكى عندما شاهد قتلى التتار مكدسين ^(٧٩) .

ولم يستطع اليلخان المغولي أن يفعل شيئاً سوى إعادة إرسال سفارة عاجلة للبابوية وللملوك الغرب الأوروبي . وأعاد أبغا على مسامع هؤلاء وعوده السابقة بالانضمام لقواتهم فور وصولها للشرق . ولكن فيليب الثالث ملك فرنسا (١٢٨٥-١٢٧٠م) لم يفعل أكثر من حسن استقباله للسفراء المغول ووداعهم . بل وتروي حولية فرنسيّة معاصرة أن الباريسيين اعتقادوا أن هؤلاء المغول جواسيس وليسوا سفراً ^(٨٠) .

والحقيقة أن فيليب الثالث لم يكن يهمه من أمر الصليبيين شيئاً إلا بالقدر الذي يحفظ علاقاته بالبابوية من المخاطر ، وربما يكون هذا الموقف ناجماً عن هزيمة لويس التاسع - والد فيليب الثالث - في مصر عام ١٢٥٠م ، وفشل حملته في تونس ووفاته هناك عام ١٢٧٠م بحيث تركت آثارها على الفرنسيين . بل وأثرت تأثيراً خطيراً على الاقتصاد الفرنسي خاصة إذا ما عرفنا أن حملة لويس التاسع في الشرق العربي (١٢٤٨-١٢٥٤) تكلفت ما يعادل مجموع دخل فرنسا - حينئذ - لمدة ستة أعوام ^(٨١) . فضلاً عن أن تورط فرنسا في حرب مع مملكة قشتالة على وراثة العرش كبدتها خسائر فادحة أبعدتها عن الاهتمام بالكيان الصليبي .

ونفس الرد تقريباً سمعه سفراً المغول من الملك الإنجليزي عام ١٢٧٧م عندما طلبوا مساعدته «ضد الكفرة أعداء الصليب» ^(٨٢) ، وفي عام ١٢٧٨م أرسل البابا نيكولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨٠م) عدة رهبان لمغول فارس للتبرير بالدين المسيحي ولتعزيز أبغا نفسه ^(٨٣) . وكان هذا رأى قادة أوروبا أى تنصر اليلخان المغولي قبل التحالف معه . ويرى «بالمير ثروب» Palmer Throop أن ذلك الموقف كان لإخفاً، ميولهم الحقيقة ، لأنهم كانوا يخشون أن

بورطهم الخان المغولى فى حملة صليبية جديدة هم فى قراره أنفسهم لا يريدونها ^(٨٤).

وعندما باعت جهوده للتحالف مع الغرب بالفشل ، قرر «أبغا خان» الاعتماد على القوى المحلية فى غرب آسيا لمواجهة المالك خاصية بعد وفاة «الظاهر بيبرس» وفرد «ستقر الأشقر» على المنصور قلاوون (١٢٩٠ - ١٢٧٩م) واستقلاله ببلاد الشام ومراساته لقيادة مغول فارس . ولهذا أرسل أبغا مبعوثا إلى عكا فى أكتوبر عام ١٢٨٠م لطلب التحالف مع الصليبيين عندما تتقدم جيوشه فى العام资料 ضد المالك ^(٨٥). أما عن الأرمن والجرجانيين فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى الإذعان لشیة أبغا خان فى الانضمام لقواته ضد المالك .

وكان للصليبيين موقفا آخر ، فمعظم القرى الصليبية اختارت موقف العياد لأنهم علموا من الدروس المريرة التى تلقتها كل من مملكة أرمينيا الصغرى وأمارة أنطاكيه أن المغول غير قادرين على حماية حلفائهم .

وبهمنا فى مجال ذكر مرحلة الصدام المسلح بين المالك من ناحية وبين المغول وحلفائهم من ناحية أخرى الذى دارت رحاه فى حمص فى أكتوبر عام ١٢٨١م / ربى ٦٨٠هـ إلقاء الضوء على موقف اللاتين منه .

فالصادر العربية أشارت إلى أن جيش المغول بقيادة مانكوقر - شقيق أبغا خان - كان مكونا من «خمسين ألفا من المغل وثلاثين ألفا من الكرج ^(٨٦) والروم والأرمن والفرنجية » ^(٨٧). وذلك دون آية تفاصيل أخرى عن دور «الفرنجية » أو عددهم فى هذه المعركة . ورشيد الدين لم يشر لاشتراك الفرنجية مع المغول فى هذه المعركة ^(٨٨). وابن العبرى أشار إلى أن المغول قد أخذوا معهم ملك الأرمن بعساكره مع خمسة آلاف كرج ^(٨٩) دون الإشارة لوجود «الفرنجية » مع المغول .

ولكن أحد فرسان هيئة الاستبارية فى حصن المرقب ويدعى «جوزيف دي كانسى» Sir Joseph de Cancy حرص بسبعة شهور تقريبا - يصف فيه معركة حمص كشاهد عيان ، ويصف أحوال الشرق اللاتيني والماليك وقت كتابة هذه الخطاب .

ويقرر «دي كانسى» « أنه بناء على الحاج ملك أرمينيا الصغرى - الذى كان متواجداً بالbattle - فان استبارية حصن المرقب قد أرسلوا إليه مائتين من الفرسان والمشاة للانضمام لقواته ^(٩٠) ولقد أشارت حولية الجليلية فى حوادث عام ١٢٨٢ بأن «ملك التتار انضم مع الاستبارية لقتال السلطان (الملوكى) » ^(٩١) ولكن لم يُشردِيَ كانسى أو غيره من المصادر اللاتينية لطبيعة الدور الذى لعبه هؤلاء الاستبارية فى المعركة ، وربما كان دورهم قاصرا على

القيام بامداد قوات الأرمن بالمؤن والعتاد من قلعتهم القريبة من ميدان المعركة بل وربما كانوا يتتجسّسون على قوة المالكى تحسباً لصدام مسلح حاسم معهم.

وفي مايو ١٢٨٥ م استولى المنصور قلاوون على هذه القلعة من الإستبارية تأدبياً لهم على اشتراكهم مع المغول ضد المسلمين^(٩٢). في أكتوبر عام ١٢٨١ م.

ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه الجولة بانتصار المالكى وأن النهزمين من المغول وحلفائهم ولوا الأدبار ، وأن قوات المسلمين تعقبتهم حتى شرقى نهر الفرات وحدود أرمينيا الصغرى ، وأن القوات المنسحبة خسرت أثناء الفرار أكثر مما خسرته في ميدان القتال^(٩٣).

وقد أوضح دى كانسى في تقريره أن نائب شارل الأنجوبي بمدينة عكا قد تقابل مع السلطان المنصور قلاوون في أثناء عودة الأخير لبلاده متتصراً وقدم له الهدايا والتهاني على انتصاره على المغول^(٩٤). وكان هذا تعبيراً عن موقف مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا الودي للمالكى حرصاً على البقاء بجوار الأقوى .

وتوفى «أبغا خان» في أول أبريل عام ١٢٨٢ بعد سماعه خبر هزيمة جيشه في موقعة حمص . وتولى شقيقه تكودار (أحمد) منصب الایلخانية (١٢٨٤-١٢٨٢ م) ونظراً لاعتناقه وكثير من قواده الإسلام ، فإنه حاول التقارب مع المالكى وإنهاe حالة الحرب بين البلدين ليتفرّغ لشاكله الداخلية الناجمة عن تمرد ابن أخيه أرغون عليه ولكن مصرعه على يد الأخير أغلق باب الحوار مع المالكى إلى حين .

عهد أرغون خان (١٢٩١-١٢٨٤)

وصل التقارب بين مغول فارس في عهد أرغون خان والغرب الأوروبي لمرحلة الذروة حيث أرسل هذه الایلخان أربعة سفارات من قبله في أعوام ١٢٩٠، ١٢٨٧، ١٢٨٥ ، و ١٢٩١ م لإعادة عرض مشروع التحالف العسكري مع الغرب ودراسة تفاصيله وتحديد موعد اللقاء، القوات المتحالفـة ، وقامت البابوية وملكا المجرـتا وفرنسا بارسـال مبعوثـين من قبلـهم سـواه برفقة سـفـراء المـغـول أو بـدونـهم للـردـ على عـرضـ أـرغـونـ خـانـ .

وكان الـايـلـخـانـ المـغـولـيـ هو صـاحـبـ الـمـبـادـرـةـ في طـلـبـ التـحـالـفـ ضدـ المـالـكـيـ اـنتـقاـماـ منـ هـزـيـةـ والـدهـ فيـ مـوقـعـةـ حـمـصـ فيـ ٣٠ـ أـكتـوبـرـ عـامـ ١٢٨١ـ مـ ،ـ تـلـكـ الـهـزـيـةـ التـيـ شـجـعـتـ الـمـنـتـصـرـينـ عـلـىـ الـانتـقامـ منـ أـرـمـينـياـ الصـغـرـىـ مـرـةـ أـخـرىـ ،ـ بـلـ وـتـحـريـضـ أـمـرـاءـ العـرـاقـ لـلتـمـرـدـ عـلـىـ الـحـكـمـ الـمـغـولـيـ وـمـرـاسـلـةـ رـجـالـ الصـفـوةـ الـمـسـلـمـينـ الـذـيـنـ كـانـواـ تـحـتـ إـمـرـةـ الـمـغـولـ لـلـجـوـءـ إـلـيـهـ .

ولما كان أرغون قد ارتقى عرش الإيلخانية على جثة عمده تكودار أحمد - الذي كان مسلما . هو ومعظم قواه ، فضلا عن عداه أرغون للملوك وغيرهم من المسلمين فإنه اتضح لأول مرة بصورة علنية عدا الإيلخان المغولي لرعاياه المسلمين وقتل ذلك في إبعادهم عن المناصب الهاامة في الدولة والبلاط وتودده وجده للمسيحيين واليهود على السواء بل وإسناده منصب الوزارة «سعد الدولة» البهروي - رغم أن أرغون نفسه كان بوذيا . ولاعجب أن كانت مدينة تبريز تعج بالأوربيين الذين يعملون في خدمة المغول كمستشارين أو مترجمين أو سفرا لهم أو كأعضاء في الجماعات التبشرية الكاثوليكية من الفرنسيسكان والدومنيكان أو من التجار الإيطاليين .

أما الغرب الأوروبي فكان أيضا بحاجة ماسة للتعاون العسكري مع المغول لأن قوات المالكية كانت تسقط عاما بعد آخر واحدا من مواقع الصليبيين الهاامة في بلاد الشام في الوقت الذي انشغل فيه عن الآخرين بحروبهم الأقليمية ومشاكله الداخلية.

أولا :- سفارة عام ١٢٨٥ م .

أرسل أرغون خان سفارته الأولى للغرب الأوروبي فور اعتلاءه العرش والتخلص من عمه ومؤيديه . وهذه هي السفارة الوحيدة التي لا نعرف عنها أية تفصيلات سوى خطاب بتيم عشر عليه في أرشيفات الفاتيكان من أرغون إلى البابا مورخ في ١٥ مايو من عام ١٢٨٥ م^(٩٥) .

وفي هذا الخطاب يوضح أرغون أنه تلقى أوامر الخاقان الأعظم قوبيلاي خان (ت ١٢٩٤) بوضع أراضي المسيحيين القريبة تحت حمايته ورعايتها - وذلك في إشارة إلى الأرضي المقدسة سوعزمه تقديم العون لها . ويقترح على البابوية أن تكون جيوشه بمهاجمة الشام وأن تقوم قوات البابوية و«الفرنجية» بمهاجمة مصر في نفس الوقت حتى يمكن تحطيم المسلمين فيما بينهما «وذلك حتى يكون هناك سيدان (فقط) هما الخاقان (قوبيلاي) والبابا» .

وعند وصول سفارة أرغون الأولى عام ١٢٨٥ كان البابا هنريوس الرابع (١٢٨٧-١٢٨٥) رجلا طاعنا في السن ، ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا خاصة بعد اندلاع الثورة الصقلية (مارس ١٢٨٢) . فتمرد أهالي صقلية على حاكمهم الفرنسي شارل الأنجوي وتأييد بيزنطة وأراجون جعلت أوروبا منقسمة لعدة معسكرات متصارعة^(٩٦) .

ولهذا يمكن تفسير عشر خطاب أرغون في أرشيفات البابوية وعدم العثور على رد للبابا في هذه السجلات أن البابا نفسه لم يكتب ردا لأرغون على هذه السفارة . ويعتقد الباحث أن

هنريوس الرابع هو الذي صرف سفراً أرغون برفق من روما وجعلهم لا يذهبون لعواصم الغرب الأوروبي حتى لا يعلم الأيلخان المغولي بما يحدث في أوروبا فيصاب باحباطه . ومن ثم فان البابا أراد أن يترك الخان لحماسة ضد المسلمين ربما يستطيع هو والأرمن أن يفعلوا ما لا يستطيع الغرب أن يفعله .

ثانياً : سفارة «رابان صاوما» ١٢٨٧-١٢٨٨ م

ازداد موقف الأرمن والصلبيين سواما في مواجهة المالك في الفترة من عام ١٢٨٥ حتى ١٢٨٧ ، إذ أن المنصور قلانون عزم منذ انتصاره على المغول على الانتقام من حلفائهم . في صفر عام ٦٨٢هـ / مايو ١٢٨٣م أرسل قلانون أمراء في الشام بقوات أغارت على الحدود الجنوبية لأرمانيا الصغرى سبب كثيراً من الضرر لها وقتل وأسرت كثيراً من فرسانها^(٩٧) عقاباً على ما فعلوه ببلاد الشام إبان الغزو المغولي لها عامي ١٢٨٠ ، ١٢٨١م . ولهذا فان ملكها ليون الثالث (١٢٨٩-١٢٧٠) أرسل سفراً لطلب الهدنة من المالك ، ولكن قلانون قذف بهم في غياب السجن ولم يفرج عنهم إلا بعد تدخل مقدم الداوية في عكا وقبول ليون الثالث لمعاهدة مع المالك من شروطها أن يدفع جزية سنوية للسلطان قدرها مليون درهم ، وإطلاق حرية التجار المسلمين في بلاده وألا يعتدى أو يساعد أحداً ضدتهم على المسلمين^(٩٨) .

أما عن الاستمارية فكان مصيرهم أنكى ، إذ استولى المالك على قلعة المرقب في مايو عام ١٢٨٥ دون أن يتدخل أحد من إخوانهم الصلبيين لنجدتهم . ولهذا أرسل أرغون سفارته الثانية للغرب الأوروبي عليها تنبع في إنقاذ قادته بمديد العون للمغول ضد المالك .

وقد انتهى أرغون بعناية باللغة شخص سفيره الجديد «رابان صاوما» Rabban Sawma «^(٩٩) ومراقبه ، ويبدو أن أرغون في اختياره صارما باعتباره من يكن عاصمة قوبيلاني خان - أراد إيهام الغرب الأوروبي أن سيده الأعلى راض عن صلاته بهم .

وكون «صاوما» أحد كبار رجال الكنيسة النسطورية في آسيا يعكس رغبة أرغون في كسب ثقة الأوروبيين عندما يستمعون من سفير مسيحي عن حسن معاملة المغول لرعاياهم المسيحيين ، وربما قصد أرغون من وراء ذلك أيضاً تحقيق ولاه الكنيسة النسطورية للبابوية في روما^(١٠٠) . وهو هدف كانت تسعى له البابوية منذ نصف قرن وذلك ليضمن تحقيق الأهداف السياسية التي من أجلها أوفد رابان صاوما .

وعندما وصل صاما إلى روما كان كرسى البابوية شاغرا ، فذهب هو ورفاقه - ومنهم بوسكاريللو جيزولفو Buscarello of Gesulfo الجنو - لقابلة ملكى فرنسا وإنجلترا لتسليمها خطابات الأيلخان المغولى . وقد عرجوا على مدينة جنوة حيث استقبلهم أميرها وأهلها بحفاوة بالغة^(١٠١) ترجع لأن تجار جنوة هم الذين كانت لهم اليد الطولى حينئذ فى أيلخانية فارس ومنهم اختار المغول مستشاريهم وسفراء لهم .

وفى فرنسا أبلغ صاما فيليب الرابع (١٣١٤-١٢٨٥) بهدف زيارته . ورد الأخير بأنه سوف يرسل أحد كبار قواده إلى أرغون^(١٠٢) .

وبعد عبور الحدود الفرنسية لقابلة الملك الإنجليزى فى مقاطعة جاسكونى Gascony فان ادوارد الأول - بعد تسلمه خطابات وهدايا أرغون خان - أخبر صاما أنه يحمل الصليب على صدره ، وأنه لا يفكر إلا فى أمر الأرضى المقدسة وأنه سعيد أن أرغون يفك فى نفس الأمر الذى يشغلة . وبعد ذلك قام السفير بزيارة للمقاطعة الإنجليزية وكائنها وتلقى الهدايا والخطابات من الملك الإنجليزى^(١٠٣) .

ومن الواضح أن حسن استقبال ملكى فرنسا وإنجلترا لصاما ورفاقه لم يجعل السفير الشرقي يغفل أن ردودها على مشروع أرغون خان سلبية على غير ما توقع . ويخبرنا صاما فى مذكراته أنه أبلغ أحد كرادلة روما أثناء مقابلته بمدينة البندقية ما هو ترجمته :

ماذا أستطيع أن أقول لك أيها الرجل المعيب والنبيل ؟ أنتى قد قدمت فى سفارتك من الملك أرغون وبطريق الشرق بخصوص مدينة بيت المقدس . وهل تصدق أننى هنا (أى هدايا) منذ عام ولم يتم اختبارها بعد ؟ وعندما سأرجع (البلادى) ماذا سأقول ؟ وما هي الإجابة التى سأعطيها للمغول ؟ فهؤلاء (المغول) الذين لهم قلوب أكثر قسوة من الحجارة يريدون الاستيلاء على المدينة المقدسة ، وأن هؤلاء (الأربين) الذين يهمهم أمرها لا يلتقوا لهذا الأمر بالا فى أذهانهم . وفضلا عن ذلك فإنهم لا يعطون لها أهمية على الإطلاق ، فماذا أقول لهم ؟^(١٠٤) .

ويقرر « صاما » فى مذكراته أنه استدعى لقابلة البابا نيكولا الرابع (١٢٩٢-١٢٨٨) فور اعتلاء العرش البابوى حيث سلمه خطابات أرغون وبطريق النساطرة وهداياهم ، وسمح البابا له بالعودة لبلاده فى ٦ أبريل عام ١٢٨٨ م^(١٠٥) محملًا بالهدايا وتسعة خطابات بابوية لأرغون خان وجاثليق النساطرة ولزوجة أرغون وأسقف اليعاقبة فى تيريز ولبعضات الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان بайлخانية فارس وللتجار الإيطاليين فى تيريز ولصاما نفسه^(١٠٦) .

وقد ركز البابا خطابه الأول لأرغون - المؤرخ في ٢ أبريل عام ١٢٨٨ - على دعوة الأخير لاعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي دون الإشارة للهدف الأساسي لسفارة أرغون^(١٠٧). ثم كتب البابا خطابا ثانيا قصيرا في نفس يوم كتابة الخطاب السابق . رغم أن البابا يخاطب أرغون في هدف سياسي فإنه أعاد على مسامعه تلخيصا لما ذكره مفصلا في الرسالة الأولى فيقول :

... علمنا (من المندوين) أنه إذا ما تم تحرير مملكة بيت المقدس من أيادي الكفرة فانك تحب أن تولد مجددا في هذه المدينة بفضل المعودية . أما نحن فنأمل أن تحرير المملكة المذكورة سيكون أسهل بعونه تعالى إذا ما تنصرت أنت ... فنرجوا جلالتكم من صميم الفؤاد أن تسرع إلى المعودية ولا تتأخر في قبولها لتمجيد الرب ولنيل الخلاص^(١٠٨).

ويتضح من خلال فحص سفارة رابان صاوما وردود الغرب الأوروبي عليها الآتي :

أولا : أن أرغون طلب مساعدة الغربيين له ضد المماليك . وكى يشجع البابوية ورعاياها على ذلك فإنه رفع شعار «تحرير مدينة بيت المقدس من الكفرة » كورقة دبلوماسية لإلهاب حماسهم خاصة وأنهم أرسلوا العديد من الحملات الصليبية من قبل تحت هذا الشعار البراق . وكانت تعليماته - كما يقرر «صاوما» في مذكراته - لسفرائه «أنه يريد أن يخضع أراضي فلسطين وسوريا ، ولكن لو أن ملوك الغرب المسيحيين لم يساعدونني فإن رغبتي هذه لن تتحقق»^(١٠٩)، وزيادة في تحفيز الأوروبيين ، فإن سفراه أعلنوا في العاصمة الأوروبية أنه بعد استرداد هذه المدينة المقدسة ، فإن أرغون سيعلن تنصره فيها .

ثانيا : أن بيقولا الرابع - باعتباره أول شخص من هيئة الفرنسيسكان يصل لل الكرسي البابوي كان جل اهتمامه تنصير الإيلخان المغولى وشعبه ، ومن ثم فإن محور خطابيه لأرغون يدور حول هذه النقطة . بل وقد أرسل البابا خطابات لزوجة أرغون ولرجال بلاطه ومستشاريه الأوروبيين للضغط على الإيلخان من جميع الجهات لتنصيره^(١١٠) .

ويمكن تفسير هذا السلوك من بيقولا الرابع بوحد من سببين أو كليهما معا :-

أولا : أن البابا قد علم من صاوما بردوه ملكى فرنسا وإنجلترا السلبية على مشروع التحالف مع المغول . فأراد أن يتنصر الإيلخان المغولى حتى يكون أداة طبيعة فى يده

يستخدمنه ضد من يشاء . خاصة وأن عملية نشر المسيحية بين المغول . فأراد أن ينتصر الأيلخان المغولي حتى يكون أداة طيعة في يده يستخدمه ضد من يشاء . خاصة وأن عملية نشر المسيحية بين المغول لن تكلف البابوية أموالاً ليست في خزانتها ، أو أسلحة ليست في متناولها . هذا في ضوء معرفتنا أن بعثات من الفرنسيسكان والدومنikan كانت تعمل في مجال التبشير بالدين المسيحي في إلخانية فارس وتحت رعاية حكام المغول منذ فترة من الزمن^(١١١) .

ثانياً : أن البابا كان يخشى لو أن المغول استولوا على المدينة المقدسة وهم ما زالوا بوذين فانه لا يمكن التفاهم معهم على قدم المساواة بعكس الحال لو اعتنقا المسيحية خاصة على المذهب الكاثوليكي . فحينئذ سيكونون تابعين للبابوية وليس العكس .
وعموماً تجاهل البابا تماماً الهدف الأساسي لسفارة أرغون بالتحالف العسكري المشترك ضد الماليك ، وأرسل معها ردوداً جماعتها يتعلق بنشر المسيحية بين المغول وولاء الكنائس الشرقية لكنيسة روما الكاثوليكية .

أما ملك إنجلترا فإنه لم يفعل أكثر من عبارات المجاملة لأفراد البعثة وتزويدهم بالهدايا وتكليف السفر ، وقد أرسل ملك فرنسا سفراً من لدنـه بصحبة ربانـ صاوـما ورفاقـه . وتعرف من سفارة مغولـية تالية أن السفراـء الفرنـسيـن رفضـوا تقديم التحـية لأرغـون على الطـريـقة المـغـولـية باعتـبار أنهـ غيرـ مـسيـحـي^(١١٢) . وواضـعـ أن هـؤـلـاء السـفـراـء لم يـفـعـلـوا سـوـى تقديم بعضـ الـهـدـاـيـا منـ مـلـكـهـمـ ردـاـ علىـ هـدـاـيـاـ العـاـهـلـ المـغـولـيـ .

وهـكـذا فـشـلت سـفـارـة أـرـغـونـ الثـالـثـة فـي تـحـقـيق هـدـفـها السـيـاسـيـ الذـى أـرـادـهـ أـرـغـونـ وهـيـ السـفـارـةـ الوحـيـدةـ التـىـ أـشـارتـ لـهـاـ إـحدـىـ الـحـولـيـاتـ الشـرـقـيـةـ^(١١٣) .

السفارة الثالثة (١٢٨٩ - ١٢٩٠ م)

انتهز أرغون خان فرصة سقوط طرابلس في أيدي المصريين سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩ م^(١١٤) . لإرسال سفارته الثالثة للغرب الأوروبي . وكان طبيعياً أن تصـلـ هـذـهـ السـفـارـةـ إـلـىـ أـورـوـبـاـ لـتـجـدـ أـمـامـهـ قـادـةـ هـذـهـ المـدـنـ الـمـنـكـوـةـ الـفـارـيـنـ منـ سـيـوفـ الـمـالـيـكـ يـطـوـفـونـ بـعـواـصـمـ الـغـربـ الـأـورـوـبـيـ لـطـلـبـ النـجـدةـ ، وـوـصـلـ بـوـسـكـارـيلـلوـ Buscarelloـ سـفـيرـ أـرـغـونـ لـإـيطـالـياـ فـيـ نـهـاـيـةـ آـغـسـطـسـ ١٢٨٩ـ مـ .

ولعله من اللافت للنظر أن أرغون اختار هذه المرة بوسكاريللو الجنوبي لينوب عنه في هذه السفارة ، وذلك لأن الجنوبيين هم أكثر الذين أضيروا بضياع طرابلس ويستطيع هذا السفير إقناع الغربيين بخطورة الموقف في الشرق ، و اختياره أيضا يهدف للبعد عن مشاكل المترجمين خاصة وأن هذا السفير ذهب لمناقشة تفاصيل العمليات الحربية المقترحة بين المغول والأوربيين والتنسيق بين موعد وصول الجيوش المختلفة وهذه أمور يعدها هذا السفير وحده كفنا لها باعتباره خبيرا عسكريا أيضا (١١٥) . وربما قصد أرغون من هذا الاختيار أيضا قطع الطريق على البابا في التفاضل عن الأهداف الحقيقة لسفاراته والحديث في الدين واللاهوت ، فالإيلخان المغولي كان حينئذ بحاجة لقوات الأوروبيين أكثر من حاجته للكتب والقرابين المقدسة . ونظراً لعدم العثور على أية خطابات من أرغون للبابا من هذه السفارة ، فإنه يمكن استنتاج أن خطاب أرغون لفيليب الرابع الذي حمله بوسكاريللو والذي عشر عليه في الأرشيفات الفرنسية كان هو محور المناقشة مع البابا ومع الملك الانجليزي أيضا .

ومن المعروف أن بوسكاريللو قد غادر المقر البابوي في أول أكتوبر عام ١٢٨٩ م - حاملا رسائل تزكية من نيقولا الرابع الملك المحتل وإن فرنسا ، وورد في رسالة البابا المؤرخة في سبتمبر لإدوارد الأول - التي عشر عليها فيما بعد في الأرشيفات الانجليزية ما هو ترجمته :

... لقد وصل إلينا حديثاً أينما العزيز النبيل بوسكاريللو جيزولفو وهو مواطن من جنوا وسفير أرغون ملك التر العظيم ، وسلمتنا خطاباً من هذا الملك . وضمن ما يعتريه أن أرغون سوف يخرج بنفسه - طاعة لنداء الكنيسة - بعزيمة وقوة للاضمام لحملة صليبية عامة لحماية الأرضي المقدسة .

وفي نهاية رسالته ، يطلب نيقولا الرابع من الملك الانجليزي أن يقابل سفير أرغون بنفسه بترحاب وأن يستمع إليه وإلى المقترفات التي سيقدمها في هذا الشأن وأن يرد عليها حتى يحملها للملك المغولي عند عودته إليه (١١٦) .

والمهم أن بوسكاريللو وصل إلى باريس أولاً وقدم لملك فرنسا خطاب أرغون ، وتتضمن هذه الرسالة الهامة قرار أرغون بتحريك قواته في يناير عام ١٢٩١ م حتى يتمكن من النزول أمام دمشق في ٢٠ قبرايير ١٢٩١ وذلك بشرط وجود القوات الأوربية في مصر والشام في ذلك الوقت « لمباغتة العدو من الخلف » وقال في رسالته موجهاً كلامه لفيليب الرابع :

ونعلمك الآن أننا ويتقتضي صدق كلامك سبعة جبيوشتا - في الموعد المتفق عليه

(الزمان والمكان) . فإذا أخضتنا بقدرة السماه تلك الشعوب ، ناتنا سمعطكم القدس ، أما إذا أهلتم الموعد وجعلتم جيوبنا تخوض عملية (حربية) ناشلة - وقد يكون مكتنا - فسوف تندمون ، وحتى إذا تدمتم ، فسوف لا ينفعكم الندم^(١١٧) .

هذا وقد عشر برفقة هذا الخطاب على مذكرة كتبها بوسكاريللو بخط يده باللغة الفرنسية يبدو أنها تعليمات أرغون الشفوية له بخصوص تفصيلات الخطة العسكرية أو على الأرجح هي ترجمة خطاب آخر من أرغون للملك الفرنسي .

وفي هذه المذكرة يقول أرغون أنه ينوي أن يصطحب معه في حملته على الشام - لاسترداد مدينة بيت المقدس من المسلمين - ملكي جورجيا وأرمينيا الصغرى اللذان يمكنهما حشد عشرين ألفا من الفرسان ، ولأنه من غير المناسب أو من المكلف لملك فرنسا أن يصطحب معه خيولا لأرض المعركة ، فان أرغون أبدى تعهده بامداده بعشرين أو ثلاثين ألفا من الخيول ويسعر رمزي . بل يمكنه أيضا أن يأمر رعاياه سلاجقة الروم بأن يوفروا للقوات الفرنسية ما تحتاجه من تموين من أبقار وجمال ودقيق وعلق للخيول وغير ذلك من إمدادات تحتاجها القوات . وتعبيرًا عن حسن نيته تجاه الأوربيين ، فان أرغون أعلن أن مدحنة طرابلس قد أحزرته وأنه أعدم أربعة من الأمراء المسلمين في العراق أبدوا سرورهم لانتصار الماليك ، وأنه رفض أن تدفن جثثهم بل وأمر أن تلقى للكلاب وأشار أرغون أن شقيقته تزوجت من ملك جورجيا المسيحية وأنها اعتنقت الدين المسيحي مثل كثير من رجال بلاطه ، وشكى أرغون من تصرفات سفرا الملك الفرنسي الذين أرسلهم بصحبة رابان صاما ، وطلب من الأخير أن يأمر سفرا « بتقديم التحية لأرغون طبقا للتقاليد المعول بها في هذا الشأن لدى المغول^(١١٨) .

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا رد مكتوب من الملك الفرنسي فيليب الرابع على عروض أرغون السخية ، فإن أفعال الملك الفرنسي تعطينا الرد الكافي . فلاشك أن هذا الملك قد صم الآذان تماما عن نداءات البابوية له ولغيره لإرسال تجذات للصلبيين في الشرق . وكان يرى أن بلاده لم تجن إلا المتاعب من هذه الناحية ويكتفى ما خسرته فرنسا على الحروب الصليبية من قبل . ولهذا فقد أرسل للبابا يوم ٩ ديسمبر عام ١٢٩٠ م يطلب إعفائه من الذهاب للأراضي المقدسة^(١١٩) .

والمهم أن بوسكاريللو وصل إلى لندن في ٥ يناير ١٢٩٠ م حاملا عروضاً أرغون التي سبق تقديمها للملك الفرنسي وخطاب البابا لتوصية الملك الإنجليزي بحسن استقبال سفير أرغون ودراسة مقترحاته .

ويمكن اعتبار خطاب إدوارد الأول الذي عثر عليه Hudson Turner في الأرشيفات الانجليزية عام ١٨٥١ رداً لبنا وموافقاً من الملك الانجليزي بحسن استقبال سفير أرغون ودراسة مقتراحاته .

فيبدأ إدوارد الأول بتهنئة أرغون باقتفار خطوات والده أبيها في الرغبة في تحطيم قوة السلطان الملوكي «سلطان بابلدون» ورغبته في الحصول للأراضي المقدسة لمساعدة الصليبيين فيها ضد أعدائهم . ويذكره على عرضه بتقديم الخبول والأمدادات اللازمة للقوات الأوروبية فرر وصولها للشرق . وأعلن الملك الانجليزي عن ترحيبه بالانضمام لقوات أرغون . ولكن أبلغه أن مسألة تحديد موعد خروجه بقواته للشرق سيحددها البابا بنفسه على ضوء الظروف السياسية في أوروبا . وأنه بمجرد علمه بأوامر البابا في هذا الشأن ، فإنه سيرسل سفيرًا للإيلخان المغولي لإبلاغه بموعد قيامه من أوروبا وموعد وصوله للأراضي المقدسة بالتقريب . وأن هذا السفير سيحمل معه الصور والمجوهرات التي طلبها أرغون من ملك إنجلترا (١٢٠) .

والهم أن بوسكاريللو عرج على روما في طريق عودته لإبلاغ البابا بنتائج مفاوضاته في باريس ولندن والحصول على رد نيكولا الرابع لأرغون خان ، ورغم عدم العثور على أثر خطاب البابا إلا أنه من الواضح أن مضمونه لم يخرج عن الخطابات السابقة وعن الوعد بموافقة أرغون بموعد تحركات الجيوش الأوروبية للشرق ريثما تصله أخبارها من الأمراء العلمانيين .

والحقيقة أن نيكولا الرابع كان أعجز من أن يحرك ملوك الغرب الأوروبي وأمراء لحشد الجيوش للتحالف مع الإيلخان المغولي حتى لو كان هذا الأمر يعني أيضاً التجدة الخامسة للصليبيين في الشرق بعد سقوط طرابلس . والاستثناء الوحيد كان من البناقة - الذين كانت لهم اليد الطولى في عكا وخافوا ضياعها - ولهذا قدموا عشرين مركباً لنقل الصليبيين الذين استطاع أعون البابوية تجنيدهم لنجدتهم اللاتين في بلاد الشام . ولم يجد الآخرون سوى تأجير المرتزقة من الدهماء والرعايا والعاطلين من لومبارديا وتoscانى وبقية شمال إيطاليا في حوالي ٣٥٤ (١٢١) شخصاً لحمل الصليب للدفاع عن بقايا أخطاء البابوية والغرب الأوروبي طوال قرنين من الزمان في شرق البحر المتوسط . وإذا كان هذا هو حال الروح الصليبية في الغرب الأوروبي فلا غرو أن يرجع بوسكاريللو لأرغون بخطابات لاقمة لها .

السفارة الرابعة (١٢٩١-١٢٩٠ م)

لسنا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان «بوسكاريللو» قد عاد إلى «تبيريز» لإبلاغ أرغون خان بردوه ملوك الغرب الأوروبي والبابوية على مشروعه بالتحرك ضد المماليك في ديسمبر

التالى والتقاء الجيدين المغولى والأورى فى فبراير ١٢٩١ م ببلاد الشام - ألم أنه ظل فى جنوة لأعماله الخاصة ، وأرسل أحد مساعديه للشرق لإبلاغ أرغون بذلك ^(١٢٢) . ولأن سفارة مغولية رابعة ظهرت فى البلاط البابوى فى نهاية ذلك العام (١٢٩٠ م) وكان «بوسكاريللو» ضمناً فرادها ، وأن الوقت المتاح بين السفارتين حوالى ثمانية شهور قد تكون قليلة لعودة الأخير إلى «تبريز» ورجوعه مرة ثانية ، فقد يكون أكثر منطقياً أن السفراء الجدد لأرغون قد التقوا مع بوسكاريللو فى إيطاليا فى ديسمبر عام ١٢٩٠ .

وليس لدينا أية وثائق لأرغون من سفارته الرابعة ، ولكن يعتقد أن هذه السفارة جاءت للغرب للتأكيد على تواجد الأوربيين بجيوبهم فى المواعيد والأماكن المحددة من قبل حتى لا تحدث كارثة للمجيوش المغولية .

وفى أثناء وجود السفراء المغول فى روما ، وصلت للبابا نيقولا الرابع أنباء بكارثة جديدة سببها المرتزقة الإيطاليون الذين وصلوا إلى عكا فى أغسطس من ذلك العام . فهؤلاء الدهماء اعتدوا على التجار المسلمين الذى كانوا يحملون رقبتاً للسلطان المملوكي ، وقتلوا كل من قابلوه من المسلمين ومن يرتدى زيهم فى شوارع عكا . ولهذا أقسم قلاوون على الانتقام من عكا ^(١٢٣) . ولهذا وصلت الأنباء للبلاط البابوى لطلب النجدة العاجلة .

وفي ٥ ديسمبر ١٢٩٠ م أرسل نيقولا الرابع أحد الكراولة الفرنسسكان للملك الفرنسي لحثه على سرعة حل الصليب وإرسال النجدة للأراضى المقدسة . وبعد ذلك مباشرة أرسل البابا للمندوب البابوى فى باريس أن يبلغ فيليب الرابع أنه إذا لم يرغب فى الذهاب للشرق فعليه أن يقوم بتسليم ضرائب العشور الصليبية - التى ما زالت تجمع فى ملكته لحسابه - إلى المندوبيين البابويين كى تذهب فعلاً للأراضى المقدسة ^(١٢٤) .

وفيما يتعلق بسفارة أرغون فلدينا خطابين مؤرخين من البابا فى ٢ ، ٣١ ديسمبر ١٢٩٠ م إلى الملك الانجليزى بهذا الشأن .

ففى الخطاب الأول يبلغ البابا الملك الانجليزى بأن سفراً، أرغون وهم أندريلاس ودونيك وبوسكاريللو ومارك قد وصلوا إليه بخطابات ملك التتر . وكالعادة يوصى البابا إدوارد الأول بحسن استقبال السفراء والاستماع لمقترحات أرغون بجدية والرد عليها على قدر ما يستطيع ، ويختتم البابا خطابه بقوله « ونحن قاصدون إيفاد رسول خاص إلى الملك المذكور مع المندوبيين أنفسهم لدى عودتهم إلينا » ^(١٢٥) .

أما الخطاب الثاني المؤرخ في ٣١ ديسمبر ١٢٩٠ - أى بعد شهر واحد من الخطاب السا
فيعتبر نسخة مكررة من الخطاب الأول عدا أسماء سفراه أرغون . ففى هذا الخطاب ، ية
نيقولا الرابع سفيرًا جديدا لأرغون وهو Saabedin Archoon للملك الانجليزى ، ويطلب «
أن تحسنوا استقباله إكrama للكرسى الرسولى ... وتنظر حالا بتلبية طلبه لمجد الـ
والمسيحية وفخرا بجلالتكم الملكية » (١٢٦) .

والحقيقة أن صدور خطابين من البابا للملك الانجليزى فى شهر واحد بخصوص سفر
أرغون (أربعة فى الخطاب الأول وواحد فى الخطاب الأخير) مسألة أثارت انتباه الباحث D
Ryan الذى يعتقد أنها سفارة واحدة لأرغون ، وأن السفير الأخير المؤرخ بشأنه خطاب ١
ديسمبر قد تأخر فى الطريق شهرا - ربما لمرضه - عن رفاقه . ومن ثم عرج على البلا
البابوى للحصول على تذكرة مائلة لتلك التى أعطاها البابا بالرفاقه قبل ذلك بتسعة وعشرين
يوما (١٢٧) .

وليس معروفا على وجه التحديد بما إذا كان سفراه أرغون قد ذهبوا لمقابلة الملك الفرنس
أيضا كعادة السفارات السابقة أم لا . فرسالة البابا للايلخان المغولى ردا على هذه السفا
تقول « ... وقد كتبنا رسالة تأييد لكم بناء على طلبكم إلى ملك المجلترى إدوارد لينظر
تلبية طلباتكم ... » (١٢٨) . ولم يشر لكتابته للملك الفرنسي فى هذا الشأن ، ولكن حوا
Bury St Edmunds التار العظيم قد أرسل سفراه لكل من البابا وملکي المجلترى وفرنسا لتجديده وتقوية صداقت
وكى يناقشو اعتناته الديانة المسيحية وتقديم المساعدة للأراضى المقدسة » (١٢٩) .

وسوء ذهبت هذه السفارة إلى باريس أم لا ، فالبابا كان يعلم أنه لا أمل يرجى من فيله
الرابع فى الذهاب للشرق . ومن ثم فقد اعتمد كلية على ادوارد الأول باعتبار أن دولته
الوحيدة تقربا التى لم تتورط بعد فى حروب ومشاكل داخلية تعوق ذهابه للشرق . خاصة و
المفاوضات كانت قد قطعت شوطا طويلا بين مندوبي هذا الملك ومندوبي البابوية بشأن طلبا
للقىام بحملة صليبية للشرق ، وهى حصوله على مبالغ نقدية من البابوية ومن ضريبة العش
الصليبية فى بلاده وبعض الأقاليم الأوروبية لعدة سنوات قبيل ذهابه للشرق . ومن ثم فانه
الاتفاق بين الطرفين على أن يتحرك الملك الانجليزى على رأس حملة صليبية أوروبية للشـ
فى عيد القديس يوحنا المعمدان (٢٤ يونيو) ١٢٩٣ م (١٣٠) . وقد طلب الملك الانجليزى هـ

المتسع من الوقت حتى يكون قد حصل على موارد إضافية من ضريبة العشور الصليبية تكفى الإنفاق على إعداد وتمويل حملته . وبطبيعة الحال فان أحدا لم يكن يتوقع هذا الانهيار السريع للواقع الصليبي في بلاد الشام .

ولكن هذا الموعد المتأخر يخالف تماماً المواجهات التي سبق أن اقترحها بوسكاريللو عام ١٢٨٩ وأكدها السفراء المجدد عام ١٢٩٠ نيابة عن أرغون ، وهي تحرك قوات الطرفين ضد المالك في فبراير عام ١٢٩١ م .

ولأن إدوارد الأول لم يكن عنده ما يقوله لسفراء أرغون فربما أخبرهم أنه سيخطر ملوكهم فيما بعد بموعده قيامه للشرق . وكذلك فعل البابا شفويلا لأنه لم يرد كتابة على أرغون إلا في أغسطس التالي (١٢٩١) كما سررى بعد قليل .

وعلى الجانب الآخر ، فان أرغون كان يعلق آمالاً كبيرة على وصوّ قوات الأوربيين في الموعد الذي حدد له . ولهذا بدأ في تنفيذ فكرة جديدة في ضرب المالك وهي محاصرتهم اقتصادياً من البحر الأحمر وذلك بضرب سفنهم التجارية من المحيط الهندي إلى طريق البحر الأحمر .

فطبقاً للحوالية السريانية لابن العبرى تحت حوادث عام ١٢٩٠ ما هو ترجمته :

أن حوالي مائتين من الفرنجية جاؤوا في نهر دجلة إلى الموصل بأوامر من ملك الملوك (أرغون) كما لو كانوا ذاهبين إلى بابل (بغداد) لبناء سفن هناك لكي يذهبوا إلى بحر بونت (البحر الأحمر) ليهاجموا المصريين . وبعضاً آخر من الفرنجية حوالي سبعمائة رجل ذهبوا عن طريق البر ومكثوا في بغداد طوال فصل الشتاء حتى تكتمل خطتهم . والآن توجد روايات عن الفرنجية في بغداد تستحق الذكر ... (١٣١).

وينقل المؤرخ الفرنسي رишارد Richard J عن روايتين لراهبين كانوا حبئذ في بغداد قول الأول أن هؤلاء «الفرنجية» كانوا جنوبياً وأنهم قضوا الشتاء فعلاً في بغداد وقاموا ببناء سفينتين ، وأن أحد الجنوبي استخدم واحدة منها في تدمير أحد المساجد في بغداد مما سبب هياجاً لعامة المسلمين بالمدينة . ويروى رишارد عن الثاني وهو الدمنيكاني وليم آدم William Adam أن البحارة الجنوبي ساروا بالسفن حتى مينا البصرة ، ولكنهم انقسموا إلى فريقين متنازعين ، وأن الفريقين اقتتلا (١٣٢) ولهذا فشل هذا المشروع في عمل حصار تجاري على المصريين أو ضرب تجارة المالك في المحيط الهندي .

المهم أن هذا المشروع قد فشل سواه بسبب القائمين على تنفيذه من الجنوية أنفسهم أو لأن المشروع كان أكبر من إمكانيات مغول فارس والجنوية معاً . إذ ماذا يفعل مركبين في الخليج العربي أمام المالكين الذين كانت لهم السيطرة الكاملة على موانئ البحر الأحمر ؟ خاصة وأن التجار المسلمين كانوا القوة الضارة في المعبيط الهندي من ميناء الزيتون بالصين شرقاً حتى ميناء عدن غرباً . ويمكن القول أنها تكرار لمحاولة أرناط أمير الكرك الصليبي عام ١١٨٢ م في الاستيلاء على ميناء أبيد والإغارة على الموانئ المصرية في البحر الأحمر تلك التي باعها بالفشل الذريع وقتل الأخير بيد صلاح الدين الأيوبى نفسه جزاء له على تعرضه لأخطر مسألة تهدى المصريين حينئذ وهى تجارة البحر الأحمر .

هذا وقد طرأت تطورات خطيرة على الميدان المقرر للقاء القوات المتحالفه . فبعد هجوم المرتزقة الإيطاليين في عكا على المسلمين داخل هذه المدينة وخارجها ، فإن المنصور قلاوون أمر بتبعة عامة في مصر والشام ضد الصليبيين . ولكنه توفي قبل تنفيذ مشروعه بالاستيلاء على عكا . وبعد استقرار الأحوال لولده وخليفته الأشرف خليل (١٢٩٣-١٢٩٠) فإنه قاد جيوشه ضد عكا . وبعد حصار مستميت من المالكين ودفع يائس من الصليبيين سقطت هذه المدينة في ١٨ مايو عام ١٢٩١ بعد سقوط آلاف القتلى والأسرى من اللاتين دفاعاً عنها . وكان من السهل على قوات المالكين السيطرة والاستيلاء على بقية مدن وقلاع الصليبيين وهي بيروت وصور وصبراً وجبيل وعثليث وطرسوس ، وسقطت معظمها دون قتال بعد فرار سكانها إلى قبرص ، وجميع هذه المواقع تم تدميرها في الفترة من مايو حتى أغسطس عام ١٢٩١ م (١٣٣) ، وتم كل ذلك دون أدنى تدخل من أية قوة أوروبية أو مغولية .

وقبل أن تصله أخبار سقوط عكا ، فإن نيقولا الرابع كان قد قرر إرسال بعثة بابوية لحكام غرب آسيا عامة ولغول فارس خاصة للتثمير بالدين المسيحي ودعوة حكام هذه البلاد (لغول فارس - جورجيا - أرمينيا الصغرى - بيزنطة) للانضمام تحت لواء البابوية . ولهذا فإن خطابات البابا لـ «هؤلاء الحكام» - ومنهم أرغون خان حتى ٢١ أغسطس ١٢٩١ م كانت تتعلق بأمور العقيدة وليس فيها ما يتعلق بالرد على مشروعات الإيلخان المغولي في تحالف مشترك ضد المالكين ، ففى هذا التاريخ كتب نيقولا الرابع لأرغون فى خطابه «... ونعود ونذكركم بأن تسرعوا وتنتصروا فخراً لكم وازدهاراً لملككم وانتشاراً لاسمكم في الأمة المسيحية ..» (١٣٤).

وقد يكون غريباً أن البابا كان على وشك إرسال سفيريه متى الشتى Matthew of Chieti ووليم الشيرى William of Chieri باثنى عشر خطاباً لأرغون خان وقادته فى بعثة تبشيرية ، ويتجاهل أن الصليبيين فى بلاد الشام كانوا يلقطون أنفاسهم الأخيرة . ولكن يمكن تفسير ذلك بأن أباء سقوط عكا لم تصل للبابا إلا فى يوم ٢٣ أغسطس أى بعد يومين فقط من كتابة خطابه لأرغون . ولم يكن البابا يتوقع سقوط هذه المدينة بهذه السرعة ، أو يتوقع بقية المدن والقلاع فى أثرها . وكان اتفاقه مع الملك الإنجليزى أن الأخبر سيخرج للشرق فى ٢٤ يونيو عام ١٢٩٣م . ولهذا فان البابا أراد تكريس الجهد فى هذه الفترة فى تحويل المغول أو قادتهم للمسيحية حتى ينضج اعداد حملة ادوارد الأول .

ولكن ما آن علم البابا بسقوط عكا فى يوم ٢٣ أغسطس حتى أسرع بكتابة خطاب سياسى بالدرجة الاولى لارغون خان (الاول مرة) بل و أمر سفيره بالذهب الى تبريز على الفور دون المرور على بيزنطة أو أرمنية كما كان مقرراً من قبل .

وتقول سطور هذه الرسالة :

... لاشك أنه قد بلغ مسامعكم عن طريق الرسائل والمندوبين ما جرى للأماكن المقدسة الريانية من سقوط في أيد غريبة . وقد سقطت أيضاً مدينة عكا بالرغم من الجهود التي بذلتها كنيسة روما - كام - كى تصمد ريشما تصلها النجدة من سفن وأموال ومعارين بناء على طلبها . إلا أن هذه المدينة الحصينة - بعد حصار طويل مرير ليل نهار ، وإحاطة الآلات الحربية بها ودكها لها بلا رحمة ، وتواتى الهجمات عليها وعلى أسوارها - قد سقطت في يد العدو وأسلمت للنار ونكل بالنصارى الموجودين في داخلها شرتكيل . والباقيون أقتيدوا أسرى كما سمعنا وعندئذ أرتعشت مدينة صور خوفاً واستسلمت حالاً .

ولذلك نبهنا جميع الملوك والأمراء المسيحيين أن يسرعوا لإزالة هذا العار . وقد هرع إدوارد ملك إنجلترا واتخذ الصليب ، وهو مستعد الآن لركوب البحر .

ونحن واثقون كل الثقة أنكم إذا أيدتم هذه القضية بذراعكم القوية سرعان ما ستتجدد الخل المنشود . ولذلك فاننا نرجو جلالتكم ونتوسل إليكم وندعوكم بشدة أخرى أن تتنصر خاشعاً راضياً وتعمل بأوامره تعالى وتسرع إلى استعادة البلاد المذكورة ، وتذل كبريات أعدائها ومكرهم ، وتستخدموا ما اعطيتم من قوة ، وبما تخلصتم به من عزم وحكمه وتحررك مع شعبك وياقى ملوك النصارى لاستعادة تلك الأمسكار . وسندعوا رب أن يكافئكم بغير مكافأة .

ونشكركم على ما تبذلون من حسن معاملة للمسيحيين المقيمين في مملكتكم . كما نرجو
أن تحسنوا استقبال مندوبينا متى الشبئي Matthew of Chieti ووليم الشبئي William of Chieri
(١٢٥٠) .

وهكذا كانت المرة الوحيدة التي ردت فيها البابوية على مقتراحات أرغون (من خلال أربعة سفارات) بعد سقوط آخر القلاع الصليبية في بلاد الشام . وحتى أرغون لم يعش ليسمع هذا الرد إذ أنه توفي في أول مارس من ذلك العام أي قبل كتابة هذا الخطاب بستة شهور . بل أن إدوارد الأول ملك إنجلترا خارت عزائمه عندما سمع هذه الأخبار ، وبدأ يتوجه إلى مواجهة المشكلات الداخلية في بلاده (خاصة الحرب ضد اسكتلندا) (١٣٦) . وكان على العلاقات الغولية الأوروبية أن تتخذ مساراً جديداً بعد سنة ١٢٩١ م على ضوء الظروف السياسية الجديدة .

عهد غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤)

تولى كيخاتو (١٢٩٤-١٢٩١) الحكم بعد أخيه أرغون . ولم تحدث أية تحركات من جانبه ضد المالiks أو اتصالات بالغرب الأوروبي . وقدر عليه ابن عميه بايدو وانتزع منه السلطة . ولكن غازان بن أرغون استطاع بعد فترة قتال طويلة اعتلاء عرش الإلخانية في أكتوبر عام ١٢٩٥ م حتى ١١ مايو عام ١٣٠٤ .

ورغم أنه كان مسلماً منذ بداية عهده ، وقطع علاقة التبعية بالخاقان المغولي البوذى في بكين ، وانتهت عدة اصلاحات في بلاده على النمط الإسلامي (١٣٧) . إلا أن العلاقات العدائية مع المالiks لم تتوقف في عهده مثلاً توقفت في عهد تكردار أحمد (١٢٨٤-١٢٨٢) أول إيلخان مغولي مسلم في فارس ، بل ازدادت سوءاً لدرجة أن غازان قام بغزو الشام ثلاثة مرات وهزم المالiks لأول مرة في ديسمبر عام ١٢٩٩ م - واحتل الشام لعدة شهور حتى مايو عام ١٣٠٠ م . ولاغروا أن استمرت اتصالاته ببقايا الصليبيين في الشرق - وهم فرسان الداوية والاسبارارية في قبرص وملك قبرص نفسه فضلاً عن أتباعه الأرمن - وبالغرب الأوروبي على حد سواء .

إذا كان غازان قد قرر انتهاج السياسة التقليدية لأسلافه بمحاولة ضم بلاد الشام لسيطرته، فلقد شجعه على ذلك فترة عدم الاستقرار في السلطة المملوكية بحيث أن أربعة سلاطين اعتلوا العرش في أقل من عشرة أعوام (١٢٩٩-١٢٩٠) وقتل اثنان منهم ، وطرد الثالث ، ونفي الرابع مؤقتاً لإمارة الكرك (١٣٨) .

ومهما يكن من أسباب غزو غازان للشام^(١٣٩)، فإنه بعد دخوله إلى بلاد الشام وقبيل التحالف مع الماليك كان قد أرسل رسالة عن طريق سفير إيسول البيزى Isol of Piza لملك قبرص ومقدمي الإسبتارية والداوية هناك يطلب منهم الانضمام له في حملته . وفي نوفمبر عام ١٢٩٩ عقد الآخرون اجتماعاً لاتخاذ قرار بهذا الشأن ، ولكنهم رفضوا التحالف مع غازان رغم أنه أرسل لهم رسالة ثانية في نهاية ذلك الشهر^(١٤٠) . ومن ثم اضطر الخان المغولي للاعتماد على قواته بالإضافة إلى الأرمن : الخليف الطبيعي للمغول . واستطاع هزيمة الماليك في ٢٢ ديسمبر عام ١٢٩٩ م وطردهم من الشام كلياً وإنابة قبجق - حليف غازان والمحمره على أخيه الماليك في القاهرة وأتباعه وبعضاً من قواد المغول على المدن الشامية .

ولكن غازان اضطر للاتسحاب من الشام لأسباب داخلية في بلاده ومنها هجوم مغول الجغطاي على الحدود الشرقية لإيران . واتحد الماليك الذين كانوا موالين لغازان أثر ذلك مع أقرانهم في مصر وطردوا الحاميات المغولية من الشام في مايو عام ١٣٠٠ م بعد فترة احتلال مغولي لها قاربت ستة شهور^(١٤١) .

وكان غازان قد أرسل للقبارصة رسولاً بأنه سيغزو الشام في الشتاء التالي وعليهم مقابلاته في أرمينيا لإعادة غزو بلاد الشام نظير إعطائهم المدينة المقدسة ، وقام القبارصة والداوية والإسبتارية - لعلمهم بقوة المغول وجديتهم هذه المرة - بفارات ضد عكا وطرسوسه وجزرية أدوارد - التي كانت في البحر أمام طرسوسه ، وأرسلوا قوة صغيرة لأرمينيا الصغرى . ولكن قوات المغول لم تلحق بهم إذ أن المغول قد أغادروا على شرق سوريا حتى حمص وتراجعوا بسرعة^(١٤٢) ولم تشعر هذه الاتصالات شيئاً .

وقد كان رد فعل الغرب الأوروبي تجاه استيلاء قوات غازان على الشام في ديسمبر عام ١٢٩٩ م خليطاً من الفرحة الغامرة التي اختلطت بالأساطير والنبوءات - والإشاعات التي رددها الأوروبيون عام ١٣٠٠ م^(١٤٣) نوع من التعويض النفسي لدى هذه الشعوب التي رفضت أن تعرف بهزيمتهم من المسلمين .

وعلى أثر ذلك ، سارع البابا بونيكتوس الثامن (١٣٠٣-١٢٩٤) بارسال خطابات للملك وأمراء الغرب الأوروبي - ومنهم إدوارد الأول - في ٧ أبريل عام ١٣٠٠ يبلغهم فيها بالأخبار السارة عن استعادة الأرض المقدسة بواسطة غازان وإعادتها للمسيحيين . وفي هذه الخطابات يطلب من هؤلاء الملوك حتى رعاياهم على الرحيل للأراضي المقدسة حيث منعهم البابا

امتيازات الغفران الكامل . وفي ٢٠ سبتمبر أرسل الأخير خطابات لقادة رجال الدين الذين كانوا في الأراضي المقدسة قبل سقوط عكا يحثهم على العودة لكتناتهم في تلك البقاع^(١٤٤) . وقد ساعد على تصديق إشاعة أن غازان هزم العالى صالح المسيحيين ، وصول سفارة من غازان في ذلك الصيف (عام ١٣٠٠) لروما على رأسها الفلورنسى جويسكارد بوستارى Guiscard Bustari تعرض التحالف مع الأوروبيين^(١٤٥) . وفضلا عن ذلك فان عام ١٣٠٠ كان عام الغفران Jubilee Year بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرنا على مولد المسيح «عليه السلام» . وكان البابا قد منح امتيازات الغفران للنصارى الذين سيحجون لروما في ذلك العام . ولهذا حملآلاف الحجاج - الذين كانوا في روما - أخبار هذه السفارة المغولية والإشاعات التي سبقتها إلى بلادهم في مختلف أنحاء أوروبا^(١٤٦) . ولهذا فلا عجب أن العديد من الحوليات الأوروبيـة المعاصرة قد تناقلت هذه الأنباء وأضافت عليها الكثير^(١٤٧) . وهذا يعني أن الأوروبيـين كانوا يعيشون في الفترة من فبراير حتى أكتوبر عام ١٣٠٠ تحت وهم أوأمل أن الرب قد أرسل المغول نيابة عنهم للاقتام من أعدائهم ، وأنهم استعادوا الأرضي المقدسة لهم ولكن هذه المرة بلا حملات صليبية .

أما النموذج العملى لرد الفعل الأوروبيـي تجاه استيلاء غازان خان على الشام فقد جاء على يد جيـمى الثانى ملك أراجون (١٢٩١-١٣٢٦م) الذى أرسل خطابا إلى غازان فى ١٨ مايو عام ١٣٠٠ (قبيل رحيل المغول من الشام) موجه إلى «أعظم وأقوى ملوك المغول ، وملك كل الشرق» . وفيه يبلغ جيـمى الثانى الخان المغولى كيفية تلقـيه الأنـباء السارة بالنجـازات المـغول ضد أعدـاء الـرب» ، وأعلن استعدادـه بتـقديـم السـفن والـبحـارـة والـفـرسـان وكل موـاد التـموـين الـلاـزـمة لـجيـش المـغـول ، وطلـب من غـازـان أن يـبلـغـه بما يـريـدـه مـنـه فـي هـذـا الشـأن . ويعـنى قـائـلا «وـقـدـ أمرـناـ أنـ كـلـ رـعـاـيـاتـاـ الرـاغـبـيـنـ فـيـ الـذـهـابـ لـهـذـهـ الـبـلـادـ لـتـمـجيـدـ الـربـ وـلـتـقـوـيـةـ جـيشـكـمـ أنـ يـذـهـبـواـ فـورـاـ بـدـوـنـ تـأـخـيرـ» . وفي مـقـابـلـ ذـلـكـ طـلـبـ جـيـمىـ الثـانـىـ مـنـ غـازـانـ إـعـطـائـهـ خـمـسـ الـأـرـضـيـ الـمـقـدـسـةـ الـتـىـ اـسـتـولـىـ عـلـيـهـ وـتـلـكـ الـتـىـ سـيـحـتـلـهـ فـيـمـاـ بـعـدـ ،ـ وـالـتـصـرـيـعـ لـرـعـاـيـاتـ بـزـيـارـةـ الـأـمـاـكـنـ الـمـقـدـسـةـ دـوـنـ دـفـعـ أـيـةـ ضـرـائبـ أـوـ رـسـومـ^(١٤٨) .

والحقيقة أن خطاب ملك أراجون للخان المغولى خـير دـلـيلـ علىـ العـقـلـيـةـ الـأـورـيـةـ الـجـدـيـدةـ فـيـ بـداـيـةـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ عـشـرـ الـتـىـ تـعـطـىـ الـمـصالـحـ الـشـخـصـيـةـ الـأـهـمـيـةـ الـقصـوىـ بـعـيـداـ عـنـ الـرـوـحـ الـصـلـيـبـيـةـ الـتـىـ بـدـأـتـ فـيـ الـفـتـورـ مـنـذـ باـكـورـةـ الـقـرـنـ ثـالـثـ عـشـرـ .ـ وـلـكـنـ أـهـمـيـةـ إـرـسـالـ هـذـاـ الـخـطـابـ مـنـ جـيـمىـ الثـانـىـ بـصـفـةـ خـاصـةـ تـتـضـعـ فـيـ أـمـرـيـنـ :ـ

أولاً : أنه كانت هناك معااهدة بين ألفونسو الثالث ملك أراجون (١٢٩١-١٢٨٥) وشقيقه جيمى الثاني نفسه باعتباره ملكاً لصقلية (١٢٩٥-١٢٨٥) من ناحية وبين المنصور قلاوون من ناحية أخرى مؤرخة في ١٣ ربيع الآخر ٦٦٨٩ هـ / ٢٣ أبريل ١٢٨٩ م تنص على «أنه متى طلب البابا ملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك الريدراغون أو من إخوته أو من بلاده الحجاج أو معاونة أو خيالة أو رجاله أو مال أو مراكب أو شوانى أو سلاح لا يوافقونهم على شيء من ذلك لافى سر ولا فى جهر ، ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك ...»^(١٤٩) وهذا يعني أن بنود هذه المعااهدة - التي ما زالت سارية المفعول - تشمل التتار أيضاً من ضمن أعداء المالك الذين يخطر على جيمى الثاني مساعدتهم .

ثانياً : أنه في عام ١٣٠٠ م على وجه الخصوص أرسل جيمى الثاني سفارته الأولى إلى مصر للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . ورد عليه الأخير بخطاب مؤرخ في ١٣ شوال سنة ٦٩٩ هـ / ٦ أبريل ١٣٠٠ م أجابه فيه لطلباته بتأمين تجارة بلاده داخل بلاد السلطان ، وتبادل التجارة مع أراجون ، وتمكن رعاياها أراجون من زيارة بيت المقدس «آمنين مطمئنين»^(١٥٠) .

ويتضح من أخبار هذه السفارة أن ره المالك على ملك أراجون كان يوم ٦ أبريل ١٣٠٠ م ، وأن سفارة وخطاب ملك أراجون لغازان خان كانا في يوم ١٨ مايو من نفس العام . وهذا يعني أن جيمى الثاني راسل الطرفين وأراد أن يضمن بلاده ، مركزاً تجاريًا مأموناً في شرق البحر المتوسط ، ولرعاياه حرية وسهولة دخول الأراضي المقدسة مع القوتين المتصارعتين عليها ، حتى إذا ما انتصرت قوة على أخرى يكون مع الكفة الراجحة !

وعموماً لم يحدد الدكتور عزيز سوريان عطيه^(١٥١) - باعتباره ناشراً لوثائق سفارات أراجون مع مصر - متى خرجت السفارة الأولى لجيمى الثاني متوجهة إلى مصر ، ولكنه يحدد تاريخ الرد عليها بالسادس من أبريل ١٣٠٠ . ومن المؤكد أن أنباء هزيمة المالك في موقعة حصن الثانية (٢٣ ديسمبر ١٢٩٩) لم تصل لغرب أوروبا عامه ولملك أراجون خاصة قبل أول مارس عام ١٣٠٠ ومن الواضح أن جيمى الثاني أرسل سفارته إلى المالك قبل هذا التاريخ : أي قبل أن يعلم بانتصار المغول على المالك واحتلالهم بلاد الشام . ولكن عندما وصلته الأنباء اعتقد أنه الانتصار الخامس للمغول وأنهم أصبحوا سادة الشام . ولهذا اختار أن يتقرب إليهم ، لأنه لو استمر هذا الوضع طويلاً - فإن المالك لم يعد في استطاعتهم تأمين تجارتة ولا تأمين دخول رعاياه للأراضي المقدسة التي أصبحت في يد المغول .

وإذا كان ملك أراجون قد اختار التعامل مع المغول بإعتبارهم السادة الجدد للأراضي المقدسة ، وأنه قد طلب منهم خمس هذه البقاع وما سيفتحونه مستقبلاً نظير مساعدتهم بقوات رمزية في حين أن مطالبه للماليك كانت متواضعة جداً وهي مجرد السماح لرعاياه بزيارة الأماكن المقدسة وتأمين تجارة بلاده ، فذلك لأن الماليك لم يكونوا في حاجة لمساعدته العسكرية ضد المغول .

وإذا كان خطاب جيمي الثاني لغازان خان قد كتب في ١٨ مايو عام ١٣٠٠ فإن القوات المغولية قد طردت من بلاد الشام في نفس هذا الشهر ، ولهذا فلم يكن له أي أثر على مجريات الأحداث فيما بعد . ومن المؤكد أيضاً أن الماليك لم يعلموا بأمر هذه الاتصالات بين جيمي الثاني والمغول ، وذلك لأن الملك الأراغوني سرعان ما أرسل سفارته الثانية للقاهرة بخطاب مورخ في الأول من يونيو عام ١٣٠٣ . وقد قوبلت هذه السفارة بترحيب بالغ من الماليك وأجيب إلى طلباته^(١٥١) . ولو أن الماليك قد علموا بما تقدم لكان رد فعلهم عنينا تجاه جيمي الثاني وسفارته وتجارة بلاده في الموانئ المصرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد أرسل غازان سفارته الثانية للغرب الأوروبي بقيادة بوسكاريللو جيزولفو - السفير السابق لأرغون - عام ١٣٠٤ . ويروى أن أعضاء هذه السفارة من المغول قد تنصروا في روما . وأن البابا أرسل معهم تاجاً من الذهب إلى غازان «لغرفان الملك من ذنوبه ، ولأنه قد أعاد إقامة التراتيل المسيحية في الأرض المقدسة »^(١٥٢) . وكان غازان قد اشار للبابا في رسالته المورخة في أبريل من ذلك العام لراسلات أسلانه بالغرب الأوروبي ، وحث بونيفاس الثامن على إعداد قوات لهاجمة الماليك معاً . وقد ظهر السفراء المغول في لندن في مارس عام ١٣٠٣ .

وإذا كان خطاب الخان المغولي للملك الإنجليزي لم يعثر عليه بعد ، فإن رد إدوارد الأول في ١٢ مارس يوضح محتوياته ، ويبدو أن غازان قد اشتكت من طول الفترة التي لم يحاول فيها «الفرنجية» الاتصال بالمغول للتعاون معهم لاسترداد الأرض المقدسة ، وذلك لأن الملك الإنجليزي يبلغ غازان بأن المالك المسيحية كانت في حالة حرب مع بعضها وأن السلام بدأ يسود في أوروبا وأن هذه المالك سوف تتحد مرة ثانية لاسترداد الأرض المقدسة . وعدا ذلك فلم يحمل السفراء المغول وسفراه إدوارد الأول المافقين لهم لغازان خان أية ردود فعلية ، لأن الملك الإنجليزي كان مشغولاً بشكّلة اسكتلندا ، والملك الفرنسي كان في نزاع ممیر مع البابا بونيفاس الثامن^(١٥٣) ذلك النزاع الذي نتج عنه نقل البابوية من روما إلى مدينة أفينيون الفرنسية بعد ذلك بأقل من عامين .

ونظراً لأن الموقف في بلاد الشام لم يكن قد حسم بعد بين الطرفين المتصارعين عليها ، فإن غازان قد أرسل جيشه مع حلفاء المغول الطبيعيين من الأرمن ومن جورجيا المسيحية ، حيث تقابلت قواته مع قوات المماليك في موقعة مرج الصفر (شحوب) بجوار حمص في رمضان ٣٠٧ هـ / أبريل ١٣٠٣ م . وحلت الهزيمة الفادحة بالمغول وحلفائهم وتضي على أغلب جيشهم في هذه الموقعة قتلاً وأسراً^(١٥٤) . وتوفي غازان في ما يتوافق معه عام ١٣٠٤ . ويتوته انتهت آخر جولة في الصراع بين مغول فارس والمماليك بهزيمة المغول للمرة الرابعة . ولم يحاول مغول فارس بعد ذلك خوض هذه التجربة المرة ، إذ تأكدت السيادة المملوكية في شرق البحر المتوسط بصفة نهائية لمدة قرنين من الزمان تقريباً .

عهد أوجايتوخان (١٣٠٤-١٣١٦ م)

أوفد أوجايتوخان (أو خدايندا و معناها عبد الله باللغة الفارسية) فوراً عتلاته العرش بعد محمود غازان - سفارة للمماليك تحمل خطاباً يؤكد حرصه على توثيق روابط الصداقة بين الطرفين ، و سأله الناصر محمد بن قلاوون أخmad الفتنة و احلال الصلح بين الطرفين . وقال في نهاية رسالته « عفا الله عما سلف ، و من عاد فینتقم الله منه » . وقد قابل المماليك هذه السفارة بترحاب وردوا عليها بالمثل^(١٥٥) .

ولكن ظهرت بعض الخلافات التي عكرت صفو هذا السلام بين الطرفين ، فتوتر العلاقات بين مغول روسيا - أصدقاء المماليك الدائمين - وبين مغول فارس ، و طلب طقطاي بن منكوتقر ملك التفجاق (١٢٩١-١٣١٢ م) عن طريق سفارته للناصر محمد عام ١٣٠٥ التحالف معه ضد مغول فارس - قد يذر الاشواك في طريق السلام . فضلاً عن أن أوجايتو كان شيئاً متطرفاً ضد أنصار المذهب السنوي ، وهذا أساء للمماليك بأعتبرهم حماة الخلافة العباسية السنوية بالقاهرة كما أن إغارة المماليك على أرمينيا الصغرى قد أغضبت المخان المغولي في فارس . فضلاً عن ابراء المماليك للهاربين من أوجايتو والتمردين عليه^(١٥٦) . وقد دفعت هذه الاسباب الخان المغولي إلى البحث عن حلفاء جدد ضد المماليك و هم الأوروبيين جرياً على سياسة أسلامه .

ويتضمن من خطاب أوجايتو للملك غرب أوروبا - الذي عشر على نسخة منه في الأرشيفات الفرنسية - أن التجار الإيطاليين في فارس قد اقنعوا أن الأحوال السياسية في أوروبا حينئذ مستقرة ، وهذا ما شجعه على إرسال سفارته عام ١٣٠٥ .

في هذا الخطاب المؤرخ في صيف عام ١٣٠٥، يذكر أولجايتو فيليب الرابع بالعلاقات الودية بين أسلافهما، ويخبره أن أحفاد جنكيز خان ليس بينهم حروب ولكن السلام والتفاهمة ويطلب من الملك الفرنسي تبادل السفراء وتكثيف الاتصالات بين الطرفين لاته غا الي علمه «أنكم يا سلاطين الفرنجة متفاهمون جميعا مع بعضكم ، وليس هناك أفضل من التفاهم ، فسنقف - بقدرة السماء - صفا واحدا في وجههم ، والسماء شاهدة على ما نقوله » (١٥٧).

ورغم أن هذا الخطاب لا يحمل أية إشارة لطلب التعاون المشترك ضد المالك ، فإن بعض المؤرخين يعتقدون أن الجملة المترجمة نصاً بعاليه تحمل هذا المعنى - دون التصریح به . فضلاً عن ذلك ، فإن النسخة الأصلية لهذا الخطاب - الموجودة حتى الان بالارشيفات الفرنسية - يوجد بها ترجمة إيطالية لهذا الخطاب قام بها توماس أوجي السيني- Thomas Ugy of Sie na أحد سفيري أونجايتو . ولاحظ الباحثون الذين اطلعوا على هذه النسخة عبارة باللغة الإيطالية تفيد أن السفيرين تومان (أي توماس) و مالغ سوف يشرحان للمرسل إليهم كثيراً من التفاصيل شفاهة (١٥٨) .

و من ثم فليس معروفا - حتى الان علي وجه اليقين - هل هذه العبارة الايطالية أضافها السفير المغولي - و هو ايطالي أيضا - من عند ياته كجواز مرور للعبالغات التي نقلها لقيادة الغرب الاوروبي عن استعدادات سيده للتحالف معهم ضد المماليك دون الاشارة إليها في الخطاب الرسمي للخان المغولي ؟ أم أن هذه الاقوال صرخ بها او جايبتو نفسه ؟ و إذا كان الامر كذلك فلماذا لم يتضمنها الخطاب الاصلي ؟ و هل خوف الخان المغولي من وقوع السفراء في يد المماليك - الذين كانوا يسيطرون علي السواحل الشامية و لهم علاقات ودية مع بيزنطة - و حرصه علي استمرار السلام معهم هو الذي جعله يكتب رسالته الرسمية بحرص بالغ دون الاشارة لهم أو للعداء معهم أو طلب التحالف ضدتهم و طلب من سفيره ترجمة هذا الخطاب في اوروبا للايطالية و إضافة ما كان يريد أن يقوله ؟

عموماً واضع أن الملك الفرنسي لم يرد على هذا الخطاب لأن الأرض المقدسة لم تعد تعنيه في شيء.

وقد وصلت هذه السفارة لإنجلترا في أكتوبر عام ١٣٠٧ بعد وفاة إدوارد الأول - (في ٧ يوليه ١٣٠٧) و اعتلاء ابنه إدوارد الثاني العرش الإنجليزي (١٣٢٧-١٣٠٧) . وقد عشر على خطابين من إدوارد الثاني للخان المغولي ردًا على هذه السفارة . وتضمن الخطاب الأول

المؤرخ في السا دس عشر من أكتوبر عام ١٣٠٧ من ساوثميتون رغبة العاهل الإنجليزي في استمرار الصداقة مع الخان المغولي^(١٥٩) و لكنه لم يحدد أية التزامات أو تعهدات جديدة .

و من الواضح أن سفيري أوجابايتو قد تناقشا مع الملك الإنجليزي و مستشاريه في الأحوال الداخلية لا يلخانية فارس . و لكن من المؤكد أنهما لم يبلغا إدوارد الثاني و غيره باعتناق او جابايتو للإسلام . و يبدو أن هذا الامر كان بتعليمات من الخان نفسه ، لأن عبارات رسالته لقادة غرب أوروبا تخفي إسلامه تماما حتى أن عبارات بوفية مثل «بقدرة السماء - السماء وهبتنا الرأي - بفضل السماء - كتب هذا الخطاب في عام الحبة (أي عام ١٣٠٥) قد تضمنتها رسالته للأخفاء و التمويه عن اعتناقه الإسلام^(١٦٠) .

و اعتقاداً من إدوارد الثاني بأن أوجابايتو مسيحي ، او يميل للمسحيين او على الأقل ليس مسلما ، فإنه في خطابه الثاني المؤرخ في ٣٠ نوفمبر عام ١٣٠٧ بهاجم العقيدة المحمدية و يصفنبي الإسلام (ص) بصفات تدل على جهله التام ب مجريات الامر في ايلخانية فارس في ذلك الوقت . فيطالب او جابايتو بالتخليص من المسلمين و من كل أتباع محمد و كتبه ، و يبلغه أنه لو لا بعد المسافة بينهما و عوائق أخرى لما تأخر عن مساعدة الخان المغولي في تخلص وجه الأرض منهم ! و يبلغ الأخير أن نخبة من هيئة الفرسانسكان ستصل لبلاده رفق سفارته كي تنتشر العقيدة المسيحية الكاثوليكية « و بدونها لن ينجي أحد من الهلاك » و يطلب من الخان المغولي حسن استقبالهم و رعايتهم و حمايتهم و كتب إدوارد الثاني - في نفس الوقت - خطابين بشأن هذه البعثة التبشيرية للبابا وملك أرمينيا الصغرى . وليس هناك أية دلائل تفيد ذهاب هذه البعثة مع سفارة او جابايتو أو بعدها . ولكن هذا الرد يدل على إفلاس الملك الإنجليزي - وهو الوحيد الذي تعتمد عليه البابوية لاسترداد الأرض المقدسة سياسيا ، فأراد تعويض ذلك بمحاولة تحويل المغول وال المسلمين معا للمسيحية ، ولم يعلم أن عكس ما يريد قد حدث في ايلخانية فارس .

وقد استدعى البابا كليمون الخامس (١٣١٤-١٣٠٥) في تلك الأثناء هيتون ابن أخي الملك الأرمني هيشوم الأول - الذي كان موجودا في فرنسا حينئذ - لكتابه تقرير مفصل عن مميزات ومخاطر التعاون مع التتار باعتبار أنه قد شارك بالفعل مع جنوده الأرمن في بعض المعارك ضد الماليس - التي كان المغول طرفا فيها - ومن ثم فإنه على دراية كاملة بالظروف والملابسات السياسية في الشرق الأدنى ، وقد سلم هيتون تقريره المعنون بـ « زهرة تواريخ الشرق La Flor des Estoires de la Terre d' Orient

ولهذا فعندما رجعت سفارة اونجايتو من المجلترا ووصلت إلى روما في بداية عام ١٣٠٨، فان البابا قد كتب رسالة إلى المخان المغولي مؤرخه في الأول من مارس من ذلك العام (١٦٢). ويقول البابا في رسالته لاوجايتو أنه تلقى سفارته وخطاباته بسعادة وسرور بالغين ، وعلم ما في خطاباته ومن أقوال السفيرين نيابة عنه أن المخان سعيد مائتي ألف حصان ومائتي ألف كيس من القمح في مملكة أرمينيا الصغرى لزوم إمداد وقون الجيش الأوروبي حين قدومها «تحرير» الأراضي المقدسة ، بالإضافة إلى أن المخان سيكون بنفسه على رأس مائة ألف فارس لدعيم هذه القوة لطرد المسلمين من الأراضي المقدسة . ويقول أن هذا العرض السخي من المخان «قد قوى عضدنا مثل الغدا ، الروحى تماماً» وبلغ البابا المرسل إليه بأنه حالما يأتي موسم مناسب لعبور البحر فإنه سيبلغه عن طريق سفارة من لدنـه موعد وكيفية وصول قوات الأوروبيين للشرق . ويلوح كليمـنـت الخامس على المخـان المـغـولي أن يواصل مساعـيه وجـهـودـه من ناحـيـته لـخلـيـصـ الـبـقـاعـ الـمـقـدـسـةـ «ـ منـ أـعـادـهـ الـرـبـ الـذـيـ دـنـسـهـ» . وفي نهاية رسالته ، يقول البابا للـمـخـانـ أنهـ والـكـنـيـسـةـ الرـسـوـلـيـةـ سـوـفـ يـسـعـدـواـ بـنـجـاـحـهـ وـمـجـدـهـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ (١٦٢).

والرأـيـ عندـيـ أنـ العـرـوـضـ الـخـيـالـيـةـ بـتـوفـيرـ هـذـاـ العـدـدـ غـيرـ المـعـقـولـ منـ الـخـيـولـ وـأـجـوـلـةـ الـقـمـحـ وـالـفـرـسـانـ خـدـمـةـ الـجـيـشـ الـأـورـبـيـةـ لـاستـرـدـادـ الـأـرـاضـيـ الـمـقـدـسـةـ كـانـتـ محـضـ مـبـالـغـاتـ منـ أـفـوـاهـ السـفـيرـ الإـيطـالـيـ الأـصـلـ . لأنـ خـطـابـ اوـنجـايـتوـ الرـسـمـيـ الذـيـ يـحـلـ خـاتـمـ وـتـوـقـيـعـ المـخـانـ لمـ يـتـضـمـنـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ عـنـ هـذـاـ الـأـمـرـ . ثمـ أـرـغـونـ نـفـسـهـ - وـكـانـ بـوـذـيـاـ وـفـيـ قـمـةـ حاجـتـهـ وـلـهـفـتـهـ لـتـحـالـفـ معـ الـأـورـبـيـنـ - عـرـضـ عـلـيـهـمـ إـمـادـهـمـ بـعـشـرـينـ أـلـفـاـ مـنـ الـخـيـولـ بـأـسـعـارـ مـعـتـدـلـةـ ، فـكـيفـ يـعـرـضـ عـلـيـهـمـ اوـنجـايـتوـ عـشـرـةـ أـضـعـافـ هـذـاـ الرـقـمـ وـمـثـلـهـ مـنـ أـجـوـلـةـ الـقـمـحـ وـمـائـهـ أـلـفـ مـنـ الـفـرـسـانـ (ـمـجـانـاـ)ـ وـهـوـ مـسـلـمـ وـكـانـ فـيـ حـالـةـ صـلـحـ مـعـ الـمـالـيـكـ وـلـاـ يـحـتـاجـ لـأـيـةـ مـسـاعـدـةـ عـاجـلـةـ أـوـ تـحـالـفـ مـلـحـ مـعـ الـأـورـبـيـنـ ؟ـ

ويرى الباحث أيضاً أن المستشارين الأوروبيين لخانات مغول فارس - وغالبيتهم من التجار الإيطاليين المغامرين - هم الذين ورطهم في إرسال العديد من السفارات لأوروبا وذلك باقناعهم باستجابة الأوروبيين للتحالف معهم حالما تسمح ظروفهم بذلك . وكان يهم التجار الإيطاليون - الذين اختارهم المغول سفراً لهم - أن يتنقلوا بين فارس وبلادهم على نفقـةـ وـتـحـتـ حـمـاـيـةـ أـسـيـادـهـ الـمـغـولـ وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ يـحـمـلـونـ مـعـهـمـ الـبـضـاعـ جـيـنةـ وـذـهـابـاـ . وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ ، كانتـ المـدـنـ التـجـارـيـةـ الإـيطـالـيـةـ حـرـيـصـةـ عـلـىـ أـنـ يـتـمـ هـذـاـ التـحـالـفـ فـعـلاـ لـأـنـ نـقـلـ أـلـافـ الـفـرـسـانـ

وال SHARE من أوروبا لميدان المعركة في بلاد الشام سيكون على سفن تابعة لهذه المدن وكذلك قوينهم وإعدادهم بضرورات الحياة ، فضلاً عن حصولهم على امتيازات تجارية واسعة في السواحل الشامية ، وذلك لمعرفتنا أن المدن الإيطالية كانت هي الرابع الوحيد - تقريباً - في أوروبا من الحملات الصليبية السابقة ، بل ويرجع غنى وازدهار جنوة والبنديقية وبيزا لهذا الأمر بصفة أساسية . وكان بهم التجار الإيطاليون في فارس أيضاً السيطرة على طرق التجارة المارة بفارس والخليج العربي لحرمان التجار المسلمين من دور الوسيط في نقل سلع الشرق الأسيوي للغرب الأوروبي ولتعويض خسائرهم الفادحة في هذا المجال والناجمة عن سقوط الموانئ الصليبية في أيدي المسلمين حتى عام ١٢٩١ م .

ومهما يكن من أمر ، فحتى تلك العروض الخيالية المنسوبة للخان المغولي لم تحرك الأوروبيين لإرسال حملة صليبية لانشغالهم بشأوكهم الإقليمية واهتماماتهم الجديدة .

ومن المعروف أن هذه الفترة قد شهدت ظهور العديد من المنظرين وال فلاسفة من رجال السيف والقلم في غرب أوروبا الذين كتبوا التقارير والمذكرات والخطط وعرضوها على البابوية وملوك وأمراء بلادهم يوضحون فيها أسباب فشل الصليبيين في الاحتفاظ بمواعدهم في الأرض المقدسة ، وأنسب الطرق لاسترداد هذه البقاع . فمنهم من اقترح ضرورة القضاء على الماليك بحصارهم اقتصادياً ، واقتصر فريق ثان تنصير المغول وال المسلمين معاً لكتبهم إلى جانب الأوروبيين تحت لواء البابوية . وطالب فريق آخر بتوحيد كافة القوى السياسية في أوروبا وكذلك المدن التجارية الإيطالية والهيئات الدينية والعسكرية تحت لواء البابوية تحت راية الصليب^(١٦٤) . وهذه التقارير النظرية لم تؤت ثمارها لأنه كان يصعب تطبيقها عملياً في ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية في أوروبا وفي الشرق العربي الإسلامي مختلفة تماماً عما كان عليه الحال في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

عهد أبو سعيد (١٣٢٥-١٣٦١ م)

إذا كان الغرب الأوروبي قد تجاهل عروض ملوك مغول فارس السابقة بالتعاون المشترك معهم ضد الماليك ، فإن بعض قادته قد أحسوا في عام ١٣٢٠ م بالحاجة الماسة لهذا التعاون ولكن بعد فوات الأوان .

إذ أن مفاوضات الصلح كانت قد بدأت بين الماليك وبين أبو سعيد فور اغتياله الأخير العرش المغولي (١٣٦١-١٣٢٥ م) عن طريق الناجر أبو المجد السلامي . وفضلاً عن اعتناق

خانات المغول للدين الإسلامي ، فان مفاوضات الصلح الجدية مع المالكية منذ عهد اوجايتو قد جعلت مملكة أرمينيا الصغرى في موقف لا تحسد عليه ، وقد انتهز المالكية هذه الفرصة وأرسلوا القوات للإغارة على تلك المملكة حيث عاثت فيها قواتهم فسادا وتخربا ، فضلا عن أسر حوالي عشرين ألفا من سكانها عام ١٣٢٠م . ولهذا أرسل ملكها أوشين الأول (١٣٢٠-١٣٠٨) رسالة استغاثة للبابا هنا الثاني والعشرين (١٣٣٤-١٣٦٦م) في يونيه عام ١٣٢٠ يوضح فيها مدى الخراب والدمار الذي لحق بيبلاده ، ولكن الأخير رد عليه بأن ملوك أوروبا في حالة حرب مع بعضهم البعض ، ولهذا فهو لا يستطيع أن يساعده إلا عن نفسه فقط ، ومن ثم أرسل له ثلثين ألف قطعة ذهبية ، وأرسل خطابا لكل قادة غرب أوروبا لمديد العون للأرمén ، ولكن لم يستجب له أحدا^(١٦٥) .

ولهذا أرسل البابا خطابين في ١٢ ، ١٣ يوليه عام ١٣٢٢م للخان المغولي أبوسعيد ، وفي الخطاب الأول يدعوه لاعتناق المسيحية ، ويدركه بالعلاقات الودية بين البابوية وأسلافه ، ويطلب منه إعادة سفراهه لروما والاتصال بالملك الفرنسي^(١٦٦) .

ويركز البابا اهتمامه في الخطاب الثاني على المسألة الأرمنية ، فيوجه نظر أبو سعيد إلى أن الأرمén كانوا حلفاء دائمين لأسلافه ضد عدوهم المشترك : المسلمين ، وأنه من العدل أن يناصرهم ضد «الأتراك» أي المالكية الذين خربوا بلادهم . ومن ثم فقد حد هنا الثاني والعشرين أبو سعيد على تقديم العون العاجل للأرمén^(١٦٧) .

ولكن مفاوضات الصلح بين أبو سعيد والناصر محمد بن قلاوون قد تج�حت في إحلال السلام والمودة محل المخوب والمنازعات في عام ١٣٢٢هـ / ١٧٢٢م . واتفق الطرفان على عدم إيواء المتمردين أو الفارين من وجه أحددهما للأخر أو التحالف ضد أحدهما الآخر ، وعلى فتح طريق التجارة وتأمين التجارة بين البلدين ، وذكر اسم أبو سعيد مع اسم الناصر محمد على منابر مكة . واستقرت الأمور بين الطرفين خاصة وأن أبو سعيد كان سني المذهب أيضا^(١٦٨) .

ولا عجب أن أبو سعيد لم يرد على سفارة البابا ، لأنه لم يعد في حاجة له أو لغيره . فالضرورة التي جعلت أسلافه يراسلون الغرب قد انتهت حينئذ بعقد صلح دائم مع المالكية .

ولكن إذا كانت العلاقات السياسية قد توقفت مع الغرب الأوروبي منذ ذلك الحين بسبب الصلح مع المالكية ، فهذا لا يعني انقطاع الصلات بين مغول فارس وأوروبا ، بل استمرتبعثات التبشيرية الكاثوليكية تؤدي مهامها في ايلخانية فارس وازدادت انتشارا وكثافة في

عهد أبو سعيد لأنه كان مثل معظم أسلافه غير متغصب مع أو ضد أي عقيدة أو ملة . واستمر التجار الإيطاليون في الإلخانية فترة من الزمن (حتى بعد وفاة أبو سعيد وانتهاء دولة الإلخانية بموته دون وريث) وكانت لهم امتيازاتهم ومعاهداتهم المقررة مع مغول فارس كما سنرى في الفصلين القادمين من هذا البحث .

أسباب فشل التحالف المغولي - اللاتيني ضد المماليك

نستطيع من الدراسة السابقة الخروج بعدة ملاحظات :

أولاً : أن الاتصالات بين مغول فارس واللاتين بدأت بسفارة من بطريق مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا عام ١٢٦٠ قبيل موقعة عين جالوت بجس نبض موقف هولاكو منهم ولم يكن لها أية دوافع أخرى بدليل أن شخص السفير وهو ديفيد الأشعى كان راهباً، ولكن كانت أول سفارة لطلب التحالف بين الطرفين ضد المماليك من جانب مغول فارس في عام ١٢٦١ م بعد هزيمتهم في عين جالوت وتورطهم في حرب مع مغول روسيا .

ثانياً : كان قادة الغرب الأوروبي يطلبون في جميع ردودهم على الإلخانات فارس أن يعتنقوا المسيحية على المذهب الكاثوليكي قبل تنفيذ هذا التحالف ، وكانت ردود الإلخانات أنهم يتزورون بحماية المسيحيين والبعثات التبشيرية التي أرسلها الغرب وكتائبهم واعفائهم من الضرائب .

ثالثاً : لم يفكّر الغرب الأوروبي - لظروف سياسية ولأسباب أخرى - جدياً في مشروع التحالف مع المغول إلا في أغسطس عام ١٢٩١ أي بعد سقوط عكا وما تبعها من البقية الباقية من ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام أي بعد فوات الأوان ، رغم أن أرغون وحده أرسل لهم أربعة سفارات وحدد معهم موعد ومكان ذهاب قواته لبلاد الشام انتظاراً لهم . وقدم حلولاً ميسورة لمشاكل الإمداد والتمرين للقوات الأوروبية ، ورغم أنه نسب لا وجهاً يتوّد تقديم عروض لتسهيل وجود الجيوش الأوروبية في الشرق الأدنى تسهيل لعب العسكريين . ولكن ذلك كله لم يكن حافزاً للغربيين للذهاب للشرق حتى لو كان في ذهابهم إليه إنقاذاً لبقايا الصليبيين الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة تحت سيف المماليك .

رابعاً : كان لبعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى دوراً ما - وإن كان هامشياً - في مرتين فقط من أربعة معارك حدثت في بلاد الشام بين مغول فارس والمماليك . وكانت

ردود فعل الآخرين ضرية قاضية لهم . فقد اشترك بوهيموند السادس حاكم انطاكيه بقواته مع المغول في عامي ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، و كانت النتيجة هي استيلاء الماليك على انطاكيه عام ١٢٦٨م والانتقام من سكانها بالقتل والأسر ومن المدينة نفسها بتسويتها بالأرض ، وفي عام ١٢٨١ تحالف اسبتارية المرقب مع المغول في موقعة حمص الأولى ضد الماليك وفي المرة الثالثة (١٢٩٩م) طلب غازان من القرى الصليبية في قبرص الاشتراك معه في قتال الماليك ، ولكنهم رفضوا . ورغم ذلك فإنه بعد انتصار غازان واحتلاله بلاد الشام توهماً أن المغول كانوا يحاربون معركتهم من أجل أن يستردوا لهم القدس !! وفي المرة الرابعة والأخيرة (١٣٠٣م) لم يدعوا ولم يشتراكوا . وغنى عن القول أن المغول انتصروا في مرّة واحدة فقط (عام ١٢٩٩) ولم يستفيدوا من هذا النصر لانسحابهم من بلاد الشام بعد ذلك بعده شهور وهزيمتهم بعد ذلك بأربعة أعوام .

خامساً : المرة الوحيدة التي طلب فيها من مغول فارس تنفيذ تعاونهم المشترك مع اللاتين ضد الماليك كانت أثناة ، وجود حملة الأمير إدوارد الإنجليزي عام ١٢٧٠ في عكا ولا تشغال قوات أثينا على حدوده الشرقية فإنه أرسل نائبه في دولة سلاجقة الروم لبلاد الشام ولكن قواته انسحبت فور علمها بتقدم قوات الماليك دون الالتحام معها أو مع قوات حملة إدوارد .

وهكذا لم يخرج مشروع التحالف المشترك لحيز التنفيذ بالصورة المرجوة لأسباب ترجع للطرفين معاً وللمغول أنفسهم وللقوى اللاتينية من ناحيتها وأخيراً لأسباب ترجع للطرف الثالث المتحالف ضده وهو الماليك كما يلى :

أولاً : بالنسبة للطرفين معاً : كانت هناك اختلافات في اللغة والدين والهدف من التحالف بين المغول والأوربيين . فضلاً عن صعوبة الاتصال بين طرفين يفصلهما الآلاف من الأميال وليس بينهما حدود مشتركة في وقت كانت الدواب برأ والشوانى بحرًا هي وسيلة المواصلات . إذ أن السفارة من فارس لأنجلترا أو العكس كانت تستغرق عامين في المتوسط جيئة وذهاباً ، أي أن صعوبة وسط الاتصال بين الطرفين مكانياً وزمنياً قد أثر على سرعة التفاهم والاستجابة بين الطرفين . المعندين بالتحالف . يضاف إلى ذلك أن وجود الماليك بين المغول وبين الصليبيين - خاصة بعد الاستيلاء على أنطاكيه - قد منع الاتصال البري المباشر بين الطرفين كما أن السيطرة التامة للماليك على بلاد الشام منذ عام ١٢٩١م جعلت الاتصال بين المغول واللاتين عملية معقدة تماماً .

ثانياً : بالنسبة لمغول فارس : فلاشك أن انشغالهم بالحروب سنوات طويلة مع مغول روسيا من ناحية ، ومع مغول التركستان من ناحية أخرى ، فضلاً عن كثرة الخلافات والمنازعات حول السلطة بين ورثة هولاكو ، وقد كثير من المدن العراقية على حكم الأيلخانات وفرار كثير من القادة المغول والمسلمين معاً لعسكر المماليك وعدم استقرار كرسى الوزارة لدرجة أن جميع وزراء الإيلخانية قد ماتوا قتلاً عدا واحد فقط ، كل ذلك حال دون تفرغ إيلخانات فارس للاستيلاء على الشام فترة طويلة وثبت حكمهم فيه أو تنفيذ خطط التحالف مع الأوروبيين ضد المماليك . وكان أيضاً غزو المغول لأوروبا في الفترة من ١٢٣٧ حتى ١٢٤٢ وغزو مغول روسيا لشرق أوروبا عدة مرات بعد ذلك جعل الأوروبيين يكرهون المغول عامة ويترددون في التعاون معهم لأنهم ظلوا برابرة في نظرهم .

ثالثاً : بالنسبة للغرب الأوروبي عامة فيقع عليهم المسئولة الأولى لعدم الاستجابة لمغول فارس في التعاون المشترك معهم ضد المماليك . وإذا كان هذا التعاون من جانب الغرب الأوروبي يعني قبل عام ١٢٩١ مساندة القوى الصليبية في بلاد الشام ضد المماليك أو مساعدتهم على البقاء بحوار عدو يملأ كل مقومات القوة ، فإنه يعني بعد هذا التاريخ استرداد الأرض المقدسة من المماليك وعدم الاستجابة لهذا التعاون يعني فتور الحماسة الصليبية لللاتين وفشل البابوية في قيادة الغرب الأوروبي لعدة أسباب منها :-

أ- تداعى هيبة البابوية وسلطتها في تلك الفترة الزمنية . وذلك لأنها أساعت للمثال الصليبي باتفاق ضريبة العشور الصليبية وغيرها من الموارد البابوية على مؤيديها ضد أعدائها من الأمراء العلمانيين . كما حدث ضد أسرة الهohenstaufen وكما حدث في مشكلة صقلية (١٢٨٢-١٣٠٢م) وتوجيه الحملات الصليبية ضد أراجون وضد البندقية (١٣٠٩م) وغيرهما ، وكذلك ضعف بابوات أفينيون (١٣٧٨-١٣٠٥م) وارتقائهم في أحضان الملكية الفرنسية التي وجهتهم لصالحهم . وهذا كلّه جعل البابوية في نظر العامة والخاصة غير جديرة بقيادة جموعهم خاصة مع وجود الظروف الآتى ذكرها فيما بعد .

ب- الظروف الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا بدءاً من النصف الثاني للقرن الثالث عشر كانت مختلفة عن تلك الظروف التي حرّكت عشرات الآلاف من الدهماء وال العامة

والفرسان والنبلاء لحمل الصليب إلى الشرق في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد أدى فشل العديد من الحملات الصليبية على مصر والشام وتونس قد أحبط الأوروبيين عن الذهاب للشرق . وفضلاً عما تقدم ، فإن ظهور الانتتماءات القومية والاهتمامات الفردية للأوربيين بتأثير نشأة الجامعات ونهضة القرن الثاني عشر وظهور مقدمات عصر النهضة الإيطالية جعل اللاتين يبحثون عن مصالحهم الشخصية في أوطانهم ، وأهم من هذا وذاك ظهور الأوبئة والمجاعات وأمراض الطاعون أثرت على الموارد البشرية للغرب الأوروبي مما أدى لارتفاع تكلفة الفرسان والإتفاق عليهم وقلة عددهم ... كل هذه العوامل جعلت الاستجابة لنداءات البابوية فاترة .

ج- الأوضاع السياسية في غرب أوروبا كانت غير مهيأة لتنفيذ مشروع التحالف مع المغول ، فملوك الجلطة شغلوا بالحرب مع ويلز واسكتلندا ، وملوك فرنسا - بعد لويس التاسع - شغلوا بالحروب ضد قشتالة وأragon وفى المشكلة الصقلية . أما عن الامبراطورية الرومانية المقدسة فقد حطمتها البابوية وأعوانها بالقضاء على آخر أباطرة الهاشطاون عام ١٢٦٦ م ، وانشغل ملوكها الضعاف من أسرة الهاسبورج بحروب إقليمية في المجر وبوهيميا وتدعم سلطاتهم وقدراً اهتماماً بالشرق . أما قشتالة وأragon فكانت لهما مشاكلهما مع فرنسا والبابوية وانشغلتا في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس . أما المدن التجارية الإيطالية فكانوا يهتمون بمصالحهم بينما كانت . فالجنوبية هم الذين كانوا ينقلون الرقيق - وهو عصب الجنديبة الملوكيه - من موانئ البحر الأسود للماليك ، وكان البناية ينقلون التوابي وسلع جنوب آسيا وشرقها من الاسكندرية وبذلك ساهموا في تقوية الاقتصاد والجيش الملوكي ، ورغم نداءات البابوية والجامع المسكونية بتحريم التجارة مع الماليك فإن استجابة هذه المدن التجارية لمصالحها التجارية كانت أقوى .

د- ضعف الكيان الصليبي في الأرض المقدسة على الأقل منذ رحيل لويس التاسع من الشام عام ١٢٥٤ وإنهاire نهائياً عام ١٢٩١ م كان من العوامل الهامة لإلحجام القوى الأوربية عن محاولة المساعدة أو النجدة أو مساعدة المغول ضد الماليك ومن أسباب هذا التداعي : الخلافات التي وصلت إلى الصدام المسلح بين تحار المدن الإيطالية في الأرض المقدسة ، وكذلك الصدام بين الهيئات العسكرية ، وأيضاً الخلافات المذهبية

بين المسيحيين الشرقيين وبين الكاثوليك ، وعدم وجود قيادة مركبة يخضع لها كل الصليبيين في الشام لدرجة أنه وجدت سبعة عشر قيادة في مدينة عكا إبان سقوطها في يد المالك عام ١٢٩١م . ولأن الوجود الصليبي كان يعتمد على الظهير الأوروبي في الإمدادات العسكرية والاقتصادية فان انقطاع هذه الإمدادات للظروف الموضعية بعاليه جعل بقايا الصليبيين في الشرق - خاصة بعد توحد مصر والشام تحت حكم المالك بعد نصر عين جالوت - في موقف لا يحسد عليه ومن ثم سقطت المدن والقلاع الصليبية واحدة تلو الأخرى دون تدخل أو مساعدة حاسمة من المركز الأم في أوروبا . وكان لسيطرة المالك على كل سوريا منذ عام ١٢٩١م أكبر الأثر في إحباط القوى الأوروبية عن مساعدة المغول ضد المالك حتى لو كان ذلك معناه استرداد الأرض المقدسة أو جزء منها مرة ثانية .

رابعا : كان المالك من أهم عوامل فشل التحالف المغولي الصليبي . فقد استطاعوا هزيمة مغول فارس أربعة مرات (في عين جالوت عام ١٢٦٠ ، ابลستين في الأناضول ١٢٧٦ ، موقعة حمص الأولى عام ١٢٨٢ ، وفي مرج الصفر عام ١٣٠٣) واستطاعوا توجيه الضربات المتلاحقة لمملكة أرمينيا الصغرى ، وأهم من أنهم ذلك تمكنوا من إنهاجم الوجود الصليبي في بلاد كما أنهم صمدوا للعصار الاقتصادي الذي فرضته عليهم البابوية في النصف الأول للقرن الرابع عشر ، بل ونجحوا في تكوين علاقات سياسية واقتصادية مع كثيرون من القوى الأوروبية . وهكذا كان التخويف المستمر لبقايا الصليبيين زمن بيبرس وقلاؤون ثم إنهاء الوجود الصليبي نفسه زمن الأشرف خليل ، خصما من قوة أحد طرفي التحالف لحساب عدو التحالف . كما أن محاولات التحالف جرت في وقت كانت فيه دولة سلاطين المالك في طور صعودها ، عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، فهي تقود العالم الإسلامي ، وتشهد رواجاً اقتصاديا وفوا سكانيا وصحوة ثقافية وتوجه أمور السياسة في المنطقة . وهكذا لم يكن الأمر وقفا على قدرات الغرب والمغول وإرادتهم فقط ، وإنما كان مررهنا أيضا بالسبب التاريخي لوجود دولة سلاطين المالك نفسها وهو التصدى للمغول وتصفية الوجود الصليبي .

ولهذه الأسباب مجتمعة لم يخرج مشروع التحالف المغولي - اللاتيني ضد المالك لحيز التنفيذ بالصورة التي أرادها له المغول والأرمي واللاتين على حد سواء .

الهوامش

- ١- Sirarpie der Nersessian , "The Kingdom of Cilician Armenia" in A History of the Crusades , vol . II , ed . by R. Wolff Harry Hazard and K.M. Setton. Philadelphia 1962 , p. 652 .
- ٢- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ٦٤٨-٧٧٦ هـ (رسالة دكتوراه غير مطبوعة متداولة لكلية الأداب جامعة الاسكندرية ، أبريل ١٩٨٠) ص ٨٢ ، ٨٤ .
- ٣- Grigor Akanc : History of the Nation of the Archers (The Mongols) . Eng . trans by. P.R.P . Blake & R.N. Frye . Cambridge , 1954 , pp. 46 , 47 .
- ٤- Ibid , pp. 55 , 57 .
- ٥- Boyle , John Andrew (trans . & ed.), "The Journey of Hettum , King of Little Armenia , to the Court of the Great Khan : "Mongke" , Central Asiatic Journal , IX 1964 , pp. 177-181. فايز نجيب اسكندر : المراجع السابق ص ٨٦ ، ٨٧ .
- ٦- فايز نجيب اسكندر : المراجع السابق ص ٧٤ .
- ٧- المراجع السابق ، ص ٩٤-٩٦ .
- ٨- المراجع السابق ص ٩٥ .
- ٩- للتفاصيل انظر : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الأخير ؛ رشيد الدين فضل الله الهمданى؛ جامع التواریخ : تاریخ المغول ، المجلد الثاني ، الجزء الأول : الايلخانیون . ونقله إلى العربية محمد صادق نشأت ، ومحمد موسى هنداوى ، وفؤاد عبد المعطي الصياد ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول . القاهرة ، ١٩٤٩ ، محمد صالح داود القزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، بغداد ، ١٩٧٠ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، القاهرة د.ت.
- ١٠- محمد صالح داود القزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٧٠ ، ٧١ .
- ١١- رشيد الدين الهمدانى : المصدر السابق م ٢ ج ١ ، ص ٢٦٧-٢٩١ ، انظر أيضاً : القزاز : المراجع السابقة ص ٩٧-١٠٧ .

١٢- المقريزى : كتاب السلوك لعرفة دول الملوك ،الجزء الأول، القسم الثاني صفحات .٤١١،٤١٢،٤٢٢ .

13- Runciman , S., "The Crusader States , 1243 - 1291 " in Setton (ed) A History of the Crusades , II , p. 572 .

١٤- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ،
Runciman , op . cit ., p. 572 .
الرياض ، ١٩٧٦ ص ٣٢٤ .

١٥- فايز نجيب اسكندر : المراجع السابق ص ١٠٥ .

16- Runciman , p. 572 ; Peter Jackson , "The Crisis in the Holy Land in 1260 " ,
English Historical Review , 1980 , pp. 490-492 .

17- Runciman , op . cit , p. 572 ; Jackson , op .cit ., p. 492 .

18- Runciman , op . cit ., p. 573 ; Jackson , op . cit ., pp. 499 , 500 .

19- Jackson , op . cit ., p. 507 .

20- I bid , pp . 495 , 6 .

21- Jackson , Peter , "The Dissolution of the Mongol Empire "Central Asiatic Journal ,
XXII , Vols . 3-4 , 1978 . p. 236 .

22- Rachewiltz : Papal Envoys to the Great Khans , p. 150 . Connell : Western Views of
the Tartars , p. 161 .

٢٣- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٨٨ .

٢٤- المصدر السابق ، ص ٤٨٦ .

٢٥- جامع التواریخ م ٢ ج ١ ص ٣١٥ .

٢٦- المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٢٨ ، القلقشندي ، صبع الأعشى ج ٨ ص ٦٤،٦٣ .

٢٧- رشيد الدين الهمذاني : المصدر السابق ص ٣١٦-٣١٠ ، المقريزى : المصدر السابق ،
ص ٤٣٤-٤٣٥ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المالبک والمغول ص ٥٩-٤٩ .

٢٨- من نتائج هذه الموقعة أنها ثبتت دعائم دولة المالبک الناشئة في مصر أولا ثم في الشام ثانيا
نظرا لتداعي الأمراء الأيوبيين في الشام أمام المغول سواء بالدخول في طاعتهم أو بالفرار أمامهم.

ومن ثم فان المالك استطاعوا - فبر طرد فلول المغول من بلاد الشام بعد انتصار عين جالوت - توحيد هذه البلاد ولأول مرة منذ وفاة صلاح الدين الأيوبي مع مصر تحت حكمهم . وكان لهذا الأمر أكبر الأثر في التعجيل بانهيار بقية الامارات الصليبية في الشام لتطهير المالك لهم من ثلاثة جوانب وكان انتصار المسلمين على المغول ضربة قوية لبعض قوى المسيحيين الشرقيين الذين انتهزوا فرصة اكتساح المغول للعراق والشام بارتكاب أضرار بالغة ضد المسلمين إبان هذه الفترة وبالإضافة إلى ذلك فان هذا الانتصار أنقذ بلاد الشام ومصر وربما بقية العالم الإسلامي من الاحتلال المغولي أتى هذا النصر الحاسم أيضاً وتحول القوة الإسلامية من الدناء إلى الهجوم وقضى على الاعتقاد بأن المغول قوم لا يغلبون . كما أن انتصار عين جالوت قد مكن المالك من توجيه الضربات التالية للكيان الصليبي في الشام للتخلص منه خشبة تحالف بعض أمرائه (مثل أمير انطاكية) أو جمعيهم مع المغول ضد المسلمين

J. J. Saunders : *Muslims and Mongols* . University of Canterbury , 1977 , pp. 67-68 ;

فايد حماد عاشر : *العلاقات السياسية بين المالك والمغول* ص ٥٦ ، ٥٥ .

29- Jackson , "The Crisis in the Holy Land" , op . cit . , p. 506 .

30- Loc . cit . ; Runciman , op . cit , p. 573 .

31- Cf . "The Crisis in the Holy Land in 1260" , op . cit . , p. 507 .

ولكن المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه يعتقد أن حملة هولاكو على سوريا كانت- Une croisade nes-torienne ، وأن الصليبيين في عكا كانوا تصار النظر في عدم التحالف مع المغول ضد المسلمين وأنهم ضيعوا على أنفسهم هذه الفرصة وأنهم بتعاونهم مع المصريين أو بعيادهم في هذا الصراع قد مكروا الآخرين من تحقيق نصر على المغول كان نعمة عليهم بعد ذلك ، ولكن هذا الرأي ينهاه أمام الأدلة السابقة وأمام حقيقة أن الصليبيين في عكا كانوا أضعف من أن يتخذوا هذا القرار .

Cf . R . Gerousset : *Histoire des Croisades* , III , pp . 580-600 .

٣٢ - رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣١٧ ، "The Dis-solution" of the Mongol Empire" pp . 186-244 .

- ٣٣ - رشيد الدين الهمذاني المصدر السابق ص ٣٣٦ .

٣٤- فايد حماد عاشور : المرجع السابق ص ٧٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٤ . Jackson , op . cit , pp . 224 , 229 , 229 .

٣٥- رشيد الدين الهمذاني : المصدر السابق ص ٣٣٦ .

٣٦- ماركتو بولو : رحلاته، ترجمتها للعربية عبد العزيز جاوده، القاهرة ، د . ت - ص ٣٦١-٣٦٤ ، فايد عاشور : المرجع السابق ص ٧٦ .

٣٧- جامع التواریخ م ٢ ج ١ ص ٣٣٢ ، ٣٣٢ ص ١ ج ٢ . Saundrs , op . cit , p. 69 ;

Jackson , op . cit , pp. 226 , 227 .

٣٨- رشيد الدين الهمذاني : المصدر السابق ، ص ٣٣٢-٣٣٥ .

٣٩- فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المالكية والمغول ، صفحات ٢٠٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨ .

٤٠- Jackson , "The Dissolution of the Mongol Empire" , op . cit , p. 236 ; Connell , op . cit , pp . 132 - 140 .

٤١- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٣٠ - ١٤٠ ، فايد عاشور : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

٤٢- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ٩٢-٩٥ . Saunders , op . cit ., p. 73 .

٤٣- الرواض الزاهر ، ص ١٣٧-١٣٩ . Cf . Jackson , op . cit ., p. 237 . أيضا

٤٤- شرع الظاهر بيبرس منذ توليه سلطنة المالكية فى تنفيذ سياسة داخلية وخارجية لتعديم نفوذ المالكية فى الحكم ولتحشيد كل الجهود السياسية والعسكرية لمواجهة مغول فارس والصلبيين مما منها أولاً : فى إطار صبغ الشرعية على حكمه فى نظر الرعية عامه ورجال الدين خاصة قاته أعاد إحياء الخلافة العباسية وجعل مقرها بالقاهرة (١٣٦٥هـ / ١٢٦١ م) كى يوحد العالم الإسلامي تحت لواء الخليفة العباسى سوريا ويكون بيده عملياً مقاييس الأمور السياسية والعسكرية ، ثانياً : فى إطار تعويق تقدم مغول فارس لسوريا فاته أمر نواهه فى المنطقة من نهر الفرات لحدود حلب بحرق الأعشاب والمروج لأن فى ذلك إضرار مباشر بالغزة الذين يعتمدون على الحبوب فى جميع تنقلاتهم وحرثيهم وأمر أيضاً بتنمية القلاع والمحصون والمنفاود فى شمال بلاد الشام وشرقتها ، وتجنيد البدو والعربان والإكشار من استيراد الرفيق لاستخدامهم فى الجيش ، وتوزيع الإقطاعات على مقدمي العساكر ، واستيراد العدة والعتاد اللازمين للأسلحة والإمداد والتموين لي gioشه ، ثالثاً : قام بعقد العديد من معاهدات التحالف مع مغول القنجاق وسلامجة الروم للتحالف معهما ضد مغول فارس والأرمن ، وعقد معاهدات صداقة مع أباطرة

ببزنطة منذ عام ١٢٦١ لضمان مرور السفارات والتجارة عبر أراضيهم ، ومع حكام مملكة صقلية ليعرف منهم تحركات الأوربيين ضد المسلمين كما كان يفعل الأوربيين معهم . رابعا : قام بيبرس بتأمين طريق التجارة في البحر الأحمر لضمان وصول موارد أساسية لل الاقتصاد المصري . والحقيقة أن نجاح بيبرس في تحقيق هذه السياسة جعل المالك القوة الأولى في المنطقة ، واستطاع توجيه الجيوش - في فترة انشغال المغول عنه - لضرب المدن والقلعات الصليبية في الشام ومملكة أرمينيا الصغرى ، كذلك تمكن من هزيمة المغول بالتحالف مع سلاجقة الروم . للمزيد من التفاصيل أنظر أحمد مختار العبادي : قيام دولة المالك الأولى في مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٧٩ - ١٩٣ ، ٢٠٢ - ٢٢١ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر . القاهرة ١٩٦٠ . ٤٩ ص . ٥٠ .

- 45- Jean Richard , "The Mongols and the Franks " , Journal of Asian History , III , 1969 , pp. 52 , 3 ; Boyle , J . A . , The IL - Khans of Persia and the Christian West. , " History Today , XXIII , 8 , 1973 , pp. 556 , 7 .
- 46- G . Borghezio , "Un Episodio delle relazioni tra la Santa Sede ei Mongoli(1274)" in Rome , vol 14 . 1936 , p. 370 .
نشر هذا الباحث ذلك التقرير بلغته اللاتينية ولم يترجم حتى الآن حسب علمي - لأية لغة معاصرة ، وقد تفضل على البروفيسور الألماني فرنسز كوا دلياورد بترجمته إلى إلى اللغة الألمانية ، وقامت بترجمته إلى اللغة العربية ، ولأهمية البالغة نشرته ضمن ملحق هذا الكتاب ..
- 47- Ibid , pp . 370 , 371 ; Richard , op . cit . III , p. 53 .
- 48- Paul Meyvaert , " An Unknown Letter of Hulagu , IL - Khan of Persia to King Loius IX of France , " Viator , xi , 1980 , pp. 245-249 .
- 49- Borghezio , op . cit . , p . 372 .
- 50- Boyle op . cit . , p. 556 ; Richard , op . cit . , p . 53 .
- 51- Paul Meyvaert , " An Unknown Letter . " , op . cit . , pp . 240 , 249 .
٥٢ - أورد هنري هوارث الترجمة الانجليزية لهذه الرسالة ولكنه أخطأ في تاريخها واسم الراسل وذكر أنه عام ١٢٦١ وأن الراسل هو البابا الكسندر الرابع (١٢٦٣-١٢٥٤) وهذه المعلومات تم تصحيحها بعد اكتشاف Meyvaert خطاب هولاكو .

Cf. H. Howorth : History of the Mongols . Vol , III , London, 1888, p. 210 .

53- Howorth , op . cit . III , 210 .

٥٤- رشيد الدين الهمذانى : جامع التواریخ ، م ٢ ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٤٠ .

٥٥- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٣٣-٢٣٠ ، المقىزى : السلوك ص ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٦٦ .

Stevenson , W.B. The Crusaders in the East , Beirut , 1968 , pp . 339 , 340 .

٥٦- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص ٢٦٩ .
٢٧١ ، فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ١١٣ - ١٢٠ .

57- Howorth ; History of the Mongols , III , p. 278 ; Boyle , " The Il - Khans of Persia and the Christian West," op . cit . , p. 556 .

58- Howorth (trans.) op . cit . , pp . 278 , 9 ;

Boyle , op . cit . pp . 556 , 7 ; Connell , op . cit . , pp. 164 , 5 .

59- Connell , op . cit . , p . 165 .

٦٠- الروض الزاهر ، ص ٣٠٨ ، وكذلك المقىزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٦٧ .

٦١- الروض الزاهر ، ص ٣٢٤ .

٦٢- المصدر السابق ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٤٩٩ ، ٥٠٠ :

Grigor of Akanc , op . cit , pp . 359 , 60 , 371 ,372 .

63- Tisserant , E . , " Une Lettre de L'Ilkhan de Perse, Abgha adressee en 1268 au Pape Clement IV " , in Le Museon , 59 , 1946 , pp . 547- 556 ; also cf Richard , op . cit p. 53 no 33 ; Meyvaert , op . cit . , pp . 250 , 251 .

64- Boyle , op . cit . , p. 557 ; Connell , op . cit . , p . 166 .

٦٥- تشير أصوات الاتهام لانتقام الملك الفرنسي لرأى أخيه شارل الأنجو - ملك صقلية حينئذ -
الذى أراد تأديب الحفصيين حتى لا ينروا المتمردين عليه و حتى يدفعوا له الجزية التى كانوا
يدفعونها لأسلافه من قبل . وليس متصرراً أن الملك الفرنسي - الذى كان له تجربة سيئة فى مصر
من قبل - كان من السذاجة التى جعلته يعتقد أن غزو مصر سبكون سهلاً من تونس التى
يفصلها عن مصر صحراء طويلة قاحلة .

للمزيد من التفاصيل انظر

- Powecke , F . M . : King Henry III and the Lord Eduward . vol . II . Oxford , 1976 , pp. 597 - 599 , Strayer , J . , "The Crusades of Louis IX , " in Setton (ed .) A History of the Crusades , II , pp . 513-516 .
- 66-Powicke , op .cit . , pp. 599 , 600 .
- 67- Lockhart L . , " The Relations Between Edward I and Edward II of England and the Mongol IL - Khans of Persia " in Iran Journal of Persian Studics , VII , 1968 , p . 24 .
- 68- Powicke , op . cit . , p. 602 ; Denis Sinor , " The Mongols and Western Europe " , in Setton , A History of the Crusades , III , p . 531 ; Boyle , op . cit ., p. 558 .
- 69- Cf . King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p. 602 .
- 70- Loc . cit ., Runciman , " The Crusader States 1243 - 91 " in Setton (ed) A History of the Crusades , II , pp . 582 , 583 .
- ٧١- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر : ص ٣٣٩ - ٣٤٢ ، ٤٠٥ - ٤٠٨ ، المقىزى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٥٩١ ، ٥٩٤ .
- انظر الترجمة العربية لهذه الرسالة في الملحق الثاني
- 72- Borghezio , op . cit . pp . 361 - 372 .
- 73- Ibid , pp. 365 , 366 ; Howorth , op . cit ., p . 280 .
- 74- Borghezio , op . cit ., p. 366 .
- 75- Howorth (trans.) History of the Mongols , III , p . 280 .
- 76- Borghezio , op . cit ., p . 366 .
- 77- Setton : The Papacy and the Levant , vol . I , pp . 126 - 128 ; Throop , Balmer ; A Criticism of the Crusade . Philadelphia 2 nd . ed 1975 , pp . 273 -276.
- ٧٨- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ص ٤٣٢ .
- ٧٩- رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ م ٦٣ ، ٦٢ ص ٢ ، ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ص ٤٧١،٤٥٣ .

- 80- Howorth , op . cit . , p . 281 ; Connell , op . cit . , 170 .
- 81- Riley - Smith , J . : what were the Crusades ? London , 1977 , p. 45 .
- 82- The Chronicle of Bury St Edmunds 1212 - 1301 . Ed & trans .
Antonia Gransden , London , 1964 , p. 63 .
- 83- Howorth , op . cit . , p. 281 .
- 84- Cf . A Criticism of the Crusade , p. 280 .
- 85- Connell : Western Views of the Tartars , p. 171 .
- ٨٦- الكرج : إشارة إلى سكان مملكة جورجيا المسيحية وفي إقليم القرقازان الأن ، وحضرت لحكم المفسول منذ عام ١٢٢٦ م . وكان ملكها هو ديمترى الثانى (١٢٨٨-١٢٦٩) . فاييز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ١٣٧ حاشية ٢ .
- ٨٧- المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ، ق ٣ ص ٦٩٢ .
- ٨٨- جامع التواریخ ، م ٢ ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ .
- ٨٩- تاريخ مختصر الدول ص ٤٥ .
- 90- Joseph De Cancy , " A Crusader Letter from the Holy Land " in Palestine ' Text Society . vol . v , part III , p. 12 .
- 91- The Chronicle of Bury st Edmunds , p. 77 .
- ٩٠- للتفاصيل أنظر ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ص ٧٥ - ٨٠ .
- ٩١- أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ١٥ ، ١٦ ، المقريزى : السلوك ص ٦٩ - ٦٩ .
- 94- Joseph De Cancy , op . cit , p. 11 .
- ٩٥- نشر الباحث الفرنسي شابو Chabot الأصل اللاتيني لهذا الخطاب مع بقية الخطابات المتبادلة بين أرغون خان والغرب الأوروبي
Cf . Chabot , J.B.
- "Notes sur les relations du roi Argun avec L'Occident , " Revue de L'orient Latin , II , 1894 , pp. 569 - 71 ;
- A.C. Moule وقد نشر الترجمة الانجليزية الكاملة لهذا الخطاب

Cf. Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 , pp. 105-107 .

96- For details cf . Runciman , Steven ; The Sicilian Vespers. Cambridge , 1958 ; Setton
The Papacy and the Levant , I , pp. 134 - 143 , 146 .

. ٣١ ، ٣-٩٧ - ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والمعصور في سيرة الملك المنصور ، ص

٩٨ - المصدر السابق ، ص ١٠٣-٩٢ .

٩٩ - رابا صاما معناها المبر الصائم (حوالى ١٢٢٥-١٢٩٤) ولد في مدينة بكين بالصين وكان نسطوريًا . وقد تعلم ودرس كثيرون من الكتب الكنسية . وعندما بلغ العشرين من العمر ، وزع كل ممتلكاته على الفقراء ، وارتدى لباس الرهبان وعاش حياة متقللة . وقد حضر هو وصديقه مارك (مارجبلاما فيما بعد أسقف النساطرة في بغداد) من الصين إلى بغداد في رحلة طويلة شاقة بوسائل بدائية في الترحال وذلك للحج للمدينة المقدسة . ولكنهما استقرا في فارس منذ عام ١٢٧٩ . واختير مارك لمنصب بطريق النساطرة في بغداد تحت اسم Jahballah III وعين صاما في عام ١٢٨٠ زائرا مستجولا لكل الكنائس النسطورية في آسيا . واختاره أرغون بناء على توصية بطريق النساطرة ليكون سنيرا لأوربا عام ١٢٨٧ .

100- Ryan , J. D . : The Interrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities
of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 . Unpublished Ph . D . Dissertation .
New York University , 1972 , pp. 16 , 18 .

101- The Monks of Kublai Khan ... or the History of the Life and Travels of Rabban
Sawma . Eng . trans . by wallis Budge . London , 1928 , pp. 172 - 181 .

102- Ibid , pp. 182 , 183 .

103- Ibid , pp. 183 , 185 .

104- Rabban Sawma , Cf . The Monks of KubLai khan , p. 188 .

105- Ibid , pp. 189 , 190 ; Ryan , op . cit . pp. 18-39 .

١٠٦ - وقد نشر J. B. Chabot جميع هذه الخطابات (التسعة) نتلا عن السجلات البابوية في مقاله
الوثائق المشار إلى عنوانه سابقًا
Cf . R.O.L. II , 1894 , pp. 575-592 .
وقد ترجم A.C.Moule ثلاثة من هذه الخطابات للغة الإنجليزية .

Cf. Christians in China Before the Year 1550 , pp. . 112-115 .

١٠٧ - انظر الفصل الثالث من هذا البحث .

108- Chabbot , op . cit . p. 584 ; Moule (Trans.) op . cit . , p. 114 .

109- Cf . The Monks of Kublai Khan , p. 165 .

110- Ryan : The Interrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 ; pp . 22-24 .

١١١ - انظر ما يلى صفحات ١٦٩ ، ١٨٨ ، ١٨٣ ، ١٩٣ - ١٩٨ .

112- Howorth : History of the Mongols , III , p. 352 .

١١٣ - لم تشر المصادر الفارسية من ترب أو بعيد للسفارات المتبادلة بين إلخانات المغول والغرب الأوروبي . والإشارة الوحيدة للاتصالات بين أرغون والغرب جاءت - باستثناء مذكرة صاما نفسيه - في حولية ابن العبرى في النسخة السريانية التي أكملها مؤلف مجھول والتي روى « بينما كان أرغون على قيد الحياة فان سفراء الفرنجية اعتادوا على الحضور له من بابا روما والملوك الآخرين ، ونقلوا له أنه ينبغي أن يقف المغول والفرنجية يدا واحدة ضد المصريين .. وأن أرغون نفسه أرسل الخبر بار صاما وهو راهب يغورى كسفير عنه للبابا ... وأن الأخير أرسل معه موافق وتأكيدات أنهم سيهاجمون العرب معاً ويدمروا دينهم . وما حدث بعد ذلك هو عكس حساباتهم تماما » .

Cf . The Chronography of Gregory Abu'L - Faraj , Ed & trans . by W . Budge . London; 1979 , p. 492 .

١١٤ - انتهز المنصور تلاوون فرصة اندلاع الحرب بين تجارت جنو وبيزا عام ١٢٨٧ في الموانئ الصليبية ودعوة البناقة له للاستيلاء على طرابلس - نكاية في منافسيهم الجنوية في الاستيلاء على طرابلس ، حيث حاصرها بقوات مكونة من عشرة آلاف فارس وثلاثين ألفاً من المشاة وتسعه عشر منجنينا وألف وخمسة مائة من الحجارة . وسقطت هذه المدينة بعد أربعة وثلاثين يوماً فقط من الحصار في ربيع الآخر ١٢٨٨هـ / أبريل ١٢٨٩ ، بعد أن قتل المماليك كثيراً من سكانها وأسرعوا من لم يستطع الفرار لقبرص للتفاصيل انظر : أبو الفداء : المختصر جـ ٤ ص ٢٣-٢٤ ، المقريزى Runciman , "The Crusader States , " op. cit . III , pp. 590 , ٧٤٦-٧٤٨ .

١١٥ - كان برسكاريللو فارسا نبي البقاع الصليبية في الشام فضلاً عن أنه تاجر جنوبي ولكنه ساير للعمل في خدمة المغول واستخدم أرغون مواهبه العسكرية لحراسة قصره ... Cf . Ryan , op , cit . . .

- 116- Chabbot , op . cit ., 614 ; Ryan , op . cit ., 85 .
- 117-Haenisch , Erich , " Zu den Briefen der Mongolischen IL- Khane Argun und Ol-jectu an den Philipp den Schonen von Frankreich 1289 u .1305 " , Oriens , II , 1949 , p. 220;
- Mostaert , A. & F . W. Cleaves, "Les Lettres de 1289 et 1305 " dans Harvard Yenching Institute Scripta - Mongolica : Series I Cambridge , Mass, 1962 , pp . 17 ,18 ;
- انظر الترجمة العربية لهذا الخطاب في الملحق رقم ٣ .
- 118- Chabbot , op . cit ., pp . 612 , 613 ; Howorth , op cit., pp. 551 , 552 ; Ryan , op . cit., pp . 87 - 89 .
- 119- Sylvia Schein , " Philip IV and the Crusade : A Reconsideration" in Edbury , Peter W. (ed.) Crusade and Settlement . Univ . College Cardiff press, 1985 , pp . 121 , 122 .
- 120- H . Turner " Unpublished Notices of the Times of Edward I , Especially of his Relations with the Moghul Sovereigns of Persia , " in the Archaeological Journal . London, 1851 , vol . . VIII, pp. 48, 49; also cf. Chabbot , op . cit., pp ., 615, 6 ; Howorth, op . cit ., p. 353; Ryan , op . cit ., pp. 90, 91Sinor, op .cit ., p. 534 .
- 121- Runciman , op . cit , pp. 594; Ryan , op . cit ., p. 80,81 .
- 122- Sinor " The Mongols and Western Europe " , op . cit ., III p. 534 .
- ١٢٣ - المقريزى كتاب السلوك ، جد ١ ص ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، وأيضاً
- Runciman , The Crusader States , " op . cit , II , p. 594 .
- 124- Ryan, op. cit., pp. 120 , 121 .
- 125- Chabbot , op . cit . p. 617 ; Turner , op . cit ., p. 48 ; Howorth , op . cit ., III , p.352; Ryan , op . cit ., pp. 117 , 118 .
- 126- Chabbot , op . cit ., p. 618 .
- 127- The Interrelation of the Oriental Mission , p. 118 .

- 128- Chabbot , op . cit . p. 619.
- 129- The Chronicle of Bury St Edmunds , p. 97 .
- 130- Powicke : King Henry III and the Lord Edward , II , pp . 727 , 728 .
- 131- Bar Hebraeus : The Chronography , p . 486 .
- 132- Richard , Jean , "European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th - 15 th Centuries) , " Iran Journal of Persian Studies , vol . VI , p. 49 .
- ١٣٣- للتفاصيل انظر: أبو الندا : المختصر جـ٢ ص٢٥،٢٢ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص٧٤ ، ٧٦٤ .
- Runciman : A History of the Crusades , III , pp . 410 - 23 .
- 134- Howorth, op. cit., III, p. 353; Chabbot, op. cit., p. 619 ; Boyle , op . cit . p. 561 , Ryan , op . cit ., pp . 135 , 6 .
- 135- Chabbot , op . cit , pp . 619 , 20 ; Howorth , op . cit ., III, pp . 353 , 4, Boyle , op . cit , p. 561 ; Ryan , op . cit ., pp 136 , 137 .
- 136- For details cf . Turner , " Unpublished Notices of the Times of Edward I , " op . cit., p .49 ; Powicke : King Henry III and the Lord Edward , vol : II , pp . 733 , 35 .
- ١٣٧- انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب صفحات ١٨٩-١٩٣ .
- ١٣٨- تولى الأشرف خليل السلطنة من نوفمبر ١٢٩٠ حتى قتله بيبرسا ولاجئن فى ديسمبر عام ١٢٩٣ م . ثم تولى شقيقه الناصر محمد بن قلاوون - وكان طفلا صغيرا - السلطنة بالاسم فقط من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ م ثم نفاه قادة المالىك إلإمارة الكرك . وتولى كتبغا من ديسمبر ١٢٩٤ حتى نوفمبر ١٢٩٦ م ، ثم دبر بعض قادة المالىك مؤامرة لاقصائه إلى الشام ، وتولى حسام الدين لاجين من نوفمبر ١٢٩٦ حتى قتله بعض المالىك فى يناير ١٢٩٩ ، واستدعوا الناصر محمد من منفاه الاختيارى لتسلم السلطنة فى فبراير عام ١٢٩٩ م .
- ١٣٩- للتفاصيل انظر : فايد حماد عاشر العلاقات السياسية بين المالىك والمغول ص ١٤٥-١٤٦ .
- 140- Riley - Smith , J. The Knights of St . John in Jerusalem and Cyprus (1050 - 1310) , pp . 198 , 199 ; Sinor , op . cit , III pp. 533 , 36 .

١٤١ - فايد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٨ .

142- Riley - Smith , op . cit .. p. 199 .

١٤٣ - كتب دوج البناقة في ١٩ مارس عام ١٣٠٠ رسالة للبابا بونيفاس الثامن يبلغه فيها الأنبا ، التي حملها له التجار البناقة من قبرص أن المغول قد استولوا على كل الأرضي المقدسة ، وأن هشوم الثاني ملك الأرمن كان قاتلهم ، واعتبرانا بجميله ، فان المغول قد أرجعوا تلك البقاع لخوزة المسيحيين ، وينهى الدوج خطابه بتهنئة البابا بأن فترة بابريته قد عاصرت استعادة الأرضي المقدسة و يقدم الدوج خدماته للبابا بقوله أنه مستعد كأسلافه لتقديم العون لتلك البقاع ، وأنه متظر تعليماته في هذا الشأن .

وفي ١٤ فبراير عام ١٣٠٠ أيضا كتب أحد الرهبان الفرنسيسكان بقبرص خطاباً لزملائه في المجلة ويروى لهم تفاصيل استعادة الأرض المقدسة . وفي روايته أن دوافع غازان لذلك كانت للاستقام من دماء المسيحيين في عكا عام ١٢٩١ م وأن العديد من أفراد الجماعات والهيئات الدينية والعسكرية في قبرص سيرجعون لمراكزهم الأصلية في سوريا Cf . Sylvia Schein , " Gsta. Dei per Mongols 1300 , the genesis of a non - event , " in the English Historical Journal , Oct , 1979 , pp. 814 . 16

144- Ibid , p. 815 .

145- Loc . cit ., Sinor , op . cit ., p . 536 .

146- Sylvia Schein , op . cit ., p. 813 .

١٤٧ - من ذلك حولية (p. 155) Bury st Edmunds التي نقلت تحت حوادث عام ١٣٠٠ أن الملك غازان قد جعل ملك أرمينيا رئيساً وقائداً لجبيشه ، وتصف هزيمة المالك ب بصورة مبالغ فيها وتقول " وعجبنا فعندما تم تدمير أعداء المسيحيين وشردوا فان الخان العظيم قد أرجع للمسيحيين كل الأرضي التي كانت بحوزتهم من قبل » وقد تبعت الباحثة سيلفيا شайн Sylvia Schein هذه الإشاعة في العديد من الحوليات اللاتينية المعاصرة ، وتنقل عن حولية قولها وأنه قد غزا الأرضي المقدسة ، وأن غازان قد حرر كل الأسرى المسيحيين الذين اسرهم المالك من قبل . وتقرر حولية ثانية أن غازان قد كتب للبابا من القدس يطلب منه إرسال أساقفة وفلاحين ليستقرروا في الأرض المقدسة ، وتروي حولية ثالثة بأن الخان المغولي طلب جنوداً للدفاع عن الأرضي المقدسة ، وقد أشارت بعض الحوليات الألمانية والإيطالية إلى أنه قد حدثت بالفعل هجرات سلمية

- من أوروبا للاستقرار في الأراضي المقدسة تحت الحكم المغولي .
CF.Ibid, pp . 805 - 808.
- 148- Howorth (trans) . History of the Mongols , III , p. 488 ; Connell : Western Views of the Tartars 1240 - 1340 , pp . 180 , 181 ; Sylvia Schein , op . cit., pp . 818 , 19 .
- ١٤٩- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١٦٠ وقد أورد بقية نصوص هذه المعاهدة ونسخة اليمين التي حلف عليها الطرفان ص ١٥٦ ، ١٦٤ .
- 150- Atiya , Aziz Suryal : Egypt and Aragon ; Embassies and Diplomatic Correspondence Between 1300 and 1330 A. D . Leipzig , 1938 , pp . 17 , 18 .
- 151- Atiya ; Egypt and Aragon , pp. 20 - 25 .
ولم يشر الدكتور عزيز سوريال لأمر الاتصالات بين جيسي الثاني وغازان خان .
- 152- Turner , op . cit , pp . 50 , 51 Howorth , op . cit . p. 489 .
- 153- Howorth , op . cit ., p. 489 ; Lockhart , op cit ., p. 29 .
١٥٤- للتفاصيل انظر فايد عاشور : المرجع السابق ص ١٦٥ ، ١٧٣ ، فايز اسكندر : المرجع السابق : ص ١٨٧ ، ١٩٠ .
- ١٥٥- فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ١٧٤ ، ١٧٥ .
١٥٦- المرجع السابق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٢ .
- 157- Haenisch , op . cit ., pp . 229 , 230 ; Mostaert & Cleaves , op . cit ., pp. 56 , 57 ;
Howorth , op . cit ., III , pp . 574 , 575 .
- 158- Sinor , op . cit ., p. 537 ; Boyle , op cit ., p . 563 .
- 159- Howorth (trans) History of the Mongols , III , p . 575 ; also cf . Lockart , op . cit ., p. 30 , Connell , op . cit ., p. 182 .
١٦- كذلك فعل غازان خان في مراسلاته مع قادة الغرب الأوبيس ومن ثم لم يعرف أحداً منهم خبر اعتناقه الإسلام إلا بعد وفاته بوقت طويل .
- 161- Howorth , op . cit ., III , pp . 579 , 80 ; Sinor , op . cit ., pp. 528 , 9 ;

- فایز نجیب اسکندر : مملکة أرمنبا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ، ص ٥ ، ٦ .
- 162- Howorth (trans) History of the Mongols , III , pp . 576 , 577 .
- 163- Loc . cit ., also cf . Boyle , op cit ., p. 563 ; Sinor , op . cit ., p. 538 , Connell , op . cit ., p. 181 .
- 164- Atiya , A.S., " The Crusade in the Fourteenth Century , " in Setton (ed) A History of the Crusades , III , pp. 3-26 .
- 165- Howorth , op . cit ., III , pp. 602 , 603 ; Connell , op cit ., p. 184 ;
فایز نجیب اسکندر ، المرجع السابق ص ١٩٧ حاشیه ٣ .
- 166- Howorth , op . cit ., III , p. 603 .
- 167- Loc . cit ., Sinor , " The Mongols and Western Europe " op . cit ., III , p. 543
. ١٦٨ - فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ١٨٧ ، ١٩٠ .

الفصل الثالث

السياسة الدينية للمغول و جهود البابوية لتنصيرهم

العناصر :

﴿ معتقدات المغول و سياستهم مع الأديان المختلفة .

﴿ جهود البابوية لتنصير قادة المغول (١٢٤٥ - ١٢٥٤) .

﴿ سياسة هولاكو مع المسلمين و المسيحيين

﴿ علاقات الإيلخانيين البوذيين برعاياهم المسلمين .

﴿ محارلات الغرب الكاثوليكي لتنصير مغول فارس البوذيين .

- سفارة صارما للغرب و تبعية كنيسة النساطرة لكتيبة روما .

- بعثة جون مونت كورفينو للمغول .

- جهود الراهب ريكولد مونت كروسي التبشيرية .

- اعتناق غازان الإسلام و أثره على أهل الذمة .

- البعثات التبشيرية في عهد الإيلخانيين المسلمين .

- تقبيل إنجازات الرهبان الفنسكان و الدومنيكان .

- أسباب فشل البعثات التبشيرية في تنصير المغول .

معتقدات المغول و سياستهم مع الاديان المختلفة : -

كانت الشamanية Shamanism هي الديانة القديمة للمغول الذين كانوا - على الرغم من اعترافهم بالله عظيم قادر لا يؤدون له الصلاوات يعبدون طائفة من الآلهة الدنيا وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يتقدمن إليها بالقربان والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيدائهم . كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامي التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم . ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السلفي ، فانهم كانوا يلجئون إلى الكهنة وهم الشامان Shamans و السحرة أو إلى رجال الطب الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي و سلطان علي عناصر الموتى وأرواحهم وعندما خرج المغول لغزو الشعوب المجاورة في عهد جنكيز خان (ت ١٢٢٧) فإنهما تأثروا بمدنیات هذه الشعوب ، و خرجن عن باداوتهم الأولى حين وجدوا انفسهم جنبا إلى جنب مع أصحاب الديانات السماوية (١) .

وقد اتفق أن كانت الشعوب التي احتلتها المغول على أثر غزوائهم تتضمن بين أفرادها عددا كبيرا من المسلمين والبوذيين والمسيحيين (٢) . وتنافس أتباع هذه الديانات الثلاث الكبرى في تحويل أولئك الغزاة إلى دينهم . ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشamanية وتركوا التحرير والتدمر ، ظهروا بظهور التسامح مع أهالي الديانات الأخرى ، فأغفوا رجال الدين منهم من الضرائب ، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية ، بل واعتاد الخانات العظام للمغول حضور الاحتفالات الدينية الخاصة بالمسلمين والمسيحيين والبوذيين ضمانا لالتفاف الجميع حولهم وتأييدهم لهم (٣) .

ولقد قامت منافسة حامية بين المبشرين والداعية من أتباع هذه الديانات لاكتساب المغول إلى دينهم . وكان رجال الدين المسلمين والمسيحيون والبوذيون يقومون بمناظرات دينية مع بعضهم البعض في حضرة هؤلاء الخانات وقادتهم ، لدرجة أن أتباع كل ديانة كانوا يعتقدون أن هذا الخان أو ذاك قد اعتنق عقيدتهم أو أنه على وشك التحول إليها (٤) .

ويذكر ماركو بولو - تأييدها لما سبق - أن قوييلاي خان (١٢٥٩-١٢٩٤م) كان يحتفل مع المسيحيين بعيد الميلاد والقيامة في عاصمتهم بكين ، وأنه كان يفعل نفس الشيء في أعياد المسلمين واليهود والوثنيين (٥) . وأن هؤلاء جميعا كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الخان الذي كان بوذياً وفي ذلك اليوم - على حد قوله : « يرفع جميع النصارى والوثنيين والمسلمين ومعهم

بقية الناس وجميع الأصناف والأوصاف الصلوات الحارة الصادقة كل إلى ربه أو وثنه أن يبارك الملك ويتهبه طول العمر والعافية والرفاهية»^(٦).

ومن ثم لم يكن المغول مع ديانه معينة ضد أخرى ، فقد دمروا المساجد ودور العلم الإسلامية في آسيا مثلما خربوا الكنائس والأديرة في شمال أوروبا وشرقاها . ولكن لأن الخوارزميين هم أول قوة كبيرة يصطدم بها المغول ، فإن المسلمين قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غزوات المغول . ولهذا فإن معظم المدن الإسلامية في وسط آسيا قد أصبحت أطلالا ، حتى أن الفقهاء والأئمة المسلمين كان نصيبهم إما القتل أو الأسر . حقيقة كان هناك من بين حكام المغول - الذين عرّفوا بتسامحهم نحو كافة الأديان - جماعة كانت تظهر الكراهية لل المسلمين على درجات متفاوتة لأن طريقة الآخرين في ذبح الحيوانات والوضوء من المياه الجارية مخالفة لتعاليم جنكيز خان . وفي أحياناً أخرى خضع بعض الخانات للتوجهات بعض وزرائهم أو زوجاتهم من القبائل المسيحية . ولكن هذا كله لا يبعد أن يكون أمراً استثنائياً لأنهم استوزروا المسلم والبوذى والمسيحى دون تفرقة بين أحد منهم . وعلى سبيل المثال كان مانجو خان (١٢٥٤-١٢٥٩) يحكم كل منطقة حسب لغتها ودينتها ، وكانت أوامره تكتب لكل إقليم باللغة السائدة فيه^(٧) .

جهود البابوية لتنصير قادة المغول (١٢٤٥-١٢٥٤):

ولما كانت سياسة البابوية منذ جريجورى التاسع (١٢٤١-١٢٢٧) قائمة على إرسال البعثات التبشيرية من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان لكل من المسلمين والإغريق والبلغار والجورجانيين والأرمن والنساطرة لتحويلهم للمسيحية على المذهب الكاثوليكي ، فإن خليفته انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) قد أرسل - كما سبق الإشارة - هنا الكاريبياني ولورانس البرتغالي من جماعة الفرنسيسكان وأسيلين اللويباردي وأندريره لونجيجيمو من الدومنيikan في بعثات للشرق الأسيوى من أهدافها دعوة حكام المغول ورعاياهم لاعتناق المسيحية ، وكذلك حث رجال الدين النساطرة والإغريق والأرمن والجورجانيين لتوحيد كنانسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم في روما^(٨) . وقد اتضح من دراسة الرسائل المتبادلة بين قادة المغول والبابوية وكذلك تقارير هؤلاء الرهبان مدى الفجوة بين الطرفين ، لأن كلاً منها كان يدعى السمو على الجانب الآخر والسيطرة العالمية وكلاهما يدعى أنه تمثل السماء على الأرض وأن قرارته لها صفة القداسة .

وقد حاول لويس التاسع فترة وجوده بالشرق العربي أن ينفع فيما فشلت فيه البابوية . ففي نهاية عام ١٢٤٨ م أرسل سفيره الراهب أندريه لونجبيجيمو لقيادة المغول رداً على سفارتهم له . ويقول جوانفيلي مؤرخ لويس أن الأخير "حملته رغبته اجتذاب التتار إلى ملتنا على إصدار أمره بتصوير جميع تعاليم ديننا على كنيسة صغيرة أمر بأن تكون قرمزية ، وأعني بذلك بشارة الملائكة بالولادة ، والميلاد ، والعميد ، وجميع الأحزان ، وزنول الروح القدس . وأرسل كذلك مع المحراب مجموعة من الأكواب والكتب وجميع الأشياء الالزمة لترتيب القدس ، وأثنين من الإخوة المبشرين لتلاوة القدس أمام التتار^(٩) . ولكن المغول سخروا من هذه السفارة ولم يستجيبوا لدعوة الملك الفرنسي باعتناق المسيحية ، بل أرسلوا له خطاباً للحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة لهم . ومن ثم فان لويس التاسع « ندم أشد الندم على إرساله رسلاً إليهم » على حد قول جوانفيلي نفسه^(١٠) .

وقد استطاع الراهب الفرنسيسكاني وليم روبيوك (١٢٥٥-١٢٥٣) التوغل بين ظهراني المغول في روسيا حتى وصل للعاصمة قراقوز في منغوليا حيث قاده المغول على التنصر . وكان يحدوه الأمل في أن يسمحوا له بالبقاء بين ظهرانيهم للتبشر بالإنجيل . وقد شرح هذا الراهب لانجورخان بأن من واجباته « تعليم الناس بأن يعيشوا وفقاً لشريعة الله ... » وقال له أيضاً . وأنت رجل قد أعطاك الله مالك شاسعة على الأرض ، ولهذا فنحن نرجو أن تعطف علينا بالسماح لنا بالبقاء هنا في بلادك كي نقوم بخدمة شئون الله نيابة عنك وعن زوجاتك وأولادك . ونحن لانملك ذهباً ولا فضة ولا معدن نقيسه لتقديمه هدية لك ، ولكننا نملك فقط أنفسنا التي نقدمها لخدمة الله والدعاء له من أجلك^(١١) . ومع ذلك فان الخاقان المغولي رفض السماح للراهب الفرنسيسكاني بالبقاء في مملكته ، وطلب منه الرجوع من حيث أتي بعد أن زوده بخطاب للملك الفرنسي لا يختلف في لهجته المتعالية الأمراً عن خطابات سابقية للأخير وللبابوية^(١٢) .

سياسة هولاكو مع المسيحيين والمسلمين إبان غزوه لغرب آسيا :

ولكن نتيجة الدور الذي لعبه ملك أرمينيا الصغرى لصالح المسيحيين الشرقيين وحصوله على امتيازات لهم من السادة الجدد لآسيا ، فان هولاكو في الفترة الأولى لوجوده بغرب آسيا - إخضاع الخلافة العباسية والشام لحكم المغول - كان يعطى على المسيحيين . وتمثل ذلك في حمايتهم والبقاء على كنائسهم ، أي أنه لأول مرة في الحملات المغولية يبدو العامل الديني مؤثراً في سير الأحداث وذلك لعدة أسباب منها :

أولاً : أن زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » كانت طبقاً لرواية رشيد الدين الهمذانى « تتمتع عنده بمنزلة كبيرة ، كما كانت قوية الشخصية وكانت من أقوام كريت المسيحيين ، وكانت تعمل دائماً على معاونة المسيحيين ، وفي عهدها قوى حال تلك الطائفة ، وكان هولاكو خان يرعاهم ويعزهم إرضاماً لها . وقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يقيسون الكنائس في جميع المالك . كما كانت هناك كنيسة داخل خيمة هذه الزوجة في جميع رحلاتها »^(١٣) .

ثانياً : أنه بمقتضى الامتيازات المكتوبة التي حصل عليها هيشوم الأول من الخاقان الأعظم عام ١٢٥٤ م بحماية المسيحيين وكناصهم وإعفاء رجال الدين منهم من الضرائب^(١٤) ، كان طبيعياً أن يضع هولاكو هذه الأمور بعين الاعتبار عند تعامله مع هذه الطائفة ومتعلقاتهم .

ثالثاً : وجود قوات من الأرمن والجورجانيين وكذلك من المسيحيين النساطرة من الصين ومنهم كثير من قواد جيش هولاكو - ومنهم كتبوا قائداً الأخبر في عين جالوت - يقاتلون جنباً إلى جنب مع المغول ضد المسلمين . ولكل هذه العوامل فإن هولاكو وقواته مالأوا المسيحيين على حساب المسلمين .

ويروى أن هولاكو قبل وصوله إلى بغداد قد أرسل إلى رجال الدين المسيحيين في غرب آسيا رسالة جاء فيها : لدينا أعداد كبيرة من المسيحيين بين عشائرنا . وقد جتنا بقوتنا وسلطاناً معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ، ومن الضرائب التي فرضها عليهم المسلمون . ومعلنين ضرورة معاملة المسيحيين معاملة تليق بهم ، فلا يعتدى عليهم ولا على تجارتهم . ونحن نصرح بأننا سنعيد بناء جميع الكنائس التي خربها المسلمون»^(١٥) .

وإذا صحت نسبة هذه الرسالة لهولاكو ، فيبدو أنها بإيعاز من ملك أرمينيا الصغرى لاستمالة النساطرة واليacaبة المتواجددين بأقليات لها وزنها في إيران والعراق وسوريا لصفوف الغزاة ضد المسلمين .

ويقرر ابن العبرى في النسخة السريانية لحوليته ، أن جاثليق النساطرة في بغداد قد جمع مسيحي المدينة - أثناء عبث جنود هولاكو بها وقتلهم لأهلها - في الكنيسة ولم يتعرض لهم أحد بسوء^(١٦) . ويؤكد ذلك أيضاً ابن الغوطى البغدادى المعاصر لهذه الأحداث ، ويضيف أن جاثليق النساطرة كان أحد الذين تفاوضوا مع هولاكو نيابة عن الخليفة للجلاء عن المدينة

ولكن الغزاة «قتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال فلم يبق من أهل البلد - (بغداد) - إلا القليل ماعدا النصارى فانهم عين لهم شعاع (أى حراسة) وحرسوا بيوتهم»^(١٦). ونكاية فى المسلمين فان هولاكو أعطى بطريق النساطرة دار وزير الخليفة العباسى على شاطئ نهر دجله فسكنها «ودق الناقوس فى أعلىها وأمر بهدم الكتابة على دار الفلك وكتب عوضا عنها بالسريانى»^(١٨).

ولقد استشرت سياسة تأليب المسيحيين على المسلمين فى حملة المغول على الشام عامى ١٢٥٩ / ١٢٦٠ م . فبعد سقوط مدينة حلب فى يد الآخرين فانهم لم يتعرضوا لكنيسة اليعاقبة بها فى حين حرص هيثوم الأول على إحراق جامع حلب بيديه . وبعد تسليم دمشق طواعية للغزاة فان هيثوم الأول وريهيموند السادس طلبوا من كتبغا - القائد المغولى النسطورى - إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس^(١٩) . ويروى المقريزى فى هذا الشأن : « واستطال النصارى بدمشق على المسلمين وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم ، وإقامة دينهم فتظاهروا بالخسر فى نهار رمضان ورشهو على ثياب المسلمين فى الطرقات وصبوه على أبواب المساجد . وألزما أرباب الحوانيت بالقيام (بهم) إذا مرروا بالصلب عليهم . وأهانوا من أمتنع عن القيام للصلب ، وصاروا يرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم وبخطبون فى الثناء على دينهم ... فقلق المسلمون من ذلك وشكوا أمرهم لنائب هولاكو (كتبغا) فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم»^(٢٠).

ومن المؤكد أنه من أسوأ الآثار التى أحدثها المغول فى غرب آسيا - بعد القتل والدمار الذى أحدثوه فى كل مكان نزلوا به - هو إشعال الفتنة بين المسلمين والمسيحيين بتحريضهم للأخرين ضد المسلمين . لأن المسلمين لم ينسوا ما فعله المسيحيون بهم فترة الغزو المغولى ولهذا فبمجرد علم أهل دمشق بهزيمة المغول فى عين جالوت فانهم « بادروا إلى دور النصارى فنهبوا ، وخربوا ما قدروا على تخريبه ، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوهما وقتلوا عدة من النصارى »^(٢١) . وسنرى فيما بعد أن الأغلبية المسلمة قد كانت الضريات للمسيحيين كلما لاحت لهم الفرصة سواء فى فترات ضعف حكام المغول أو تراخي قبضتهم المركزية أو بعد اعتناقهم الإسلام .

ومع ذلك فانه ينبعى عدم المبالغة فى تصوير تحيز هولاكو للمسيحيين على حساب المسلمين فبالإضافة إلى أنهم كانوا أقلية - بدليل أن كل مسيحي بغداد تم جمعهم فى كنيسة واحدة فقط فترة عبث جنود هولاكو بالمدينة فى حين أن المغول قد قتلوا قرابة مليون مسلم - فان هولاكو لم يكن بحاجة عسكرية لهم . وأيضا لم يكونوا وحدهم هم الذين مالوا هولاكو ضد الخليفة فى ضوء معرفتنا أن زعماء الشيعة وغيرهم من قادة الإمارات الإسلامية فى إيران والعراق وببلاد الشام قد ساعدوا هولاكو - لسبب أو آخر - ضد الخلافة . وفضلاً عما تقدم فان هولاكو قام بتعيين شخصيات إسلامية مثل ابن العلقمى وفخر الدين الدامغانى وعلاء الدين عطا ملك الجونى ونصر الدين الطوسي ، وغيرهم فى المناصب الرئيسية فى الديوان والمزارع والمخراج والأوقاف^(٢٢) . وكان بأمكانه تعيين شخصيات مسيحية لو كان متتحيزاً ضد الإسلام لأسباب دينية ، وفوق هذا وذاك، فان هولاكو - المعروف عنه أنه كان بوذياً - لم يكن موجوداً ببلاد الشام إبان اعتداءات المسيحيين على المسلمين . ويروى أبو شامة أنه ما إن علم بحرق الأرمن بجامع حلب حتى قتل كثيراً منهم جراء ما اقترنت أيديهم^(٢٣) .

علاقة الإيلخانيين البوذيين برعاياهم المسلمين :

وبال دراسة علاقة الإلخانات فارس البوذيين بالمسيحيين عامة والبعثات التبشيرية الكاثوليكية خاصة يجدر الإشارة فى إيجاز شديد لأبرز ملامح علاقاتهم بال المسلمين الذين كانوا يشكلون الأغلبية الكاسحة من الرعية، وذلك لفهم الصورة الكاملة للموقف ودرافهم من ذلك.

فالأول مرة في التاريخ الإسلامي يتعرض جزء كبير من العالم الإسلامي (مثلًا في العراق وإيران وأسيا الصغرى وبلاط ما وراء النهر) للخضوع لحكام غير مسلمين . وهؤلاء كانوا يشكلون مع قواهم وجيوشهم طائفة قليلة من السكان . ولأن المغول لم يكن لهم ديانة ساوية فانهم لم يتدخلوا في معتقدات الرعايا . بل تركوا لكل طائفة حريتها الدينية ، ونظراً للتفاوت المضارى الكبير بين بادرة الحاكمين ومدنية الحكمين ، فقد نشأ عن ذلك أن بقى المغول يمثلون طبقة عسكرية حاكمة منعزلة - في كل بيئة تعيش فيها - عن الحكمين الذين لا بهمهم منهم سوى الطاعة ودفع الضريبة .

ولقد سعى هولاكو لكسب رضا المسلمين بعد استقراره في الحكم ، فأمر بإعادة الوظائف الدينية إلى سابق عهدها كالقضاء وتعيين الأئمة والخطباء في المساجد ، وتطبيق أحكام

الشريعة الإسلامية في المعاملات كما كان متبعاً في عهد الخلافة ، وفرض شئون الأوقاف إلى النصير الطوسي الذي استعان به للعمل على تأكيد شرعية الحكم المغولي في نظر الرعية، وأبقى على الشهادتين على أحد وجهي العملة ، ووضع اسم اليلخان واتفاقان على الوجه الآخر (٢٤) .

واستمر ابنه وخليفته أباًغا (١٢٦٥-١٢٨٢م) على سياسة المهادنة والاعتدال التي اتبعتها أبوه في سنواته الأخيرة ، فقد منع ثقته لوزير أبيه الجوني شمس الدين ، وفرض أخيه عطا ملك حكم العراق ، وأطلق يده في إعماره ، واندفع الأخير بدوره لتنفيذ ذلك مستغلًا تفويض اليلخان . فخفف عن الرعية ، واهتم بكل ما يؤدي إلى تقوية الإسلام من إعمار بيوت الله وتتأمين طريق الحجاج ودعوة الناس إلى الصبح ، ومحاربة الزندقة ودعاة الإلحاد ، والإتفاق على العلماء ، الأمر الذي أدى إلى عجز ميزانية العراق من جراء هذه الأعمال (٢٥) .

وقد استعاد المسلمين مكانهم في عهد تكودار أحمد (١٢٨٤-١٢٨٢) الذي كان أول إيلخان مغولي من ورثة هولاكو يعتنق الإسلام ، والذي وقف المسلمين إلى جانبه في صراعه على العرش مع ابن أخيه : أرغون . وبالرغم أن اليلخان الجديد لم يكن قادراً على جعل الإسلام ديناً رسمياً للدولة ، إلا أنه سعى لتطبيق تعاليمه وثبت قواعده . وكان أول عمل قام به بعد توليه السلطة أن بشر أهل بغداد في رسالة وجهها إليهم « بأنه مسلم مثلهم ، وأنه سيعمل على تطبيق قواعد الإسلام وأن عليهم أن يفرحوا وينشروا ذلك بين الناس » (٢٦) .

وقد أظهر السلطان تكودار أحمد نتيجة إسلامه رغبته في أن يظل في سلام ومردة مع جيرانه المسلمين ، ونبذ الخصم والشقاق مع الماليك وتبودلت السفارات بين الطرفين (٢٧) . وربما ترجع الخطورة الأخيرة لأهداف سياسية تأمّلنا محدوده الغريبة ليتفرّع لخصومه في الداخل ولكن مقتله على يد ابن شقيقه أرغون أوقف مشروع الصلح مع الماليك وأجل مؤقتاً انتشار المد الإسلامي بين صفوف القوات المغولية .

ولقد تعرض المسلمين للاضطهاد في عهد أرغون (١٢٩١-١٢٨٤) بسبب تحزيمهم والتفاهم حول منافسه تكودار أحمد ، وبسبب انتصارات قوات الماليك المسلمين على جيوش والده عدة مرات وكذلك لتأثير الحاشية المسيحية واليهودية السيطرة على بلاطه ودفعها إياه للانتقام من رعاياه المسلمين ، خاصة وقد أرسل هذا اليلخان أربعة سفارات للغرب الأوروبي لطلب عون قادته ضد المسلمين .

وقد بدأ أرغون بآل الجويني ، فقتلهم وجميع أبنائهم وأحفادهم وكل من كان متصلًا بهم ، وذلك لأن شمس الدين الجويني كان يشغل وظيفة صاحب الديوان في عهد سلفه ومنافسه تكودار أحمد^(٢٨) . وببدأ أرغون يصفى المسلمين ، فلم يبق أحداً منهم في البلاط ثم لاحقهم في دوائر الدولة الأخرى واستبدلهم بآخرين من المسيحيين واليهود ، حتى أنه استوزر يهودا من تفليس - باقليم جورجيا الصغرى - للإشراف على ترکات المسلمين ، وهي وظيفة إسلامية . وكانت خطروته الثانية التشكيل في الإسلام ، وبينما كان نوابه في العراق يقومون بتعطيل المدارس والمساجد وهدمها لاستخدام أحجارها في بناء قصورهم تشجع بعض أهل الذمة المستربين في الإسلام على التأليف للطعن في الإسلام حيث قام ابن كمونه اليهودي بتأليف كتابه في العلل الثلاثة^(٢٩) . ثم جاءت الخطوة الأخيرة لمحاولة تحويل المسلمين إلى عبادة الفرد عندما أقنعه وزيره اليهودي سعد الدولة بنبوة جنكيز خان وبوراثة أرغون لهذه النبوة ويرجوب الطاعة لأوامره وعبادة الناس له وتوجيههم نحو الإخلاص للايلخانية^(٣٠) . وقد تعرض أرغون وزيره اليهودي لكراهية مطلقة من الرعية المسلمين وتناقلوا ذلك في أشعارهم^(٣١) .

وعندما مرض أرغون مرضًا لا شفاء منه . فان سعد الدولة حاول التقرب من المسلمين بعمل إصلاحات عاجلة لرأب ما تتصدع في علاقتهم به ، ولكن خصوصه نجحوا في قتيله في ٩ مارس عام ١٢٩١م قبيل وفاة أرغون نفسه بعدة أيام ، وتبع ذلك قيام المسلمين بالتنكيل باليهود في أنحاء الإيلخانية حتى أن مائة من زعمائهم قد قتلوا في بغداد وحدها وأنشد أحد الشعراء المسلمين قصيدة للتشفي منهم بهذه المناسبة^(٣٢) .

وانتعش المسلمين بوفاة أرغون واستعادوا قوتهم وتأثيرهم على الحاكمين الذين أعقباه بالرغم من بقائهم على وثنيتهم . فقد اقتفي كيخاتو (١٢٩١ - ١٢٩٤م) سياسة والده ابغا في الاعتدال بين طوائف الرعية ، وأعاد المسلمين إلى الوظائف ، وجعل الوزارة في أيديهم . وأغفى العلماء ورجال الدين وأآل البيت من الضرائب ، وزوّج الأموال والصدقات على المحتججين ، حتى أن فقهاء من المسلمين اجتمعوا مع بقية رجال الدين من الطوائف الأخرى وصلوا من أجله ودعوا له بالشفاء عندما سقط مريضا^(٣٣) .

ولم يكن هوئ بابدو ٠ ١٢٩٥م) مع المسلمين . ولكن قوتهم وانتشار الإسلام بين المغول فرض عليه التزام جانب الحذر في علاقته بهم ، فأبقى الوزارة في أيديهم واضطر للتظاهر بمحبه للمسلمين ولكن بيته كان مسيحيًا متعصبا ، واضطر في بعض الأحيان إلى منع الوعاظ

ال المسلمين من ممارسة عملهم بين المغول الأمر الذى أوقعه فى نزاع مع أمراء المغول المسلمين^(٣٤) الذين انتهى بهم الأمر إلى الالتفاف حول غازان بن ارغون وقيامهم على بايدو ، فكان مقتله عام (١٢٩٥م) نهاية لوثنية الحكم المغولي .

محاولات الغرب الكاثوليكى لتنصير مغول فارس البوذيين:-

أنقذ البابا جريجورى التاسع (١٢٤١-١٢٢٧م) أول بعثة تبشيرية من الرهبان الفرنسيسكان إلى بغداد عام ١٢٣٣م . وفي نفس العام أصدر عدة قرارات بشأن التبشير بالعقيدة المسيحية في العراق وأسيا الصغرى والشام ومصر وجورجيا المسيحية والمغرب^(٣٥) .

ويروى الراهب «وليم رويرك» في مذكراته التي كتبها عن رحلته في المملكة المغولية (١٢٥٥-١٢٥٣) : أنه تقابل في إقليم جورجيا الصغرى مع عدة رهبان منهم راهب دومينيكانى يدعى برنارد القطلانى Bernard The Catalan وفهم من الأخير أنه يعمل مع رفيق له من المجر في مدينة تبريز الفارسية وأنه يعرف قليلاً من لغة التتار^(٣٦) . ولم يوضح وليم رويروك ما إذا كان الأخيران حضرا إلى تبريز من غرب أوروبا للتبشر بالعقيدة المسيحية أم أنهما من الأسرى الأوروبيين الذين أسرهم المغول من أوروبا في الفترة من ١٢٤١-١٢٣٧ وقام قادة المغول بتوزيعهم على قادة المغول في آسيا .

ومهما يكن من أمر فانه أثنا ، وجود هولاكو ببلاد الشام عام ١٢٦٠ م أرسل بطريرك بيت المقدس في عكا الراهب الانجليزي الدومينيكانى ديفيد الأشبي David of Ashby لمعرفة نواياه تجاه الصليبيين ودعوته لاعتناق المسيحية . وتوضع الوثيقة التي قرأها سفير أبغا خان في مجمع ليون المسكوني عام ١٢٧٤ م أن هولاكو قد احتجز هذا الراهب ورفاقه في بلاطه حتى وفاته ، وأنهم ظلوا في حضرة أبغا عام ١٢٧٤م ، وأن هولاكو كان «يبوح بأسراره إلى هذا الراهب ديفيد صديقه الحميم . ولم يكن يبوح بذلك لأى إنسان آخر مثل اعتناقه للدين المسيحي وحصوله على التعميد »^(٣٧) .

وقد سبق الإشارة إلى أن إدعا ، تعميد هولاكو على يد ديفيد الأشبي كان مبالغة مقصودة من هذا الراهب لجذب تأييد الغرب الأوروبي إلى خليفته . وسواء كانت هذه الإدعاءات من جانب هذا الراهب أو بأوامر من أبغا نفسه ، فإن هذا الأمر كان سياسة ثابتة لخلفاء هولاكو بایهام الغربيين باعتناقهم المسيحية أو على وشك ذلك نظراً لإلحاح قادة الغرب الكاثوليكى

بضرورة تعميد حكام المغول كشرط للتعاون العسكري معهم حتى أن الإيلخانيين المسلمين (١٢٩٥-١٣٣٥م) قد بذلوا جهدهم لإخفاء حقيقة معتقداتهم الدينية عن الغرب. ومن ثم ظل الآخرون يلحون في تنصر هؤلاء الإيلخانيين حتى بعد ربع قرن من اعتناق غازان الإسلام وإعلانه الإسلام الدين الرسمي لدولته.

وتؤكد الوثيقة السابقة أن هولاكو وخليفته قد ضمنا للمسيحيين في إيلخانية فارس العيش في سلام ، وأنهما أمرا باعفاء كل رجال الكنائس من الضرائب والاتاوات وضمنا كذلك بجميع الكنائس حريتهم ^(٢٨). وهذه أمور يؤكدها ابن العبرى ورشيد الدين أيضا .

ولا مراء أن المسيحيين قد تفتقروا تحت حكم الإيلخانيين البوذيين بحرية لم يعهدوها من قبل. وقد عاملتهم المغول على قدم المساواة مع المسلمين ، بل وفضلوهم على الآخرين في بعض الوظائف في بعض الفترات مثل الفترة الأولى لحكم هولاكو وطوال عهد أرغون خان وأصبحت الحاشية الإيلخانية تضم عددا كبيرا من أهل الذمة ، وكان الإيلخانيون كثيرا ما يستدعون رؤسائهم ويشركونهم في مجالسهم الخاصة ، ويناقشونهم في شئونهم الدينية مظهرين لهم الاحترام . وقد ساهم بعض الإيلخانيون أو ممثلوهم في تنصيب رئيسهم الأعلى (المجائيليق) في احتفالات رسمية تقام تحت رعايتهم ، وهذا يزيد كثيرا عما كان عليه الحال في عهد الخلافة العباسية حيث كان الطريق يتسلّم مرسوم توليه من الوزير نيابه عن الخليفة وكان يتضمن رأي الإسلام في ديانتهم ومكانتهم من المسلمين ^(٢٩).

ويعلل البعض هذه الرعاية إلى تأثير نساء الإيلخانيين المسيحيات اللواتي كن يفرضن هذه الحماية لمصلحة المسيحيين ، فقد كان هولاكو يستمع إلى نصائح وتوجيهات زوجته النسطورية «دوقوز خاتون» والتي استمر نفوذها في عهد أبيها الذي يعترف بنضالها عليه في وصوله إلى العرش ، وخضع الأخير بالإضافة إلى ذلك لتأثير زوجته ماريـا ابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس التي كانت قد خطبت لهولاكو قبيل وفاته وتزوجها أبوها عند وصولها ^(٣٠). ولكن من الواضح أن المصلحة السياسية - وليس العاطفة - هي التي كانت تلـى هذا السلوك المغولي وتحظـط له ، وذلك لأن مجاملة الإيلخانيين للمسيحيين كانت تنتهي عندما تتعارض مع مصالحـهم .

وقد فهم البابا من جون الهنـغارـي - سفير هولاـكو للغرب الأولـي عام ١٢٦٢م - أن الإـيلـخـان يـرـغـبـ في اعتـناقـ الدينـ المـسـيـحـيـ ، وـمـنـ ثـمـ فـهـوـ بـحـاجـةـ لـشـخـصـ ذـيـ حـيـثـيـةـ لـتـعـمـيـدـهـ.

ويبادر أوريان الرابع بباركة هذه الخطوة مؤكدا لهولاكو أنه وكل رعاياه «الذين سيتبعونه سوف ينالوا الشورة في الآخرة إذا ما نالوا المعمودية»^(٤١)، ولكن هولاكو لم يتقدم خطوة واحدة نحو طلب المعمودية كما هو معروف.

وفي خطوة جديدة في العلاقات بين الشرق المغولي والغرب الأوروبي ، يطلب قوييلاي خان عام ١٢٦٩ من البابوية إرسال مجموعة من رجال الدين لبلاده ، ويصف ماركوبولو تفاصيل سفارة الخان الأعظم للمغول ويفادها أن يقولا بولو وما فيو بولو - والد ماركوبولو وعمه كانا في يكين في خدمة قوييلاي خان (١٢٥٩-١٢٩٤م) منذ فترة طويلة حين طلب الأخير منها أن يصحبا أحد رجاله المدعو خوجلتال في بعثة للكرسى البابوى برومما لتقديم «التماس للبابا بارسال مائة من رجال العلم الذين أوتوا المعرفة التامة بمبادئ الديانة المسيحية»^(٤٢).

وعندما وصل نيقولا وماريو بولو لعكا في أبريل عام ١٢٦٩ علما بوفاة البابا كليمينت الرابع (١٢٦٨-١٢٦٥) . وعند ارتقاء جريجورى العاشر (١٢٧٦-١٢٧١) للكرسى البابوى فانه أعاد إرسالهما برسائل من لدنه مع راهبين من الفرنسيسكان على درجة عالية من التعمق في اللاهوت مما ينقولوا فكينزا Niccolo de vicenza ووليم الطرابلسى - William of Tripoli وأعطى البابا للأخيرين الرخصة والسلطة لرسم القسس والتبشير بالعقيدة بين المغول، وزودهما بهدايا ثمينة للخاقان المغولي في بكين . ولكن عند وصول هؤلاء الرهبان بصحبة آل بولو لأرمينيا الصغرى فانهم وجدوا أن قوات الملك قد ألحقت بها الدمار والخراب ، ومن ثم خشى الراهبان على حياتهما وفضلوا البقاء في أرمينيا^(٤٣). فرحل آل بولو إلى يكين لمقابلة قوييلاي حيث استقروا هناك سبعة عشر عاما أخرى (١٢٩٢-١٢٧٥م) . وهكذا ضاعت على البابوية فرصة كبيرة للتبشير بال المسيحية بين المغول في شرق آسيا تحت حماية الخاقان الأعظم وإشرافه ، ويلقى ماركوبولو اللوم على البابا بقوله «لو أن البابا أرسل أشخاصا ذوى قدرة وافية على التبشير بالتجليل ، لاعتنق الخان الأعظم المسيحية»^(٤٤) .

ولكن هذا الطلب من قوييلاي خان لم يكن مرجعه الرغبة في اعتناق المسيحية أو انتشارها بين رعاياه . ولكنه يرجع لدوافع سياسية بحتة . فقويلاي خان الذي كان بوزيما ومات كذلك ، أوضح لآل بولو أنه يقدم الاحترام والتكرير لإله كل المسلمين والمسيحيين واليهود والوثنيين دون تفرقة بين أحد منهم « وادعوا لتجدنا أيهم كان في السماء هو الأعلى حقا »^(٤٥) . بالإضافة إلى ذلك فإن ماركوبولو يكشف عن سبب تعلق الخاقان المغولي باستقدام الأجانب

لقصره بقوله : « وينبغي أن يفهم أن الخان الأعظم - نظراً لأنه لم يحصل على السيادة في كاثائى (الصين) بأى حق قانونى ولكن بحد السيف وحده - كان عديم الثقة بالسكان ، ومن ثم أسلم جميع وظائف الحكم فى الولايات وجميع الرياسات للتجار والمسلمين والسيحيين وغيرهم من الأجانب من يديرون بالولايات والانتما ، لأسرته وقصره وهم من يمكنه أن يثق فيهم ، ونتيجة لذلك امتلأت قلوب السكان كافة بالكراهية لحكومته .. » (٤٦). ولهذا قان قوبلاى - الذى جرب مهارة آل بولو فى العمل لديه - أراد استقدام مائة موظف جديد من أوروبا لتدبير شئون ملكه وكوئنهم من الرهبان ليجمعوا قلوب رعيته حوله .

وينطبق هذا إلى حد ما على مغول فارس الذين لم يشقوا في رعاياهم المسلمين ، ولكن لأنهم لا يستطيعون تسيير الجهاز الإداري للإيلخانية المترامية الأطراف كانوا مضطرين للاستعانة بخاصة المسلمين في تولي أعمال الوزارة والدواوين ، ولعدم ثقتهم فيهم فان جميع الوزراء - عدا واحدا فقط هو على باد شاه في عهد أبي سعيد - قد ماتوا مقتولين (٤٧) .

وفى أحيان كثيرة كانوا يقتلون أبناءهم وأحفادهم وجميع من ينتمى إليهم ، وكان منهم وزيرهم رشيد الدين المهزانى الذى تولى الوزارة لثلاثة إيلخانين ، وهذا يفسر استعانة كثير من الإيلخانين البيوديين بالسيحيين واليهود فى الوظائف الهامة ، وفتاحوا بلادهم أيضاً للرهبان الكاثوليك وللتجار الإيطاليين للاستعانة بهم فى إحداث التوازن مع الأغلبية المسلمة. وقد مر بنا أن أرغون خان كان يستخدم أحد الجنوبيين لحراسة قصره وكان يشیره فى المسائل العسكرية نظراً لعدم ثقته فى رعاياه .

ويهمنا من أمر سفاره أبيغا خان لمجمع ليون عام ١٢٧٤ م أنها كانت مكونة من ستة عشر عضواً على رأسهم الراهب ديفيد الأشبي . وأنه فى يوم ٧ يوليه وفي نهاية الجلسة الرابعة لأعمال هذا المجمع فان البابا قدم سفراً الخان المغولى للحاضرين حيث تلية رسالة الأخير أمام الحاضرين باللغة اللاتينية ، وأن ثلاثة من سفراً المغول قد طلبوا من البابا تعميدهم ، وقد قوبل هذا التصرف «الاعلامى» المقصود بترحيب عام من مثلى كنائس أوروبا بل وتشير إحدى المخوليات الإيطالية إلى أنه قد سرت إشاعة - حينئذ - مفادها أن أبيغا خان سيحضر لروما للتعميد على يد البابا وتلقى التاج من الأخير شخصياً (٤٨) .

وقد أرسل البابا نيكولا الثالث (١٢٧٧-١٢٨١) في عام ١٢٧٨ خمسة من الرهبان الفنسكان في بعثة تبشرية للمغول ومعهم خطابات للإيلخان المغولى في فارس وعمده

قوبيلاى خان فى بكتين لتعميدهما بناء على معلومات وصلت البابوية من سفارة لأبغا عام ١٢٧٦م بأنهما يرغبان فى اعتناق المسيحية . ويذكر البابا العبارات المتداولة فى خطابات أسلافه وخلفائه لقادة المغول بأنه أرسل لهما هؤلاء الرهبان لضمان خلاصهما ومثويتهما فى الآخرة ، ويطلب منها السماح للأخرين بالتبشير بين الرعية^(٤٩) . وفي خطاب لهؤلاء الرهبان فان بيقولا الثالث يخولهم كل الصالحيات فى التعبيد وحل جميع المقطوعين من رحمة الكنيسة والراغبين فى العودة لحظيرة الطاعة - ويقصد النساطرة واليعاقبة - وقبول اعتراف المذنبين والتائبين وحلهم من ذنوبهم فى حالة تقديم الترضية للكنيسة أو للأديرة الكاثوليكية أو للأشخاص الذين أضيروا منهم . ويعطىهم البابا أيضا سلطات إنشاء الكنائس فى كل مكان داخل المملكة المغولية وإقامة القدس وسائر التراتيل والخدمات الدينية «والقيام بكل عمل من شأنه تمجيد اسم رب ونشر العقيدة»^(٥٠) .

وليس معروفا على وجه التحديد ما إذا كانت هذه البعثة التبشيرية قد وصلت إلى ايلخانية فارس من الأصل أم لا ولكنه تأكد على وجده اليقين أنها لم تصل للصين فضلا عن أن أبغا وعمه لم يعتنقا المسيحية أبدا .

سفارة صاواما للغرب وولاء بطريق النساطرة لروما :-

لقد كانت سفارة رابان صاواما للغرب الأوروبي (١٢٨٧-١٢٨٨م) نائبا عن أرغون خان إحدى الفرص الفريدة من نوعها فى تاريخ العصور الوسطى للتقارب الدينى بين المسيحيين الشرقيين وبين البابوية باعتبارها ممثلة للعالم الكاثوليكى . ورغم أن الایلخان المغولى قد أرسل هذا الراهب النسطورى لأهداف سياسية بحتة إلا أن البابوية حاولت أن تستفيد من هذه السفارة فى ضمان ولاء الكنيسة النسطورية لها وهو هدف طالما سعت البابوية لتحقيقه^(٥١) .

فقد كان السفير المغولى الرجل الشانى فى الكنيسة النسطورية ببغداد التى يدين لها النساطرة فى كثيير من ربع آسيا بالولاء الدينى . ومن ثم كان على دراية كاملة بذهبه الدينى . وكان وجوده فى روما فرصة كبيرة لمناقشات لاهوتية طويلة مع الكرادلة حول الفروق الجوهرية بين الناحتين : النسطورية^(٥٢) والكاثوليكية . وكان صاواما قد حمل معه خطابات والطاعة لها من الكنيسة النسطورية نسابة عن بطريقها جبلاتها الثالث Jabalaha III (١٢٨١-١٣١٧) وقد فعل صاواما ذلك فعلاً . فكما كتب هو نفسه فى مذكراته ، فإنه

قد أدى فرض الولاء للبابا ورкуع أمامه كأنه أحد الكاثوليك وقبل منه العشاء المقدس واعترف له بذنوبه وطلب منه البركات الرسولية له ولأسلافه وطلب منه بعض الرفات الكاثوليكية لوضعها في بطريركية النساطرة في بغداد . وأهم ما في الأمر أن البابا قد أعطى صاواما خطابات له ولبطريرك النساطرة وتاجا من الذهب وملابس كهنوتية للأخير^(٥٣) ، لتأكيد أنهما قد خضعا لكنيسة روما وأن بطريق النساطرة قد تلقى منصبه من البابا .

ومن الواضح أن صاواما كان لا يمانع في الاعتراف باسم كنيسة روما وعاليتها - طالما أن ذلك يحقق الهدف السياسي لسفارته ، ولكن لم يتخل عن نحلته النسطورية . ويشهد على ذلك محاوراته العنيفة مع الكرادلة حول طبيعة المسيح . وفضلاً عن ذلك فإنه طلب من البابا أن يسمح له بآداء شعيرة القربان المقدس أمامه . ويحكى لنا أنه في اليوم المحدد لذلك تواجد الآلاف من روما لمشاهدة كيفية احتفال السفير المغولي بهذه المناسبة . وبعد الانتهاء من ذلك فإن البابا نيقولا الرابع أبلغه « أن الاختلاف في اللغة ولكن الممارسة واحدة »^(٥٤) .

ولكن هذا لا ينفي أن البابوية قد ظلت على رأيها في أن المذهب الكاثوليكي هو الصحيح وما عداه من مذاهب هرطامية ، ويؤكد ذلك خطابات نيقولا الرابع لصاواما ولبطريق النساطرة وللأسقف ديونيسيوس أسقف اليعاقبة في تبريز والتي حملها صاواما معه حين عاد لبلاده . في هذه الخطابات يطلب البابا من الأسقفيين أن يعلموا شعوبهم العقيدة المسيحية « الصريحة » طبقاً لمارسات الكنيسة الأم في روما . بل ويدليل البابا خطاباته لأساقفة الشرق بصيغة الإيمان المسيحي من وجهة النظر الكاثوليكي^(٥٥) .

ومن البسيط الحكم على دوافع الطريق النسطوري في قبول تبعية كنيسته لرومما بعد تسعه قرون تقريباً من القطيعة والشقاق . فالبطريق جلالها الثالث كان مترباً من أرغون خان . وهو الذي رشح له صاواما ليكون سفيره للغرب الأوروبي في مهمة واضحة المعالم وهي طلب التعاون العسكري ضد المماليك . ولما كان أرغون على غير دراية بالمذاهب المسيحية وأوجه الخلاف بينهما ، فإنه لم يكن يهمه من قريب أو بعيد أن يكون رعاياه المسيحيون يعتنقون المذهب النسطوري أو الكاثوليكي أو غيرهما ، فكل ما يشغله هو نجاح سفيره في مهمته السياسية ، ولذلك فمن المحتمل أن ترتيبات إعلان خضوع الكنيسة النسطورية لرومما جاء بالاتفاق بين صاواما وبين البطريق فقط حتى دونأخذ رأي بقية رجال الدين النساطرة ، وذلك بذنب ثقة وتأييد البابوية ورعاياها الأوروبيين لمشروع أرغون السياسي ، لأن في نجاحه تدعيمها وتوطيداً للمسيحية والمسيحيين بين المغول أيضاً .

ويروى الراهب الدومينيكانى ريكولد مونت كروس Ricold of Monte Croce الذى زار بغداد عام ١٢٩٠ م أن البطريرق أخبره أنه تبرأ من نحلة نسطور . ولكن ريكولد يؤكد على أنه غير صادق فيما يقول ، ويضيف أيضاً أن بقية الأساقفة النساطرة قد تمردوا عليه^(٥٦) . وهذا يدل على أن الوحدة مع كنيسة روما كانت بمبادرة شخصية من البطريرق .

ومهما يكن من أمر فان البابوية - التى كانت قد حصلت على ولاء كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية فى مجمع ليون الرابع عشر عام ١٢٧٤ م . بصرف النظر عن دوافعه السياسية وقصر مدته^(٥٧) كانت حرصه على ضمان ولاء الكنائس الآسيوية لسيادتها لتأكيد ادعاهاتها بالسمو والعلمية ، ومن ثم فانه بعد رحيل صاوما من روما عام ١٢٨٨ م تلقى بطريق النساطرة لعديد من الخطابات من البابوية وبعض القادة العلمانيين فى غرب أوروبا ، وكلها تؤكد على أن جبلها الثالث مثل البابوية فى آسيا وأنه أحد الأساقفة الكاثوليك . ولقد استمر هذا التصور من جانب الغرب الكاثوليكى حتى وفاة البطريرق عام ١٣١٧ م ، وحينئذ قام البابا بإنشاء أسقفية فى السلطانية - عاصمة ايلخانية فارس منذ عهد اوجاتيو - ورسم لها أسقفًا دومينيكانيا ، كما سبأته ذكره فيما بعد .

والمهم أنه فى ١٨ مايو عام ١٣٠٤ م كتب هذا البطريرق خطابا للبابا من مدينة مراغة . وتدل عباراته الواضحة أن الأول قد أذعن للأخرين بالولاء والطاعة بلا قيد . فيخاطب البابا بقوله «نائب المسيح على الأرض ..» ، «ونحن نؤمن ب عبر روما المقدس والأب العالمى لجميع المؤمنين بالمسيح ، ونؤمن أنه خليفة بطرس المبارك النائب العالمى للمسيح عيسى فوق كل أبناء الكنيسة من الشرق إلى الغرب .. ونحن ندين له بالولاء ، ونطلب منه البركات ومستعدون لتلبية جميع أوامره ...»^(٥٨) .

ومن الواضح أن تأكيد الإذعان للبابوية والوحدة الدينية مع روما جاء لدوافع سياسية هذه المرة أيضاً ولكنها لم تكن بهدف تعضيد التحالف مع المغول ولكن بقصد تدخل البابوية وملوك الغرب الأوروبي لدى حكام المغول لرفع الظلم والاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون فى إيران وال العراق والذى ذاق مراتته البطريرق شخصياً منذ اعتلاء غازان العرش واعتناقه الإسلام والذى ترتيب عليه إعلان الإسلام ديانة رسمية لدولته . ومن ثم يلتمس البطريرق من البابا المساعدة فى المحنـةـ التـىـ يتـعرـضـ لـهـ «ـإـخـوـتـهـ وـأـبـنـاؤـهـ فـىـ الـمـسـيـحـ الـذـيـ يـعـتـنـقـونـ الـمـذـهـبـ الـكـاثـولـيـكـ» . وفي العبارة الأخيرة تأكيد من البطريرق للبابا أن رعايا الكنيسة النسطورية قد تحولوا للمذهب الكاثوليكى ، ولكن هذا لم يحدث أبداً لأن البطريرق لم يستشر أحداً حتى من رجال الدين

النساطرة^(٥٩). ومن الواضح أن هذا الإذعان كان رهن الحاجة لمساعدة الغرب الأوروبي وعندما لم تصل هذه المساعدة فان الوحدة الدينية مع اللاتين قد انتهت لانتهاء الظروف المسببة لها هذا على افتراض أنها خرجت إلى حيز التنفيذ فعلاً خارج إطار الطريق شخصياً.

والمهم أن «نيقولا الرابع» - الذي كان مقدماً لجماعة الرهبان الفرنسسكان قبل أن يعتلي الكرسي البابوي - كان يهتم نشر العقيدة المسيحية بين المغول ، ولهذا فقد أرسل مع صارماً - خطابين لارغون خان بهذا الشأن .

ويمثل البابا - خطابه الأول للإيلخان المغولي : أرغون خان لاعتنائه باعتناق العقيدة المسيحية وجاء فيه:

... وقد فرحتنا كثيراً وابتهدجنا للرب الذي يملك قلوب ملوك الأرض بين يديه لأنه سبق وأنعم عليك راحماً بانعاماته ، وأضمر نواذك بمحبته حتى نشأت في قلبك رغبة ملحة لتوسيع تخوم البلاد المسيحية كما اتضح من نص الرسالة وأقوال المندوبين أنفسهم ، حتى أخذت تعامل باللطف والحسنى جميع النصارى المقيمين في البلاد الخاضعة لك ... وتعن نقدم بجلالكم أجمل آيات الشكر ... (ويعد ذلك شرح لرسالة المسيح الذي تنازل وعاش بين البشر وبعد تيامته ترك لبطرس وخلفائه سلطان الملائكة على الأرض في السماء) .

ونحن نحب أن يعيش المسيحيون حسب مذهبهم السامي (أى الكاثوليكي) ويتحلى غير المسيحيين عن الضلال ويتنصروا لأن هذا هو الدين الحق الذي به النجاح والخلاص . وأنت أيها الملك حسناً تفعل لو قررت أن تتنصر لكم تكون فرحة الكنيسة والشعب عظيمة لو تم ذلك ! فهيا فكروا في الأمر ملباً ولا تنس الموت الذي يأتي كاللص في كل مكان وزمان واعتنق الدين المسيحي وتنصر واعمل على انتشار هذا الدين في بلادك فتنا في عند وفاتك أعظم ثواب^(٦٠).

وفي رسالته الثانية للإيلخان المغولي المؤرخة في ٤ أبريل (١٢٨٨م) يكرر البابا المعانى السابقتين على أن «يسرع لنيل المعمودية ... لتمجيد الرب ولنيل الخلاص»^(٦١).

وفي محاولة من البابا للتأثير على أرغون لاعتناق المسيحية فإنه أرسل خطابات مماثلة لعديد من الشخصيات المؤثرة في بلاطه . ففي خطاب لوالدته ، فإن نيكولا الرابع يبعث لها بالتهنئة لاعتناقها المسيحية وبحثها على نشرها بين أتباعها ويطلب منها أن تكون قدره في كل تصرفاتها حتى تسع تخوم المسيحية^(٦٢).

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن نيقولا الرابع أرسل خطابا قصيرا موجها إلى تسعه من العلمانيين الأوروبيين - وأغلبهم من الإيطاليين الذين يعملون في خدمة أرغون بمندوتهم فيه على تقبيلهم بدينه «السامي» ويطلب منهم أن « يكونوا قدوة لغيرهم وأن يساعدوا الآخرين على النجاة بأرواحهم باعتناق المسيحية »^(٦٣).

ويؤكد البابا في خطابه لرجال الدين الشرقيين - فضلاً عما سبق ذكره - على أهمية حمايتهم ورعايتهم للرهبان الكاثوليك في بلادهم ، والتعاون معهم وتسهيل جميع الصعاب لهم وإزالة العوائق من أمامهم « كي يرجعوا بذور الخلاص من الخطايا وكى يقودوا جميع السكان للعقيدة الكاثوليكية »^(٦٤).

وهكذا أعطت البابوية جل اهتمامها لمسألة اعتناق أرغون ورعايتها للمسيحية ولم تول الهدف السياسي لسفارة صاما الاهتمام المطلوب .

ويعد وصول صاما لعاصمة أرغون محملاً بهدايا وخطابات الغرب الأوروبي له فإن الإيلخان أقام حفلة كبيرة حضرها جميع المسيحيين - ومنهم الأوروبيين - في عاصمته . ولما كان أرغون بعد لإرسال سفارة أخرى لأوروبا بخطط محددة لمشروع التعاون العسكري المشترك ضد المالك ، فإنه أحضر طفله خد ابنه (الخان أو بلجايتو فيما بعد) في هذا الاحتفال وطلب من كبير الرهبان الكاثوليك تعميده بحضور جميع الأوروبيين بعاصمته فضلاً أنه طلب كنيسة على هيئة خيمة تلحق بقصره ويقوم على أمرها صاما نفسه . وزوّز الأعطيات على المسيحيين بسخاء ، وأقمع عدداً من رجال بلاط المغول باعتناق المسيحية^(٦٥) . وهذا كلّه بفرض إفهام الأوروبيين في قصره - ومنهم سفراوه الأوروبي - بحبه للمسيحية ورعايتها وأنه في الطريق لاعتناق المسيحية لو استجاب الغربيون للتعاون معه ضد المالك ، وقد تحدث سفراوه الإيطاليون في العواصم الأوروبية فيما بعد (١٢٩٠ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٩م) عما وصلت إليه علاقة الإيلخان بال المسيحية والمسيحيين . أى أن أرغون لم يفعل ذلك لدافع دينية كما ورد في مذكرات صاما ولكنه كان يخاطب - من خلال التقرب من المسيحيين - مشاعر البابوية ورعايتها لجذب تأييدهم السياسي^(٦٦).

بعثة جون مونت كورفينو للمغول John of Monte Corvino

يعد هذا الراهب الفرنسيسكاني من أهم المبشرين بالعقيدة المسيحية بين المغول بل وأكثرهم شهرة في هذا المجال .

فبعد عام واحد من رحيل صاوما من روما ، أعاد البابا نيكولا الرابع إرسال جون مونت كورفينو على رأس بعثة تبشيرية تضم خمسة من الرهبان الفرنسيسكان للشرق^(٦٧) . وزوده بعشرة خطابات لارغون خان وللخاقان المغولي : قوبيلاي خان في بكين وأمرائهم وكبار رجال الامبراطورية المغولية ولملك أرمينيا الصغرى ، وجميعها مؤرخة في يوليه عام ١٢٨٩ م^(٦٨) .

ففي خطابه لهيثوم الثاني (١٢٨٩-١٣٠١) نقرأ عبارات البابا التي يبحث بها الملك على الانضواء تحت لواء كنيسة روما ، وحماية المبشرين الكاثوليك في مملكته . وكانت خطابات نيكولا الرابع لحكام المغول أيضا ذات طابع ديني بحت لختمهم على سرعة التنصر وحماية الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان في بلادهم ورعايتهم، ونشر الدين المسيحي بين رعاياهم ، وتوسيع تخوم المسيحية في آسيا^(٦٩) . ويتبين أن البابا قصد تحقيق أهداف دينية بحثة من هذه السفاره . وقد يكون من دوافعها أيضا ما هو سياسي وهو توسيع نفوذ البابوية في العالم والتضييق على المسلمين أينما كانوا ، ووضع تماما أن نيكولا الرابع كان حتى ذلك الحين يتغاضى عما يحدث للكيان الصليبي في الشام من تصفيه الماليك له بصورة خطيرة .

ومن المهم أن نشير بايجاز لأهم ملامح جهود جون مونت كورفينو في التبشير بين المغول . فقد استقر جون لعدة شهور في تبريز في دير يضم الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان معا لمارسة دوره التبشيري بعد أن قام بتسليم رسائل البابا للمرسل إليهم في ايلخانية فارس . وفي عام ١٢٩١ م ترك تبريز متوجهًا إلى الشرق لتسليم رسالة البابا لقوبيلاي خان . وكان يصحبه في هذه الرحلة الشاقة الطويلة راهب دومينيكانى يدعى نيكولا أوف بستوي Nicolas of Pistoia وتاجر إيطالى يدعى بيتر لوكالونجيو Peter of Lucalongo وتوفي الراهب

الدومينيكانى بالطريق ، ووصل جون ورفيقه إلى خان بالق (أو بكين الحالية) عام ١٢٩٤ م بعد وفاة قوبيلاي خان بشهور قليلة وبعد عامين من رحيل ماركو بولو من الصين . وقام بتسليم رسالة البابا لحفيد قوبيلاي وخليفته في الحكم تيمور أو جايتوor (١٣٠٧-١٢٩٤) في مايو من ذلك العام حيث قوبل بحفاوة بالغة وسمح له بالتبشير باليسوعية^(٧٠) . تحت حماية الخاقان الجديد الذي اقتفى أثر سياسة سلفه في حسن معاملة الأجانب .

ولما كان جون مونت كورفينو هو أول راهب كاثوليكي يدخل الصين حيث الأغلبية الساحقة من الوثنيين والبوذيين وحيث الأقلية من المسلمين والمسيحيين (النساطرة والإغريق والأرمن)^(٧١) ، فإنه أراد الاستعانت بأمير مقاطعة تندوك - في إقليم منغوليا الحالى وهو

الكاثوليكي، فان المئات من رعيته اقتدوا أثره ومن ثم بنيت أول كنيسة كاثوليكية هناك تحت إشراف الراهب الفرنسيسكاني . ولكن هذه التجربة لم تدم طويلا لوفاة الأمير جورج عام ١٢٩٨م ويوفاته ارتد الكاثوليك لنسطوريتهم^(٧٢).

ومن ثم رجع جون للعاصمة بكين حيث قام بالتبشير بين الأرمن والجرجانيين الذين كانوا أو آباءهم - يعملون في جيش المخاقاد منذ احتلال المغول للصين أو أنهم من أسرى الحرب وكانتوا من نصيب قوبيلاي في الغنائم ، وساعدوه على أداء مهمته إجادته للغتين الفارسية والأرمينية التي تعلمها فترة وجوده بالشرق الآسيوي منذ عام ١٢٨٠م . وتعلم جون أيضاً اللغتين التركية والمغولية فترة وجوده بالصين ، بل واستطاع أن يترجم الإنجيل وبعض الكتب المقدسة إلى اللغة التركية (البغورية) .

وفي أول تجربة من نوعها للتغلب على مشكلة عدم وجود رهبان كاثوليك لمساعدته في مهمته فان الراهب جون اشتري مائة وخمسين طفلاً من الأرقاء الصينيين بين عمر السابعة والحادية عشر بمساعدة صديقه التاجر الإيطالي ، وقام بتعبيدهم وتنشئتهم وفقاً للتربية المسيحية وذلك في الكنسيتين اللتين قام ببنائهما في بكين . وهؤلاء كانوا خير عون له في التبشير لحوالي ستة آلاف من السكان^(٧٣) - ومعظمهم من المسيحيين الشرقيين القاطنين في الصين .

ولما كان جون مونت كورفينو لا يستطيع ترسيم القسس لمارسة شئون العقيدة لأنه لم يخول الصالحيات الكنسية بذلك من البابا ، فإنه بعد أحد عشر عاماً من وجوده بالصين أرسل رسالتين إلى مقدم الفرنسيسكان في أوروبا وللبابوية طالباً منها إرسال العديد من الرهبان والكتب الدينية وترسيم رجال دين لشئون الكنائس في الصين . وقد وصلت هاتان الرسائلتان للغرب عام ١٣٠٧ ، وعلى أثر ذلك قام البابا كليمنت الخامس (١٣١٤-١٣٠٥) باصدار مرسايم بابوية بتقليد جون منصب رئيس أساقفة خان بالق (بكين) ومنحه صالحيات البطريرك في كل الامبراطورية المغولية^(٧٤) وأرسل له سبعة من الرهبان الفرنسيسكان لمعاونته . وقد وصل ثلاثة منهم إلى بكين عام ١٣١٣م . وعلى الفور قام جون مونت كورفينو بإنشاء أسقفية في مدينة الزيتون - وهي أشهر مينا تجاري في جنوب الصين حينئذ في مواجهة جزيرة تايوان (فرموزا) الحالية ، كما أسس أديرة وكنائس في مناطق شيكيانج Checkiang وهانجشو Yangchow وبانجشو Hangchow . وعندما توفي جون مونت كورفينو عام ١٣٢٨ كان قد

ترك عدة آلاف من الكاثوليك في الصين والعديد من الأساقفة والرهبان الفرنسيسكان يعملون في جد ودأب في مجال التبشير بالسيجية في الشرق الأقصى على مدى عقود من الزمان^(٧٥).

جهود الراهب الدومينيكانى ريكولد مونت كروسى في ايلخانية فارس :

على الرغم أن كتابات ريكولد مونت كروسى Ricold of Monte Croce^(٧٦) لا تشرح لنا الكيفية التي أخذ بها مهامه التبشيرية ، أو تقدم لنا المعلومات عن نتائجها في ايلخانية فارس في الفترة من ١٢٨٨م حتى ١٣٠١م ، فإنها توضح أنه وصل إلى مدينة تبريز حيث استقر بها عدة شهور ثم انتقل منها لكثير من المدن العراقية وأهمها الموصل وبغداد وتكريت^(٧٧) . وأنه استقر بالمدينة الأخيرة عدة سنوات متقطعاً عن العالم الكاثوليكي . وقد قام بالتبشير بالكاثوليكية بين اليعاقبة والمارونيين - وهو أغلبية في هذه المنطقة - وأتقن اللغة العربية التي ساعدته على دراسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكثيراً من كتب الفقه وذلك ليتمكن من مجادلة رجال الدين المسلمين والرد عليهم . وقد سمح له حاكم الموصل - وكان نسطوريا - بالتبشير علانية بين النساء شريطة لا يجلب على نفسه المتاعب بال تعرض لغيرهم^(٧٨) . وشجعه على ذلك أن أرغون في سنواته الأخيرة قد أطلق العنان للرهبان الكاثوليك للتحرك بين رعاياه بحرية تامة وتحت حمايته ، وفضلاً عن ذلك فان بطريق النساء نفسه كان يدين بالولا - نظرياً على الأقل - لكنيسة روما ، ولهذا قدم ريكولد ولغيره من الدومينيكان كثيراً من المساعدات رغم أن الأخير يقرر أن نساء بطريركية بطريركية منهن في إنشاء أديرة ومراقد كاثوليكية في إيلخانية ، ولقد كانت هذه الظروف مناسبة له للاستماع من شهود العيان اللاتين للعديد من الروايات عن سقوط آخر المعاقل الصليبية بسواحل فلسطين مما ساعدته على كتابة مذكراته التي قدمها في هذا الشأن إلى البابا عام ١٣٠١م^(٧٩) .

ولما كانت الفترة من ١٢٩١ حتى ١٢٩٦ هي مرحلة سقوط المدن والقلاع الصليبية الباقية في الشام ، فان تجار الرقيق كانوا يبيعون مئات الأسرى الصليبيين في أسواق بغداد وغيرها من المدن العراقية ، وكان من بينهم العديد من الرهبان الدومينيكان ، ومن ثم استطاع ريكولد تقديم الخدمات الدينية لهؤلاء الوفادين الكاثوليك الجدد بل وتمكن بمساعدة من التجار الإيطاليين من شراء بعضهم ، واستعan بالدومينيكان منهم في إنشاء أديرة ومراقد كاثوليكية في إيلخانية ، وقد كانت هذه الظروف مناسبة له للاستماع من شهود العيان اللاتين للعديد من الروايات عن سقوط آخر المعاقل الصليبية بسواحل فلسطين مما ساعدته على كتابة مذكراته التي قدمها في هذا الشأن إلى البابا عام ١٣٠١م^(٨٠) .

ويصف ريكولد مدينة بغداد بأن سكانها حوالي مائتي ألف نسمة ، وأن أهلها يجاهدون لإعادتها لما كانت عليه حالها - قبل مذبحة هولاكو - كمركز ديني كبير ، ويثنى ريكولد على

المسلمين بقوله «استولت علينا الدهشة ، كيف أن أعمالاً تتصف مثل هذا الكمال أن تحيا في ظل شريعة تصطبغ مثل هذه النزعة ... لهذا نستعيد الآن في إيجاز أعمال العرب تلك المتصفة بالكمال ... من ذا الذي لا يعجب إذا تأمل جيداً أية عنابة فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب ، أى أخلاق في الصلاة ، وأية رحمة بالفقير ، وأى تمجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وأى وقار في أخلاقهم ، وفي معاملتهم للغرباء ، وأية مودة تربط بين جنسهم^(٨١) ؟ ». ومع ذلك فإن ريكولد يهاجم العقيدة الإسلامية في القضايا الهامشية التي دأب المستشرقون الأوروبيون فيما بعد على طعن الإسلام بها^(٨٢).

ولأن ريكولد قد عاصر جانباً هاماً من عهد غازان خان وما حدث للمسيحيين في دولته من اضطهاد فان تقريره عن مستقبل البعثات التبشيرية بين المسلمين جاء متشاشاً ، وأوضح أنه من العسير إقناع المسلمين بالتحول للمسيحية^(٨٣).

والجملة الأخيرة تقودنا لتوسيع الطوائف التي كان يعمل الرهبان الكاثوليك بينهم في ايلخانية فارس .

حقيقة أن البابوية كانت دائمة الحلم بتحويل كل العالم - بما فيه المسلمين - للمسيحية على المذهب الكاثوليكي ، وظهر للوجود في بداية القرن الثالث عشر جماعة الرهبان الفرنسيسكان وتبعهم الدومينيكان للتبشير بالإنجيل بين غير الكاثوليك . حتى أن الراهب فرنسيس الأسيسي (ت ١٢٢٦م) مؤسس جماعة الفرنسيسكان قد حضر مع الحملة الخامسة على مصر لاعتقاده أنه من السهل أن يقنع السلطان الأيوبي بالنصر وفي ذلك حقناً لدماء الصليبيين كما صور له خياله وقد ذهب بنفسه للقاء الكامل الأيوبي وعرض عليه أفكاره ولكن الأخير أعاده بسلام لعسكر الفرنجية في دمياط قبل أن تتلقنه سيف المسلمين^(٨٤) وأرسلت البابوية أندريه لونجبيجييه عام ١٢٤٥م للأمراء المسلمين في سوريا والعراق لتحويلهم للمسيحية^(٨٥) . وهذا يوضح جهل الغرب الأوروبي بحقائق الحياة في هذه المناطق من ناحية والغزارة والعنصرية الاستعلالية التي تتسم بها الحضارة الغربية من ناحية أخرى .

ويبعد أن الرهبان الكاثوليك لم يتواتروا عن هذه المحاولة في إيران والعراق اللتين كانتا تقدان العالم الإسلامي سياسياً ومنهما خرج كثير من أئمة الفقه وعلوم الدين والفلسفة الإسلامية ، أى أن البيئة كانت إسلامية قلباً وقابلاً . ولهذا يتعامل المسلمون بحساسية شديدة مع الذين حاولوا إثنائهم عن عقيدتهم أو إقناعهم بقبول ديانة أخرى . ولهذا تعرض اثنان من

الرهبان الفرنسيكان للقتل في تبريز عام ١٢٨٤ م ، وتبعهما عدد آخر من نفس المدينة في أوائل القرن الرابع عشر لأنهم أثاروا المسلمين بالتبشير بينهم^(٨٦) . وفي عام ١٣٢٣ قتل ثلاثة رهبان فرنسيكان في مدينة Tana الهندية بأمر من القاضي المسلم بعد أن قاموا بسب الرسول ﷺ علانية^(٨٧)) وفي عام ١٢٣٩ م قتل سبعة رهبان في إقليم التركستان لإثارتهم عامة المسلمين^(٨٨) . بل أن الإشارة الوحيدة لوجود بعثات تبشيرية في الوثائق الشرقية كانت في المخولة السريانية لابن العبرى إذ يقرر هذا الكاتب أنه في شهر يولية من عام ١٢٩٠ م قدم أحد الرهبان لإحدى المدن العراقية للتبرير بين سكانها ، ولما ذاع أمره فان جموعاً من المصلين قد تعقبوه والسيحيين الشرقيين بذات المدينة حتى قتلواه ومن قام بحمايته ودمروا الكثير من ممتلكات المسيحيين بالمدينة حتى لم يستطع أي من الآخرين الخروج إلى أسواق المدينة لمدة شهر كامل^(٨٩) . وقد حدث ذلك في نهاية عهد ارغون رغم كل أساليب القدر والضغط التي تعرض لها المسلمون هناك ورغم الحماية التي أعطاها الأيلخان وقواده ونوابه (المسيحيون واليهود) للمسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة .

والحقيقة أن حساسية المسلمين من البعثات التبشيرية لم تكن وقفاً على أيلخانية فارس بل كانت ظاهرة عامة صادفتها جميع الرهبان الكاثوليك في المجتمع الإسلامي ؛ وفيهم الفرنسيكانى الشهير رامون لول Ramon Lull الذي قتله جموع المسلمين الغاضبين في الجزائر عام ١٣١٦ م^(٩٠) .

وفضلاً عن ذلك ، فإن شهادة الأسقف الفرنسيكانى لمدينة الزيتون الصينية عام ١٣٢٣ يؤكّد فيها أنه وزملاؤه لم يستطعوا تحويل أي مسلم أو يهودي للمسيحية^(٩١) هذا بالرغم أن الآخرين كانوا أقلّيات ضئيلة في الصين بعكس الأغلبية الساحقة للMuslimين في إيران والعراق . وفوق هذا وذاك فإن تقرير الراهب الدومينيكانى جورдан القطلانى Jordan of Cat-alan عام ١٣٢٨ يوضح أن كل الذين نجح المبشرون الكاثوليك في تحويلهم لذهبهم كانوا من المسيحيين «المنشقين»^(٩٢) ، أي النساطرة واليعاقبة . وهذا يوضح أن الرهبان الكاثوليك كانوا يحاولون جاهدين اكتساب المغول - وهم بلا دين سحاوى - لعقيدتهم ، وكانتوا أيضاً يعملون بين المسيحيين الشرقيين - وأغلبيتهم الساحقة من النساطرة - الذين كانوا يؤمنون بعقيدة سلطورة الذي اعتبره مجمع أفسوس عام ٤٣١ هـ طقياً منشقًا ، ومن نافلة القول أن ذكر أنه كان من اليسير على الرهبان الكاثوليك التبشير بين هؤلاء المسيحيين لأن تحويلهم لذهب آخر

كان أمراً يسيراً ، ومع ذلك فان الانجازات كانت محبوطة للغاية - كما سنوضح فيما بعد - . ويبدو أن النساطرة كانوا مثل الأرثوذكس من الصعب اقناعهم بتصنيف الإيمان الكاثوليكي والولاء لكنيسة روما .

ومهما يكن من أمر ، ففى عام ١٢٩٥م طرأ أحداث سياسية هامة فى العاصمة المغولية الفارسية لم تكن فى حسبان الغرب الأوروبي وكان لها أثراً المباشر سوا ، على حركة التبشير بالكاثوليكية فى ايلخانية فارس أو على وضع المسيحيين الشرقيين فى الدولة . ومنها وصول غازان خان إلى كرسى الحكم فى ذلك العام .

اعتناق غازان الإسلام وأثره على أهل الذمة :

لقد كان تكودار أحمد أول ايلخان مغولى فى فارس يعتنق الإسلام . وقد سبقه فى ذلك بركه خان حاكم القبيلة الذهبية فى روسيا (١٢٥٦-١٢٦٧)^(٩٣) ولم يمنع مقتل تكودار عام ١٢٨٤م انتشار الإسلام بخطى حثيثة بين المغول فى عهد خلفائه . وإذا كان كيخاتو قد حاول إرضاء رعاياه المسلمين باعفاء علمائهم وذرية النبي ﷺ من دفع جميع الضرائب على اختلافها وأصدر عمله ورقية «الجاو»^(٩٤) تحمل الشهادتين ، فإن خليفته بابادو كان يرسل ابنه على للصلة مع المسلمين مداراة لاتحيازه الواضح مع المسيحيين . وقد اعتقد كثير من المغول الإسلام فى عهد بابادو وأصبحوا يؤدون فرائضه .

ويتفق المؤرخون على أن غازان كان بذيا فى أول حياته « وأن والده ارغون أرسله أميراً على خراسان حيث التقى بالأمير نوروز المغولى الأصل والمسلم الديانة^(٩٥) . ويتفق الذين تناولوا مسألة اعتناقه الإسلام ، أن الأمير نوروز قد شجعه على الثورة على بابادو وعلى اعتناقه الإسلام ، وما ورد عنه «فإذا اعتنقت الإسلام صرت سيد إيران وأصبح المسلمين وقد رفعتهم من حالة الذل التي يتنون فيها تحت نير التغار الوثنين - يكرسون - جباتهم لصلحتك وبارك الله في أسلحتك ... » ويروى أيضاً أن نوروز أخذ وعداً من غازان باعتناقه الإسلام فور وصوله للعرش المغولى . وقد نفذ ما وعد به فى اليوم الرابع من شعبان عام ٦٩٤هـ / يونيو ١٢٩٥م^(٩٦) . وسواء اعتنقت غازان الإسلام لصلحة سياسية أم عن قناعة دينية^(٩٧) فإنه لم يرتد عنه بل وأصدر قراراته ومراسيمه فيما بعد وفقاً للشريعة الإسلامية . وكان دوره فى انتشار الإسلام بين المغول - فيما أرى - لا يقل عن دور قسطنطين الكبير فى انتشار المسيحية فى أرجاء الامبراطورية الرومانية .

فلقد كان أول مرسوم أصدره غازان ينص على أن الإسلام هو الدين الرسمي لدولة المغول فن فارس ، وأن الآداب والرسوم يجب أن تجري طبقا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية ، وأنه على الأمراء وكبار المسؤولين في الدولة أن يتبعوا العدالة التامة ويتعنوا عن إلحاق الأذى والضرر بالرعية . وعلى أثر ذلك غير المغول زفهم ولبسوا العمامة كإشارة على التحول للدين الإسلامي^(٩٨) الذي اعتنقه على الفور مائة ألف من أمراء المغول وجندتهم اقتداء بغازان^(٩٧) .

وليس معروفا على وجه الدقة من هو الذي أصدر أوامره بتدمير بعض الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية هل هو غازان شخصيا أم نائبه نوروز الذي كان مسلما متعصبا ؟ وفضلا عن ذلك فإنه تم تحطيم الهياكل والأصنام البوذية ، وحولت كثير من الكنائس إلى مساجد ، وأغرى البوذيون على الدخول في الإسلام . وأيضا لم يعد المسيحيون ولا اليهود بقادرين على أن يظهروا للناس إلا في ثياب متميزة ، فكانت علامة النصارى شد الزنار في أوساطهم ، واليهود خرقه صفرا في عمامتهم . وبدأت فترة من الاضطهادات لأهل الذمة حتى أن نساءهم في بعض المناطق كن وحدهن يستطعن الخروج من منازلهن للأسوق لأنهن لا يمتنن عن نسوة المسلمين^(١٠٠) . وفوق هذا وذاك أعيدت ضريبة الجزية على المسيحيين واليهود يوم اعتلاء غازان العرش^(١٠١) .

وفي خطوة جديدة على الوضع السياسي لایلخانية فارس ، قيام غازان بالفاء مظاهر تبعيته للخاقان المغولي في بكين مشيرا إلى أن الشخص الذي يعتبر كافرا يجب ألا ينقش اسمه في المستقبل على عملة بلاده . وأعلن استقلاله الكامل ولقب نفسه بلقب خاقان وكان هذا اللقب مقصورا على الخاقان المغولي الأعظم في بكين^(١٠٢) .

وقد كان لاعتناق غازان وخلفائه للدين الإسلامي آثاره الكثيرة يهمنا منها أولا : القضاء على الفجوة الكبيرة التي كانت تفصل بين المغول ورعاياهم المسلمين ، مما ساعد على اندماج المغول في المجتمع الإسلامي وأشدد تأثيرهم بالحضارة الإسلامية . ثانيا : وضع هذا التحول حدا لسياسة تفضيل الأقليات المسيحية واليهودية في مقابل تجاهل الأغلبية المسلمة وبهذا تحددت مكاناتهم وصاروا يعاملون كأهل ذمة . ثالثا : بدخول المغول في الإسلام فانهم كفوا أيديهم عن القتل والغارات وجدوا في إصلاح ما أحدثه الإيلخانيون البوذيون من تخريب وتدمير ، ورفع المظالم عن الرعية ، واتباع الشريعة الإسلامية بدلا من قوانين المغول التي سنها لهم جنكيز خان^(١٣) . رابعا : ساهم إسلام غازان وخلفائه في دخول هذا الدين في مناطق جديدة كانت

تسيطر عليها البوذية في شرق آسيا وجنوبها . وانقلب المغول من كونهم معمول هدم للإسلام ، إلى ساعد فتية لنشر هذا الدين سواء لمناطق لم يدخلها من قبل أو في مناطق لم يكن منتشرًا فيها على نطاق واسع^(١٠٤) .

ومن الواضح أن حالة من الاضطهاد العام قد لحقت بالسيحيين وممتلكاتهم من قبل المسلمين الذين شعروا بالخلص من الضغط الذي دام عليهم عشرات السنوات منذ دخول جحافل المغول للبلاد الإسلامية .

فالدار التي كان قد حصل عليها بطريق النساطرة من هولاكو قد أعيدت للمسلمين ، وتعرض الطريق نفسه للتعذيب الجسدي من جانب بعض العامة لدرجة أنه علق من رجليه ورأسه يتدلّى إلى أسفل لإجباره على التخلّى عن دينه . وعندما قاوم ذلك وثبت على إيمانه طلب منه دفع مبلغ عشرين ألف دينار ، ولكنّه استطاع الفرار والاختفاء بواسطة أميرة مغولية مسيحية . ويدرك أن سكان مراغة أ Zimmerman بعد فراره بدفع غرامة قدرها ستة وثلاثين ألف دينار^(١٠٥) .

وقد بلغت الاعتداءات على غير المسلمين درجة اضطر فيها غازان إلى وضع حد لها . وفي هذه الأثناء استطاع الطريق جبلها الثالث مقابلة غازان في يولية عام ١٢٩٦ م . وكذلك مقابلة هيثوم الثاني ملك أرمينيا الذي حضر لتقديم الولاء للإيلخان المغولي . وفي تلك المقابلة طلب الملك الأرمني من غازان التدخل لوقف هدم الكنائس المسيحية . أما المعابد البوذية فقد سمح بالاستمرار في حرقها^(١٠٦) . وقد أمكن في مدينة إربل - وفي اللحظات الأخيرة - منع صدام كاد أن يقع بين المسلمين والمسيحيين . أما التعويضات التي دفعها غازان إلى الطريق فكانت قليلة جداً ومقدارها خمسة آلاف دينار ، ولم تكن تكفي لإعادة بناء الكنائس ومنازل الأساقفة في بغداد ومراغة وتبيريز وهمدان . أما الأموال التي نهبت ، فقد أعيد جزءاً يسيراً منها ولكن أكثرها - كما هو المتوقع لم يعثر عليه^(١٠٧) .

وهناك فريقان من المؤرخين يتزعمان رأيين مختلفين حول الاضطهادات التي تعرض لها أهل الذمة في عهد غازان خان . فالرأي الأول من أنصاره المؤرخ الألماني بارتولد شبولر والمؤرخ المصري مصطفى طه بدر وملخصه أن غازان نفسه كان وراء هذه الاضطهاد وأنه أصدر أمراً باجبار المسيحيين على ترك دينهم ، وأن رفع هذا الاضطهاد عنهم تم لأسباب سياسية^(١٠٨) . والرأي الثاني - ومن أنصاره المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد والمؤرخ الإنجليزي أيضاً ج

ساوندرز - مفاده، أن غازان كان مسلماً مثالياً وأن هذه الاضطهادات كانت من نوروز أو بأوامر منه وأن العامة قد فعلوا ذلك تلقائياً وكان يصعب السيطرة عليهم لما عانوه من عسف وجور طوال فترة الإيلخانيين البوذيين^(١٠٩). ويدلّل توماس أرنولد على تسامح غازان « بأنه عندما اكتشف أن عبادة البوذية الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام في مستهل حكمه (حينما خرب معابدهم) ولم يتحولوا إلى هذا الدين إلا ظاهراً ونفاقاً ، سمح لجميع هؤلاء الدين كانوا جد راغبين في العودة إلى التبت، حيث يستردون حرثتهم مرة أخرى بين مواطنיהם البوذيين»^(١١٠).

ولكن حولية جبلها الثالث- التي أكملها شخص ، وثيق الصلة به بعد وفاة صاما عام ١٢٩٢م - تؤكد أن نوروز هو الذي أصدر قرارات هدم كنائس المسيحيين ، وأن غازان أعطى الترتيبات الكافية للبطريق وأنه منحه تقليداً باعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وحرية ممارستهم شئون عقيدتهم ، وأنه أرسل منشورات لقواده بالكف عن نهب ممتلكات المسيحيين وتقديم الخدمة الكافية لهم والضرب بشدة على من يجرؤ على التعرض لهم^(١١١). وتؤكد هذه الحولية السريانية أيضاً عن لسان بطريق النساطرة أنه بالرغم أن غازان قد تحول عن دين آبائه فإنه كان يعطى الاحترام والتقدير الكاملين للبطريق والمسيحيين ، وأن البطريق زاره عدة مرات وأن غازان قد قضى ليلة كاملة في دير الأخير ببراغة قبيل رحلته للشام للمرة الثانية . فضلاً عن أن غازان سمح له ومده بالأموال اللازمة لبناء كنيسة ضخمة في مدينة مراغة حيث حضر عدد كبير من رجال الدين من كل الطوائف والأديان حفل افتتاحها^(١١٢).

وفضلاً عن ذلك فإنه عندما ظن بعض العامة في عام ١٢٩٧ أنهم يستطيعون نهب الكنائس في تبريز أصدر غازان أوامره بانزال العقوبات بهم . وعندما احتلت قوات المغول دمشق عام ١٢٩٩ / ١٣٠٠ م فأن السلطان أصدر أوامره الثالثة بأن المسيحيين واليهود الذين يدفعون الجزية لا يجوز مضايقتهم^(١١٣). وفرق هذا وذاك فإنه بعد قتل نوروز أصبح المسيحيون واليهود يتمتعون بنصيب كبير من الحرية الدينية ، وأوقفت الاضطهادات التي كانت تنزل بهم وإن لم يعودوا إلى المركز الذي كانوا يتمتعون به في عهد الإيلخانيين البوذيين.

أما اوجلياتو (١٣٠٤-١٣١٦) فقد فرض الجزية كاملة على أهل الذمة سنة ١٣٠٦ ولكنه في سنة ١٣٠٨ استثنى القساوسة منها وأعفى الأديرة في بعض الأحيان من الضريبة بل واعتبر الضريبة مخصصات لها . وقد بعث بآيات مدینة إربل إلى البطريق ، ووقف السلطان ضد محاولات المسلمين تحويل كنيسة مسيحية في مدينة تبريز إلى مسجد ، ولكنه تغاضى في عامي ١٣٠٧ و ١٣٠٨ عن إحداث الضغط التي وقعت على الأهالي في أرمينيا

وجرجيا الصغرى للدخول في الدين الإسلامي^(١١٤). وبوفاة الطريق جبلها الثالث في ١٣١٦ نوفمبر عام ١٣١٧ فقد المسيحيون في الإلخانية آخر مدافع عنهم في القرن الرابع عشر خاصة وأنه كانت تربطه صداقة وطيدة مع جميع الإلخانين الذين عاصروه . وفي عهد أبو سعيد (١٣٣٥-١٣٦٦) لم تكن الإدارة المركزية بالقوة الكافية لمنع تحرشات المسلمين بالمسيحيين في مناطق كثيرة .

البعثات التبشيرية في عهد الإلخانين المسلمين :

لم يكن اعتناق حكام مغول فارس للإسلام حائلا دون وصول العديد من البعثات التبشيرية الكاثوليكية للإلخانية . فالغرب الأوروبي لم يلاحظ ذلك إلا بعد ربع قرن من حدوثه . ومن ثم استمرت البابوية ومقدمو الأديرة الفنسنكيان والدومينيكان يرسلون هذه البعثات إلى إلخانية فارس حتى منتصف القرن الرابع عشر تقريرا . وكانت البابوية والملكية الإنجليزية دائمة الإلحاد على حكام المغول بحماية الرهبان وتقديم العون لهم . فضلا عن ذلك فان فترة النصف الأول من القرن الرابع عشر شهدت - لأسباب كثيرة سندرسها في الفصل التالي - انسياح العشرات من تجار المدن الإيطالية ليس فقط في إلخانية فارس بل أيضا في الهند والصين . وأن هؤلاء اصطحبوا معهم الرهبان أينما حلوا كي يقدموا لهم الخدمات الدينية . بل أن مثل التجار البناذة في تبريز أصر على أن تتضمن المعاهدة بين بلاده وبين أبو سعيد عام ١٣٢٠ نصا عن حرية وحق التجار البناذة في اصطحاب الرهبان معهم وفي إقامة الكنائس في كل مكان يحلون فيه^(١١٥) . ولأن حكام المغول كان يهمهم اجتذاب التجار الإيطاليين واستقرارهم في بلادهم - لما يعود عليهم بالنفع - فانهم قدمو الحماية الكافية لهم ولرهبان الكاثوليك معا . ولهذا لا غروا أن فترة الإلخانين المسلمين في فارس كانت من أزهى الفترات للرهبان الكاثوليك والدليل على ذلك ورود العديد من البعثات من الغرب واستقرارها في المدن التابعة لنفوذ مغول فارس أو عبرها للهند والصين .

ولقد تركزت أديرة الرهبان الفنسنكيان والدومينيكان وكنائسهم بصفة أساسية في تبريز والسلطانية - العاصمة الجديدة منذ عهد أولجايتو - ومراغة ، وذلك لأن هذه المدن كانت على الطريق التجاري الذي يربط بين تجارة الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي . فضلا عن كون أديرة الرهبان بمثابة محطات تجارية للتجار الإيطاليين في إلخانية أو الذين ينتقلون في جنوب وجنوب شرق آسيا فان السلطة المركزية لإقليم إلخانية فارس قد تركزت في هذه المدن وذلك حتى

يكون الرهبان تحت سمع وبصر الخان وقواده وفي ذلك حماية مباشرة لهم من غضب العامة باعتبارهم كانوا عزلاً من كل قوة توفر لهم الحماية الشخصية . ولكن هذا في حد ذاته كان عائقاً من احتكاك الرهبان بعامة الرعية داخل البلاد .

ولقد كانت أديرة الرهبان الكاثوليكي تعتمد على امدادات البابوية ومقدمي الأديرة بأوروبا ، ولكن هذه الاعانات كانت غير ثابتة أو كافية بل أحياناً تعطى للرهبان فقط عند مغادرتهم أوروبا في طريقهم إلى شرق لمواجهة نفقات الطريق . فضلاً عن ذلك تلقى الرهبان بعض المنع والأعطاب من حكام المغول أو زوجاتهم أو من أساقفة المسيحيين الشرقيين . ولكن كانت تبرعات التجار الإيطاليين لأديرة الرهبان الفرنسسكان والدومينikan أهم مورد مالي ، فقد حملت تقارير الأخرين أن هؤلاء التجار اشتروا لهم - في بعض الأحيان أراضٍ أو أبنية لاستخدامها كأديرة أو كنائس لهم - فضلاً عن أن الرهبان كانوا ينتقلون من منطقة لأخرى مع قوافل التجار الإيطاليين . أى أن الأخرين زودوهم بوسائل الانتقال الازمة . ومن المؤكد أن حمايتهم من كثیر من الاضطرابات التي عمت الإيلخانية قد تم بفضل تدخل هؤلاء التجار لدى حكام المغول . وفي حالة عدم توفر الموارد المالية السابقة أو انقطاعها فإن الرهبان كانوا يضطرون لتسول قوتهم اليومي^(١١٦) . وهو مبدأ كان معمولاً به في أنظمة الرهبنة في الجماعتين .

وفي تطور جديد على وضعبعثات التبشيرية في وسط آسيا ، فان البابا كليمينت الخامس Clement V (١٣١٦-١٣٠٥) قد حصل على موافقة أوبجايتوخان (٤١٣١٦-١٣٠٤) بإنشاء مطرانية في عاصمة السلطانية ، ولكن هذه الخطوة لم تخرج إلى حيز التنفيذ إلا في عهد البابا هنا الثاني والعشرين (١٣٣٤-١٣١٦م) ، عندما أصدر مرسوماً في أول مايو عام ١٣١٨ م بإنشاء هذه المطرانية ، ورسم لها الأسقف الدومينيكانى فرنسيس أوف بيروجيا Francis of Perugia للإشراف على الكاثوليكي في إيلخانية فارس وإقليم مغول القبيلة الذهبية في روسيا وكذلك في الهند وأثيوبيا . وبعد شهر واحد من هذا المرسوم قام فرنسيس أوف بيروجيا بترسم ستة من الأساقفة وتعيينهم في أسقفيات أنشئت في أرمينيا وجورجيا الصغرى وفارس^(١١٧) . ونظراً لقلة كتابات الرهبان الدومينيكان في فارس عن المجازاتهم أو كيفية مواجهة الصعوبات في مجال عملهم ، فان من تصدوا لدراسة هذا الموضوع لا يعرفون سوى أسماء من تولوا منهم مناصب كنسية في هذه الأسقفيات ووقت تعيينهم أو وفاتهم أو إغلاق هذه المراكز الدينية أو نقلها أو بعضها لمناطق أخرى^(١١٨) .

ولكن إنشاء مطرانية كاثوليكية في عاصمة إيلخانات فارس لا يدل على أن الأمور كانت تسير على ما يرام بالنسبة للرهبان، أو أنهم أحرزوا تقدماً كبيراً في مجال التبشير بال المسيحية، فهذا المرسوم كانت وراءه ضغوط قوية من جماعة الدومينيكان في أوروبا على البابوية ، وذلك لمساواتهم بجماعة الفرنسيسكان الذين كانت لهم مطرانية في بيكون منذ عام ١٣٠٧ و حتى لا يخضع الدومينيكان في كل مكان في آسيا لسلطة المطران الفرنسيسكاني في بيكون والذي كانت المسافات الطويلة تمنعه من ممارسة الصالحيات المخولة له من البابا على كل الكاثوليك في القارة شرقها وغرتها وجنوبها وشمالها .

وعموماً كانت البابوية تهدف من وراء ذلك أيضاً تشجيع الدومينيكان على كسب أرضية جديدة في آسيا بمنافسة الفرنسيسكان الذين حققوا نجاحاً ملحوظاً في الصين عبرت عنه خطاباتهم وتقاريرهم التي أرسلوها لمقدميهم وللبابوية تباعاً .

وكانت هذه «المطرانية» مقامة في مبني صغير اشتراه أحد التجار الإيطاليين في السلطانية . أما الأبرشيات التي كانت تابعة لها فلم تجد من يشغل أمر الخدمة الدينية بها بعد سنوات قليلة من إنشائها ، وذلك بسبب الوفاة وعدم وصول رهبان دومينيكان جدد من الغرب . ويكتفى أن نذكر أن الرهبان الفرنسيسكان الذين كانوا يشترين مع نظرائهم الدومينيكان في مبني واحد بتبريز - بعد تحويل مبني الدومينيكان لمدرسة إسلامية عام ١٢٨٥م - لم يعترفوا بسلطة أسقف الدومينيكان في نفس المدينة ، ومارسوا شعائر عبادتهم منفردين على طريقتهم عام ١٣٣٢م^(١١٩) .

ويقرر الراهب الدومينيكانى جورдан القطلانى Jordan Catolani عام ١٣٢٨ ، أن شعب أسيفية السلطانية يبلغ خمسة مائة شخص ، وأن ألفاً من المسيحيين «المنفيين» قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكي على يد الرهبان في تبريز ومراغة^(١٢٠) . ومع افتراض عدم مبالغة الراهب عن الججازاته وزملائه وسابقيهم فإن هذا الرقم متواضع جداً ، وذلك لمعرّفتنا أن الرهبان الدومينيكان متواجدون في تبريز منذ عام ١٢٦٠ على الأقل ، وهو العام الذي استقر فيه ديفيد الأشبي في تبريز حيث سمح له هولاكو بالتبشير هناك . وأن حصانه ثلاثي قرن من الزمان هو تحويل ألف وخمسمائة مسيحي شرقي فقط للمذهب الكاثوليكي هو دليل على وجود كثيرون من الصعوبات التي كانت تعرق عمل هؤلاء الرهبان في تلك المنطقة خاصة بعد اعتناق غازان للإسلام .

أما عن الرهبان الفرنسيسكان فكانت لهم أديرة في تبريز والسلطانية ولا توجد مصادر تفيد المجازاتهم . ولكن معروف أن معظم الفرنسيسكان تركزوا في منطقة أرمينيا حيث بُرِزَ عدد منهم في إتقان اللغة الأرمنية وترجمة الأنجليل لهذه اللغة ، وتُمثل نجاحهم في اعتناق الأسف الأرمني زخارى Zacharias للمذهب الكاثوليكي (١٢١) .

وكان اعتناق بعض الرهبان الفرنسيسكان بفكرة روحانية المسيح وحواريه ، سبباً في ظهور انشقاق في صفوفهم مما أصابهم بكثير من الأضرار في فارس . ولما كان البابا هنا الثاني والعشرين قد أدان الروحانيين Spirituals عام ١٣٢٣ م فانه أرسل لأسقف الدومينيكان في تبريز للتحري عن الفرنسيسكان المنشقين وطردهم من منطقته . وكان على أثر ذلك أن طرد اثنى عشر راهباً فرنسيسكانياً عام ١٣٣٤ م من ايلاحانية فارس للشك في اتحائهم للمنشقين . وفي عام ١٣٤٤ م أرسل البابا كليمون السادس (١٣٥٢-١٣٤٢) مرسوماً لطردان السلطانية الدومينيكانى باعادة البحث والتحري عن الفرنسيسكان المنشقين في منطقته . وقد نتج عن هذا كله - وعوامل أخرى - انتهاء وجود الفرنسيسكان في ايلاحانية فارس منذ ذلك الحين (١٢٢) .

أما عن الرهبان الدومينيكان فقد تجروا في الاستمرار بإيلاخانية فارس حتى العقد السابع من القرن الرابع عشر . وقد انشأوا أبرشية في البصرة وأخرى في بغداد (١٢٣) ولكن لظروف ويا ، الطاعون الأسود (١٣٤٩-١٣٤٨) ولأسباب أخرى - لم يتبق بالقليل فارس منهم سوى ثلاثة من الرهبان ليس من بينهم أسقف واحد بدءاً من منتصف القرن الرابع عشر . وبوفاة آخر ايلاحان مغولى دون الم Cobb وريث للعرش عام ١٣٣٥ م ، وانقسام الايلاخانية بين مجموعة من الأمراء المتصارعين جعل السلطانية وتبريز - حيث المراكز الدينية للدومينيكان - مركزين للصراع والمطاردة بين المتصارعين على السلطة . ولعدم ورود رهبان جدد من أوروبا ليحلوا محل سابقتهم ، فإن المراكز الدينية للرهبان أصبحت شاغرة ، وانتقل الإشراف الدينى عليهم لمركز الدومينيكان في القسطنطينية عام ١٣٦٣ م (١٢٤) وهكذا لم يعد للرهبان الكاثوليك وجود في ايلاحانية فارس .

أما عن المسيحيين الشرقيين فقد كانت الضربات المتلاحقة التي وجهت لهم ولكنائسهم منذ انتقام غازان للإسلام وحتى وفاة أبو سعيد أثراً لها الخطير على تناقص أعدادهم بدرجة كبيرة . وقد ساهمت فترة القلائل التي أعقبت انتهاء دولة الايلاخانيين في إزالة كثير من مراكز المسيحيين وتحويلها إلى مساجد . ومن ثم تركزت البقية الباقيه من النساء والياعقة في

بغداد وتكريت وأمد وماردين وأربيل والموصل . وكان لعدمير قوات تيمورلنك لهذه المدن في العقد الأخير للقرن الرابع عشر وقتل سكانها - دون تفرقة بين مسلم أو مسيحي - قضاها مبرما على البقية الباقيه من المسيحيين الشرقيين وكنائسهم في وسط آسيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك لعدة قرون^(١٢٥) . وكان المسيحيون في إقليم الصين - شرقيون أو كاثوليك - قد لقوا حتفهم عام ١٣٦٨م عندما طردت أسرة منج Ming الصينية أسرة يوان المغولية ، إذ تخلصوا من جميع المسيحيين والمسلمين والبوذيين باعتبارهم من رموز الاحتلال المغولي وركائزه في البلاد ، وعندما وصلت بعثات الجزوئي إلى الصين بعد عام ١٥٥٠ لم تجد مسيحيانا واحدا في هذه البلاد^(١٢٦) .

تقييم إنجازات الرهبان :

عند تقييم إنجازات الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان بين المغول عامة ومغول فارس منهم خاصة لا ينبع أن نتوقف عند الأرقام الهزيلة التي حققوها في مجال التبشير بال المسيحية الكاثوليكية لمدة قرن كامل من الزمان ، وكذلك فشلهم في إقناع حاكم مغولي واحد في كل أنحاء آسيا لاعتناق المسيحية . ومن غير المنطقى أيضا مقارنة المئات القليلة من الذين تحولوا على أيديهم من بوذيتهم أو نسطوريتهم إلى المذهب الكاثوليكى بعشرات الآلاف الذين تحولوا في تلك الفترة أيضا من وثنية الإسلام ، رغم أن الإسلام لا يقر الرهبة ولم يعرف المسلمين - في ذلك العصر - نظام جماعات دينية منظمة لنشر الإسلام بين من لا يدينون به .

«مشروع» تحويل المغول للمسيحية الكاثوليكية كان أكبر من الإمكانيات البشرية والمادية للرهبان الذين قاموا بتنفيذها . فالبابوية كانت لها أهداف سياسية من دفع حركة التبشير للأمام وذلك لتوسيع نفوذها خارج أوروبا ، وكانت تحلم أيضًا باستخدام المغول - بعد تنصيرهم ولاتهم لها - كأداة ضد المسلمين . وكان نيقولا الرابع (١٢٩٢-١٢٨٨) أكثر البابوات الذين شجعوا الرهبان لارتياد جنوب وجنوب شرق آسيا وذلك للتعويض عن الإحباط الذي كان يصيب الأوروبيين من تساقط ممتلكات الصليبيين في فلسطين دون المقدرة على استردادها . وكانت البابوية في أفينيون تتباهى بأن نفوذها قد وصل إلى الصين أي على الشط الغربي للمحيط الأطلنطي لتحسين صورتها - في أذهان رجال الدين والعلمانيين على حد سواء في أوروبا - التي وصلت للحضيض في فترة «الأسر البابلي» في أفينيون . ولهذا أرى - أنه لو كانت هناك إنجازات من وراء هذه البعثات التبشيرية في آسيا فترجع إلى الرهبان أنفسهم.

نهؤلاء الرهبان - مثل بلاطو الكاريبي وأسيلين اللومباردي ووليم روبروك وجون مونت كورفيينو وريكولد مونت كروس وجون دي كورا^(١٢٧) John de Gora ووليم آدم^(١٢٨). واودريك البوردنوني^(١٢٩) وجون المارجنولي وغيرهم - قد تركوا لنا مذكراتهم وخطاباتهم التي تناولوا فيها بشئ من التفصيل أحوال آسيا واقتصادها وسكانها وعاداتها أهلها ودياناتهم ، وهي معلومات وافرة ولا تقل أمانة وموضوعية عن تلك التي استقاها كل من ماركوبولو وابن بطوطة من رحلاتهما في آسيا في تلك الفترة . ولاشك أن هذه التقارير قد أمدت الأوروبيين بمعلومات من الدرجة الأولى عن قارة آسيا أفادتهم كثيرا في المراحل الأولى للكشوفات الجغرافية لتلك القارة ، بل كانت من أكبر العوامل التي دفعت الأوروبيين لمحاولة اكتشافها .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن نجاح العديد من الرهبان الكاثوليك في إجاده لغات السكان المحليين - مثل السريانية والأرمنية والعربية والفارسية فضلا عن اللغة المغولية جعلهم على درجة عالية في فهم ثقافات وأديان وأحوال الشعوب التي تعاملوا معها ، وبعضهم ترجم الكتب المقدسة إلى بعض هذه اللغات المحلية وهم بذلك وضعوا أسس الاستشراق الحديث ، فضلا عن أنهم كانوا وسيلة انتقال بين ثقافات الشرق لأوروبا ، والعكس صحيح أيضاً . وأهم من هذا وذاك ، فإن هؤلاء الرهبان كانوا وسيلة احتكاك وتقريب بين العالم الكاثوليكي وبين المسيحيين الشرقيين في آسيا . وكانت تجربتهم في الشرق - بما فيها من نجاح أو فشل - قد ألهمت بعثات المغول في القرن السادس عشر لمحاولة تكميله ما بدأه أسلافهم .

أسباب فشل البعثات التبشيرية الكاثوليكية في تنصير المغول :

من المنطقى أن نرصد أسباب فشل البعثات الكاثوليكية في تنصير المغول عامه ومغول فارس خاصة ومنها :

أولاً : عدم اعتنac حكام المغول للمسيحية كان من أسباب إحباط الغرب الأوروبي عامه والرهبان الكاثوليك الذين ذهبوا لآسيا المغولية خاصة . فالبابوية وملكا فرنسا والمجابر وجهوا جل اهتمامهم لتنصير حكام المغول ، لأن في اعتنac الآخرين للمسيحية تحفيزا لرعاياهم على الاقتداء بهم . ولكن ايلخانات فارس البوذيين دخلوا في عملية مساومة مع قادة الغرب الأوروبي بالتلويح لهم بحسن معاملتهم للمسيحيين وأنهم في طريقهم للتنصر ، لو أرسل الآخرون المساعدة العسكرية المطلوبة ضد الماليك . وتعلق الغرب بهذا الأمل الخادع كثيرا حتى أن البابا نيكولا الرابع (١٢٩٢-١٢٨٨) أرسل مع عدة

سفارات من قبله ومع سفراه المغول العديد من الخطابات لأرغون والدته وزوجته وأمراه دولته والقادة المعبيطين به للضغط على الأخير للتنصير ولكنه مات بوفيا . فالغول - وهم قوم بدائيون - احتلوا مناطق متحضره، وأهلها كانوا يدينون بالبردية (في الصين) أو بالإسلام (في التركستان وفارس وجنوب روسيا) . وبعد استقرار المغول في هذه المناطق - وهم أقلية ضئيلة بالمقارنة بأغلبية المحتلين - فانهم لم يريدوا اعتناق ديانة أو مذهب ديني أجنبي عن رعاياهم لأن في ذلك إثارة لعداء المحكومين . فعندما طلب الأخوان بولو من قوييلى خان اعتناق المسيحية ، فإنه رد عليهم بقوله إن رعاياه البوذيين يستطيعون بغير صعوبة الإجهاز على حياته (١٢٠) .

والغول اعتنقوا ديانات ومعتقدات رعاياهم لضمان ولائهم لهم واستقرار عروشهم في الحكم ، فاعتنق قوييلى خان وخلفاؤه بوذية رعاياه الصينيين ، واعتنق حكام مغول روسيا وفارس والتركستان الإسلام الذي كان دين الأغلبية الساحقة لهذه المناطق قبل احتلال المغول لها (١٣١) .

ثانيا : عدم وجود دولة قوية في آسيا تدين بالذهب الكاثوليكي لرعاية الرهبان الكاثوليك ودفع حركة التبشير للأمام . فأرمينيا الصغرى لم يعتنق عمامة سكانها الذهب الكاثوليكي ولم تستطع حماية المسيحيين الشرقيين من الإضطهادات التي تعرضوا لها من عمامة المسلمين سوا ، قبل اعتناق غازان الإسلام أو بعده ، وذلك لأنها كانت تابعة للمغول وقد ازداد وضعها سوءاً بتأثير الضريات المتلاحقة التي وجهها لها الماليك واعتناق حكام المغول للإسلام .

ثالثا : كان بعد المسافة وصعوبة الاتصال بين مراكز الرهبان في الشرق (في بكين أو في الهند أو تبريز) عن مقدمي أديرتهم (في أوروبا) أو البابوية (في روما أو أفينيون) ، فضلاً عن عدم وجود وسائل آمنة للإمداد أو التموين أو الحماية لهؤلاء الرهبان من العوائق الجوهرية لانتشار الرهبان في آسيا ، أو استمرارهم فيها . فالراهب كان يقطع المسافة من أفينيون لإيجانية فارس أو للصين في سنوات طويلة ، فكم من بعثة مات أفرادها أو غالبيتهم في الطريق ، وأدت الجبال المرحشة والصحاري المقفرة والحيوانات المفترسة وبعد المسافة وقلة الزاد والعتاد إلى وفاة العديد من الرهبان العزل من كل حماية طبيعية أو بشرية وخطابات وتقارير الرهبان التي بعثوها للبابوية مليئة بتصوير

هذه العوائق^(١٣٢) . فضلاً عن قلة عدد الرهبان وسط أغلبية ساحقة من المسلمين (في وسط آسيا وغربها) والبوديدين (شرقها) .

رابعاً : عدم إتقان الرهبان الكاثوليك للغة المحلية للسكان وعدم ترجمة الكتب المقدسة للفارسية أو اللغات الصينية أو الهندية كان حائلاً دون استجابة السكان غير الكتابيين لل المسيحية الكاثوليكية . فالرهبان كانوا يمارسون طقوس العقيدة باللاتينية (في أرمينيا) أو السريانية (في فارس) أو المغولية (في الصين) وهي لغات غريبة على السكان المحليين . حقيقة أن مجمع فيينا المskونى فى الرسم الثاني فى ٦ مايو عام ١٣١٢ م قرر ضرورة تدريس اليونانية والعربية والعبرية والسريانية فى جامعات روما وباريis وأكسفورد وبولونيا وسالا مكنا ، ولكن جامعة باريس هي التي نفذت هذا الرسم ولعدة سنوات فقط^(١٣٣) . ولهذا لم تجد البابوية الرهبان المؤهلين لغريا للتبشر بين السكان الآسيويين ، لدرجة أن البابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣٣٤-١٣٦٦) طلب من ملك أرمينيا الصغرى أن يأمر رعاياه بتعلم اللغة اللاتينية حتى يسهل على الرهبان الكاثوليك التبشير بينهم^(١٣٤) (١١١) وفي هذا المجال يبعث أسقف مدينة الزيتون بالصين رسالة مؤرخة في ٣ يناير ١٣١٨ للبابا ولقدم دير الفرنسيسكان بأوروبا . يقول فيها «حقيقة أن المحصول وافر (في إشارة لكثره الراغبين في التنصر) ولكن العمال (في إشارة للرهبان) قليلون ولايمثلون آلات الحصاد الازمة (أى لغة السكان) وذلك لأن إخوتنا (الرهبان) قلائل وفي أرذل العمر وغير مهرة في تعلم اللغات» (الخاصة بالسكان)^(١٣٥) ، وبالتأكيد كان لعدم فهم السكان المحليين في فارس وفي الهند أو الصين للغة الرهبان أو العكس أثره على استجابتهم للنصر أو استمرارية من تنصر منهم في الاستحساك بنصراته وقد أكد هذه الحقيقة الرهبان أنفسهم^(١٣٦) في خطاباتهم التي بعثوها للغرب . وعلى النقيض من ذلك، تجد أن العرب قد حشو سكان المناطق التي فتحوها - بطريقة أو باخرى - على تعلم اللغة العربية وعدم ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات المحلية وبذلك ضمنوا لهم الآخرين للإسلام نصاً وروحاً وهذا أحد عوامل استمرارية الدين الإسلامي في المناطق التي دخلها .

خامساً : الخلافات المذهبية بين الرهبان الكاثوليك والمسيحيين الشرقيين حالت دون تعاونهم المشترك وأدت في أحيان كثيرة لفشل جهود المبشرين الأوروبيين ، فالكاثوليك كانوا يعتبرون نسطور وأتباعه هرطقة ملحدين لأن مذهبهم ينكر أن السيدة العذراء «والدة

الرب» وظلوا يتعاملون معهم على هذا الأساس . فالراهب وليم روبروك يتهم رهبانهم وكهنتهم بأنهم مرابون وفاسقون وسكيرون . ويقول عنهم أيضاً أنهم كانوا شديدي الجهل وأنهم لم يستطعوا حتى فهم كتب صلواتهم التي كانت مدونة بالسريانية . وأنهم يتعاجرون بالمناصب الدينية ولا يبالون إلا بجمع الشروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة و يؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الكنيسة^(١٣٧) ويأتي بعد ذلك ماركتو بولو بأربعين عاماً ليقول عن مسيحي الصين أنهم قوم جهلاً، وعديم الكفاءة^(١٣٨) ويؤكد جون المونت كورفينو - مطران بكين الفرنسسكاني - أنه لولا مضائقات النساطرة له وشكاويمضائقات لهم ضده للخاقان وتحريضهم العامة ضده لاستطاع اجتذاب ثلاثة ألفاً من السكان (بدلاً من ستة ألاف فقط) للكاثوليكية^(١٣٩) . وقد رأينا أن نساطرة بغداد طردوا الرهبان الكاثوليك منها متذمرين رغبة أسفتهم في سيادة كنيسة روما عليهم ، وبطبيعة الحال فإن إنشاء مطرانية كاثوليكية في السلطانية عام ١٣١٨ قد تقر اليعاقبة والنساطرة من الرهبان الكاثوليك وجعلهم في موضع المنافسة معهم^(١٤٠) .

وفضلاً عن ذلك كانت المنافسة بين كل من الرهبان الفرنسسكان والدومينيكان التي وصلت لدرجة أن الرهبان الفرنسسكان في بعض الأحيان لم يعترفوا بسلطة الأسقف الدومينيكانى لتبريز عليهم . كما أن ظهور الاشتقات بين الفرنسسكان أنفسهم متمثلة في مذهب الروحين الذي أداته البابوية وترتب على ذلك طرد البقية الباقيه من رهبانهم من ايلخانية فارس عام ١٣٤٤ ، وحتى الرهبان الدومينيكان انقسموا بين عدة نحل ومذاهب^(١٤١) وهذا كله كان له أثاره المدamaة ليس فقط على أسلوب تعاملهم مع غيرهم من فئات وطوائف وديانات مختلفة بل على وجودهم في بيشه غريبة عنهم بكل المقاييس .

سادساً : و يتعلق بالأوضاع الأمنية بوسط آسيا وشرقها . فلاشك أن فترة «السلام التترى» الناجمة عن تأمين المغول للطرق والبريد وحماية المسافرين منذ عام ١٢٤٠ حتى ١٣٤٠ تقريباً قد شجعت حركة التجارة الداخلية فضلاً عن تشجيع كل من التجار الإيطاليين ومعهم الرهبان الكاثوليك في ارتياح مناطق جديدة ، كانت مجاهولة لهم . ولكن في أحيان كثيرة لم تتوقف الحروب بين ايلخانية فارس ومغول التركستان أو بين مغول فارس ومغول روسيا أو بين الماليك وأرمينيا الصغرى أو مغول فارس والماليك وهذا من شأنه سد الطرق وجعلها غير آمنة تماماً . فضلاً عن القلاقل الداخلية من المسلمين

سواء ضد الحكام أو ضد المسيحيين عموماً كما حدث عدة مرات وفي عدة مناسبات وفي مناطق عديدة بصفة عامة وفي ايلخانية فارس بصفة خاصة وهذا أحدث أشد الأضرار بالرهبان الكاثوليكي وأدبيرتهم وكنانسهم. وبإضافة إلى ما تقدم، فإن وباء الطاعون الأسود الذي اجتاح العالم في عامي ١٣٤٨-١٣٤٩ قد أفنى عدداً كبيراً من السكان ومنهم الرهبان الكاثوليكي . ومن ثم ظلت مراكز الآخرين في آسيا شاغرة بعد هذا التاريخ . وأيضاً تزامن طرد أسرة منج Ming لأسرة يوان المغولية عام ١٣٦٨ التنكيل بكل الأجانب بها وسد الطريق البري مع غرب آسيا ، وسبق ذلك سقوط دولة الإيلخانات في فارس وتفككها لعدة أجزاء متناحرة فأضاف هذا صعوبات كبيرة ليس فقط لوجود الرهبان الكاثوليكي أو مراكزهم ولكن أيضاً لوجود المسيحيين الشرقيين أنفسهم . كما أن غزو تيمورلنك لغرب آسيا (١٣٦٩-١٤٠٥) وتدمره لعشرات المدن وقتل كثير من سكانها مسلمين ومسيحيين قد قضى على البقية الباقيه من المسيحيين الشرقيين ومراكزهم الدينية ، وفصل آسيا عن أوروبا^(١٤٢) وهو الدور الذي أكمله الاتراك العثمانيون بعد ذلك بقليل، ومن ثم أصبحت الاتصالات بين غرب أوروبا ووسط آسيا وشرقها صعبة جداً لقرنين من الزمان تقريباً .

سابعاً : كما أن هناك أسباباً كامنة في الديانة الإسلامية نفسها هي التي جذبت الآلاف من المغول - ومن قبلهم ومن بعدهم الملايين من الوثنين وغيرهم من جميع بقاع العالم لاعتقادها ، ومنها بساطة العقيدة الإسلامية وعقلانيتها وتسامحها مع أهل الذمة ، والتأثير البطئ الدائم الذي يحدّثه الاتصال اليومي بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامي ، وتأثير حياة الورع والتقوى التي كان يعيها عامة المسلمين على المغول ، ولأن الإسلام دين النطرة فإنه لم يجعل هناك واسطة بين المسلم وربه . فضلاً عن إقرار الإسلام لتعدد الزوجات (مع العدل بينهن والميسرة) جعله أكثر اقتراباً لحياة المغول الاجتماعية بعكس المسيحية التي قيدت الزواج بوحدة وحرمت زواج الأقارب^(١٤٣) . وهذا يفسر سر اعتناق ثلاثة أرباع المغول في عالم العصور الوسطى للإسلام دون غيره من الديانات السماوية .

الهراش

١- أرنولد ، توماس : الدعوة إلى الإسلام ، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية . ترجمة إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين وأسماعيل النعراوى . القاهرة . د . ت ص ١٩١ ، حسن ابراهيم حسن: «انتشار الإسلام بين المغول والتنار» . صحيفة الجامعة المصرية ، ١٩٣٣ ، ص ٢٦ .

٢- لقد كانت النحلة البوذية منتشرة بين القبائل التركية في شرق آسيا حيث جاء أصحابها من الهند وأشاعوها في الصين والبلاد المجاورة . وبالنسبة للإرسالية فيبدو أن المبشرين بها قد وصلوا لمنطقة ما وراء النهر قبل عهد قسطنطين العظيم ، واعتنقت بعض القبائل التركية النصرانية على يد الأساقفة النساطرة في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وتوجد دلائل أخرى مكتوبة بالصينية والسريانية عام ٧٨١ توضح ورود النساطرة للصين منذ عام ٦٣٥ ، ولكن الصينيين طردوا النساطرة وغيرهم من الأجانب عام ٨٤٥ . والمهم أن قبيلة الآيفور - التي كانت تسكن من جبال قراقورم حتى جنوب سمرقند - قد تنصرت واتضى بها قبيلة الجفتان وتدعى الخطايا . وفي أوائل القرن الحادى عشر الميلادي تنصرت أيضاً قبيلة الكرايت ، وكان ملوكها نصارى يسمى كل منهم «أونك خان» ومعناه الملك يوحنا . وقبل أن الأساقفة النساطرة كانوا يرسمونهم ملوكاً وكهنة معاً . ولذلك عرفتهم الأوروبيون باسم الكاهن يوحنا Prester John والرابع منهم هو الذي غلبه على ملكه سنة ١٢٠٣ أحد عملائه المسمى تيموجين وهو المشهور باسم جنكيز خان . وقد تزوج الأخير ابنة أخي أونك خان وهي نصرانية وألجب منها ولده منكوخان . لويس شبيخو اليسوعي «النصرانية بين قدماء الآتراك والمغول» . مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ، ١٩١٣ ، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .

٣- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٩١ ، جوزيف نسيم يوسف ، لويس التاسع في الشرق الأوسط . ص ٢٦١ .

4- William Rubruck , in Dawson : The Mongol Mission , p. 160 .

٥- رحلات ماركو بولو ، ترجمتها إلى الإنجليزية ولهم مارسدن ، ونقلها إلى اللغة العربية عبد العزيز جاويد . القاهرة . د . ت . ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

٦- المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

٧- المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٤٧ - ١٥٠ .

Barthold , W : Turkestan Down to the Mongol Invasion . 3 rd . ed . Eng . Trans . by Mrs. T . Minorsky . London , 1968 , pp . 468 - 481 .

٨- انظر ما سبق دراسته عن السفارات المتبادلة بين البابوية وللملغول في عهد البابا أنوسنت الرابع وللمزيد من التفاصيل :

Cf . Paul Pelliot " Les Mongol et la Papaute " , R . O . C . Vols . XX 111 XX V111 , Paris , 1922-32 .

٩- القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة حسن حبشي ص ٢١١ .
١٠- المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

11- William Rubruck , in Dawson , op . cit . , p. 155 .

12- Ibid , pp. 202 - 4 .

١٣- جامع التواریخ م ٢ ج ١ ، ص ٢٢٠ ، ويؤيد هذه الروایة المؤرخ الأرمني المعاصر

Grigor of Akano Cf . History of the Nation of the Archers , p. 241 .

١٤- فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ، صفحات ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٤ .

١٥- حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٣٨ .

16- The Chronography of Gregory Abul Faraj , 1225-1286 , p. 431 .

١٧- الحوادث الجامدة والتجارب النافعة في المائة السابعة . طبعة بغداد عام ١٣٥١ هـ ، ص ٣٢٩ .
١٨- المصدر السابق ، ص ٣٣٣ ، ص ٣٣٤ .

١٩- فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ١٠٥ .

٢٠- كتاب السلوك ، ج ١ ، القسم الثاني ص ٤٢٥ .

٢١- المصدر السابق ونفس الصفحة .

٢٢- محمد صالح داود القرزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٢١٦ - ٢٢٦ .

23- Cf . Jackson ; " The Crisis in The Holy Land " op . cit . , p. 495 .

٢٤- محمد صالح القرزاز : المرجع السابق ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .
٢٥- المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

٢٦- المرجع السابق ص ٢٨٥ ، عبد السلام نهمي : تاريخ الدولة المغولية في إيران ، ص ١٦٦ - ١٦٩ .

٢٧- لل Mizid من التفاصيل ونص الرسائل المتبادلة بين تكودار أحمد والمنصور قلاوون انظر :

ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٦٢ ، ١٦ ، المقريزي :
كتاب السلوك ج ١ ، ق ٣ ملحق رقم ٧ ص ٩٧٧ - ٩٨٤ .

-٢٨- القزار : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ ، عبد السلام نهمى : المراجع السابق ، ص ١٧٣ .

-٢٩- ابن النوطي البغدادي : الحوادث الجامدة ، ص ٤٥٤ ، القزار : المراجع السابق ، ص ٢٩٠ - ٢٨٨ .

30- Bausani , A ., "Religion Under the Mongols " , in Cambridge History of Iran , vol . 5 . Cambridge , 1968 , p. 541 ;
القزار : المراجع السابق ص ٢٩٠ .

-٣١- ينقل المؤرخ الفارسي وصف الحضرة نماذج من الشعر الذي تناقله العامة أثناء فترة وزارة سعد
الدولة اليهودي التي تصور مدى كراهية الرعية له ومنها :

يهود هذا الزمان قد بلغوا	مرتبة لا ينالها فلك
الملك فيهم والممال عندهم	ومنهم المستشار والملك
تهربوا قد تهرب الفلك	يا معاشر الناس قد نصحت لكم
فانتظروا صبحة العذاب لهم	فعن قليل تراهم هلكوا

Cf . Browne , Edward : A Literary History of Persia . Cambridge , 1951 , vol , 11 , p. 32 .

-٣٢- فور مصرع سعد الدولة والشكيل باليهود ، نظم الشاعر العراقي زين الدين على بن سعيد
قصيدة طويلة في هذا الشأن منها :

هذا القرود اليهود قد هلكوا	محمد من دار باسمه الفلكل
وافتضروا في البلاد وانهتكوا	وقارن النحسر سعد دواتهم
وبالحسام الصقيل تدسبكوا	وشتب الله شمل ملوكهم
وارتكبوا الريقات وانهكوا	كم حكموا في البلاد ولا حكوا
من بعد ما في زمانهم ضحكوا	ابكاهم الله عاجلاً أنسا
وأنتم شر أمة تركوا	فانتم شر أمة سلفت
لضل ذاك الإباب والنسلك	عبدتم العجل دون خالقكم

(نقل عن تاريخ وصاف) . Cf . Browne , op . cit . 11 , pp. 34 , 35 .

-٣٣- القزار : المراجع السابق ص ٢٩١ ، ٢٩٠ ، Spuler , Bartold

Die Mongolen in Iran . Liepzig , 1939 , p. 718 .

- ٣٢- الفزار : المرجع السابق ص ٢٩١ ، عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ١٨٩ .
- 35- Atiya , A.S. ‘ The Crusade in the Later Middle Ages , p. 2 38 fn . 2.
- 36- William Rubruck , in Dawson : The Mongol Mission , p. 215 .
- 37- Cf . Borghozio , “ Un Episodio delle relazioni tra la sede e i Mongoli (1274) ” in Rome , vol . 14 , pp . 370 , 71 .
- 38- Ibid , pp . 371 , 72 .
- ٣٩- الفزار : المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٣ - ٣١٤ .
- ٤٠- الفزار : المرجع السابق ص ٣١٤ .
- 41- Howorth , History of the Mongols , 111 , p. 210 .
- ٤٢- رحلات ماركي بولو ، ص ١٥ .
- ٤٣- المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ ، ١٧ ، ١٧ : Rachewiltz , Papal Envoys to the Great Khans , pp.155,156 .
- ٤٤- رحلات ماركي بولو ، ص ١٣٤ .
- ٤٥- نفس المصدر والصفحة .
- ٤٦- المصدر السابق ، ص ١٤٩ .
- 47- Howorth , op . cit ., 111 , p. 280 ; Borghezio , op . cit ., pp. 365 , 366 .
- 48- Howorth , op . cit ., 111 , p. 280 ; Borghezio , op . cit ., pp. 365 , 366 .
- 49- Howorth , op . cit . 111 , p. 281 .
- 50- Loc . cit ., Connell , Western Views of the Tartars , p. 206 .
- ٥١- سبق أن أرسل البابا أنونست الرابع بعثة على رأسها الراهب الفرنسيسكاني لورانس البرتغالي عام ١٢٤٥م لكيار رجال الدين النساطرة والبعاقبة والأرمي والإغريق لحثهم على خضوع كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية الأم في روما . لمزيد من التفاصيل عن مدى نجاح هذه البعثة انظر :
- Phaire , Barbare , Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245 - 1254 : An Analysis , pp . 28-39 .
- ٥٢- ولد نسطور في شمال الشام في بداية القرن الخامس الميلادي ، ودرس اللاهوت في مدرسة انطاكية . وفي عام ٤٢٨م اختير لمنصب بطريرك القدسية ، وليس معروفا أنه قام بزيارة

للشرق على الإطلاق، ولكنها نفى إلى صحراء مصر عندما حكم عليه بالهرطقة في مجمع أنوسوس عام ٣١٤م . وكانت أهم معتقداته تدور حول طبيعة المسيح عليه السلام . ومنها أن السيدة مريم ليست أما للرب ولكنها والدة للمسيح وقال « إنني لا أستطيع أن أتحدث عن إله عمره شهرين أو ثلاثة شهور » . ومن آرائه كذلك أن الشخص الثاني في الثالوث لم يولد من العذراء ، وأن المسيح مات على الصليب باعتباره بشرًا . وقال « كيف تستطيع (السيدة) مريم أن تلد إليها ويكون خالقها ؟ » وأيضاً « لو مات الرب فمن يستطيع أن يعيش من موته ؟ » وهذا يعني أن نسطور كان يؤمن بأن المسيح عليه السلام له طبيعتين : إلهية وبشرية . ولكن فشل في إقناع أعضاء مجمع أنوسوس بأرائه التي أصر عليها فحكم عليه بالهرطقة ونفي إلى مصر عام ٤٣٦م . ولكن أساقفة الشرق الذين لم يحضروا هذا المجمع رفضوا قراراً بهرطقة نسطور وعقدوا عدة مجامع محلية لتأييده ، وانتشرت معتقداته في أماكن كثيرة في آسيا منذ ذلك الحين وأنشئت فيما بعد أسقفيات نسطورية في سوريا وأرمينيا وفارس . وفي مدن هرا ومرزو وطشقند وكشغر والعبر وكذلك في بلاد الصين وكان مقر بطريرك الساساطرة في بغداد أنظر :

Hauston , G. W. , " An Overview of Nestorians in Inner Asia" Central Asiatic Journal . Vol . XX IV , 1980 , pp. 60-68 .

53- Rabban Sawma , The Monks of Kublai Khan , pp . 172 - 195 also CF. Mann, H. K. Lives of the Popes in the Middle Ages, vol . X V II, 1289 - 94 . London , 1931 , pp. 45-47 , Ryan : The Interrelation of the Oriental Mission and Crusade Activities of the papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 , pp. , 26-36 .

54- Rabban Sawma , op . cit ., p. 190 .

55- Moule : Christians in China Before the Year 1550 , pp. 112-115 . also cf . Ryan , وقد أورد مول (Moule) الترجمة الانجليزية لهذه الرسائل .

56- Mann , Lives of the Popes , X VII , p . 48 .

٥٧ - دأبت بعض القوى اللاتينية على التحرش ببيزنطة فور استعادة ميخائيل الثامن باليولوجس للقسطنطينية عام ١٢٦١م . وأرسل الأخير الوفرد للبابوية يعدها بخضوع كنيسة الإغريقية لها بل والمشاركة في حملة صليبية لـ اعتبرت البابوية ملكيتها للقسطنطينية وتركت عن الدعوة لحملة صليبية ضد بيزنطة . ولكن شارل الألنجوي والبنادقة هاجموا السواحل البيزنطية عدة مرات ، ولو عود البابوية لميخائيل بتحريم المعدين على أملاكه من رحمة الكنيسة لو خضع لنفوذها ، فان الامبراطور البيزنطي أرسل مبعوثيه في مجمع ليون عام ١٢٧٤م لإعلان خضوع كنيسته للبابوية

، ولكن البيزنطيين قاوموا هذا الأمر بشدة . ولاعتداءات شارل الانجلي والبنادقة على بيزنطة وأصدر البابا فارات الحerman ضد الامبراطور البيزنطي فان الوحدة بين الكنيستين الأرثوذكسيه والكاثوليكية لم تتمر طريرا وكانت حبرا على ورق .

Cf . Setton , K . M : The Papacy and the Levant . Vol. I , pp . 128 , 134 -137 , 140-3,483.

58- Moule : Christians in China , pp . 123 ,24 .

59- Loc . cit .

60- Chabbot , " Notes sur les relations du Roi Argun avec l` Occident" Revue de l`Orient Latien , II , 1844 , pp . 581 - 3 ; also cf . Ryan , op . cit , pp. 19 - 21 .

61- Chabbot , op . cit ., p . 584 ; Moule , op . cit ., p. 114 ; Ryan , op . cit p. 22 .

62- Chabbot , op . cit ., p. 589 ; Ryan , op . cit ., p. 24 .

63- Loc . cit .

64- Moule , op .cit ., pp . 116-117 ; Ryan , op .cit , p. 28 .

65- Sawma , op . cit ., p . 199 ; Moule , op . cit ., pp . 116-117 .

66- Spuler , Bartold , Die Mongolen in Iran , Leipzig , 1939 , p. 218 .

٦٧- ولد جون في مونت كورفينو بسيالبرنو عام ١٢٤٦م أو ١٢٤٧م . وكان جنديا ثم قاضيا ومعلما في بلاط فردرريك الثاني . ثم انضم لجماعة الفرنسيسكان . وقد أرسله مقدم هذه الجماعة إلى الشرق عام ١٢٨٠ حيث قضى عدة أعوام في فارس وفي أرمينيا للتبشر بالعقيدة المسيحية . وفي عام ١٢٨٩ أرسله ملك أرمينيا الصغرى على رأس سفارة للبابا ليصف له ما تعرضت له بلاده من خراب وتدمير على يد الماليك ويطلب منه تحذير الأرمن . ولظروف سياسية فإن البابا تجاهل هدف بعثة جون وأعاد إرساله إلى الشرق للتبشر بالعقيدة المسيحية .. CF.Moule , p . 167 ; Ryan , op. cit ., pp . 38-41 .

68- Ryan , op . cit ., pp . 42-57 .

69- Ibid , pp . 56 - 69 ; Moule : Christians in China , pp . 168-171 .

70- Hisang , Paul Stanislaus : The Catholic Missions in China During The Middle Ages (1294-1368) . Ph . D . Diss . Washington , D. C ., 1949 , pp . 2 , 3 ; Rachewiltz , Papal Envoys , pp . 160-164 .

Rachelwitz, op. cit., p. 164

٧١- ماركوبولو : المصدر السابق ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

72- Cf . The Letters of John of Monte Corvino , in Yule , H . (ed . trans .) Cathay and the Way Thither . Vol . III . London , n. d pp. 45-58 ; Dawson : The Mongol Mission , pp . 224-232 , Moule , Christians in China , pp . 171-183 .

73- Loc . cit ; Rachelwitz , Papal Envoys , p. 169 .

٧٤- نشر Moule الترجمة الكاملة لهذه المراسم .

Cf . Christians in China Before the Year 1550 , pp. 183-191 , also cf . Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages , pp . 250 , 251 .

٧٥- ظل منصب رئيس أسقفية بكين شاغرا فترة من الوقت بعد رفاة جون مونت كورفينو عام ١٣٢٨ وفى عام ١٣٣٣ م رسم البابا راهبا يدعى نيكولا Nicholas فى هذا المنصب ولكن الأخير توفي قبل وصوله إلى الصين . وفى عام ١٣٣٨ م أرسل الخان المغولى فى بكين سفارة للبابا بندكت الثانى عشر (١٣٤٢-١٣٣٤) على رأسها أحد الرهبان الفرنسيسكان وتضم خمسة عشر نسطوريًا من قبيلة اللان لطلب المزيد من الرهبان الكاثوليك وسرعة تعين رئيس أساقفة لبكين فضلا عن طلبات أخرى . ومن ثم أرسل هذا البابا أنعة رهبان فرنسيسكان وصل منهم جون المارجونيoli John of Marignoli عام ١٣٤٢ م الذى استقر فى بكين عدة أعوام فى رعاية الحاكم المغولى وحمايته ، حتى رجع لافينيون الذى وصلها عام ١٣٥٢ م وترك مذكراته عن تجربته فى جنوب آسيا وشرقها . أما عن أسقف الزيتون فان آخر مرة ورد له ذكر كان فى خطاب من الصين عام ١٣٢٦ م وأن هذه الأسقفة قد حولت إلى مطرانية ولكن جيمس الفلورنسى James of Flor- ens أولاً من عين لها لم يصل إلى الصين لأنّه قُتل فى آسيا الصغرى عام ١٣٦٢ . وقد رسم البابا أوربان الخامس عام ١٣٧٠ ولـيم أوف براتو William of Prato رئيساً لأساقفة بكين ولكن الأخير لم يصل إلى الصين أبداً . وقبل ذلك بعامين طردت أسرة يوان المغولية من الصين وقضى على كل الأجانب الباقيين على قيد الحياة بما فيهم أصحاب الديانات السماوية .

لتفاصيل البعثات الكاثوليكية فى الصين فى القرن الرابع عشر الميلادى انظر :

Yule , Cathay , III , pp . 3-76 ; Moule , Christians in China , pp. 168-215 ; Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , pp . 161-187 ; Rachewitz , op . cit ., pp . 160-213 ; Hisiang : The Catholic Missions in China During the Middle Ages (1294-1368); Baldwin , W . Marshall , Missions to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries “, in Setton (ed) A History of the Crusades, V , pp. 498 ff .

٧٦- ولد ريكولد في منطقة كروس بجوار فلورنسا عام ١٢٦٧ م ودخل في حياة الرهبنة في دير الدومينيكان في منطقة توسكاني وكان لا هو تيما بارعا ، وقد تجول في آسيا الصغرى والعراق وفارس فضلا عن الأرض المقدسة حيث قام بجهد كبير في مجال التبشير بالعقيدة في هذه البقاع ، وترك مؤلفات مميزة تصف أحوال هذه البلاد وسكانها وكيفية ممارستهم لشئون العقيدة، خاصة وأنه كان يتقن اللغة العربية. ويعتبر ريكولد كروسي رائدا للمبشرين الأوروبيين في دراساته عن الشرق الإسلامي. وقضى الفترة من عام ١٢٨٨ حتى عام ١٣٠١ بايلخانية فارس كراهب دومينيكانى ورجع لايطاليا عام ١٣٠١ . وتوفي في ٣١ أكتوبر عام ١٣٢٠ عن عمر يناهز Cf. Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , pp . 190 , 1 الشانين عاما ..

77- Ibid, pp. 192, 6, 98 .

78- Ibid , p. 198 .

79- Ibid , p. 200 .

80- Beazley , op . cit ., p. 199 .

٨١- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

82- Beazley , op . cit., pp. 201 , 202 .

83- Ibid , pp . 202,203 .

٨٤- للتفصيل أنظر Moorman , John : A History of the Franciscan Order from its Origins to the Year 1517 . Oxford , 1968 ; Daniel E : The Franciscan Concept of Mission in the High Middle Ages . Kentucky , 1975 .

85- Phaire : Papal Motivations for an Asian Apostolate , pp . 60-69 ; Rachelwits , op . cit , pp. 112 , 113 .

86- Baldwin , "Missions to the East," op . cit . V , p. 482 .

87- Moule : Christians in China, pp. 210-13 .

88- Ibid , p. 255 ; Saunders . J . J . Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Canterbury , 1977 , pp . 82 , 3 , 92 , 3 .

89- Cf . The Chronography of Gregory Abu L . Faraj, pp. 487 , 488 .

٩- كان رامون لول Ramon Lull (١٢١٦-١٢٣٢) من رواد الفرنسيسكان في العصور الوسطى الذين تركوا بصمات واضحة ليس فقط على جماعة الرهبان الفرنسيسكان ولكن أيضا على دراسة

الأوربيين للعلوم واللغات الشرقية فقد كان لول يجيد أربعة لغات أجنبية منها اللغة العربية التي تعلمها في شمال أفريقيا وترجم إليها بعضاً من مؤلفاته بغرض شرح العقيدة المسيحية للسكان العرب بلهجتهم . وقام بتأليف العديد من الكتب في اللاهوت والفلسفة ومقارنة الأديان وغيرها . وكان صاحب فكرة أن تحويل المسلمين والمغول للمسيحية الكاثوليكية أكثر إفادة للغرب الأوروبي من قتالهم ، وقدم في عام ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ عدة مذكرات للبابوية يشرح فيها كثافة وأهمية جذب المغول للمسيحية خشية اعتمادهم للإسلام أو اليهودية فيكونوا خطراً على المسيحيين . وكان صاحب فكرة تدريس اللغات للرهبان وذلك للتشجيع بلغة السكان المحليين ، وهذا الاقتراح أخذ به مجمع فيينا السكوني عام ١٣١٢ ، وفضلاغن ذلك كان له العديد من الخطط والمشروعات لإحياء الحمارات الصليبية ودونها في مذكرات قام بتسليمها بنفسه للبابوية وللملك وأمراً، الغرب الأوروبي في باكورة القرن الرابع عشر .

وباعتباره راهباً فرنسيسكانياً فإنه أخذ على عاتقه محاولة تحويل المسلمين في شمال أفريقيا لل المسيحية . ومن ثم سافر ثلاثة مرات لهذه المنطقة لهذا الغرض، فوصل إلى تونس في المرة الأولى عام ١٢٩٢م لكن العامة قبضوا عليه وقد ذُر بالحجارة وانتشرت نارب جنوبي في المبنى من موت محقق . وقد وصل إلى مدينة باجة الجزائرية في المرة الثانية عام ١٣٠٧م ودخل في محاورات مع رجال الدين المسلمين ، ولكن قاضي المدينة أمر بحبسه ستة أشهر لطعنه في الإسلام تارة ولخطبته من بطيش العامة تارة أخرى . ورجع رامون لول لتونس عام ١٣١٥م حاملاً خطابات توصية من ملك إريجون للخليفة الحفصي ، وبينما على ذلك سمح له بالبقاء هناك شريطة عدم إثارة المسلمين ، ولكنه لم يتزلم بذلك ، وأمر مفتى البلاد باقصائه خارجها . فرحل رامون إلى مدينة باجة الجزائرية وما أن رأى العامة وتعرفوا عليه حتى رموه بالحجارة حتى لقى حتفه على الشاطئ في بداية عام ١٣١٦م ونقل جثمانه تاجر من البندقية إلى جزيرة بما حيث دفن هناك .

Cf. Atiya , A.S. : The Crusade in the Later Middle Ages , pp . 74-94 .

91- Rachewiltz , Papal Envoy , p. 174 .

92- Baldwin , "Missions to the East" , p. 507 , 8 .

٩٣ - كان بركه خان (١٢٥٦-١٢٩٧م) هو أول من أسلم من أمراء المغول . وقبل في سبب إسلامه أنه التقى يوماً مع عبّر للتجارة أتية من بخاري ولما خلا بـ تاجرين منهم سألهما عن الإسلام فشرحاه له شرعاً مقنعاً انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والأخلاق له . وقبل أن بركه اعتنق الإسلام من طفولته ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوشنده . ومهما يكن من أمر ، فإن كل جيشه تقريباً قد اعتنق الإسلام وأنه جرت العادة بأن كل فارس يحمل

سجادة للصلة ، وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقه وعلماء الكلام وكانت المناظرات الدينية تشغل أكثر مجالسه مع العلماء ، وكان سبباً شديداً للتمسك بدينه . توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٩٧ .

٩٤- «الجاو» عمله ورقية كانت مستخدمة في الصين في عهد المغول ، وقد تحدث ماركوبولو عنها تفصيلاً (الرحلات ص ١٦٨ - ١٧٠) فقال أن هذا الورق كان يصنع من لحاء ورق الثوت ، وكان يوجد عدد من الموظفين المخصصين الذين يهرّونها بأختامهم ثم تختتم بالخاتم الملكي . ولم يتجرأ إنسان على رفض قبولها كعملة للدفع وإلا كان مصيره الإعدام . وكانت الرعية والتجار الأجانب يستبدلون ما معهم من ذهب وفضة بما يعادله من هذه العملة الورقية . وعندما تبلى هذه النقود فان صاحبها كان يحملها إلى دار الضرب حيث يستطيع الحصول على أوراق جديدة بدلاً منها مقابل دفع ثلاثة في المائة فقط . ولهذا كان الذهب والفضة المقابلين لهذه العملة بحوزة الخاقان المغولي وحده . ومن ثم اعتبر ماركوبولو أن الأخبر أغنى ملوك العالم ، وقد حاول كيخاتوفان أن يستبدل العملات المتداولة في إيلخانية فارس من ذهب وفضة باصدار عملة الجاو الورقية . وفي يوم السبت ١٩ من شوال عام ١٢٩٣هـ / ١٢٩٤ ظهر الجاو في مدينة تبريز . وكانت الأوامر تقضى بقتل كل من لا يتعامل به في الحال نظير أن يقوم السكان والتجار بتسليم ما معهم من ذهب وفضة لتدوبي الخان لقاء ما يعادلها من هذه العملة الورقية . وصار الناس يتعاملون بها أسبوعاً واحداً خشية السيف ولكنهم فروا من المدينة وهجروها وترتب على ذلك أضرار اقتصادية بالغة تناولها رشيد الدين الهمذاني في فصل كامل بعنوان «وضع الجاو المشوش والاضطرابات التي ظهرت في البلاد بسببه» . انظر : جامع التوارييخ ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ص ١٨١ - ١٨٤ لهذا فإن وضع الشهادتين على هذه العملة الورقية كان لترغيب السكان - وأعلبتهم الساحقة من المسلمين للتتعامل بها .

٩٥- نوروز هو ابن عم أرغون آقا الذي كان يحكم إيران من قبل المغول قبل مجئ هولاكو وقد ظل (أرغون) يحكم هذه البلاد مدة ٣٩ عاماً . وقد وقع اختبار إيلخان أرغون على الأمير نوروز ليصحب ابني غازان فيكون مساعداً له ونائباً عنه في حكم خراسان . فؤاد عبد المعطي الصياد : السلطان محمد غازان خان المغولي واعتنقه الإسلام . القاهرة ١٩٧٩ ص ٤ ، ٥ .

٩٦- مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٦ ، الصياد : المرجع السابق ص ٧ .

٩٧- للتفصيل انظر : مصطفى بدر : المرجع السابق ص ١٧ - ٣٢ ، الصياد : المرجع السابق ، ص ١٦ - ١١ .

- . ٩٨- مصطفى بدر : المرجع السابق ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، الصياد : المرجع السابق ، ص ١٧ .
- . ٩٩- الصياد : المرجع السابق ص ١٧ .
- 100- Bar Hebraeus : The Chronography , pp. 506 , 7 . Spuler , op . cit , pp. 219 , 20 ;
الصياد : المرجع السابق ، ص ١٣ .
- 101- Spuler , Die Monglen in Iran , p. 219 .
. ١٠٢- الصياد : المرجع السابق ص ١٤ ، ١٩ .
- . ١٠٣- مصطفى بدر : مفول ایران بين الاسلام وال المسيحية ص ٣٥ - ٥٠ ، الصياد : السلطان غازان
محمد خان المغولي واعتناقه الإسلام ص ٢٦ - ٢٨ .
- . ٤- للتفاصيل انظر توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢١٥، ٢٠١؛ حسن ابراهيم حسن
«انتشار الإسلام بين المغول والتتار» ص ٤٩ - ٥٧ .
- 105- Vine , Aubrey R : The Nestorian Churches , London , 1937 , pp. 152 , 3 ; Spuler ,
op . cit , p. 220 ; Moule , Christians in China , pp. 120 - 22 .
- 106- Bar Hebraeus : The Chronography , pp. 506 , 7 ; Spuler , op . cit ., pp. 220 , 21 .
- 107- Spuler , op . cit ., p. 220 .
- 108- Loc . cit .
مصطفى طه بدر : المرجع السابق ص ٥٢ - ٥٨ .
- 109- Saunders : Muslims and Mongols , pp . 82 , 85 .
توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٠١ .
- . ١١٠- توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥٢ ، ٣٥١ .
- 111- Cf . The Monks of Kublai Khan , pp . 210 , 211 , 221 , 22 .
- 112- Ibid , pp . 234 , 35 , 247 , 251 , 252 .
- 113- Spuler , op . cit ., p. 220 ; Howorth , op . cit ., p. 442 .
- 114- Spuler , op . cit ., p. 220 .
. ١١٥- انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .
- 116- Baldwin , "Missions to the East" , op . cit . V , p. 515 .
- 117- Howorth , History of the Mongols , III ; p. 603 ; Beazley : The Dawn of Modern

.Geography , III , p. 206 ; Baldwin , " Missions to the East " op . cit ., V , p. 505 .

١١٨ - عن هذه التفاصيل انظر :

Baldwin , " Missions to the East " op . cit ., V .. pp . 505 - 508 .

119- Ibid , p. 508 .

120- Baldwin , " Missions to the East , " pp . 507 , 8 .

121- Loc . cit .

122- Ibid , pp . 508 . 9 .

123- Beazley , op . cit ., III . pp . 213 , 214 .

124- Baldwin , " Missions to the Eas't , op . cit ., V , p. 510 .

125- Browne : The Eclipse of Christianity in Asia , pp . 170-172 .

Vine : The Nestorian Churches , pp . 158 - 160 .

126- Atiye : The Crusade in the Later Middle Ages , p. 255 ;

Browne : The Eclipse of Christianity , p. 173 .

١٢٧ - كان الراهب الدومينيكانى جون دى كورا John de Cora رئيساً لأساقفة السلطانية بفارس والذى رسنه البابا حنا الثانى والعشرين عام ١٣٣٠ . وفي تلك الفترة كتب دى كورا تقريراً للبابا عن أحوال امبراطورية المان الأعظم فى بكين متضمناً معلومات اقتصادية واجتماعية وافرة عن إقليم الصين وسكنه ، وعن الرهبان الكاثوليك به ومستقبل البعثات التبشيرية هناك . وقد ترجم هذا التقرير للإنجليزية .

Cf . Yule (ed . & trans) Cathay and the Way Thither , vol . III . pp . 89-103 .

١٢٨ - وليام آدم William Adam (١٣٤١-١٢٧٥) راهب الجبلينى درس اللاهوت قبل أن ينتمى لجماعة الرهبان الدومينيكان . واختاره البابا كلمنت الخامس (١٣١٤-١٣٥) فى بعثة تبشيرية للشرق حيث ذهب للقسطنطينية وأسيا الصغرى وسوريا ثم رجع للغرب عام ١٣١٣ ثم رحل ثانية حيث تحجول فى ايلخانية فارس والهند ثم رحل إلى عدن ومنها إلى شرق إفريقيا فى أثيوبيا للتبشر بالذهب الكاثوليكى ، ورجع لأفغانستان فى عامى ١٣١٦ ، ١٣١٧ . ثم أوفده البابا حنا الثانى والعشرين للشرق ليتولى منصب وكيل مطرانية السلطانية والى عاد منها إلى الغرب عام ١٣٢٢ ثم رسنه البابا ثانية مطراناً للسلطانية خلفاً لفرنسس دى ببروجيا . ثم انتقل بعد ذلك

للعمل في أرمينيا الصغرى ، وكان لتواجده في منطقة المحيط الهندي وخليج عدن وأثيريا دافعا لأن يعرض على البابا فكرة ضرب تجارة مصر عن طريق وجبرد قوات للأوربيين في هذه المناطق وعمل حصار اقتصادي على المسالك بالسيطرة على الخليج العربي من ناحية فارس والبحر الأحمر.

Atiya , op . cit . , pp. 65 - 67 .

١٢٩- أودريك البسوردوني Odoric of Pordenone (١٣٣١-١٢٤٧) راهب فرنسيسكاني بدأ رحلاته للشرق في عام ١٣١٦ إلى الصين عبر القسطنطينية وتبيرز وبغداد وهرمز والمبر وسبلان ومدراس وسو مطرا وجاوه حتى وصل إلى الزيتون و يكن في الصين حيث استمر بها ثلاثة أعوام . وشاهد جون المونت كورفيني وبعد ذلك رجع مرة ثانية إلى أليون عام ١٣٣٠ م بالطريق البري عبر الصين وافغانستان ثم إلى الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين ، وقد ترك مذكراته عن هذه الرحلات التي يرى ريموند بيزالي - أستاذ الجغرافية التاريخية في أكسفورد في أوائل هذا القرن- أنها تبرهن مذكرات ماركوبولو نفسها في كثير من أجزائها وشموليتها .

Cf . Beazley , op . cit . III , pp. 250 - 287

للمزيد من التفاصيل

وعن الترجمة الإنجليزية الكاملة لهذه المذكرات :

Cf . Yule , Henry : Cathay and the Way Thither . vol . II . London , 1913 .

. ١٣٤- ماركوبولو ، ص ١٣٤ .

131- Saunders , J . J : Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Canterbury , 1977 , pp . 85 , 6 ; also cf . A. C . Moule , " The Failure of Early Christian Missions to China " in East and the West , 1914 , p. 410 .

١٣٢- انظر بصفة خاصة الخطاب الثاني الذي أرسله الراهب جورдан الفرنسيسكاني من مدينة تانا الهندية في يناير ١٣٢٣ لزملائه الرهبان الكاثوليك في فارس

Cf . Yule (ed . Trans) Cathay and the Way Thither , III , pp . 78-80 ; also Baldwin , " Missions to the East " , op . cit . V p. 516 .

133- Braun , Matthias , " Missionary Problems in the Thirteenth Century " , in Catholic Historical Review , vol . 25 , 1939 - 40 , pp . 145-159 , Ballwin , " Missions to the East " pp . 488 , 89 , 516 .

134- Baldwin , op . cit . , p . 516 .

135- Cf . " The Letter of Brother Peregrine : Bishop of Zaytun . " in Dawson (ed.) : The

Mongol Mission , p . 233 .

136- Moule , A. C . , "The Primitive Failure of Christianity in China " , in the International Review of Missions . Vol . 20 , 1931 , p. 458 .

. ١٣٧ - جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأرسط ، ص ٢٦٤ .

. ١٣٨ - ماركتو بولو : المصدر السابق ص ١٣٤ .

139- Cf . , " First Letter of John of Monte Corvino " , in Yule (ed) Cathay and the Way Thither , vol III , pp . 45 , 46 .

140- Saunders : Muslims and Mongols ; pp . 88 , 89 .

141- Baldwin , " Missions to the East " : pp. 492 , 507 - 510 .

142- Browne : The Eclipse of Christianity in Asia , pp . 172 , 39 . Atiya , op . cit . , p. 255 ; Saunders , Muslims and Mongols , pp 89 , 90 , Baldwin , " "Missions to the East " , pp . 517 , 518 .

. ١٤٣ - للمزيد من التفاصيل انظر : توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٣٤ وما بعدها ، حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام بين المغول والتعار .

Muldoon , James :

"Missionaries and the Marriages of Infidels : The case of the Mongol Mission" : , in the Jurist , vol . 35 , 1975 , pp . 125 - 141 .

الفصل الرابع

تجار المدن الإيطالية في آسيا المغولية

عناصر الفصل :

- عصر «السلام المغولي» وفتح الطرق التجارية وتأمينها .
- المزايا التي حصل عليها التجار الإيطاليون في أسواق الإيلخانية
- السلع التي تاجر فيها الإيطاليون في أسواق المغول .
- أوضاع التجار الإيطاليين في الإيلخانية :
 - أولاً : تجار جنوة
 - ثانياً : البندقة
 - ثالثاً : المجاليات الإيطالية الأخرى .
- التجار الإيطاليون في الهند والصين
- نتائج الحصار الاقتصادي على مصر على تجار اللاتين في إيلخانية فارس .
- بداية النهاية للوجود اللاتيني في أسواق المغول .
- أسباب توقف التجار الإيطاليين عن ارتياح أسواق المغول منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تقربياً .

عصر «السلام المغولي» وفتح الطرق التجارية وتأمينها :

لعبت سياسة المغول دوراً هاماً في تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى . فهذه السياسة بنيت على أساس فتح أبواب التجارة والطرق التجارية للجميع ، وتأمين التجار وضمان سلامتهم ومتلكاتهم إبان وجودهم بين ظهرانيهم فترة سيطرتهم على معظم قارة آسيا في الفترة التي سميت بالسلام المغولي Pax Mongolica منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف الرابع عشر الميلادي⁽¹¹⁾ .

فمنذ أن قتل الحاكم الخوارزمي لمدينة أورار تجبار جنكيز خان عام ١٢١٨ م والنتائج التي ترتبت عليها ، ومنها استئصال شأفة الخوارزميين ، وكل رعايا المغول يعملون ألف حساب لضمان سلامة التجار ومتلكاتهم في أراضيهم . وضاعف من أهمية فتح الطرق التجارية وتأمينها هو سيطرة المغول على القسم الأكبر من قارة آسيا ووجود طريقين (من ثلاثة في العالم الوسيط) لنقل منتجات الشرق الآسيوي للغرب الأوروبي في حوزه حكام المغول وهما :

الطريق الشمالي أو طريق الحرير العظيم الذي يربط البحر الأسود غرباً بالصين شرقاً عبر العديد من المدن والمحطات التجارية البرية في وسط آسيا .

الطريق الثاني وهو الطريق الجنوبي (البحري والبرى على حد سواء) حتى الخليج العربي ومنه إلى مدن العراق وإيران ومنها شمالاً إلى موانئ البحر الأسود أو غرباً إلى ميناء إيسار الأرمني أو أسواق الشام .

وكان تأمين الطرق التجارية أمراً هاماً بالنسبة للمغول الذين كانت عاصمتهم في قراقوز وجيوشهم قد وصلت إلى بولندا في وقت ما ، وذلك لحاجتهم في الانتقال الدائم للجنود والمعدات العسكرية (سواء بين عاصمتهم قراقوز وبين مراكز توسعاتهم في آسيا وأوروبا ، أو في مرحلة الصراع الداخلي بين ممالك المغول في آسيا بعد منتصف القرن الثالث عشر) فضلاً عن تبادل - غنائم الحرب والسفارات بين قواد المغول وبعضهم البعض .

ومن ثم فمنذ الأربعينات من القرن الثالث عشر استخدم المغول طريق تجارة طريق الحرير العظيم الذي كان مستخدماً في الأزمنة القديمة للتجارة بين الصين والأمبراطورية الرومانية ويمتد من البحر الأسود ويمر أزويف AZOV إلى الشرق مارا بسراي Sarai عاصمة القبيلة الذهبية على مصب نهر الفولجا - ومن هناك يعبر التجار بحر قزوين إلى نهر أورال Ural ثم يتذخرون

الطريق البرى مرة أخرى إلى بحر آرال Aral ثم إلى جنوب بحيرة بلخاش Balkhash على امتداد جبال تيان شان Tain - Shan داخل بلاد الصين . وأحيانا من بحيرة بلخاش إلى بخارى ثم سمرقند ثم غزنة إلى الهند أو حول هضبة بامير إلى داخل الصين . وكان هذا الطريق الذى يمتد إلى شمال آسيا بثابة البديل الوحيد الموصى إلى الطريق البحري على المحيط الهندى الذى لم يكن آمنا فى بعض الأحيان ^(٢) .

ولم يكن طريق الحرير العظيم ذا فائدة بالنسبة لغزوات جيوش المغول فحسب بل أفاد أيضا فى الاتجاه العكسي - رحلات المبعوثين الدينيين والتجار الأوروبيين إلى قلب امبراطورية المغول ولقد ترك ماركو بولو وصفا رائعا لعنابة المغول بالطرق العامة والبريد فقد أنشأوا محطات كل خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلا وبها دور لراحة المسافرين فى الطريق . وزودها بالحراس والسعاة ووضعوا علامات لهداية المسافرين وأمراوا بغرس الأشجار على جانبيها ^(٣) .

وقد اثنى ابن بطوطة على حفظ المغول للمسافرين فى الطريق أثناء زيارته للصين فى الثلث الأول للقرن الرابع عشر ، فقال « إن بلاد الصين أأمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين ، وأن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها » ^(٤) .

وقد سيطر ايلخانات مغول فارس على واحد من أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وهو طريق المحيط الهندى - الخليج العربى - هرمز - البصرة - بغداد ومنها إلى أسواق دمشق وحلب أو اياس حيث تباع سلع الشرق الآسيوى للتجار الإيطاليين الذين كانت لهم أحيا خاصة بهم فى الموانئ الصليبية أو فى الأسواق المحلية للمسلمين أو الصليبيين فى الشام على حد سواء .

ونتج عن المذايحة التى أحدثها المغول بسكنى أمهات المدن الإسلامية فى وسط آسيا فى النصف الأول للقرن الثالث عشر هجرة التجار من بغداد والبصرة فرارا من مذايحة الغزاة . وقد هاجر هؤلاء التجار - ومعظمهم من المسلمين - إلى مينا ، قالبيقوت على ساحل الملبار (أو المعبر طبقا لابن بطوطة) بالهند . حيث منعهم حكام هذه المدينة من الهنود امتيازات عديدة . ويفضل هؤلاء التجار أصبح هذا المينا ، المتواضع خلال فترة قصيرة أهم مينا ، لتجار الشرق فى مياه المحيط الهندى ^(٥) وهذا يعنى أيضا أن مدينة بغداد - بعد تدمير المغول لها - قد فقدت مكانتها التجارية التى كانت عليها قبل ذلك .

ولهذا قام مغول فارس فور استقرارهم في البلاد بالاهتمام بمدينة تبريز وجعلها ابغا خان . (١٢٦٥-١٢٨٤) عاصمة له لوقعها على الطريق التجاري البري بين الشمال والجنوب وريطروها بينما ایاس الأرمنى على البحر المتوسط بعدة محطات تجارية وشجعوا التجار الأرمن والسيrians والمسلمين أيضا على مزاولة أنشطتهم التجارية .

ولما كان ملك أرمينيا الصغرى تابعا للخان المغولي فانه رحب بهذه الخطوة الهامة ومنع البنادقة امتيازات تجارية عديدة في هذا الميناء ، ومنهم إعفاءات ضريبية كثيرة ، بل وضائق التجار المسلمين في بلاده نكأية في المالكين الذين انتصروا على المغول وتواضعهم من الأرمن والجرجرجانيين في موقعة عين جالوت . وكانت هذه التصرفات من قبل الأرمن سببا في انتقام الظاهر بيبرس منهم بعد ذلك بقليل .

والمهم أن الإجراءات الأمنية لحماية الطرق وتأمينها ظلت سياسة ثابتة الأركان طوال عهد دولة الأيلخانات فكانت حراسة الطرق في عهد أرغون خان مسئولية أمير نشيط وحازم . ولكن تحول حرس الطرق في عهد كبخاتوريابيدو (١٢٩١-١٢٩٥) إلى شركاء للصوصوقطاع الطرق في نهب المسافرين . ولكن غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤) واجه هذه الحالة السيئة بحزم وصرامة . إذ كانت عقوبة الإعدام تقع على اللصوص ومن يتأمر معهم . وكان هناك ما لا يقل عن عشرة آلاف من الحراس المسلمين في حركة دائمة ووظيفتهم فقط الحفاظ على أمن الطريق^(٦) .

وقد امتدح ماركتو بولو هذه الإجراءات بقوله إنه «نشأ نظام خاص يقضى في جميع الطرقات التي يخشى فيها الخطر بالزحام السكان بناء على طلب التجار أن يزودوهم بادلاء نشطين آمنا ، يقومون على إرشادهم وأمنهم بين كل ناحية وأخرى ويتقاضون أجرا مقداره جروتان (عملة فضية إيطالية صغيرة) أو ثلث عن كل دابة محملة تبعا للمسافة^(٧) .

وقد تزامن استقرار المغول في إيران والعراق مع سقوط مدينة القدسية في يد آل باليولوجس البيزنطيين في يولية عام ١٢٦١^(٨) . وسقوط القدسية في يد البيزنطيين وجهت ضربة شديدة للبنادقة . وقام آل باليولوجس بالقبض على تجارهم في هذه المدينة وفي موانئ البيرة Pera وتانا Kaffa على البحر الأسود وقتلهم باعتبارهم من القراصنة^(٩) .

وأدى انتشار الجنوبي في حوض البحر الأسود - الذي يسيطر عليه حينئذ مغول القفقاق أن تقربوا من بركة خان الذي منحهم امتيازات واسعة وأحياء كاملة في هذه الموانى . وقد أدى ذلك الأمر إلى انفراط الجنوبي تدريجيا - ولفتره طويلا - بنقل الرقيق من جنوب روسيا ومنطقة القوقاز إلى أسواق البحر المتوسط عامه وإلى موانى المالك خاصه ما أدى إلى تقوية العسكرية المملوكية التي قامت على استيراد الرقيق وتنشئتهم نساء عسكريه ليكونوا عمام الجنديه فى مصر^(١٠) .

وكذلك انتعشت التجارة مع موانى البحر الأسود - التي كانت قد تأثرت بغزو سلاجقة الأتراك لآسيا الصغرى - مرة أخرى بسبب إحياء طريق التجارة عبر إيران وأذربيجان خاصة وأن بلاد سلاجقة الروم وجورجيا الصغرى وأرمينيا الصغرى قد خضعوا لسلطة المغول أيضا .

ومنذ عام ١٢٦١م استخدم التجار الإيطاليون مدينة طرابيزون الواقعة على الحافة الجنوبيه الشرقيه للبحر الأسود وأصبح طريق تبريز - طرابيزون هو الأكثر استخداما لنقل تجارة العبور الواردة من المحيط الهندي إلى تبريز إلى البحر الأسود وذلك لأن الطريق البديل وهو تبريز - اياس لم يكن مأمونا لعدة أسباب منها :-

أولا : الفارات والخروب شبه المستمرة بين مغول فارس والمالك . تلك الحروب التي اتخذت من منطقة شرق العراق وشمال الشام مسرحا لها حتى نهاية عهد غازان خان .

ثانيا : أن المالك حاولوا ماروا ضرب مينا اياس الأرمني حتى لا يكون منافسا للموانى المصرية ونظرا لعنف الضربات المملوكية لمملكة أرمينيا الصغرى وللخراب الذي واجهه هذا المينا في مناسبات متقاربة ، فان التجار عجزوا عن الانتقال من تبريز إلى سواحل البحر المتوسط في سنوات كثيرة . ولهذا فضلوا الطريق الشمالي (تبريز - طرابيزون) .

ولكن هذا لاينفي أن مينا اياس قد عاش فترات رواج اقتصادي خاصه في الفترة من ١٣٤٥ حتى ١٣٦٠ وهي فترة الحصار الاقتصادي الأوربي على موانى المالك ، إذ سمح الآخرون لتجارهم بالذهب إلى مينا اياس بالحرير والقطن والتواابل لبيعها للتجار الإيطاليين هناك طيلة امتناع الآخرون عن دخول الموانى المصرية ، في حين أن سلاطين المالك كانوا يستفيدون من الرسوم على هذه السلع بطريقة أو بأخرى^(١١) خاصة وأن حكام أرمينيا الصغرى كانوا يدفعون الجزية للمالك وهم صاغرين نظير سكتهم عنهم .

المزايا التي حصل عليها التجار الإيطاليون في أسواق الآيلخانية :-

ولقد كانت فترة حكم المغول لإيران والعراق فريدة من نوعها في العصور الوسطى بالنسبة للتجار الأوروبيين - وأغلبتهم الساحقة إن لم يكن جميعهم من الإيطاليين - وذلك لأن آيلخانات المغول سمحوا لهم - ليس فقط بحرية الدخول والخروج لبلادهم ، بل أيضاً في الانسياح في أنحائها وفي كل مكان من قارة آسيا دون تثريب عليهم . وهذا لم يكن معمولاً به في الموانئ المصرية والشامية^(١٢) ، إذا كان مسماً فقط للتجار الإيطاليين بالتعامل مع التجار المسلمين أو في أسواقهم في دمياط والأسكندرية فقط وسمح لهم بالذهاب إلى القاهرة في بعض الأحوال ، ولكن منعوا من ارتياض البحر الأحمر ومن التاجرة في هذا الطريق الهام للتجارة بين الشرق والغرب أو أن يتصلوا بذلك الحبشة وذلك للخوف من اتحاد الصليبيين والأقباط في أي مشروع لضرب الإسلام من ناحية . ومن ناحية أخرى من أجل إحكام سيطرة المالكية واحتكار أسرار الطرق التجارية حتى لا تخرج من أيديهم^(١٣) . أما في الشام فقد سمح للتجار الأوروبيين بالذهاب إلى أسواق دمشق وحلب وغيرهما من المدن الشامية في حدود وظروف معينة ولكن حرم عليهم الانسياح أبعد من ذلك شرقاً إلى بغداد أو الخليج العربي . ولهذا جاءت فترة السيطرة المغولية على طرق التجارة في آسيا فرصة سانحة للتجار الإيطاليين لاختراق الحاجز الإسلامي الذي سد الطريق أمامهم للحصول على سلع ومنتجات الشرق الآسيوي مباشرة وبدون وساطة التاجر المسلم أو غيره .

وكان هذا يعني المزيد من الأرباح للتجار الإيطاليين الذين أمكنهم من خلال آيلخانية فارس - السفر للهند وجزر الهند الشرقية والصين للحصول على منتجاتها من المنتج الأصلي وبأسعار رخيصة جداً إذا ما قورنت بالأسعار التي يدفعونها لتلك السلع في الموانئ المصرية للتاجر المسلم .

فقد كان طبيعياً أن يرتفع ثمن السلع الشرقية عند وصولها إلى مصر نتيجة لتكاليف إنتاجها ومصاريف الوصول إليها وحملها إلى مصر والرسوم المفروضة عليها في اليمن وتعدد الوسطاء الذين تمر عليهم . كما تأثر ثمنها بالضرائب التي تفرض عليها أثناء مرورها بمصر باعتبارها من أهم مصادر الإيراد الحكومي . وليس غريباً إذا قيل كذلك أن الحكومة المصرية كانت تحبني ما يعادل شحنة سفينة عن كل أربع سفن^(١٤) أي رسوماً جمركية قدرها خمسة وعشرين في المائة من ثمن السلعة . وفي المقابل فإن حكام مغول فارس كانوا يحصلون على

مكوس منخفضة جداً على الواردات المارة ببلادهم وعلى نسبة من أربعة إلى خمسة في المائة فقط على السلع التي يحضرها التجار الإيطاليون لأسواقهم ، في حين أن زملاءهم الإيطاليين كانوا يدفعون رسوماً قدراها عشرين في المائة^(١٥) (تم تخفيضها فقط بوجب معاهدة عام ١٣٥٥م بين المالك والبنادقة إلى عشرة في المائة بالإضافة إلى اثنين في المائة مصاريف نقل)^(١٦) في الموانئ المصرية . وهذا معناه باختصار أن التاجر الإيطالي كان يدفع بالأسكندرية أربعة أضعاف ما يدفعه زميله في تبريز على نفس السلعة والحمولة .

وفضلاً عن ذلك فإن التجار الإيطاليين قد وجدوا في أسواق تبريز الحرير الخام المنتج في منطقة القوقاز بشهرته المدوية في الأسواق الأوروبية لاستخدامه في صناعة الحرير بالمدن الإيطالية^(١٧) فضلاً عن توافر سلع أخرى امتلأت بها أسواق إيران والعراق لم تكن متداولة في أسواق الأسكندرية .

فضلاً عن أن التجار الإيطاليين قد وجدوا في قادة المغول (البيوذيين بصفة خاصة) رعاية كريمة أفضل كثيراً مما كانوا يلقونه في مصر ، لأن الإيلخانات كانوا يعتبرون الأوروبيين حلفاء المستقبل بالنسبة لهم ، ولذا عينوا بعضًا من التجار الإيطاليين سفراً لهم لدى قادة أوروبا وجعلوا بعضًا منهم مستشارين لهم وأعطوهـم من الامتيازات والمنـح والأعـطـيات ما فـاق تصـورـاتـهم . ولكن في مصر كانوا يعاملـون على أنـهم «تـارـة يـكـونـون غـزـاـة لا تـطـاق ضـراـوة ضـرـهم وـلا تـطـفـأ شـرـهـم ، وـتـارـة يـكـونـون سـفـارـاـ (تجـارـاـ) عـلـى حد قول صـلاح الدين الأـيوـبي للـخـلـيـفة العـبـاسـيـ فيـ بـغـدـادـ عـام ١١٨٢ـ مـ / ٥٨٨ـ هـ^(١٨) . وذلك للدور الخطير الذي لعبـهـ التجـارـ الإـيطـالـيـونـ فيـ الحـروبـ الصـلـيـ比ـيـةـ وـلـأـنـهـمـ كـانـواـ يـأـتـونـ موـانـىـ الـمـسـلـمـيـنـ أوـ يـهـجـرـونـهاـ تـبعـاـ لـصـاحـبـهـمـ الشـخـصـيـةـ وـجـرـيـاـ وـرـاءـ اـمـتـياـزـاتـهـمـ التـجـارـيـةـ . وـلـهـذـاـ فـانـ بـعـضـ الـجـالـيـاتـ التـجـارـيـةـ الـأـيـوـبـيـةـ قـدـ تـعـرـضـتـ فـيـ بـعـضـ الـمـنـاسـبـاتـ لـلـطـرـدـ أوـ الـاعـتـقـالـ مـنـ قـبـلـ الـأـيـوـبـيـينـ وـالـمـالـكـيـكـ حـينـماـ كـانـتـ تـتـعـرـضـ مـوـانـىـهـمـ لـعـدـوـانـ صـلـيـبـيـ لـبـاعـازـ أوـ تـحـريـضـ أوـ مـسـاعـدـةـ مـنـ هـذـهـ الـجـالـيـاتـ أوـ اـنـتـقاـمـاـ مـنـ الـلـاتـيـنـ بـصـفـةـ عـامـةـ . وـهـذـاـ لـمـ يـحـدـثـ فـيـ اـيـلـخـانـيـةـ فـارـسـ حـتـىـ عـامـ ١٣٣٥ـ مـ لـاـخـتـلـافـ الـظـرـوفـ السـيـاسـيـةـ وـلـأـنـهـمـ هـنـاكـ عـوـمـلـوـاـ عـلـىـ أـنـهـمـ حـلـفـاءـ بـيـنـماـ عـرـمـلـوـاـ فـيـ مـصـرـ عـلـىـ أـنـهـمـ أـعـدـاءـ وـقـتـ الـحـربـ وـأـصـحـابـ مـصـالـحـ وـقـتـ السـلـمـ .

وـمـنـ الـواـضـعـ أـنـ تـجـارـ جـنـوـةـ وـالـبـنـدـقـيـةـ قـدـ سـارـعـواـ لـاستـغـلـالـ هـذـهـ الـظـرـوفـ الجـاذـبةـ لـهـمـ فـيـ الـانـسـابـاـجـ دـاـخـلـ الـمـدـنـ الإـيـرـانـيـةـ وـالـعـرـاقـيـةـ وـالـتـوـغـلـ شـرـقاـ إـلـىـ الـهـنـدـ وـالـصـينـ .

كما شجع ايلخانات فارس أولئك التجار على ارتياه بلادهم والاستقرار فيها لما يعود عليهم من منافع متمثلة في الضرائب والمكوس وجلب سلع أوروبية لقصورهم . فضلا عن استخدام هؤلاء كسفراء لهم إلى العواصم الأوروبية أو في قصورهم . وفي نفس الوقت وجد مغول فارس في التجار الأجانب الفرصة لتعويض الخلل الذي أصاب أسواقهم لهجرة التجار المسلمين لموانئ اليمن والهند والصين . وقد حاول أرغون الاستفادة من الكثرة العددية للتجار الإيطاليين في بلاده وخبرتهم الحربية والبحرية في إنشاء أسطول لتسبيبه في الخليج العربي والمحيط الهندي عام ١٢٩٠ لضرب تجارة المالك الواردة إليهم من جنوب آسيا وشرقها في محاولة للنيل من اقتصادهم وذلك لتعريض الفشل العسكري المتكرر ضدهم .

وليس معروفا مقدار ما تغلب المكوس والضرائب من التجار الإيطاليين على خزينة حكام المغول في فارس وذلك لأن هؤلاء التجار مهما كثر عددهم - حتى لو افترضنا صحة رواية مكمل حولية ابن العبرى بوجود تسعينات منهم عام ١٢٩٠ - كانوا قلة ضئيلة بجوار الآلاف من التجار المسلمين^(١٩) والسريان والأرمن والجورجانيين وغيرهم الذين امتلأت بهم أسواق الآيلخانية من هرمز جنوبا حتى تبريز شمالا .

ولكن الضرائب والمكوس التي كان يحصل عليها حكام المغول من التجارة عام ١٢٠١ قد استرعت انتباه كثير من الرهبان والتجار اللاتين الذين مرروا بآيلخانية فارس .

حتى أن الراهب الفرنسيكياني أو دريك البيردوني Odereic of Pordenone الذي زار تبريز في عهد أبو سعيد خان (١٣١٦-١٣٣٥م) قد دهش من كثرة التجار بأسواقها ومن كثرة المعروضات من سلع الشرق والغرب ، وقرر أن ملك البلاد يحصل على دخل من هذه المدينة فقط أكثر مما يحصله ملك فرنسا من كل بقاع ملكته^(٢١) .

وقد وصف ماركوبولو هذه المدينة في زيارته لها بعد وفاة أرغون خان بقوله أنها «في موقع بالغ المواجهة للتجارة بحيث يفد إليها التجار من الهند وبلاش (بغداد) والموصل وكربلا (هرمز)» فضلا عن أصناف مختلفة من أوروبا ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع ، وفي الامكان الحصول في هذا المكان على الأحجار النفيسة واللآلئ بكميات وفيرة ويحوز التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية ثروات ضخمة^(٢٢) ويبدو أن الانبهار بأسواق مدينة تبريز لم يتوقف على الأوروبيين وحدهم . إذ يقرر الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار هذه المدينة في نهاية عهد أبو سعيد أنه رأى «سوقاً عظيماً تعرف بسوق قازان (أى غازان) من أحسن سوق

رأيتها في بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لاتخالطها أخرى ، واجتازت بسوق الجواهرين فحار بصرى بما رأيته من أنواع الجواهر ... »^(٢٣).

ولكن الامتيازات التي منحها ايلخانات فارس للتجار الإيطاليين في بلادهم والخطابات العديدة التي أرسلها خلفاؤهم في حكم تبريز (بعد عام ١٣٣٥م) لللامحاح على هؤلاء التجار في العودة لبلادهم لممارسة أنشطتهم التجارية ، والوعود التي قطعواها على أنفسهم بتخفيض المكوس لهم وشمولهم برعايتهم وحمايتهم^(٢٤) دليل آخر على أهمية الدور الذي قام به هؤلاء التجار في ايلخانية فارس .

السلع التي تاجر فيها الإيطاليون في أسواق المغول :

أما عن السلع التي أحضرها التجار الإيطاليون لأسواق المغول عامة وللمراكز التجارية في ايلخانية فارس خاصة فكانت متعددة ، فمنها الجواهر والأحجار الكريمة وهي التي كانا يتاجر فيها مافييو ونيقولو بولو سواء بين مغول روسيا أو في حضرة الخان الأعظم قوبيلاي خان^(٢٥) . ومنها النسووجات والأقمشة التي حلتها بيترو فيجليوني Pietro Viglioni - أول تاجر بندقى يصل إلى تبريز ويموت فيها عام ١٢٦٤م . ولما كانت البندقية لاتنتج هذه الأقمشة فانها كانت مستوردة من أسواق المانيا ولومبardiا وستانفورد بالإنجليز . وقد حمل تجار جنوه كميات كبيرة من الأقمشة لأسواق تبريز عبر طرابيزون^(٢٦) . ويبدو أن حاجة أسواق المغول لهذه المنتجات كانت كبيرة الأمر الذي حدا بالتاجر الفلورنسى بيجلوتي Peglotti أن يوصى التجار الإيطاليين عام ١٣٣٠ - في كتابه عن طريق التجارة إلى الصين - الذاهبين لأسواق المغول بأخذ كميات كبيرة من الأقمشة لارتفاع الطلب عليها وارتفاع ثمنها^(٢٧) ولقلة المعروض منها . وتوجد وثيقة جنوية عبارة عن عقد مشاركة بين الأخوة انسالدو ، جيوفانى ، وجيكومودى أوليفيرا Ansaldo ، Giovanni & Giacomo de Olivera لتأسيس شركة بينهم عام ١٣٣١ أو ١٣٣٢ لتصدير الملابس الفرنسية إلى سوريا وتبريز^(٢٨) .

وفضلا عن ذلك فإن التجار الإيطاليين حملوا معهم الفراء والملابس المصنوعة من الجلد والخزف والزجاج فضلا عن بعض المواد الغذائية^(٢٩) . كما أنهم نقلوا لأسواق ايلخانية فارس آلاف الرقيق من أسواق البحر الأسود وبحر إيجه .

وينقل المؤرخ الفرنسي J. Richard عن مصدر أرمنى كتب في الفترة من عام ١٣١٥ حتى ١٣٢٠ قوله : أن ألفين من الرقيق بيعوا دفعة واحدة في أسواق تبريز وأن مائة

وعشرين ألفا من الرقيق أيضا تم بيعهم في تبريز والمدن الإيرانية والعراقية الأخرى في تلك الفترة^(٣٠). والشك في ضخامة الرقم الأخير لا يجعلنا نتردد في قبول فكرة أن أسواق الإيلخانية كانت عامرة بتجارة الرقيق الذين كان يجلبهم التجار الإيطاليون من الشمال وذلك لتعريض الخلل الخطير في السكان الناتج عن إخلاء مدن بأكملها بسبب المذابح التي اقترفها المغول في تلك المنطقة سواء في مرحلة الصدام مع الخوارزميين (١٢٣١-١٢١٨) أو في المذابح التي ارتكبها قوات هولاكو في بغداد وبعض المدن الإسلامية الأخرى . وكانت الحاجة ماسة لهؤلاء الرقيق في الزراعة والحرف المختلفة فضلا عن استخدام الإيلخانات لهم في الجيش لسد النقص في جيوشهم ولزيادة عددها لمواجهة المخوب التي كانت شبه مستمرة مع المماليك غربا أو مع مغول القفجاق شمالا أو مع مغول التركستان شرقا .

أما عن المنتجات التي نقلها التجار الإيطاليون من أسواق إيران والعراق أو عبرها إلى أسواق أوروبا - (عبر مراكزهم التجارية على البحر الأسود أو في ميناء إيس الأرماني) - فكثيرة ومتعددة . ومنها ما هو منتج في الصين أو الهند أو جزر الملابي وينقله التجار المسلمين لأنساق إيلخانية فارس ، ومنها ما هو من انتاج إيران والعراق .

وكان مينا هرمز مقصدًا للتجار من كل أرجاء الهند طبقاً لرواية مار코 بولو الذي زار هذا المينا أيضاً إذ يقرر أن هؤلاء التجار « يجلبون التوابيل والعقاقير والأحجار الكريمة واللؤلؤ ونسوجات الذهب ، كما يجلبون أنبياب الفيلة (العاج) وأنواعاً أخرى مختلفة من البضائع ، وهنا يبيعون هذه البضائع لمجموعة مختلفة من التجار يتولون توزيعها بكل أرجاء العالم »^(٣١) ومن نافل القول أن نكرر أن هذه المنتجات حملها التجار الإيطاليون (سواء من هرمز نفسها أو اشتروها من تبريز) لأنساق إيلخانية ، ويقرر كلافيجو Glavijo - سفير ملك قشتالة إلى تيمورلنك عام ١٤٠٣ - أن معظم اللآلئ ، الموجودة في بحر الصين ترسل إلى هرمز حيث تقطع وتشتت ، ويقول أنه سمع من التجار المغاربة والمسحيين (في بلاده) أن هرمز هي المكان الوحيد في العالم للعثور على اللآلئ^(٣٢) .

ونتعرف على المنتجات الأصلية لإيران والعراق التي كان التجار الإيطاليون يحملونها ببلادهم من خلال مذكرات مارко بولو الذي زار المركز التجارية الهامة لإيلخانية فارس ووصف لنا منتجاتها ومعروضاتها بعين التاجر البندقى . فيقول عن مدينة يزدي الفارسية - في إمارة أصفهان - أنه كان « يدور بها تجارة عظيمة وبها نوع من قماش الحرير والقصب (الذهب) يصنع بها ويعرف باليزدي ويحمله التجار منها إلى جميع أرجاء العالم »^(٣٣) .

يصف إمارة كرمان التي تقع على الحدود الشرقية لإيوان بأنه يوجد بجبالها الأحجار النفيسة المسماة بالفيروز وكذلك عروق من الصلب . «وهم يصنعون هنا بدرجة عظيمة من الإتقان جميع الأدوات اللازمة لعتاد الحرب ... وكل أنواع الأسلحة المستخدمة عند تلك الشعوب ». ويقتدح الرحالة البندقى المصنعات اليدوية للسكان من المنسوجات الحريرية والستائر وأغطية الفراش بقوله «أنهم ينفذون العمل بمهارة وذوق بالغين يشيران كل الإعجاب»^(٣٤).

ويقرر ماركو بولو أن «جميع الأنسجة الذهبية والحريرية التي نسميها بال المسلمين هي من صنع الموصل ، كما أن جميع التجار الذين ينتعلون موسوليني والذين يحملون الأفواية والعقاقيير بمقادير ضخمة من إقليم إلى إقليم ينتعلون إلى تلك الولاية» ويؤكد أيضاً أن القطن ينتج بمدينتى ماردین وکوش بوفرة عظيمة ومنه يجهزون القماش المسمى البوکاسينى « وأن السكان قوم من الصناع والتجار »^(٣٥).

ويصف ماركو بولو البصرة بأنها «تنتج أجود بلح (قر) في العالم». ويقرر أنه تقوم في بغداد صناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب (القصب) وكذلك صناعة الدمشق فضلاً عن القطيفة (المقصود بها البسط والسجاجيد) المحلاة بأشكال الطير والحيوانات ...» وليس هذا فقط بل يشير أيضاً أنه «تكاد جميع اللائئن» المنقوله إلى أوروبا من الهند أن تجري فيها عملية الثقب في هذا البلد (أى في بغداد)^(٣٦).

وعندما يصل إلى تبريز يصفها بأنها أرفع مدن الآيلخانية شأنًا وأكثرها سكاناً ، وأن سكانها يعتمدون في معاشهم بصفة رئيسية على التجارة والصناعات. ويقرر ماركو بولو أن « الأخيرة تشمل صنع أنواع مختلفة من الحرير بعضها مخلوط بخيوط من الذهب ، وله أنسان عالية في الأسواق ». وأن مدينة تبريز نفسها في موقع بالغ المواجهة للتجارة بحيث يفد إليها التجار من الهند وبغداد والموصل وهرمز «فضلاً عن أصناف مختلفة من أوروبا ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع ». وكانت الأحجار النفيسة واللائئن من المنتجات التي يقبل عليها التجار في أسواق تبريز وكانت رخيصة الثمن . ولهذا يقرر ماركو بولو أن التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية يحرزون ثروات ضخمة^(٣٧).

ويقرر كلافيخو أنه شاهد في مدينة السلطانية الإيرانية العديد من القوافل التجارية الآتية من الهند ، محملة بالتوابل مثل القرنفل والقرفة وجوزة الطيب والمن وقشر جوز الهند . ويؤكد أن هذه السلع تنفرد بها أسواق السلطانية دون مينا ، الأسكندرية ، ويروى السفير القشتالي

أيضاً أن كل الحرير المصنوع في جيلان (قرب بحر قزوين) يحمل لأسواق هذه المدينة حيث ينقله التجار إلى دمشق وبقية أسواق بلاد الشام وأسيا الصغرى^(٣٨). وكان ماركتو بولو قد أكد أن تجار جنوة يذهبون إلى بحر قزوين للحصول على هذا الحرير الجيلاتي الذي كانت له شهرة مدوية في أسواق أوروبا^(٣٩).

ومن الطبيعي أن أسواق إيلخانية فارس والبحر الأسود كانت المصادر البديلة عن الموانئ المصرية والشامية في فترة الحصار الاقتصادي الأوروبي عليها لمنتجات الشرق الآسيوي التي كانت ضرورية للأسواق الأوروبية. ومن هذه السلع الفلفل ، والخلنجان^(٤٠) ، والزنجبيل^(٤١) ، والعصفة الجوزية^(٤٢) ، والزعفران^(٤٣) ، والقرفة الصينية ، والسانامكي^(٤٤) ، وبهار الهند والراوند الصيفي والحبهان وصبغ الفوة والكافور والنند . وكانت هذا السلع تنتج في الهند والصين وجزر الهند الشرقية .

أما عن العطور والبخور التي حملها التجار البنادقة والجنوية من أسواق إيران والعراق إلى الغرب فمن أنواعها : عود الند والمسك وخشب الصندل ، والعنبر والبخور واللادن والمصطكي واللبان الجاوي ، أما عن مواد الصباغة الشرقية التي استخدمت في الصناعة في أوروبا فمنها الفوه والنيلة ودودة القر والشب والنطرون وغيرها^(٤٥) .

ومن المعروف أن هذه السلع سوا تلك المنتجة في إيران والعراق أو المستوردة لأسواقهما من جنوب آسيا وشرقها كانت موجودة أيضا قبل عصر المغول ، وذلك لأن إقليمي إيران والعراق كانوا من أكثر البلاد الإسلامية ازدهارا في الصناعة والتجارة (فضلاً عن العلوم والثقافة) ، وأن شبكة من الطرق الممهدة الآمنة للتجار المسلمين كانت تربط الأندلس وطنجة غرباً بارتار وسمرقند شرقاً وأن الناجر المسلم كان لا يشعر أنه يعبر من إقليم لأخر طالما أنه في دار الإسلام ، ولكن الجديد في عصر السيطرة المغولية أنه أتيح للتجار الأوروبيين أن يجوبوا أسواق آسيا بأنفسهم ويحملوا منتجاتها لبلادهم دون وسيط ، فضلاً عن أن الطرق من إيران إلى البحر المتوسط (ميناء اياس الأرمني) أو من إيران إلى البحر الأسود (تبريز - سيواس - Arzendjan - طرابيزيون) أصبحت أكثر استعمالاً وأمناً لسيطرة مغول فارس على كل دول هذه المنطقة (إيران - العراق - أرمينيا الصغرى - جورجيا الصغرى - سلاجقة الروم) .

أوضاع التجار الإيطاليين في الإلخانية فارس :

أولاً : تجارة جنوة

بعد سقوط القسطنطينية في يد آل باليولوجس عام ١٢٦١م أتيح لخلفائهم الجنوية أن ينتشروا في هذه المدينة وضواحيها وموانئ البحر الأسود وأهمها تانا وكافا ومنهما انساح هؤلاء التجار داخل آسيا شرقاً وجنوباً ووجدوا الترحيب الكامل من جانب هولاكو وابغاخان وخلفائهم للأسباب السابقة ولأن الجنوية هم حلفاء ميخائيل باليولوجس - الذي تزوج أبغا ابنته . ولم يترك الجنوية وثائق تشير لطبيعة أنشطتهم في الإلخانية في السنوات الأولى لاستقرار الإلخانات المغول في حكم إيران والعراق . ولكن نعرف أنهم بدأوا يتاجرون في تبريز ويتنقلون منها إلى إيس أو طرابيزون . وفي بداية عهد أبغا خان (١٢٨٢-١٢٩٥م) نقل بعض تجار جنوة أموالهم من طرابيزون إلى تبريز عبر مدينة سيواس Siwas - (باقليم جورجيا الصغرى) الواقعة على الطريق بين هاتين المدينتين . ففي عام ١٢٧٤م حرر كاتب العقود الجنوي فيدر يكوهى بيزالونا Federico di Pizzaluna عدة عقود للمشاركة بين تجار جنوبيين في هذه المنطقة . وأسس بعض الجنوية مراكز تجارية لهم بمدينة أرزنجان Erzindjan - على الطريق أيضاً إلى تبريز وتقع باقليم جورجيا الصغرى ، وفي عام ١٢٨٠م وما بعدها أسس الجنوية قنصلية لهم في مدينة سيواس حيث صدروا الأقمشة والمنسوجات إلى تبريز . وهناك عقود لتجار جنوة تفيد قيامهم بتصدير منسوجات رئيس عام ١٢٩٢م إلى تبريز ، وعقود مؤرخة في أعوام ١٣١٣ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣٦م تشهد بتصدير هذه السلع إلى تبريز بواسطة تجار جنوة^(٤٦).

ولقد ازدادت أهمية الجنوبيين في الإلخانية في عهد أرغون الذي كان يتطلع لتنفيذ مشروع التحالف العسكري مع الغرب الأوروبي ضرب الماليك ، ولهذا اختار العديد منهم للسفر على رأس سفاراته لأوروبا . وكان منهم بوسكاريللوجينزولفو - Buscarello Ghisolfi الذي شارك في سفارات أرغون وغازان في الفترة من عام ١٢٨٩ حتى ١٣٠٣م . وكان يمارس التجارة في نفس الوقت سواء بصفته الشخصية أو عن طريق وكيل له في تبريز وكان له عدة شركات تجارية في طرابيزون أيضاً^(٤٧) . وكذلك كان التاجر الجنوي توماس أنفوس - الذي لمع اسمه في سفارات المغول - له عدة شركات مالية في المراكز التجارية التابعة لسيطرة مغول فارس^(٤٨).

وفي عام ١٢٩٠ قام تسعمائة من «الفرنجة» بينما، أسطول خاص بهم تحت رعاية وموافقة أرغون خان لتسبيبه في الخليج العربي لضرب تجارة الماليك وذلك بالسيطرة على منابعها في جنوب آسيا وشرقها ومحاصرة عدن ومدخل البحر الأحمر^(٤٩). ويبدو أن هذا المشروع كان انتقاماً من الضرية التي وجهها المنصور قلاوون للتجار الجنوية باستيلائه على ميناء طرابلس عام ١٢٨٩ م والذي كان أكبر مركز تجاري للجنوية في شرق البحر المتوسط ، بل واعتقال الجنالية الجنوية بالموانئ المصرية في ذلك العام أيضاً رداً على هجوم الأسطول الجنوي على قرية مصرية في شمال الدلتا .

وليس غريباً أن التجار الجنوين هم الذين كانوا يشجعون أيلخانات فارس على التحالف مع الأوروبيين وقادوا سفاراتهم للأخيرين وذلك لأن هؤلاء التجار كان بهمهم في المقام الأول مصالحهم التجارية ، وأنهم أدركوا أن الغرب الأوروبي عاجز عن الاحتفاظ بالواقع الصليبي على سواحل الشام وعلى استعادتها لحوزته ثانية ، فنان الجنوية كانوا يأملون أن يقوم المغول بهذه المهمة سواء بفردهم أو بالتحالف مع اللاتين لأن ذلك لو حدث فمن شأنه إعطاء الجنوية امتيازات واسعة في موانئ الشام .

والملهم أنه في عام ١٢٩١ م أصطحب التاجر الجنوي بيترلو كالونجرو Peter of Lucalonge الراهب الفرنسيسكاني جون مونت كورفينو في طريقه إلى الصين حيث قوبل بحفاوة من خليفة قوييلاي خان - الذي جرب سلفه التعامل مع آل بولو الذين غادروا بكين عائدين لبلادهم عام ١٢٩٢ م - ونعرف أن هذا التاجر أسس فندقاً وحماماماً في مدينة الزيتون -^(٥٠) أشهر ميناء تجاري صيني في شرق آسيا حينئذ وتقع في مواجهة جزيرة فرموزا (تايوان) وكان رائداً للتجار الجنوية الذين كانوا ثروات طائلة من التجارة في الشرق الأقصى^(٥١).

وفي عامي ١٢٩٣-١٢٩٤ م آل بولو في طريق عودتهم لبلادهم ، بآسيا ، الصغرى حيث قرروا أن التجار الجنوية يبحرون في بحر قزوين (أو بحر الخزر عند العرب أو بحر باكو عند الفرس) وأنهم يجلبون منه نوع الحرير المعروف بالغلى Ghellie^(٥٢) (أو الجيلاتي) . ويرى المؤرخ الاقتصادي هايد Heyd أنه نظراً لأن - بحر قزوين بحر مغلق فإنه لم يكن مكنا للجنوية الوصول إليه من البحر الأسود إلا إذا أبحروا من مينا ، كانوا إلى مصب نهر الدون ثم إلى مصب نهر الفولجا وأن يحملوا سفنهم برا حتى بحر قزوين . وأن هدفهم من ذلك كان الوصول لمنطقة الحرير والأحجار الكريمة على الساحل الجنوبي لهذا البحر والتي لم يكن الوصول لها مكنا برا عبر تبريز وذلك للموانئ الطبيعية التي تفصل هذا البحر عن بقية بلاد فارس^(٥٣).

ومن المؤكد أن أنشطة تجارة الجنوية في إيلغانية فارس تضاعفت بعد عام ١٢٩١ م بل وربما تضاعفت أعدادهم أيضاً وذلك يرجع لأمرين هما :

أولاً : أنه في أغسطس من ذلك العام سيطر الماليك سيطرة كاملة على كل سواحل الشام بل ودمروا الموانئ التي كانت بحوزة الصليبيين خشية أن تكون شوكة في ظهر المسلمين إذا ما استولى عليها اللاتين ثانية . وكان للتجار الإيطاليين أحياً كاملة في معظم - إن لم يكن في جميع - هذه الموانئ ، ومنها يحصلون على سلع الشرق الآسيوي التي كانت تأتي إلى هذه الموانئ عن طريق التجار المسلمين في أسواق دمشق أو حلب (من خلال بغداد والبصرة وسيراف) أو عن طريق البحر الأحمر (من خلال مينا ، جده أو العقبة) . ولهذا كان على تجار جنوة (والبنادقة أيضاً) البحث عن منافذ وميادين تجارية جديدة يحصلون منها على سلع الشرق الآسيوي ، ولم تكن هذه المراكز متاحة إلا بين ظهراني المغول .

ثانياً : أن البابا بنيولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢ م) أصدر بعد سقوط عكا - قراراً حرم فيه على العالم المسيحي كل تجارة مع البلاد الخاضعة للسلطان المملوكي مع توقيع قرار الحرمان الكنسي على كل من يخالف هذا القرار فضلاً عن مصادرة أملاكه ومنعه من ممارسة حقوقه المدنية ومن حق الشهادة والميراث وغيرها من العقوبات . كما أمر البابا بنع إمداد المسلمين بالرقيق والأسلحة والأخشاب وال الحديد وهي بضائع ضرورية للعسكرية المملوكية^(٥٤) .

حقيقة أن قرارات مماثلة قد صدرت من قبل^(٥٥) . ولم ينفذها التجار الإيطاليون لأن مصالحهم التجارية كانت أقوى من الاعتبارات الدينية^(٥٦) . ويرمز لهذا الأمر البندقى الشهير « نحن بنادقة أولاً ومسيحيون ثانياً Siams Veneziani, Poi Christioni^(٥٧) » ونتج عن المخسائر الفادحة للتجار الإيطاليين من جراء سقوط المستعمرات الصليبية على السواحل الشامية ، أن اضطروا لهجرة الموانئ المصرية لفترة - وإن كانت قصيرة - من الزمن وهذا جعلهم يبحثون عن البديل الطبيعي لأسواق الماليك وهو أسواق المغول للحصول على المنتجات الآسيوية التي لا تستغني عنها الأسواق الأوروبية . وهذا يفسر شدة إقبال التجار الإيطاليين بصفة عامة على تبريز منذ عام ١٢٩١ م فصاعداً .

ومن أسف أن التجار الجنوية الذين تواجهوا داخل آسيا لم يتركوا - مثل التاجر البندقى ماركو بولو أو نظيره الفلورنسى بيجلوتى - أية مذكرات أو مدونات عن أنشطتهم التجارية

في أسواق المغول . ويعزى المؤرخ الاقتصادي (الجنوبي الأصل) Robert Lopez هذا الأمر إلى أنه كان من عادة الجنوبيين الاحتفاظ بأسارتهم التجارية خشبة إطلاع منافسيهم عليها لدرجة أنهم عندما كانوا يسجلون عقود التجارة والشركات^(٥٨) المساعدة لرحلاتهم التجارية فإنهم كانوا يحجبون حتى عن ذكر جهة المقصد حرصا على هذه السرية^(٥٩) .

وعلى هذه الشاكلة كانت رحلة الآخرين أو جليتو وفادينو فيفالدي Ugolino & Vadino Vivaldi من جنوة عام ١٢٩١ م . فرغم أنهم حررا عقود التجارة مع شركائهما القائمين على تمويل رحلتهما على أن وجهتهما مناطق مختلفة من العالم « إلا أن هدفهما الحقيقي كان البحث عن طريق بحري إلى الهند»^(٦٠) . ولكنهما أبحرا في المحيط الأطلنطي ويرجع أنهما ضلا الطريق هناك^(٦١) أو أن ظروفا طبيعية أو بشرية في شمال أفريقيا أو غيرها قد حالت بينهما وبين تحقيق هذا الحلم بامكانياتهما البشرية والمادية المتواضعة والذى تحقق بعد ذلك بقرنين من الزمان على يد فاسكو داجاما .

ورغبة من أبنائهم في البحث عنهم في الهند - وهى جهة المقصد الحقيقة فإن شركة مساهمة تكونت بين الأخوة فيليبو Filippo وسيمون Simone وجنبيرا فيفالدي - Benedetto Vivaldi Vivaldi عام ١٣١٥ م وسلموا أحد أقاربهم ويدعى بنديتو فيفالدي Benedetto Vivaldi مبلغ ثلاثة وثلاثة دينارات جنوية ورغم أن عقد المشاركة نص صراحة على أن جهة المقصد هي بيزنطة فان وجهة بنديتو فيفالدي كانت إلى الهند للبحث عن الآخرين فيفالدي هناك . وسافر الأخير إلى الهند في رحلة تجارية (عبر كافا - طرابيزون - تبريز - هرمز) . وتقابل هناك (وريما في تبريز) مع أحد التجار الجنوية وهو بيرسيفالى ستونكوني Percivalle Stan- cone وتوفى بنديتو في فالدي وأرسل رفيق الرحلة خطابا لأسرته وللقائمين على الشركة التي قامت بتمويل رحلته وذلك لإبلاغهم أنه مستعد لإرسال بضائع المتوفى إليهم على مسئوليتهم الخاصة . ولكن الورثة والشركاء في جنوة أبلغوا ستونكوني بتحويل الأموال إليه لاستثمارها لهم بنفس الشروط المعروفة حين عودته إلى جنوه^(٦٢) . وهكذا لولا وفاة بنديتو فيفالدي بالهند والرسالة التي وصلت جنوه تنعيه لدائنه ما كان الباحثون علموا بوجود الجنوية في الهند ، وهذا ينطبق على جميع أنشطة الآخرين في آسيا التي أحيبت بسرية تامة .

وليس معروفا على وجه الدقة سبب تأخر الجنوبيين في إنشاء قنصلية لهم في تبريز حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادي رغم تواجدهم بها منذ بداية حكم المغول لإيران والعراق خاصة وأن الفندق والقنصلية كانوا من ضروريات أي جالية تجارية وأجنبية . ويمكن تفسير ذلك بأنهم

في عهد الإلخانات البوذيين كانوا يتمتعون بحماية ورعاية الخان شخصياً ، وأن قادتهم كانوا يتحدثون باسم حكام المغول في العواصم الأوربية ، بل وعهد أرغون لأحدهم بحراسة قصره شخصياً ، هذا من ناحية أخرى ، يبدو أنهم لم يكونوا في موضع منافسه مع أحد من المجاليات الأوروبية حتى نهاية القرن الثالث عشر ، بل وكان يسمح لهم بالتجول والإقامة في كل أنحاء إلخانية فارس . وكانت أديرة الرهبان الكاثوليك ب بشابة فنادق لهؤلاء التجار للنبيت فيها . وهذا لا يتعارض مع كونهم يستخدمون الفنادق العديدة التي بناها الإلخانات وقادتهم في معظم المدن الهاامة حتى أن رشيد الدين الهمذاني قام ببناء أربعة وعشرين فندقاً للتجار في ضاحية واحدة من تبريز عرفت باسم الربع الرشيدى (٦٣) . وهذا الوضع كان يختلف عن نظام الفندق بالاسكندرية الذي كان ب بشابة مكان لمبيت الجالية التجارية الواحدة ليلاً ومكان لبيع بضاعتهم نهاراً وكان مقراً للقنصل أيضاً . وللفندق وضع قانوني نصت عليه المعاهدات مع حكام مصر لأنه لم يكون مسموهاً للتجار الأجانب بالتجول خارج المينا (٦٤) . ولكن في إلخانية فارس كان الوضع مختلفاً .

والمهم أنه مع بداية القرن الرابع عشر - وتغير وضع الأجانب باعتناق غازان الإسلام - أنشأ الجنوبيون قنصلية لهم في تبريز . وكان يتم تغيير العاملين بها كل نصف سنة . ويساعد القنصل مجلس يتكون من أربعة وعشرين شخصاً والقرارات سارية المفعول بحضوره عشر شخصاً وموافقة اثنى عشر حاضراً ، وكان للقنصل والمجلس المعاون له السيادة على جميع الجنوبيين المتواجددين في ولايات إلخانية فارس سواء قصرت مدة إقامتهم بها أو طالت . وبعد انتقال الخان أوجايتو إلى مدينة السلطانية واتخاذها عاصمة له كان للجالية مقراً بها أيضاً .

ونظراً لتضرر التجار الجنوية من استغلال رعاة حيوانات النقل اللازم لقوافلهم من طرابيزون حتى تبريز . فإن القنصلية أخذت على عاتقها استئجار وشراء الحيوانات بمعرفتها وتوزيعها على القوافل . وصدرت تعليمات من جنوه بمنع رعاياهم في فارس من إشراك الأجانب في قوافلهم (عدا البنادقة والإغريق) أو إسكانهم في فنادقهم أو عمل عقود شراء أو سداد مستحقات مالية مع الآخرين تزيد مدتها عن أربعة شهور ولو زادت عن ذلك يؤخذ رأى القنصل في تبريز وكذلك دائرة التجارة في مجلس القنصلية (٦٥) .

ونظراً لحاجة الجنوية لمعرفة لغات السكان المحليين الذين كانوا يتعاملون معهم في الأسواق ، فإن أحد التجار الجنوبيين قد ألف قاموساً عام ١٣٠٣ للألفاظ الشائعة والمتدالة في الأسواق

ثلاثة لغات : اللاتينية ولغة الكومان (التي كانت منتشرة بين مغول القفجاق) واللغة الفارسية . ويستبدل من ذلك إتقان مؤلفه للفتين الفارسية والكومانية فضلاً عن لغته اللاتينية^(٦٦) .

ثانياً : البنادقة

كان من نتائج الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية عام ١٢٠٤ م أن أصبح التجار البنادقة هم سادة منطقة البحر الأسود بلا منافس . وانتشروا في بحر إيجه وعلى شواطئ البحر الأسود وبصفة خاصة في مينا سولديا Soldia . وفي عام ١٢٢٠ م عقدوا معاهدة مع سلطان سلاجقة الروم تتعهدا بقتضاها بحماية السلطان ورعايته ، وحق المرور عبر أرضية ودفع جمارك قدرها ٢٪ فقط من قيمة بضائعهم . وحصل رعايا البنادقية على حقوق قانونية متميزة^(٦٧) على غرار الامتيازات التي حصلوا عليها في موانئ مصر والشام . ومع ذلك لم ينجح البنادقة في التوغل في آسيا الصغرى أو في منطقة القوقاز لسيطرة قبائل الكومان والقفجاق والأتراس على هذه المناطق ، وانتهز ميخائيل باليولوجسون حاكم نيقية الإغريق فرصة انشغال البنادقة بحربهم مع جنوة في عكا منذ عام ١٢٥٨ م ودبر مع الجنوية أمر طردتهم من القسطنطينية وتم له ما أراد عام ١٢٦١ م^(٦٨) .

وفي تلك الفترة كان مافيو ونيقولو بولو في مينا سولديا على البحر الأسود يتاجران في المجوهرات والأحجار الكريمة وذهبها بتجارتها ليركه خان حاكم مغول روسيا في عاصمته سراي على مصب نهر الفولجا حيث باعوا له ما معهم من بضائع . ولكنهما علموا أن الجنوية قد أسرتا البنادقة في سولديا وذبحوهم وأنهما لا يستطيعا العودة للبنادقية عن طريق القسطنطينية اضطرا للرحيل شرقا إلى بخارى - حيث كان طريق الحرير إلى الصين آمنا بفضل سيطرة المغول عليه - بغية الالتفاف حول بحر قزوين والوصول إلى تبريز ومنها إلى إياس للعودة لبلدهما .

ولكن سفارة من الخاقان الأعظم في بكين كانت في تبريز قد نجحت في إقناعهما بالذهاب لحضرة قوبيلاي خان للتجارة في بلاده حيث أنه متوق لرؤيه الأوروبيين . ورحب مافيو ونيقولو بذلك واصطحبها سفارة قوبيلاي خان عبر هضبة بامير في رحلة برية شاقة قوامها ثلاثة آلاف ميل حتى وصلا بكين واستقرا هناك تحت رعاية الخاقان وحمايته . وفي عام ١٢٦٩ م أعادهما الأخير مثلين له في سفارة للبابوية . وفي عام ١٢٧٥ م رجعا ثانية إلى بكين ويرفقتهما ماركو (١٢٥٤ م - ١٣٢٤) الذي ذاعت شهرته نتيجة المذكرات التي دونها بعد رجوعه لبلاده عام ١٢٩٥ م بعد استقراره في الصين مدة ١٧ عاما (١٢٧٥-١٢٩٢) عمل فيها في خدمة

الخاقان مستشارا له وحاكما لبعض الولايات الصينية وسفيراً القوبيلاى إلى أقاليم مجاورة للصين ومندويا عنه في مهام خاصة . وأبرز في ذلك براءة وتفوق مدحتين خاصة وأنه أتقن لغات المغول والصينيين على حد سواء^(٦٩) .

وفي عام ١٢٩٢م رجع آل بولو بالطريق البحري - الزيتون - الهند - هرمز - تبريز وذلك لصاحبة عروس أرغون خان الصينية . وبعد رجوعهم للبنديقية انفجر صراع دام بين جنود البنديقية (الحرب الثانية) اشترك فيها خمسة وثلاثون ألف جندي ومائة وخمسة وستون مركبة حربية - دام ثلاثة أعوام ، وهزمت فيها البنديقية ووقع ماركو بولو في أسر الجنوية باعتباره كان محاربا في صفوف قوات بلاده . وكانت فترة الأسر بالنسبة للأخير فرصة سانحة ليحكى لزميله في الزنزانة ستجيبلو (وهو مواطن بيزي) رحلاته ومشاهداته ومغامراته في الشرق . وقام الأخير بتدوينها بأسلوب جذاب حيث استنسخت مخطوطاتها من هذه النسخة^(٧٠) . ولهذا فإن للجنوية فضل غير مباشر على ماركوبولو من ناحيتين ، الأولى : إيجار والده وعمه على التوغل في آسيا خوفاً من القبض عليهم في البحر الأسود وما ترتب على دخولهما الصين من نتائج على اصطحابهما لماركو هناك . والثانية : أن فترة وقوع ماركوبولو في الأسر أتاحت له الصفاء الذهني والوقت اللازمين لاما ، مذكراته عن رحلاته ومشاهداته في آسيا .

ورغم أن معظم مدونات ماركوبولو تدور مشاهداته في إقليم الصين ، إلا أنه سجل أيضاً ما شاهده وعرفه عن إقليم الهند وجزر الملايو وإيلخانية فارس ، وأرمانيا الصغرى التي مر بها أثناء رجوعه لبلاده فضلاً عن تسجيله لما عرفه من معلومات عن عدن والبحر الأحمر وأثيوبيا والملاحة في المحيط الهندي (باعتباره كان ريانا للسفينة التي أقلته مع رفاق الرحالة من الصين إلى الهند إلى هرمز في طريق العودة) . وقد سجل بعقلية التاجر البنديقى كل ما يهم التجار معرفته عن الطرق التجارية وصناعة السفن وحركة الموانئ والأسواق ، وأنواع التاجر . وتتحدث طويلاً عن التوابيل والجواهر واللآلئ ، والحرير في جنوب آسيا وشرقها . ولهذا فإنه عندما رجع لبلاده وروى مشاهداته لزملائه البنادق الذين كانوا يشترون هذه المنتجات من الإسكندرية بأضعاف ثمنها في مناطق انتاجها فإنه أثار فيهم شهرة التاجر للربح الوفير وارتفاع الصعب فضلاً عن أن الشروة التي رجع بها ماركوبولو لبلاده^(٧١) قد أغيرت العشرات من البنادق لمحاولة محاكاة تجربته . ولهذا الأمر شهدت السنوات الأولى من القرن الرابع عشر وفود التجار البنادق لأسوق إيلخانية فارس (مع عدم إغفال أن تضيق البابوية لفرص التجارة مع المماليك بعد عام ١٢٩١م كان دافعاً أيضاً للبنادق لارتفاع أسواق المغول) . كما كان لانتشار

مذكريات ماركوبولو في المدن التجارية بغرب أوروبا عامة والمدن الساحلية في شبه الجزيرة الإيبيرية خاصة تأثيره المباشر على حركة الكشوف الجغرافية للمغامرين الذين أسالت لعابهم أوصاف ماركوبولو للهند والصين على أنها أرض التوابيل والجواهر^(٧٢).

ومن الواضح أن الظروف التي أجبرت الآخرين بولو على التوغل في داخل آسيا عام ١٢٦١م بدلاً من الرجوع للبنديقة هي نفسها التي أجبرت التاجر البندقى بيترو فيجليوني Pie- tro Viglioni على الاتجاه إلى تبريز حيث مات بها عام ١٢٦٤م . وقبيل وفاته كتب بيترو وصيته لنائب البنادية في عكا وذلك لعدم وجود أحد من زملائه البنادية في ذات المدينة في ذلك الوقت . وقد كان بيترو وكيلًا عن شركة تجارية تضم والده وعدة أعضاء للتجارة في الأقمشة الأوروبية في آسيا^(٧٣) .

وبعد وفاته حضر إلى تبريز مجموعة من التجار البنادية واستقروا بها . وكان من بينهم جياكوموفا سيللو Giacomo Vassallo الذي كان عضواً في إحدى سفارات أبيها خان للغرب الأوروبي . والخطاب الذي وجهه البابا بنيولا الرابع برفقة رابان صاواماً إلى تسعه من اللاتين في تبريز - لتوصيتهم بنشر المسيحية وأن يكونوا قدوة للمتعاملين معهم - كان يتضمن ثلاثة أسماء لتجارة بنادية . وفي بداية القرن الرابع عشر انتشر البنادية في مدينة السلطانية وفي مينا هرمز أيضاً ، وفي فترة الحصار الاقتصادي على مصر ركز البنادية وجودهم التجاري في ايلخانية فارس عامة وفي مدينة تبريز خاصة .

وكان لتطور حركة التجارة للبنادية في أسواق ايلخانية فارس دوره الفعال في إرسال البنديقة للعديد من السفارات لحكام ايلخانية في أعوام ١٣٠٥ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، وأيضاً في عام ١٣٤٢م . وكان إرسال هذه السفارات المتتالية يرجع لسوء النظام بين أفراد المجالبة البنديقة هناك ، ولبعض المشاكل التي ارتكبها بعضهم سواء بالاستدانة من التجار المحليين أو بعدم سداد ما عليهم من ديون أو ارتكاب أخطاء يستحقون عليها العقوبة ، وأيضاً لللاحتجاج على حكام ايلخانية ل تعرض التجار البنادية أو ممتلكاتهم للعنف أو السرقة أو المصادرية من جانب رعايا الخان أو قواوه أو من جانب بعض حكام المغول أنفسهم^(٧٤) . كما سنرى فيما بعد .

ومن الواضح أن ايلخانات فارس منذ باكورة القرن الرابع عشر قد بدأوا ينحوون البنادية امتيازات واسعة في بلادهم على غرار الامتيازات المنوحة للجنويين . وكان البنادية قد حصلوا على امتيازات تجارية أيضاً من آل باليولوجس في منطقة البحر الأسود وذلك في

محاولة من الآخرين لطبع جماع الجنوية حتى لا يتكرر منهم ما فعله البنادقة مع القسطنطينية في عام ١٢٠٤م وقد منحهم حكام مغول روسيا أيضاً بعض المناطق التجارية في ميناً كافاً وتناً و منها وصل البنادقة إلى طرابيزون التي كانت المدخل الطبيعي إلى تبريز^(٧٥).

والمهم أن أولجايتو خان (١٣١٦-١٣٠٤) الذي أرسل سفارة للغرب الأوروبي عام ١٣٠٦م برئاسة توماس أوجي السيني Tomazo Ugi of Sienna قد كلف نفس السفارة بالمرور على البندقية وتسلি�مه رسائلة منه مكتوبة إلى الدوج بشأن منع امتيازات التجار البنادقة في بلاده وقد حمل السفير أيضاً رسالة من تاجر مسلم يدعى خواجه عبدالله إلى أحد تجار البنادقة ويدعى بيترو رودولفو Pietro Rudolfo يبرئه فيها من الديون التي كانت عليه له ويعده ألا ينتقم منه إذا ما رجع لتبريز . وقد وثق خواجه عبدالله هذه البراءة بتوقيع اثنين من الشهود : أحد البنادقة في تبريز وشخص السفير^(٧٦).

وفي عام ١٣١٩م أسس البنادقة قنصلية لهم في طرابيزون . ووصل سفير البندقية إلى تبريز عام ١٣٢٠م ويدعى ميشيل دولفين Michel Dolphin في محاولة لاسترجاع ثروة أحد البنادقة ويدعى فرانشسكودي كانالي Francesco de Canale الذي مات في منطقة أرزنجان بجورجيا الصغرى واستولى عليها تاجراً اسمه بدر الدين لولو من رعايا الخان المغولي : أبو سعيد .

وقد نتج عن مفاوضات سفير البندقية مع أبو سعيد منع البنادقة امتيازات واسعة بموجب معاهدة وقع عليها دولفين وأبو سعيد في ٢٢ ديسمبر عام ١٣٢٠م^(٧٧).

وأتفق الطرفان بموجب هذه الامتيازات على «الآن يقع أي أذى أو عنة على أي بندقى أو أي من حاشيته أو خدمه ، ويجب ألا يفرض عليهم أية ضرائب أو يجبي منهم أية رسوم أو جمارك أو خلافه عدا تلك المعمول بها قدّها ». «وكذلك تمنع التجار البنادقة بالحماية والرعاية الكاملة من قبل الخان وقواده ورعاياه في جميع أنحاء الإيلخانية . وأيضاً حرفيتهم الكاملة في البيع والشراء واختيار معاونيهم وعرض تجارتكم واختيار أسواقهم والمنتجات التي تروق لهم دون ضغط من أحد . وفضلاً عن ذلك كفالة حق البنادقة في أن ترعى دواب قواقلهم ثلاثة أيام في المحطات التجارية لأى مكان في الإيلخانية . وأكّدت الامتيازات المنوحة من أبي سعيد على عدم التدخل في شئون البنادقة أو في الخلافات التي تحدث بينهم وبين بقية «الفرنجية» في الإيلخانية ، وعلى أن القنصل البندقى في تبريز من مسؤولياته إقرار العدل بين

البنادقة أو بينهم وبين اللاتين طبقاً لقوانينهم الخاصة . وأكدت المادة العاشرة في هذه الاتفاقية على أن محاكمة البنادقة قد تكون أمام القاضي الأعلى (أى قاضى القضاة) فى الإلخانية دون أجد سواه .

ونصت هذه الامتيازات كذلك على عدم مصادرة تركة الميت (من البنادقة) بل يفوت القنصل فى التصرف فيها طبقاً لوصية المتوفى . وأيضاً حرية البنادقة فى جلب الخمور لأماكن إقامتهم ، وكذلك على المسئولية الفردية لكل تاجر عن الديون أو الأخطاء الشخصية ، وعلى تعريض البنادقة عن أية خسائر أو أضرار تلحق بتجارتهم .

وإن النظرة الفاحصة لنصوص الامتيازات التى منحها الإلخان المغولى للبنادقة عام ١٣٢٠ - ومقارنتها بمشيلاتها التى منحها السلطان الناصر محمد بن قلاوون للبنادقة أيضاً فى بلاده عام ١٣٠٢ (٧٨) . تجعلنا نخرج بعدة ملاحظات جديرة بالتسجيل منها :-

أولاً : أن نصوص معاهدة البنديقية مع المصريين جاءت أكثر شمولاً ووضوحاً من مشيلاتها مع مغول فارس وهذا يرجع لأنها لم تكن الأولى من نوعها (ولم تكن الأخيرة أيضاً) وكانت ناتجة عن احتكاك ومعاملات بين الطرفين ترجع لعدة قرون من الزمان وكان لهذا أثره فى تطور بنود وصيغة هذه المعاهدة . أما مطالب البنادقة من إلخانات المغول - كما تشهد بذلك نصوص هذه الامتيازات - فكان محورها تأمينهم وممتلكاتهم من اعتداءات الخان وقواده ورعاياه .

ثانياً : أن معاهدة البنادقة مع المغول تحدثت عرضاً عن أشخاص لازميين لخدمة التجار وهم المترجمون والخدم ورعاة دواب النقل والمرشدون والسماسرة دون أى تحديد للتزاماتهم وحقوقهم . ولكن المعاهدات المصرية معهم توضح هذه المسائل بدقة وتبين كذلك أجورهم ومسئوليتهم قبل الحكومة المصرية بل واشترطت مصر على البنادقة تعيين كاتب مسيحي (حتى يكون محل ثقة اللاتين) لسجل أعمالهم وحساباتهم .

ثالثاً : إن معاهدة البنادقة مع مغول فارس نصت على حريتهم فى التواجد فى جميع أنحاء «إمبراطوريتهم» ولكن نصوص معاهدات المصريين معهم قصرت هذا الحق على الموانى فقط بل وقيدت إقامتهم ومكان بيعهم وتواجدهم فى بعض المناطق من الموانى فى بعض المعاهدات «مثل الجمرك - الديوان - الفندق» وهذا يرجع لعدم سماح المصريين للتجار الأجنبى فى ارتياح البحر الأحمر لأسباب اقتصادية وأمنية كما سبق الإشارة آنفاً .

رابعاً : أن معاهدات المصريين مع البنادية (أعوام ١٢٥٤ ، ١٣٠٢ ، ١٣٥٥ م على سبيل المثال) منحت التجار البنادية - فضلاً عن نفس الحقوق التي منحها لهم الخان المغولي في بلاده الحق في ملكية فنادق ومخازن وحمامات وأفران خاصة بهم ، وأيضاً إعفاءً شخصياً لقنصل البنادية بالاسكندرية من رسوم وجمارك في حدود الف بيزانت سنوياً ، وذلك لتشجيعه على البقاء في الأسكندرية . وكذلك إعفاء التجار البنادية من الرسوم والضرائب على ما يحملونه من الذهب والفضة^(٧٩) واللآلئ والأحجار الكريمة والفراء . وحددت هذه المعاهدة رسوم الجمارك ورسم النقل بصورة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . ولكن نصوص معاهدة أبو سعيد معهم لم تشر من قريب أو بعيد لهذه الأمور ولم تتعرض كلياً لرسم الجمارك ويبدو أن هذه المسائل تركت للعلاقات الشخصية بين البنادية وحكام المغول وهي مسائل كانت تختلف من حاكم لآخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية والأمنية المحيطة به وفي هذه الحالة تكون قابلة دوماً للمد أو الإلقاء أو الانتقام . وهذا يفسر حرص البنادية الدائم على العلاقات الوطيدة مع المصريين ومحاولاتهم الدائبة في كسر أوامر البابوية في تحريم التجارة معهم بل والتعامل مع الموانئ المصرية بطرق غير مباشرة في فترة الحصار الاقتصادي عليها لأنهم كانوا يحصلون بموجب معاهداتهم مع المصريين على امتيازات تفوق تلك التي حصلوا عليها من ايلخانات فارس .

ثالثاً : المجاليات الإيطالية الأخرى

لم يكن التجار الجنوبيين أو البنادية وحدهم الذين تواجهوا في أسواق ايلخانية فارس ، بل وجد أيضاً عدد من تجار المدن الإيطالية الأخرى ولكن بأعداد قليلة . وبعضهم ذهب إلى تبريز بغرض التجارة والبعض الآخر استغل في خدمة حكام المغول في المجالات الحربية أو السياسية . ففي نهاية القرن الثالث عشر كان ايسول البيزى Isol of Piza وزميله جيوفانى دي - بوناسترو Giovanni de Bonastro من الشخصيات التي قامت بأدوار هامة في بلاط الخان المغولي ، كما أن ايسول بصفة خاصة كان سفيراً لغازان خان للقوى الصليبية في البحر المتوسط وأرمينيا الصغرى . وقد ورد اسمه في خطابات البابا بنيقولا الرابع التي أرسلها للشخصيات اللاتينية التي كان لها دور قيادي في العاصمة المغولية^(٨٠) .

وفضلاً عن البيازنة كان هناك تجار من فلورنسا ومسينا قد حظوا بشقة حكام المغول ومنهم توماس أوجي السيني Tomas Ugi of Siena سفير أوجيإيتو لغرب أوروبا عام ١٣٠٦ م .

وبدل «الدليل» الذي كتبه التاجر الفلورنس بيجلوتي Pegolotti عن طريق التجارة إلى الصين^(٨١) رغم أنه لم يسافر داخل آسيا - على أنه استقى معلوماته الدقيقة جداً من تجار من أبناء وطنه قد رجعوا لتوهم من وسط آسيا وشرقاً في عام ١٣٣٠ م تقريراً وهو يسجل أسماء كل المحطات التجارية بين آياس وتبريز بدقة متناهية ويصف مقدار الرسوم التي يدفعها التاجر عن كل حمولة ، ورسوم النقل والحراسة والترجمة يصل تحديدها بـ ٢٠٣ أسبورو Aspers (عملة بندقية صغيرة) عن كل حمولة من آياس إلى تبريز ، بل ويعدد السلع الشرقية التي يجدها التجار الإيطاليون في موانئ البحر الأسود ورسوم كل سلعة وأسعارها والمكاييل والمازدين ، والأشياء الضرورية التي يجب على كل تاجر أن يأخذها معه وغير ذلك من معلومات دقيقة جداً^(٨٢) تدل على أنه أخذها من العديد من تجار بنى وطنه لأنه من غير المتصور أن التجار الجنوية أو منافسيهم البنادقة يبيحون بآسراهم لتجار فلورنسى .

وقد عشر - حديثاً - على وثيقتين عبارة عن تفويضين كتباه في مدينة تبريز في ١٣٢٨ م ، ١٣٣٢ م يحملان توقيعات تاجر جنوبي وثان بيزي وأربعة من الشهود من تجار مدينة بياكنزا الإيطالية Piacenza . ومع ذلك فإن عدد التجار الأجانب - عدا الجنوية والبنادقة لم يكن كبيراً ، وتحمل وثيقة للرهبان الفرنسيسكان عام ١٣٣٣ - حول الرهبان المنشقين (أو الهراطقة) - أسماء تاجر بياكنزا ، وثان بيزي ، وثالث من ميلان ، ورابع من مدينة استي Asti واثنين من البنادقة وخمسة من الجنوية ، ولكن بيجلوتي يقارن فقط في كتابه - بين مكاييل الجنوية والبنادقة وأوزانهم في تبريز^(٨٣) ، وهذا دليل آخر على أن تجار المدن الإيطالية الأخرى كانوا أقلية معدودة ومحدودة الأثر . أما مواطنى قطالونيا ومرسيليا والمجلترا فاقتصر وجودهم المؤقت في الإيلخانية على توصيل رسائل من حكام بلادهم إلى قادة المغول ولم يقوموا بأى دور تجاري يستحق الذكر^(٨٤) . اللهم إلا شراء بعض البضائع الشرقية من تبريز أو السلطانية في طريق عودتهم بلادهم أو حصولهم عليها من قادة المغول كنوع من الهدايا الشخصية لهم .

التجار الإيطاليون في الهند والصين :-

كانت مدينة تبريز نقطة انطلاق لكثير من التجار الإيطاليين - ومعظمهم من الجنوية - إلى الهند . وكان منهم بنديتو فيفالدى Benedetto Vivaldi وستانكوني Stancone المشار إليهما سابقاً . وهناك وثائق بندقية تكشف اللثام عن أن شركة تجارية تأسست عام ١٣٣٨ للتجارة في الهند ، وأن ستة من التجار البنادقة سافروا إلى دلهى وباعوا منتجاتهم للسلطان

محمد ابن طغلق^(٨٥). وفي عام ١٣٤٣ م حضر تاجر جنوبي ويدعى توماس جنتلي Tomaso Gentile إلى هرمز بغرض الإبحار إلى الصين ولكنه قرر الرجوع ثانية لبلاده . وكان يوجد أيضا بعض التجار البيازنة الذين ذهبوا للهند في النصف الأول من القرن الرابع عشر . واستقر بعض التجار الإيطاليين في الهند فترة طويلة^(٨٦). ولكن لأن هؤلاء التجار لم يتركوا مدوناتهم ولم توضع عقود التجارة معهم جهة مقصدتهم - خشية المنافسة - فلا توجد معلومات تفصيلية عن طبيعة أنشطتهم في الهند أو جنوب آسيا عمراً .

ولابد أن التجار الجنوية الذين أرادوا بناء أسطولهم في الخليج العربي عام ١٢٩٠ قد انتشر رهط منهم على السواحل الهندية بعد فشل هذه المحاولة . وينقل عن الأسقف الفرنسي الدومينيكاني فيليب آدم قوله عام ١٣١٧ م : «أن الجنوية لهم سفنهم في المحيط الهندي » . ويحاول الياهو اشتور Eliyahu Ashtor تأييد هذا القول بالاستناد لعبارة للبحار العربي ابن ماجد الذي كتب عام ١٤٦٢ وردت عرضاً في كتاباته عن «الفرجنة»^(٨٧) .

ولكن لم يثبت بأى دليل وثائقى أو أثرى أن الجنوية أو غيرهم من الأوروبيين قد نجحوا في إنشال أو صنع سفن لهم في المحيط الهندي قبل حضور فاسكو دا جاما للمنطقة . وهناك عدة أدلة تدعم هذا الرأى :

أولاً : أن مكمل حولية ابن العبرى الذي أورد رواية بناء «الفرجنة» لسفينتين في نهر دجلة عند بغداد وحاولوا الوصول بها إلى البصرة أوضح أنهم لم يصلوا لهدفهم لاختلافهم فيما بينهم^(٨٨) .

ثانياً : إن ابن بطوطة الذي زار منطقة المحيط الهندي جيئة وذهاباً أكثر من مرة في الثلث الأول للقرن الرابع عشر وصف سفنها وموانئها واستقر بها عدة سنوات (بعد رواية وليم آدم) ، لم يشر من قريب أو بعيد أن للجنوية أساطير في المحيط الهندي .

ثالثاً : أن عبارة ابن ماجد التي اقتبسها اشتور للدلالة على النتائج التي وصل إليها لا تدل على ذلك.

رابعاً : أن الراهب الفرنسيسكاني جورдан السيفيري Jordanus of Severac الذي تواجد في منطقة تانا الهندية عدة سنوات قد أرسل خطابين من هناك لزملائه الرهبان في ايلخانية فارس ، وفي خطابه الشانى المؤرخ في يناير عام ١٣٢٣ م قال لزملائه ما ترجمته « لو أن السيد البابا Lord Pope ينشئ مركبين في هذا البحر (يقصد المحيط الهندي) ماذا يكون المكسب لنا وماذا ستكون الخسارة لسلطان الاسكندرية من جراء

ذلك ؟ ومن سينبلغ هذا الأمر لقداسة البابا ؟^(٨٩) ، وهذا يعني باختصار أن هذا الراهب قد تنبه للأهمية الاستراتيجية لتجارة المحيط الهندي بالنسبة للمصاليك ، وأرسل لزملائه الرهبان يأمل منهم إبلاغ البابا بالتفكير في بناء مركبتين في هذا المحيط لإلهاق « الخسارة والدمار بسلطان الاسكندرية » وهذا الخطاب كتب عام ١٣٢٣م أي بعد ستة أعوام فقط من رواية وليم آدم التي استند إليها آشور . ونؤكد أنه كان يوجد العديد من التجار الإيطاليين الذين قابلهم الراهب جورдан بالهندي، فإذا كانت هناك سفن جنوية بالمحيط الهندي بالفعل فلماذا لم يشر إليها الراهب ، ولماذا يبعث بهذه الأمانى للبابا في روما ؟^(٩٠) .

وقد سافرت مجموعة من التجار الإيطاليين إلى الصين أيضاً من تبريز عبر الهند (مثل التاجر الجنوبي بيتو لو كالونجو الذي اصطحب الراهب الفرنسي كانى جون مونت كورفينو في رحلته للصين عام ١٢٩١). أو عن طريق تانا (سراي - استراخان - بخارى - كاشغر - هضبة بامير - غزنة ثم إلى الهند ومنها إلى الصين أو من هضبة بامير إلى الطريق الشرقي الذي استخدمه الآخرين بولو في أول مرة يدخلان فيها الصين) .

وقد أوضح بيجلوتى في كتابه «الطريق من تانا Tana (على البحر الأسود) إلى كاشمير (أي الصين) آمن تماماً سواء بالنهار أو بالليل طبقاً لما قال به التجار الذين استخدموه ». وأشار إلى أن التاجر الذي يموت بالطريق تؤول تركته لحاكم المنطقة التي يموت فيها وهذا يحدث أيضاً في الصين طبقاً لرواية ماركوبولو . ولكن بيجلوتى أكد أنه في حالة وجود ابن أو شقيق للمتوفى فإن الحاكم يسلمه ثروة والده أو شقيقه . ويشير إلى أن فترة من الفوضى على الطريق البري من البحر الأسود للصين تعقب وفاة الحاكم ولكنها تنتهي بمجرد تعيين حاكم آخر بامكانه نشر الأمن والاستقرار على ربوع الطرق . ويوصى زملاؤه «الفرنجية» بأن يكونوا جماعات في حدود ستين تاجراً في قافلة واحدة حتى يرهبوا قطاع الطرق وبالخصوص في المنطقة من ميناء تانا حتى مدينة سراي . وينصح بيجلوتى التجار بأن يصطحبوا معهم ترجمة أكفاء - مهما غالباً ثمنهم - يجيدون اللغات المحلية للمنطقة ، وأن يأخذوا معهم الخدم والدواب اللازمة وكذلك الخبز الجاف والسمك المملح . ويلفظهم أنه بامكانهم قطع المسافة من تانا حتى بكين في حوالي ستة شهور^(٩١) .

ومهما يكن من أمر فإن جالية إيطالية قد وجدت في الصين وتركزت في مدينة الزيتون حيث أكبر مينا ، تجاري في آسيا قاطبة بشهادة ماركوبولو وابن بطوطة . وكانوا من الجنوية

والفلورنسين والبنادقة أيضاً . وقد حملوا معهم الملابس الفرنسية والمنسوجات . واشتروا الحرير الصيني المشهور . وكان معظم الحرير الصيني الذي بيع في أسواق فرنسا وإيطاليا في النصف الثاني للقرن الثالث عشر من أسواق أرمينيا الصغرى وتبريز وموانئ البحر الأسود . ولكن في بداية القرن الرابع عشرين كان جزءاً من الحرير الصيني قد تم شراؤه مباشرة من أسواق الصين بواسطة التجار الأوروبيين حيث توجد أدلة أثرية على أن شركة فرسكوبالدي Frescobaldi الفلورنسية قد باعت الحرير الصيني في أسواق لندن عام ١٣٠٤ م^(٩٢) . وبطبيعة الحال لم يكن الحرير وحده هو ما نقله الإيطاليون من الصين بل نقلوا أيضاً ما غلا ثمنه في أوروبا وخف حمله من الصين من الآلي وأحجار كريمة وغير ذلك من منتجات شرقية .

ومن الواضح أن الجالية التجارية الإيطالية التي كان لها فنادقها هناك قد استمرت بعد منتصف القرن الرابع عشر . ونعرف أن التاجر الجنوبي أندالودو سافينون Andalodo Sa-vignone قد أصطحب سفارة الخان المغولي في بكين عام ١٣٣٨ إلى أوروبا . وقد أشار الراهب الفرنسيسكاني جون مارجوني John Marignolli الذي كان متواجداً في الصين عام ١٣٤٧ - لوجود فندق وحمام بمدينة الزيتون لخدمة كل التجار اللاتين هناك^(٩٣) .

ولكن من المؤكد أن مخاطر الطرق الطويلة بين مراكز التجار الإيطاليين على البحر الأسود أو في مينا إيس الأرماني على البحر المتوسط وبين أسواق الهند أو الصين (سواء اتخذوا الطريق البري في وسط آسيا أو الطريق البحري في المحيط الهندي عبر إيلخانية فارس) قد جعلت أسعار المنتجات التي يحملونها منها عالية جداً ، فضلاً عن وفاة الكثير من التجار الذين ارتدوا هذه المناطق لأن كثيرة من أخبارهم عرفت من خلال المراسلات التي كتبها زملاؤهم الباقيون على قيد الحياة بعدهم لنعيهم أو لذويهم أو لدائنيهم ، فضلاً عن أنه كان من الصعب نقل كميات كبيرة من التوابيل والعقاقير الطبية على ظهر الدواب آلاف الأميال داخل آسيا والوصول بها صالحة للاستهلاك الآدمي ، بل أن الحرير الصيني كان أقل ثمناً وجودة من الحرير المنتج في آسيا الصغرى والمتداول في تبريز وموانئ البحر الأسود^(٩٤) . ولهذا كان عدد المغامرين الذين انساحوا في الهند أو الصين محدوداً ولم يؤثروا كثيرة في نقل سلع الشرق الآسيوي للغرب الأوروبي . ومن ثم ترك أغلب التجار الإيطاليين في تبريز والسلطانية وبغداد وآسيا وطرابيزون للتعامل في السلع الشرقية التي يحملها لهم التجار المسلمين الذين امتلكوا السفن والأموال اللازمة ، وخبرة عدة قرون مضت في نقل منتجات الصين والهند وجزر الملايو لأسواق الخليج العربي ولنططقة البحر الأحمر أيضاً^(٩٥) .

نتائج الحصار الاقتصادي على مصر على تطور تجارة اللاتين مع ايلخانية فارس

سبقت الإشارة إلى أن البابا بنيولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢م) أصدر قراراً بتحريم التجارة مع المالكية عام ١٢٩١ بهدف إضعاف الاقتصاد المصري ولتبسيط إعادة غزو الأرض المقدسة. وكان من أثر ذلك ازدياد انتشار التجار الإيطاليين في الأسواق الآسيوية لتعويض خسائرهم الناجمة عن وقف التعامل مع الموانئ المصرية.

ولكن نجحت المدن التجارية الأوروبية في الحصول على موافقة البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٥-١٣٠٣م) بإعادة التجارة مع المالكية في غير البضائع التي من شأنها تقوية العسكرية المملوکية مثل الخشب والقار والحديد والرقيق. ومن ثم عقد البنادقة معاہدة مع الناصر محمد بن قلاون عام ١٣٠٢م استعداداً بوجبهما الامتيازات التي كانت ممنوعة لتجارهم من قبل. ولكن حدث أن سفينتين جنوبيات جاءتا للسكندرية محملاً بالرقيق، وثار قنصل البنادقة بالسكندرية على هذا الأمر وكان جزاؤه الطرد من الاسكندرية^(٦٦). وثار الاستبارية- في قبرص ورودس - الذين عهد لهم البابا بمراقبة الأساطيل التجارية التي تعامل مع الموانئ المصرية، وطالبوا البابوية بتحريم التجارة كلية مع المصريين.

والحقيقة أن البابوية واجهت ضغوطاً واسعة من قبل رجال الدين والعلمانيين على حد سواء لإصدار قرارات كنسية لمنع التعامل مع المصريين. خاصة وأن البابوية منذ عام ١٣٠٥ انتقلت لمدينة أفينيون الفرنسية ووافقت - مرغمة - للملك الفرنسي فيليب الرابع على مصادرة أملاك الداوية واعتقالهم. ولهذا كانت الكنيسة الكاثوليكية مضطربة - إنقاذهما الوجه والهيبة أمام اللاتين - لاتخاذ موقف أكثر تشدداً مع الموانئ المصرية، كما أن العديد من مشروعات دعاء إحياء الحملات الصليبية التي بدأت تنتشر في أوروبا قد طلبت البابوية بهذا الأمر. ويكتفى هنا الإشارة بایجاز لأشهر هؤلاء الدعاة وهو مارينو سانودو Marino Sanudo (١٢٧٠-١٣٤٣م)^(٦٧).

وكان مشروع سانودو لاستعادة الأرض المقدسة لحوza اللاتين يقوم على فرض حصار اقتصادي كامل على موانئ المالكية. وقطع التجارة الأوروبيين العاملين معها من رحمة الكنيسة، وإنشاء أسطول بحري تابع للبابوية لمراقبة الخارجيين على أوامرها في هذا الشأن، واقتراح ضرورة احتلال مصر أولاً للانتصاف منها على فلسطين. وشرح سانودو في مذكرةه كيف أن الغرب الأوروبي يستطيع أن يحصل على احتياجاته من القطن والسكر والمنتجات

المريرة والسوابل والبضائع الهندية دون الاعتماد على سلطان القاهرة ك وسيط بين الشرق والغرب وذلك بالاعتماد على الطريق المار باليخانية فارس ، حيث أن المغول حلفاء طبيعيون للغرب المسيحي ضد المسلمين . وقرر سانودو أن مرور هذه البضائع عبر أراضي سلطان القاهرة من شأنه تقوية اقتصاده فضلاً عن قيام بعض «الشعوب المسيحية الحمقاء» بامداده باحتياجاته من العبيد والخشب وال الحديد . بل وذهب في تصوراته أبعد من ذلك باقتراحه زراعة المنتجات المصرية التي تحتاجها الأسواق الأوروبية في بيئات أوروبية (أو أسيوية صديقة) مائلة في الظروف الجغرافية مثل قبرص وروادس وكريت وصقلية ومالطة وأرمينيا الصغرى . وأكد سانودو في نهاية مشروعه على أهمية تحويل طريق التجارة من يد المسلمين إلى طريق المغول المار بهرمز وبغداد وتبريز لتكون هذه البضائع في يد البنادقة وحدهم (موطنهم الأصلي) . وأكمل أيضاً على ضرورة إنشاء أسطول مسيحي في المحيط الهندي للسيطرة على هذا البحر وإخضاع سواحله وجزره للسيطرة الأوروبية ^(٩٨) .

والمهم أن البابا فور تلقيه مشروع سانودو هذا في سبتمبر عام ١٣٢١م قد شكل لجنه لدراسته وتقديم تقرير عنه ^(٩٩) . ويبدو أن المجتمعين قرروا الأخذ بالاقتراح العملي القابل للتنفيذ - والذي لا يحتاج لامكانيات مادية أو بشرية في غيرتناول البابوية حينئذ وهو اصدار قرارات كنسية لتحرير التجارة كلية مع المالك . وبالفعل أرسل البابا هنا الثاني والعشرين في سنة ١٣٢٢م إلى دوق البندقية قراراً بذلك تم إعلانه ونشره في جميع الموانئ الأوروبية . واضطررت البندقية في ١٨ يناير سنة ١٣٢٣م إلى اصدار مرسوم حرمت فيه على رعاياها المتاجرة في جميع السلع مع مصر والبلاد التي تخضع لسلطانها ^(١٠٠) وحدث حذوها بقية المدن التجارية الأوروبية .

ويتعزّم ريموند لويس Raymand Lopez واليهو أشتور E. Ashtor وفردرريك لان Fre- deric Lane الرأى القائل بأن التجارة بين الأوروبيين والموانئ المصرية في الفترة من عام ١٣٢٣م حتى عام ١٣٤٥م كانت مقطوعة تماماً . ويستندون في ذلك لعدة مبررات من أهمها رسالة من السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٤٥م إلى دوق البندقية يخبره فيها بأنه منذ سنة ١٣٢٢م لم ير سفينة بندقية واحدة تدخل بلاده ^(١٠١) ولكن صبحى لبيب يؤكد استمرارية تعامل التجار الأوروبيين مع مينا الاسكندرية في تلك الفترة أيضاً وإن كان ذلك بدرجة أقل مما سبقها ويطرق غير مباشرة أحياناً وملتوية أحياناً أخرى ^(١٠٢) .

ومن المؤكد أن امتناع التجار الأوروبيين عن ارتياه موانئ الماليك كلياً أو جزئياً في الربع الثاني للقرن الرابع عشر جعلهم يركزون نشاطهم في مينا، اياسالأرمني وفي موانئ البحر الأسود وفي المراكز التجارية لابلخانية فارس . ويدل «دليل التاجر» الذي ألفه التاجر الفلورنسى بيجلوتى عام ١٣٣٠ على الحاجة الماسة للحصول على منتجات الشرق الآسيوى من طرق أخرى بعيدة عن متناول الماليك .

ولكن التجار المسلمين في منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر لم يتركوا التجار الأوروبيين يهناوون بهذه الفرصة الفريدة فنجد أن تاجراً مسلماً كبيراً وهو «أبو المجد الإسلامي» يتردد بين إيران ومصر لتحقيق السلام بين البلدين ومنحه السلطان الناصر محمد بن قلاوون - بعد أن توصل إلى عقد معااهدة السلام الدائمة بين البلدين عام ١٣٢٠ - بعض المستلكات والامتيازات وأهمها إعفاء تجارتة من الضرائب أو من أكثرها^(١٠٢). وأتاح هذا للتجار المسلمين نقل البضائع الواردة من الخليج العربي إلى أسواق دمشق واياس بحرية كاملة (بعيدة عن الخوف من غارات متبادلة بين المغول والماليك في الشام) وكذلك نقل جزء من تجارة التوابيل من جدة إلى الشام وأرمينيا الصغرى حيث يتسللها من هناك التجار الإيطاليون ، لدرجة أنه في عام ١٣٣٥ وجده ألافاً من التجار المسلمين في مينا، اياسالأرمني . وبهذه الطريقة كان الماليك يحصلون على الرسوم عن التجارة المارة في الشام أو المباعة في أسواقه أو في مينا، اللاذقية . فضلاً عن أن حاكم أرمينيا الصغرى نفسه كان يدفع الجزية السنوية للماليك . وعندما وجد الآخرون أن مينا، اياس منافس قوي لمينا، الاسكندرية ، أرسلوا تحريدة عسكرية دمرته على من فيه من التجار الأوروبيين عام ١٣٣٥ ، واستولت عليه عام ١٣٤٧ .

بداية النهاية للوجود اللاتيني في أسواق المغول :

وفضلاً عن ذلك فإن أحوال التجار الإيطاليين في ابلخانية فارس لم تكن على ما يرام ففى ٦ يونيو عام ١٣٢٤ أرسل ماركومولين Marco Molin قنصل البناية في تبريز رسالة مطولة إلى درج البندقية يشرح فيها كيف أن معارك نشب بين أربعة من البناية في تبريز ، وأن واحداً منهم شكاً مظلومته لوالدة الخان أبو سعيد والتي أرسلت بدورها العسس للقبض على البناية المعديين وأسعورهم ضرباً ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد دفع فدية كبيرة (وهذا مخالف لنصوص معاهدتهم مع أبو سعيد التي لم ير عليها سوى ثلاثة أعوام ونصف العام) . ويشكو

التنصل البندقى من أن بعضًا من رعاياه عليهم ديونا للتجار المحليين وأن «مدينة تبريز خطرة جداً لنا نحن البنادقة وأتنا نواجه قلائل كثيرة جداً هنا»^(١٠٤).

وفي عامي ١٣٣٢ ، ١٣٣٥ وصلت وفوه من ايلخانية فارس إلى البنديقية للمطالبة بديون لهم عند بعض تجارها في تبريز^(١٠٥). ونعرف أن أحد التجار المسلمين ويدعى حاجي سليمان الطابى كان له أربعة آلاف بيزيانت عند أحد التجار البنادقة الذي ترك تبريز دون سدادهم ، فسمحت له السلطات المغولية بأن يحصل عن كل حمولة برفقة أى تاجر بندقى يدخل تبريز أو يخرج منها على مبلغ معين حتى يستوفى دينه^(١٠٦). ولهذا امتنع كثير من البنادقة عن ارتياح تبريز بعض الوقت لهذا السبب .

ويوفاة الخان أبو سعيد عام ١٣٣٥ دون ورث شرعى وانقسام الايلخانية إلى عدة مقاطعات بين عدد من الأمراء المتنازعين ، كل منهم لا يتوقف عن محاربة الآخر ، ولا يملكون السيطرة على مناطقهم ، أثرت الفوضى الناجمة عن ذلك في إحداث الاضطرابات والقلق للتجار الأجانب ، ونظراً للاعتداءات على التجار في تبريز فان جنوة أصدرت قراراً بتحريم ذهاب رعاياها إليها على الأقل منذ عام ١٣٤٣ .

وتشير وثيقة محاكمة التاجر الجنوبي توماس جنتلى T. Gentile بواسطة «مكتب الحكماء» الثانية لشئون البحرين والبحر الأسود^(١٠٧) أن هذا المجلس الجنوبي قد أصدر حكماً بالبراءة على هذا التاجر لأنه أثبت بالأدلة القاطعة أنه كان في مدينة هرمز حين مرض وقام بتسليم بضاعته لأحد زملائه الجنوبيين الذي كان في طريقه إلى الصين ، وأنه (أى جنتلى) لم يجد بداً عام ١٣٤٣ من المرور على مدينة تبريز (التي منع الجنوبي من دخولها) بدون إرادته وليس بقصد التجارة .

وفي عام ١٣٤٤م أرسل السلطان أشرف حاكم تبريز سفارة إلى كل من جنوة والبنديقية برسائل تلح على رؤسائهما في حضور التجار بلاده والوعد بتعويض التجار الذين أضيروا وأخبرهم كذلك أن الطريق من طرابيسون إلى تبريز قد أصبح أكثر أماناً عن ذي قبل ، وأنهم سوف يلقون معاملة حسنة ويدفعون ضرائب أقل مما كانوا يدفعونها في عهد أبي سعيد . ويدل الرد الذي تسلمه السلطان أشرف من نائب البنادقة في طرابيسون على التحفظ وعدم الثقة . فقد طلب من حاكم تبريز إرسال قافلة تجارية من لدنـه إلى طرابيسون لصاحبة قافلة البنادقة . ولم يفعل الأخير ذلك . وعندما غامر بعض التجار البنادقة في السير بمفردهم فانهم تعرضوا

لقطاع الطرق الذين سلبواهم ما معهم . وبالتأكيد عاقب الحان اللصوص ووعد بأن يعرض البناية عن الأضرار ، ولكن هذا الحدث يدل على أن الإدعاء الصادر منه أن الطريق آمن تماما غير صحيح ولا يؤخذ في الاعتبار ^(١٠٨).

أما عن التجار الجنوية فانهم صدقوا إدعى مات طاغية تبريز وساروا إلى هناك حيث نهبوا وذبحوا وقدرت التجارة التي كانت معهم بائتى ألف ليرة . ولهذا توقف الجنوية عن التجارة مع تبريز مثلما فعل البناية في ذلك الوقت أيضا ^(١٠٩).

وكان طرد التجار الإيطاليين من موانئ البحر الأسود عام ١٣٤٣م بسبب المعارك التي نشب بين التجار البناية ورعايا المغول (وقتل البناية لأحد رعايا المغول وما نتج عن ذلك) عاملأ حاسما في منع الإيطاليين من التوغل داخل آسيا من ناحية الشمال ^(١١٠) . ويتجلى لهم منفذ وحيد وهو مينا اياس الأرمني الذي استولى عليه المصريون عام ١٣٤٧م وبذلك يفقدون آخر مينا أو معبر أو مدخل لهم للوصول إلى داخل قارة آسيا . ولهذه الأسباب فانهم كانوا قد واصلوا ضغوطهم على البابوية للسماح لهم بالتجارة مع الماليك . وأذعنوا البابوية لذلك ومنحتهم تراخيص بذلك بدءا من عام ١٣٤٥م ^(١١١) . ولهذا لم يعد التجار الإيطاليون بحاجة ملحة للمغامرة داخل آسيا التي لم تعد آمنة منذ ذلك الحين .

ولكن السلطان أوس خان (١٣٦٥-١٣٧٤م) حاكم العراق وتبريز أرسل خطابات للجنوية والبناية لاستدعائهم للحضور بلاده . وقد حفظت أرشيفات البندقية رسالته المؤرخة في مارس عام ١٣٧٠م لنائب البناية في طرابزون ، التي يبلغه فيها أنه يسره السماح للتجار البناية بالعودة لبلاده حيث أن الطرق أصبحت آمنة تماما بعد انتهاء فترة القلاقل التي تعرضت لها البلاد من قبل . وبلغه أيضا أن التجار سوف يسعدون الاستقرار في تبريز وسوف يلاقون كل ترحيب ومودة فضلا عن تخفيضات من الرسوم والمكوس ^(١١٢) . ولكن ما حدث في عهد السلطان أشرف عام ١٣٤٤م تكرر أيضا مع التجار البناية الذين صدقوا إدعى مات الأخير بأمن الطريق ^(١١٣) .

ويخبرنا السفير القشتالي كلافيخو - الذي زار تبريز عام ١٤٠٣م أن التجار الجنوية وصلوا فعلاً تبريز في عهد أوس خان . وخشية تعرضهم للاضطرابات وأحداث السلب والنهب التي كانت سمة العصر في ذلك الوقت في إيران والعراق ، فانهم اشتروا تلا في شمال تبريز من السلطان أوس ولكن الأخير - بعد أن قبض الثمن - رفض السماح للجنوية أن يقوموا ببناء قلعة على هذا التل قائلاً لهم « إنه ليس من عادة التجار أن يبنوا قلاعاً في هذا البلد ».

وأنه يمكنهم أن يأخذوا تجارتكم ويرحلوا عن بلاده ، وعندما طالبوه باسترداد ما دفعوه أخبرهم أنه يسمع لهم بأن ينقلوا هذا العمل الذى اشتروه خارج بلاده (١١) وعندما جادلوه فى ذلك أمر بقطع رقابهم (١١٤) . وهذا هو آخر ذكر للتجار الأوروبيين فى إيران أو العراق لأنه فى عام ١٣٨١م طلب البنادقة من حاكم طرابلس البيزنطى أن يستدعى لهم تجار تبريز لبلاده حتى يقابلوهم هناك (١١٥) ، ليشتروا منهم ما يحملونه من سلع هندية وصينية فضلاً عن منتجات بلادهم .

وقد دمرت قوات تيمور لنك عام ١٣٩٥م المستعمرة البندقية فى مدينة تانا على بحر ازواف وذلك ضمن خطته لتدمير المراكز التجارية لمغول القبيلة الذهبية فى منطقة البحر الأسود . ولهذا السبب (وغيره) فإن كلاً من الجنوية والبنادقة لم يصدقوا الامتيازات التجارية التى منحها تيمور لنك لشارل السادس资料 الفرنسي - وحاكم جنوه فى ذلك الوقت فى منطقة البحر الأسود بل ووقعوا معاهدة تحالف مع الأتراك والبيزنطيين - بعد هزيمة الأتراك الشديدة فى موقعة أنقرة فى ٢٨ يوليه عام ١٤٠٢م - ضد تيمور لنك . وكان هذا الأمر عملاً عدائياً ضد تيمور لنك وقضى بما على آية فرص جديدة لتجارتهم للتوغل داخل آسيا مرة ثانية (١١٦) . وعمراً أدى انتشار الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وتوسعاتهم الجغرافية على حساب جيرانهم لإغلاق قارة آسيا أمام التجار الأوروبيين لفترة طويلة من الزمن (١١٧) .

أسباب توقف التجار الإيطاليين عن ارتياح أسواق المغول منذ النصف الثاني للقرن الرابع عشر :

ما سبق يتضح أن التجار الإيطاليين توغلوا في آسيا منذ بداية النصف الثاني للقرن الثالث عشر حينما كانت طرق التجارة ومراكزها آمنة في عهد السيطرة المغولية . وازدادوا توافداً على منابع ومراكز التجارة بها من طرابلس وتبربز والسلطانية وهرمز وقاليقوط والزيتون وب يكن لتعويض مراكزهم التي فقدوها في الشام بسقوط الموانئ الصليبية في أيدي المماليك في الفترة من عام ١٢٦١ حتى ١٢٩١م . وللضغط الذي تعرض لها هؤلاء التجار للامتناع عن التعامل مع موانئ المماليك فانهم انساحوا شرقاً في أسواق ايلخانية فارس حيث منحهم ايلخانات المغول امتيازات تجارية واسعة وأعطوهem الحرية الكاملة في ارتياح كل بلادهم والأقاليم التي تخضع لنفوذهem . ولكن هذه الفرصة لم تستمر طويلاً وسرعان ما انتهى الوجود الفعلى لهؤلاء التجار داخل آسيا في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي . وذلك لعدة أسباب من أبرزها :-

أولاً : مقتل أحد رعايا المغول في مدينة تانا على بحر أزواف مما حدا بالخان المغولي الروسي بالقبض على التجار البنادقة والجنوية وقتل من لم يستطع الهروب منهم ومصادرة وحرق متاجرهم في هذه المدينة . وانتشرت الاعتداءات على مراكزهم في مدينة كافا أيضاً . وينقل الياهو أشتور عن حولية فلورنسية معاصرة أن خسائر البنادقة قدرت بثلاثمائة ألف فلورين (جنيه ذهبي) وثلاثمائة وخمسين ألف للجنوية . وأن ترك التجار الإيطاليين لموانئ البحر الأسود - ولو مؤقتاً - في ذلك العام ترتب عليه زيادة في أسعار التوابيل من ٥٠-١٠٠٪ عن ذي قبل^(١١٨) . وهذا الحادث أجبر التجار الإيطاليين على تقديم التماسات عاجلة للبابوية للسماح لهم بالتجارة مع المالك وكان لهم ما أرادوا .

ثانياً : انتهاء دولة الأيلخانات في فارس بوفاة أبو سعيد عام ١٣٣٥ دون وريث ، وانقسام الأيلخانية بين عدد من الأمراء المتصارعين الذين نهبوا التجار وصادروا ثرواتهم أو لم يستطعوا السيطرة على الطرق العامة كما حدث عامي ١٣٤٣ مع طاغية تبريز السلطان الأشرف و ١٣٧٠ مع أوس خان . ثم جاء تيمور لنك للمنطقة في نهاية القرن الرابع عشر ودمر المراكز التجارية للإيطاليين على البحر الأسود ، فضلاً عن تدميره العديد من المدن التجارية الهامة داخل آسيا ، ومنذ منتصف القرن الرابع عشر فصاعداً انتشر الأتراك العثمانيون في آسيا الصغرى وأغلقوا طرق التجارة على الأجانب خاصة مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي .

ثالثاً : انتشار الطاعون (الوباء الأسود) في بغداد وتبريز في عام ١٣٤٧ والذي وصل من منطقة القوقاز مع التجار . وعند عودة التجار الإيطاليين إلى ميناء كافا عام ١٣٤٨ فانهم حملوا معهم هذا الوباء لبلادهم ومناطق أخرى في حوض البحر المتوسط . وكان لهذا الوباء آثار اقتصادية واجتماعية مدمرة على كل دول العالم تقريباً . وعلى سبيل المثال كان عدد سكان فلورنسا ١١٠ ألف نسمة عام ١٣٣٨ م انخفض إلى ٤٥ ألف نسمة عام ١٣٥١^(١١٩) . ومن المؤكد أن انتشار هذا الوباء أدى إلى قلة عدد التجار وخوفهم - هم والمستهلكين الأوروبيين أيضاً - من معاودة انتشار هذا المرض ، ومن ثم أحجموا عن ارتياح أسواق آسيا أو موانئها الشالية ثلاثة عقود من الزمان على الأقل.

رابعاً : أن ميناء الاسكندرية كان أكبر منافس لمجتمع المراكز التجارية الآسيوية الأخرى سواء على البحر الأسود أو في داخل آسيا ، خاصة وأن المالكين كانوا من وقت لآخر

يدمرون مينا، إياس الأرمنى حتى وجهرا له ضريبة قلاصةة عام ١٣٤٧م حتى يجبروا التجار الأوروبيين على ارتياه موانئهم . وفضلا عن بعد أسواق آسيا الداخلية عن مراكز الاستهلاك الأوروبية ومخاطر الطرق وصعوبة النقل ، فان الأمان والأمان الذى تقنع به التجار الأوروبيون فى الاسكندرية القريبة من أوطانهم جعلهم يتحايلون على قرارات البابوية فى حظر التجارة مع الماليك - بطرق عديدة . فضلا عن أن الماليك فى بداية النصف الثانى للقرن الرابع عشر قاموا بمنع التجار الأجنبى امتيازات جديدة أهمها تخفيض الجمارك من ٢٠٪ إلى ١٠٪ ولهذه الأسباب مجتمعة ، فان المدن التجارية الأوروبية بدأت ضغوطها على المؤسسات الكنسية لرفع الحظر عن التجارة مع الماليك . وكان البابا هنا الثانى والعشرين (ت ١٣٣٤) قد أعطى البندقة وغيرهم تراخيص مدفوعة الأجر - بالتجارة مع الماليك - « شفقة على البندقية التى تعتمد على التجارة وحدها للحصول على قوتها اليومى » لمدة معينة فى غير السلع الحربية وبعد مقتل الجالية البندقية فى تانا عام ١٣٤٣م بعثت البندقية بسفيرين للبابا كليمنت السادس ليوضحوا له مدى الخراب الذى ينتظروهم إذا لم يسمح لهم بالعودة إلى التجارة مع الأسواق المصرية والشامية . ومنع البابا البندقة وغيرهم من المدن التجارية الأوروبية تراخيص بذلك لمدة خمسة أعوام ولعدد معين من السفن كل عام وفي غير السلع الحربية (١٢٠). ومنذ عام ١٣٤٥م بدأت السفن تحبوب الموانئ المصرية وبدأت التصاريح البابوية تتسع للمزيد من السفن والأعوام والبضائع حسب المبالغ المدفوعة فى البلاط البابوى.

وهكذا لم يرجع التجار الإيطاليون للأسوق الداخلية فى قارة آسيا لأنهم - منذ عام ١٣٤٥م - كانوا يحصلون على كل المنتجات الآسيوية من مينا، الاسكندرية (منطقة جذب) دون أن يقطعوا آلاف الأميال داخل مجاهل آسيا التى لم تعد آمنة للتجارة (بل منطقة طرد) والتى أصبحت مخاطرها أكثر كثيرا من أرباحها غير المنظرة .

وهكذا انسدل الستار عن فصل من العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية وآسيا الداخلية تحت النفوذ المغولى ليبدأ فصل جديد بعد ذلك من الصراع على الطرق التجارية الآسيوية ، ولكن هذه المرة ليس بين الماليك وتجار المدن الإيطالية ولكنه بين الأتراك العثمانيين والبرتغاليين .

الهوامش

- ١- Labib , Sobhi, "Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area "Recueils de la Societe Jean Bodin pour L'Histoire Comprative des Institutions , XXXII Premiere Partie . Bruxelle 1974 , p. 231 .
- ٢- ياروسلاف سizar ، جوزيف فوزار « نقاط التلاقي والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٥-١٦م)» ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف انظر للمترجم : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى . الاسكندرية ١٩٨٣ ص ١٤٧ .
- ٣- رحلات ماركوبولو ، ص ١٧٢ ، ١٨٧ .
- ٤- ابن بطرطة . رحلة ابن بطرطة - بيروت ، د. ت ص ٦٣٢ .
- ٥- صبحى لبيب «سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين والمالك» ، المجلة التاريخية المصرية المجلدين ٢٨ ، ٢٩ ، القاهرة ١٩٨١ - ١٩٨٢ ، ص ١٢٨ .
- ٦- Heyd , Wilhelm : Geschichte des Levante handels im Mittelalter 2 . Band . Stuttgart, 1879 , p. 119 .
- ٧- رحلات ماركوبولو ص ٤٦ ، ٤٧ .
- ٨- كانت هناك معاهدة بينهم وبين التجار الجنوية يحصل بمقتضاها الأُخْبَرُون على نفس امتيازات البنا دقَّة في تلك العاصمة - في الفترة من ١٢٠٤ حتى ١٢٦١ . وضواحيها ، وموانئ البحر الأسود في حالة مساعدتهم عسكرياً لميخائيل باليولوجس في طرد اللاتين والتجار البنا دقَّة منها ، وحدث ما تم الاتفاق عليه.
- ٩- Lane , Frederice : Venice : A Maritime Republic . John Hopkins University Press , Baltimore & London , 1973 , pp . 75-77 .
- ١٠- Ehrenkreutz , Andrew , "Strategic Implications of the Slave Trade Between Genoa Second Half of the Thirteenth Century" in A . L . and Mamluk Egypt in Udo Udovitch (ed) The Islamic Middle East , 700-1900 ' Studies in Economic and Social History . Princeton , 1981 , pp. 335 - 46 .
- ١١- Lane : Venice A Maritime Republic , p. 130 .
- ١٢- Heyd , op . cit , pp . 133 , 134 .
- ١٣- عفاف سيد صبره : العلاقات بين الشرق والغرب : علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م . القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٨٧ . ويقول صبحى لبيب أن المسيحيين المحليين أنفسهم وإن لم ينعوا من السفر في البحر الأحمر أو في بحر الخجاز - إلا أنهم قد حرموا قانوناً من حق الإقامة فيه أو في مناطق منه على الأقل وينقل عن ابن بطرطة قوله أن تجار نصارى الشام لم

يكونوا يتعدون قرية الفلا جنوب تبوك جنوباً . انظر للمؤلف « التجار الكارميين وتجارة مصر في العصور الوسطى » المجلة التاريخية المصرية مايو ١٩٥٢ ، ص ١٣ .

١٤ - صبحى لبيب : المراجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

15- Ashtor , Eliyahu : Levant Trade in the Later Middle Ages. Princeton , 1983 , p. 57.

ويتقلل محمد صالح الفراز (الحياة السياسية في العراق في عهد السبيطية المغولية ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦١) عن المقربى والعينى أن الخان أبو سعيد أمر ببطال جميع المكوس التي تجبي من التجار الواردین إلى بلاده عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م .

١٥ - انظر الترجمة الكاملة لنصوص هذه المعاهدة : عفاف صبره : المراجع السابق ص ٢٩١ - ٢٩٩ .

17- Ashtor , op . cit . p. 57.

١٨ - عفاف صبره : المراجع السابق ، ص ٨٦ ، ٨٧ نقلًا عن ابن وأصل وأبو شامة .

١٩ - ينقل أشتور عن ابن الوردي قوله أنه عندما أغارت قوات المماليك على مينا ، اياس الأرمياني عام ١٣٣٥ م كان يوجد به ألفين من تجار بغداد المسلمين . وهذا يلقي الضوء على أن أعداد التجار الإيطاليين كانت ضئيلة ودورهم كان ثانويًا نسبياً في حركة التجارة الداخلية أو الخارجية للبلدانية .

Cf . Ashtor , " Observations on Venetian Trade in the Levant in the XIV th Century ,

The Journal of European Economic History , vol . 5 , 1976 , p. 536 .

٢٠ - استقى بتروشفسكي الإحصائية التالية من حمد الله القزويني (نرفة القلوب) وهي توضح مقدار الضريبة (التفمة) على التجارة مقارنة بضريبة الخراج .

المدينة	ضريبة الخراج	ضريبة التفمة (على التجارة)
تبيرز	٢٧٥ . . .	٨٧٥ . . . دينار
بغداد	غير معروف	٨٠ دينار
شيراز	غير معروف	٤٥ دينار
واسط	غير معروف	٤٤٨ . . . دينار
أصفهان	٥	٣٥ دينار
حمدان	١٣٦ . . .	١٠٥ . . . دينار
مراغة	١٨٥ . . .	٧٠ . . . دينار
قزوين	٥٥	٥٥ . . دينار
السلطانية	غير معروف	٣٠ . . دينار

Cf Petrushuvky I P " The Socio - Economic Condition of Iran Under the II.

Khans " Combridge History of Iran vol V p. 508

- 21- The Travels of Friar Odoric of Pordenone . Cf. Cathay and the Way Thither , II ,
p. 10H.
- ٢٢ - رحلات ماركوبولو ، ص ٤٢ .
٢٣ - رحلة ابن بطرطة ، ص ٢٣٣ .
- Cf . Heyd , op . cit . pp. 130-132 ; Howorth , A History of the Mongols , III , pp . 631-3.
٢٤ - رحلات ماركوبولو ص ١٤ .
- 26- Ashtor : Levant Trade , pp . 57 , 58 .
- 27- "Pegolotti's Notices of the Land Routes to Cathay Ca . 1330-1340 " , in Cathay and
the Way Thither . III , p. 154 .
- 28- Ashtor , op . cit . , p. 49 .
٢٩ - عذاف صبره : المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ .
- 30- Richard , Jean , " The Eastern Mediterranean and its Relations with its Hinterland
(II th - 15th) Centuries " , in his , les Relations entre L' Orient et L' Occident au
Moen Age. London , 1977 , I , p. 15 .
٣١ - رحلات ماركوبولو ص ٥٥ .
- 32- Clavijo , Ruy Ganralez ; Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Sa-
marcand A . D . 1403 - 6 . Trans. by C.R . Markbam . London , n . d . p. 14 .
٣٣ - رحلات ماركوبولو ص ٤٨ .
٣٤ - المصدر السابق ، ص ٤٩ .
٣٥ - نفس المصدر ، ص ٣٧ .
٣٦ - نفسه ، ص ٣٨ .
٣٧ - المصدر السابق ، ص ٤٢ .
- 38- Cf Narrative of his Embassy to the Court of Timour , p. 93 .
٣٩ - رحلات ماركوبولو ص ٣٤ .
- ٤٠ - الخلنجان : من المواد كثيرة الاستعمال في الطب وشجرته تعرف باسم خسر ودار ، وهو يرد من
الهند ويستعمل في الطب والطهي .
- ٤١ - الزنجبيل : من أهم توابيل العصور الوسطى - يدخل في صناعة العقاقير الطبية والطهي وتحضير
الخمر وحفظها . يزرع في الهند والصين وسمرقند .

٤٢- العصفة الجوزية : ثمرة شجر يكون أحمر اللون عند نضجه فيجفف ويسحق وكان يستخدم في الأضمهه والصباغة .

٤٣- الزعفران : ويسعى الكركم يستخدم في العلاج الطبيعي وفي الطهي والعطور وألوان الرسم .

٤٤- السنامكي : شجر طيب الرائحة له ساقيل صفبرة يجلب من الهند .

٤٥- عفاف صبره : المرجع السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧١ ، وقد أورد بيغولوتي أسعار هذه المنتجات في أسواق تانا وكانا ، وهذا يدل على أنها كانت من واردات التبادل البندقية والجنوية من أسواق آسيا الصغرى وفارس أيضا .

Cf . Pegolotti , op . cit . , pp . 164 - 8 .

46- Ashtor : Levant Trade , pp . 57 , 58 .

47- Kedar , Benjamin .. Merchants in Crisis : Cenoeze and Venetian Men of Affairs and the Fourteenth Century Depression . Yule University Press , 1976 , p. 21 .

48- Lopez , R . S " European Merchants in the Medieval Indies : The Evidence of Commercial Documents " , in the Journal of Economic History , Vol . III , Nov 1943 , p. 166 .

٤٩- طبقا لمكمل حولية ابن العبرى السريانية ويقول الراهب الدومينيكانى وليم آدم أنهم من الجنوية .

Cf . Richard , Jean , "European Voyages" in Iran Journal of Persian Studies , VI , p. 49 .

٥٠- يقول ابن بطرطة (الرحلات ص ٦٣٣) أن هذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند ولكن اسم أطلق عليها . وأن مرساها من أعظم مراسى الدنيا بل هو أعظمها ورأى به نحو مائة جنك كبير أما الصغار فلا يحصى عدده .

51- Lopez , "European Merchants" op . cit . , p. 16 ; Richard , "European Voyages" p. 47 .
٥٢- رحلات ماركونيولو ص ٣٤ .

53- Geschichte des Levantehandels in Mittelalter , 2 . Band , pp. 112 . 113 ; also cf . Richard , " European Voyages " , p. 50 .

٥٤- عفاف صبره : علاقة البندقية بصر والشام ، ص ٩٩-٩٨ ،

Ashtor , Levant Trade , pp . 17-25 .

٥٥- بدأت تحذيرات حكام أوروبا من التجارة مع المسلمين منذ القرن الثامن الميلادي وعندما حمل البندقية إلى الشرق الأقصى والأخشاب والأسلحة ، أصدر الإمبراطور البيزنطي ليو الخامس (٨١٢م-٨٤٢م) مرسوما حذر فيه البندقية من التجار مع المسلمين في مصر وبلاد الشام وقد

تكررت هذه التهديدات في مناسبات تجدد الصراع الأوروبي - الإسلامي في منطقة البحر المتوسط خاصة بعد قدرم الصليبيين واستقرارهم في سواحل الشام . وفي عام ١١٧٩ أصدر البابا إسكندر الثالث قرار الحرمان ضد الأوروبيين الذين يغرسون بقرونهم بالأسلحة والمعدات والأخشاب التي تصلح لبناء السفن . وفي عام ١١٩٨ - أي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي - أصدر البابا أنوشنست الثالث مرسوماً منع بتحضير التجار الإيطاليين من التاجرة مع المسلمين وهذه هذا البابا أيضاً في مجمع اللاتيرن عام ١٢١٥ باصدار قرار الحرمان على كل من يخالف أوامرها . وتكررت هذه التهديدات وتلك التهديدات من خلفائه ومن القادة العلمانيين لغرب أوروبا رغبة في نجاح المجهود الصليبي لكسر شوكة المسلمين ، ولكنها لم تجد آذاناً صاغية من التجار - إلا لعدة شهور قلائل بعد إصدارها - وبعد ذلك تستمر الأمور على ما كانت عليه من قبل . عفاف صبره :

٥٦- كان انحراف البنادقة بالحملة الصليبية الرابعة إلى القدس طبيعة أقوى دليل على صحة هذا الرأي .

^{٥٧} - صبحي لبيب «سياسة مصر التجارية» ، ص ١٢٦ .

٥٨ - كانت الصيغة الشائعة للمشاركة Commenda أو كما هي معروفة في البنديقية Colleganza أسلوبًا شائعاً لشركات المساعدة الذي عرفته المدن الإيطالية في ذلك القرن . وكانت بهدف القيام برحالة واحدة فقط ويشترك فيها المستثمرون أو أصحاب رأس المال وهؤلاء لهم ثلاثة أرباع المكاسب والتجار الذين يغامرون بالترحال لهم ربع الأرباح نظير السفر والعمل . وصيغة الشركات المساعدة كانت تتبع للناجر المسافر الحق والحرية في اتخاذ القرارات المناسبة حسب الظروف التي يواجهها أثناء الرحلة . ولما كانت الرحلات التجارية داخل آسيا تحتاج لإمكانيات مادية كبيرة ليست في مقدرة الناجر الواحد أو الفرد العادي فان معظم التجار البنادقة والجنوية كانوا إما من النبلاء، أو أطراف في شركات مساهمة في الوطن الأم أو حصلوا على قروض بنائدة من أقاربهم . ولهذا فعندما يموت الناجر أثناء الرحالة فإن زملاء، كانوا يرسلون محارته أو نصبيه منها للوطن الأم لعرض الأمر على الدائنين أو الشركاء وكانت عقود المشاركة توثق قبل الخروج بالرحالة ولها نصوص معينة وعشر على كثب منها بأرشيفات المدن التجارية . للمزيد من التفاصيل :

Cf. Kedar: *Merchants in Crisis*, pp. 25, 44-49.

59- Cf "European Merchants in Medieval Indies," op. cit. III, p. 168.

60- Ibid , pp . 169 , 170 .

61- Beazley, R.: The Dawn od Modern Geography . III . p. 414

62- Lopez "European Merchants", op. cit. III pp. 171-2

63- Petrushevsky, "The Socio-Economic Condition of Iran Under the U. Khan,"

Cambridge History of Iran vol. 5 p. 511

لمزيد من التفاصيل انظر : صبحى لبيب «الفندق : ظاهرة سياحية اقتصادية قانونية» في : مصر وعالم البحر المتوسط . إعداد وتقديم رعوف عباس . القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٢٨٧ - ٣٠٥ .

65- Heyd , Geschichte des Levantehandels ; p. 131 .

٦٦- نشر روبرت لويس وارفعن ريموند مقطعنات من هذا القاموس بلغاته الثلاثة .

Cf - R . Lopez & I . Roymond (eds.) Medieval Trad in the Mediterranean World .
Columbia University Press , 1969 , pp . 346-8 .

67- Martin , M.E. "The Venetian - Seljuk Treaty of 1220 , Notes and Documents " ,
English Historical Review , vol . XCV , 1980 pp. 321-330 .

68- Lane : Venice : A Maritime Republic , pp . 75-80 .

Lane : Venice , pp . 80-85 , ٦٩- ماركوبولو : الرحلات (صفحات متفرقة)

Lane , op . cit , pp . 80-85 ٧٠- رحلات ماركوبولو ص ٢٨-٥ :

٧١- قام المؤرخون مول ويول ويليمز Moule , Yule & Pelliot وهم أعظم من ترجم مذكرات ماركوبولو وعلق عليها (يقدير ثروته التي تركها عند وفاته - ومعظمها من رحلته بين المغول بأربعة عشر مليونا و ٧٦٥ ألف جنيه استرليني الجلبيزي طبقاً لمقارنة قيمة العملة البندقية بنظيرتها الإنجليزية وحساب فروق الأسعار في بداية القرن العشرين وللتفاصيل انظر .

Hart , Henry H : Marco Polo : Venetian Adventurer . Oklahoma , 1967 , pp . 252 , 3

٧٢- قام ريموند بيزالى Raymond Beazley أستاذ المغرافية التاريخية الأسبق بجامعة أكسفورد بدراسة تأثير مذكرات ماركوبولو على حركة الكشوف المغرافية الحديثة وتوصل إلى أن التجار القططائين قد استفادوا أياً استفادوا من الخرائط التي رسماها ماركوبولو للصين والهند وجزر الهند الشرقية وكذلك من وصفه الدقيق لواقع هذه البلاد ، وأن الأمير بيذرو Pedro الشقيق الأكبر لهنري الملحق قد حصل على نسخة من مذكرات ماركوبولو مرفقاً بها خريطة الأخير للبلاد التي زارها كهدية من دوق البندقية وقد أفادت هذه المدونات هنري الملحق في تنمية طموحه و מגامراته البحرية لمحاولة الوصول للهند . وفضلاً عن ذلك فإنه تم العثور على نسخة لمذكرات ماركوبولو باللغة اللاتينية في متحف كولبس في سيفيلا Seville بها مدونات وملاحظات بخط كولبس (كريستوفر) نفسه على وصف ماركوبولو للصين واليابان وبلاد «البهارات» وأن الشروات التي وصفها الأخير قد أسالت لعاب كريستوفر ورفاقه (مثل سابقיהם) حتى ذهبوا لاكتشاف أمريكا معتقدين أن هذه هي جزر الهند التي وصفها ماركوبولو أو هذه هي مملكة المahan الأعظم ، للمزيد من التفاصيل انظر :

- Cf Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , pp . 14-21 , 140- 160 ; Henry Hart ; Morco Polo : Venetian Adventurer . University of Oklahoma Press , 1967 , pp . 254-58 .
- 73- Heyd , op . cit . , II , pp . 124-126 ; Ashtor : Levant Trade , p. 58 .
- 74- Heyd , op . cit , II . , pp . 123-125 ; Howorth , History of the Mongols , III , pp . 629-33 ; Ashtor , Levant Trade , pp . 58-59 .
- 75- Lane : Venice : A Maritime Republic , pp . 128-129 .
- 76- Heyd , op . cit . , II , pp . 127 , 8 ; Howorth , op . cit . , pp . 631 , 2 .
- 77- "Pactum Cum Monsait , impratore Turisn , per Michaellem Delphino , amboxatarem Ducis Venetiarum A..d . 1320 , die 22m . Decembris , " in G.M. Thomas(ed.) Diplomatarium Veneto- Levantinum , I , pp . 173 -176 .
- وقد تضمنت على الدكتور فيلبيانا آمارى بجامعة بالبرمو ترجمة نصوص هذه المعاهدة من اللغة الإيطالية (الدارجة) إلى اللغة الألمانية ، وقد قمت بترجمتها عن الألمانية إلى اللغة العربية .
- Also cf. Mas Latrie , " Privilege Commercial accordé en 1320 à la République de Venise par un Roi de Perse " in Bibliothèque de L'Ecole des Chartes . Paris , XXX , 1870 , pp . 72 -102 .
- ٧٨- نشرت الدكتور عفاف صبره (علاقة البندقية بمصر والشام في فترة من ١١٠٠ - ١٤٠٠ م) عن ماس لاتيري العرجمة العربية الكاملة لنصوص مراسيم ومعاهدات الأيونيين والمالين مع البندقية أعوام ١٢٣٨، ١٢٤٤، ١٢٥٤، ١٢٥٦، ١٢٥٩، ١٣٥٥، ١٣٥٧، ١٣٦٢، ٢٩٩ - ٢٦٩ وقد اعتمدت عليها في تحليقاتي عن امتيازات البندقية في الموانئ المصرية .
- ٧٩- حدّدت معاهدة ١٣٥٥ م رسوم الذهب ٢٪ والفضة ٢٪ وأعفّت الألقن ، والمرجان والفراء والأحجار الكريمة من الرسوم ولكن المعاهدات السابقة أعفّت الذهب والفضة من كل الرسوم .
- 80- Beazley : Thy Dawn of Modern Geography , III , pp . 486 , 7 ; Ashtor Levant Trade, pp . 59 , 60 .
- ٨١- فرنسيسكو بالدوشى بيجولوتى Francesco Balducci Pegolotti كان يعمل في شركة باردي Bardii الفلورنسية التجارية وعمل في الجلترا كوكيل لشركة منذ عام ١٣١٥ م وانتقل بعد ذلك لتمثيل بلاده في قبرص قنصلاً في الفترة من ١٣٢٤-١٣٢٧ م . وفي عام ١٣٣٥ قام ملك أرمينيا الصغرى بنجح شركة بيجولوتى امتيازات تجارية واسعة في بلاده . وقد ترجمت أجزاء هامة من كتابه في :
- Yule (ed . & trans.) Cathay and the Way Thither , III , " Pegolotti's Notices of the

Land Routes to Cathay , " pp. 137-177 .

82- Loc . cit . ; Beazley , op . cit . , III , pp . 488 , 9 .

83- Ashtor , op . cit , pp . 59 , 60 .

84- For detailes , cf . Beazley , op . cit . , III , pp . 489 - 93

٨٥- هؤلاء التجار هم Baldovino , Paolo Loredano , Marco Solanzo , Morino , Contarini , Giovanni Vacca and Giovanni Loredano .

وقد وصلوا إلى الهند عن طريق مدينة غزنة أى الطريق الشمالي لآسيا ، وعند وصولهم إلى الهند من هم سلطانها مائتي ألف بيزانت (تعادل .. ٥٧ ليرة بندقية) ودفعوا منهم ١٪ للجمارك و ١٪ للمسئول عن الجمرك ودفعوا أيضاً ألف بيزانت لرجال البلاط وقاموا بشراء لائحة مبلغ ١٠٢ ألف بيزانت . ونعرف من الوثيقة التي تركوها لنا أنهم اقتسموا اللائحة في إحدى مدن البحر الأسود وأرسلوا ترفة زميلهم المتوفى وهو Baldovino إلى ورثته بالبندقية عبر مينا ، فاما جوستا القبرصي ، وأن أحدهم وهو ماركو سوراينزو قد أرسل نصيبيه من اللائحة لجبايع في أسواق فرنسا .

Cf . Lopez , " European Merchants in the Medieval Indies , " op . cit . III , pp . 174-178 .

86- Ibid , pp . 182-4 ; Ashtor , Levant Trade , pp. 61 , 62 .

87- Ashtor , op . cit . , p. 62 .

88- Bar Hebrallus : The Chronography , p. 486 .

89- Cf , " A Second Letter from F . Jordanus(1324) . " in Cathay and the Way Thither . vol III (ed. & trans.) by Henery Yule , pp . 79 , 80 .

٩٠- وقد تشكيك المؤرخ الفرنسي ريشارد - (في المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر «الملاحة في المحيط الهندي» الذي عقد في بيروت عام ١٩٧٠) - من روایة ولیم آدم عن اساطير للجنوية في المحيط الهندي . و يبدو أن أشترى لم يقرأ هذا المقال بعد .

Cf . Richard , Jean , "European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12 th - 15 th Centuries" , op . cit . , pp . 45-52 .

91- Cf . " Pegolotti's Notices of the Land Route to Cathay" op . cit . , III , pp . 151-155 .

92- Lopez , Robert Sabadino , "China Silk in Europe in the Yuan Period " in Journal of the American Oriental Society , vol .72 , no . 2 , April - June , 1952 , pp . 72 - 76 ; Ash- tor , Levant Trade , pp . 60-61 .

93- Cf . " Marignolli's Recollections of Eastern Travel , in Cathay and the Way Thither,

III , p . 229 .

94-Ashtor : Levant Trade , p. 63..

٩٥ - للعديد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر

Pouzyna I, V. : La China , L'Italie et les debuits de la Renaissance X II et XIV
Siecles . Paris , 1935 ;

Mollat , M : (ed.) Societes et Compagnies de Commerce en Orient et dans
L' Ocean Indien . Paris , 1970 ;

Richards D.S . (ed) Islam and the Trade of Asia : A Colloquim . Oxford , 1970 ;

Smith , Howard : "Zaitun's Five Centuries of Sino Foreign Trade : , Journal of
the Royal Asiatic society , 1958 , Parts 3 , 4 , pp . 165-178 ;

Franke , Herbert , " Sino - Western Contacts Under the Mongol Empire , " Jour-
nal of the Hong Kong Branch of the Royal Asiatic Society , vol . 6 , 1966 pp.
49-72 ; Petech, Luciano, "Le Marchands Italiens dans L'Empire Mongol " dans
Journal Asiatique 250 , 1962, pp;249-44 ;

Lopez , R.S . " Nouveaux Documents sur les Marchands Italiens en China a L
Epoque Mongol " ; Academie des Inscriptions & Belles - Lettres , Avril ,1977 ,
pp . 445-457 .

٩٦ - عذاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١٤٠٠-١١٠٠ م ص ٩٨-٩٥ .

٩٧ - ولد مارينوساندو والتورسيلى في مدينة البندقية من أسرة نبيلة كان لها دوراً متميزاً في الانحراف بالحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية . وقد سافر إلى بيزنطة وأرمينيا الصغرى وسوريا ومصر فضلاً عن عواصم الغرب الأوروبي وفي عام ١٢٨٦ م كان يعيش في حي البناية بمدينة عكا ورحل عام ١٢٨٩ م إلى مواني بحر إيجه عام ١٢٩١ م . وكان دارساً لعلوم عصره وسابقيه وساعدته خبرته البحرية والتجارية أن يكون نقibe عصره في الجغرافيا والاقتصاد ولهم عدة مؤلفات يهمنا منها Liber Secretorum Fidelium Crucis الذي يدور حول كيفية استعادة الأرض المقدسة لحوزة الصليبيين ، والذي قدمه للبابا كليمنت الخامس في يناير عام ١٣٠٧ م . وعكف على تطوير أفكاره ومشروعه حتى أعاد تقادمه في ٢٤ سبتمبر عام ١٣٢١ م للبابا يوحنا الثاني والعشرين . وقد أرسل نسخاً منه للعديد من الكرادلة وملوك ونبلاة أوروبا لاتناعهم بمشروعه .

· Cf . Beazley : The Dawn of Modern Geography , III , p . 319 ; Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages , pp . 114 - 127 .

98- Beazley , op . cit , III. pp . 310-19 .

99- Atiya , op . cit ., p. 118 . Ashtor : Levant Trade in the Later Middle Ages , pp.44,45.

١٠٠ - عذاف صبرة : المرجع السابق ص ٦٠ .

101- Cf . Lopez " Europeam Merchants " op . cit , p . 172 ;

Ashtor , op . cit ., pp . 45 , 46 ; Frederic Lane " The Venetian Galleys to Alexandria , 1344 " , in Wirtschaftskräfte und Wirtschaftswege I . Band , Klitt - Cotts , 1978 , pp . 431 - 440 .

١٠٢ - يستند الدكتور صبحى لبيب على الآتى :

أولاً : عند دراسة الحوليات المصرية المعاصرة لفترة الحصار الاقتصادي أو التالية لها نجد أنه ليس هناك أي دليل على إغلاق فندق القنصل البندقى من الجانب المصرى .

ثانياً : لم تذكر هذه الحوليات أيضاً أنه ترتب على التحرير غلق الفندق من جانب البناية أنفسهم ، وأن البناية فى أحاديثهم مع البابا - لم يعترضوا بانسحابهم من فنادقهم بالاسكندرية .

ثالثاً : أشارت الحوليات المصرية فى الفترة من ١٣٣٠ م حتى ١٣٤٠ م عن وجود البناية والفرنج فى مينا الاسكندرية كما أورد المقريزى حدوث زلزال فى الاسكندرية فقال " فارتنت سفن البناية إلى الساحل " .

رابعاً : سفارات البابوية نفسها فى تلك الفترة للبلاد المملوکى ، إذ كيف تحرم التجارة معهم ثم ترسل وقوفا لهم ؟

خامساً : فى حديث الحوليات المصرية عن الفتنة التى وقعت فى الاسكندرية سنة ١٣٢٤ م أشارت أن نشاط الفرنج ضخم وأنه تم عزل قاضى الاسكندرية لأنه حكم ضد الفرنج .

سادساً : أن التجار الأوروبيين دفعوا رشاوى فى الباباط البابوى للحصول على تصاريح مؤقتة لعدد محدود من السفن للتعامل مع موانئ المالكى فى مصر .

سابعاً : أن الحكومة المصرية لم تشكو عاما واحدا من بوار التوابيل و (الفلفل بالذات) فى الاسكندرية فى تلك الفترة ، بل كان البناية يحملونها على سفنهم أو على سفن مستأجرة ويرسلونها إلى قبرص أو كريت خاصة وأن البابوية لم تكن تملك أسطولا للمرابطة .

ثامناً : أن الرحالة الإيرلندي سيمون سيميوني Simeon Semeonis الذي زار الاسكتدرية في نهاية عام ١٣٢٣ وصف في مذكراته فنادق وقنالى البناقة والجizerين والقططابين وتجار مرسيليا . وهذا كله يؤكد أن التجارة مع المالبك لم تقطع أبداً ولكنها تقلصت عن ذى قبل حتى عام ١٣٤٥ . (صبعى لبيب في حديث خاص للباحث - قسم التاريخ جامعة كبرى في الفصل الدراسي الأول عام ١٩٨٧-٨٦) .

- ١٠٣ - صبعى لبيب «سباس مصر التجارية في عصر الأيوبيين والماليك» المراجع السابق ص ١٣٢ .
- 104- "Exemplum Litterae transmissae demino Duci per Marcum de Molino , Consuleim Venetorum in Turisio A.D . 1324 6m . Juny " , Diplomatarium Veneto - Levantinum , I , pp . 192 - 194 .
- 105- Ashtor : Levant Trade , p. 59 .
- 106- Howorth : History of the Mongols , III , p . 633 .
- 107- "Genoa Applies Sanctions Against Persia , " in R . Lopez & Irving w . Raymond (ed . & trans.) Medieval Trade in the Mediterranean World . Columbia University Press . 1968 , pp . 323 , 4 ; Lopez . " European Merchants in the Medieval Indies , " op . cit . III , 181 - 3 .
- 108- Heyd , op . cit . , pp . 130 , 131 .
- 109- Lopez , " European Merchants , " op cit . III , pp . 182 , 3 .
- 110- Lane : Venice A Maritime Republic , p. 131 ; Ashtor : Levant Trade , p. 63 .
- ١١١ - للتفاصيل انظر : عفاف صبرة : المراجع السابق ص ١٠٩ - ١١١ .
- Ashtor , op . cit . , pp . 64-9 .
- 112- " Privilegium Securitatis datum ab imperatore Tourisii , Oweis Khan A.d . 1370 , " in Diplomatarium Veneto - Levantinum , II , p. 158 .
- 113- Kedar : Merchants in Crisis, p. 128 .
- 114- Clavijo : Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Samarcand , pp . 88 , 89 .
- 115- Kedar : Merchants in Crisis , p. 128 .
- 116- Ibid , pp . 129-130 .

- ١١٧- For details, cf . Lybyer ,A, H ., The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade “ , in the English Historical Review , Vol , 30 , 1915 . pp . 577 - 588 .
- ١١٨- Ashtor ; Levant Trade , p. 63 ; also ,” Observations on Venetian Trade in the Le-
vant in the XIV Century , “op . cit ., pp. 538 - 540 .
- ١١٩- Lopez , Robert ., “The Trade of Medieval Europe : TheSouth” in Cambridge Ec-
onomic History of Europe, vol . II Cambridge . ١٩٥٢ , pp . 338 , 339 ; Dols , Michael W . :
The Black Death in the Middle East . Princeton University Press , 1975 Daniel Williaman
(ed.) The Black Death : The Impact of the Fourteenth Century Plague. New York , 1982 .
- ١٢- عناف صبره : علاقة البندقية ببصرى والشام فى الفترة من ١٤٠٠-١١٠٠ م حـ ، ٢٩٣، ١١٠-١٠٦ ص .
- Ashtor , “ Observations on Venetian Trade ” , op . cit ., pp. 539 - 42 ; Norman Housley :
The Avignon Papacy and the Crusades , 1305 - 1375 . Oxford , 1986, pp . 207 - 211 .

خاتمة

اعتقد الأوروبيون - في العصور الوسطى المبكرة - بوجود مملكة مسيحية خلف ظهر المسلمين . وتطور هذا الاعتقاد - في عصر الحروب الصليبية - بأن ملكها «الكافن يوحنا» على استعداد لغزو المدينة المقدسة أو التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين وازدادت اسطورة «الكافن يوحنا» رواجا في أوقات حاجة الصليبيين للنجدة من الغرب . ولكن الملك الذي خرج من الشرق في باكورة القرن الثالث عشر لم يكن مسيحيًا بل هو جنكيز خان الذي سيطرت قواته على شرق آسيا ووسطها في الربع الأول للقرن الثالث عشر .

ولاعتقاد المغول أن جنكيز خان مفوض من السماء لاخضاع كل العالم لسلطانهم ، ولسهولة سيطرتهم على مالك شاسعة في شرق قارة آسيا ووسطها في غضون سنوات قليلة ، وحصل لهم على غنائم وافرة أسالت لعاب قادتهم للمزيد من السيطرة والتوسيع ، فان خليفته أوجوداي ١٢٤١-١٢٢٧ - أرسل القوات المغولية لغزو أوروبا . واستطاعت قوات المغول في الفترة من عام ١٢٣٧ حتى ١٢٤٢ إخضاع روسيا وبولندا وال مجر و Moriavia لسيطرة المغول بعد أن حطمت المدن والكنائس والأديرة ، وذبح الغزاة سكانها دون تفرقة بين عمر الضحايا أو نوعهم . أى أن المغول كرروا مع الأوروبيين ما فعلوه تجريبًا مع المسلمين في الدولة الخوارزمية من قبل ، ولكن جاءت وفاة الخاقان المغولي - وما تبع ذلك من انسحاب القوات المغولية من أوروبا - إنقاذًا لبقية أوروبا من الدمار والخضوع للسيطرة المغولية . ولم يفعل الأوروبيون شيئاً أمام المغول إبان وجود الآخرين في أوروبا ، وذلك لاحتمام الصراع بين البابوية والإمبراطور فردريك الثاني .

وأرسل البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) سفراً من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان إلى قادة المغول لتفاهم معهم ومحاولة تصديرهم لإبعاد خطفهم عن أوروبا وضمهم تحت لواء البابوية .

ولكن المغول - الذين كانوا في أوج قوتهم - لم يستمعوا إلى نداءات البابوية ، ولم يتركوا الرهبان يبشرون بال المسيحية بين رعاياهم ، بل وأرسلوا معهم خطابات للبابوية ولملك فرنسا - لويس التاسع - يدعونهم للحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة للخاقان المغولي في قراقوز وأن يدفعوا الجزية عن رعاياهم وهم صاغرون .

وعلى أثر سفارة - مشكوك فيها - من قادة المغول في آسيا الصغرى للملك الفرنسي لإبلاغ الأخير برغبة المغول بالتحالف معه ضد المسلمين واعتناق المسيحية ، فان لويس التاسع أرسل سفارة لقادة المغول ، ولكن ما سمعه سفراً لويس وردود قادة المغول عليه حولت هذه الأمانى إلى سراب . فقد سمع لويس التاسع نفس الادعاءات المغولية بالسمو والسيادة العالمية في خطاب للخاقان المغولي (مانجو خان) أرسله مع وليم روبروك الذى كان في بعثة بين المغول (١٢٥٣-١٢٥٥) .

غير أنه في عامي ١٢٥٩ - ١٢٦٠ تغيرت موازين القوى السياسية في آسيا ، إذ أن وفاة الخاقان المغولي عام ١٢٥٩ أكدت وعمقت التقسيمات الجغرافية للأمبراطورية المغولية إلى أربعة أجزاء في الصين ، والتركستان ، وفارس ، وروسيا . وكان لهزيمة المغول في موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠ ، واندلاع الحرب بين مغول روسيا ومغول فارس أثره على اتصال هولاكو خان بالقوى الأوروبية للبحث عن حلفاء له ضد المماليك .

وقد لعبت مملكة أرمينيا الصغرى دوراً بارزاً في التقارب بين وجهات نظر مغول فارس وبين القوى الصليبية في الشرق والغرب فيما يتعلق بهذا التحالف ، وحسن معاملة المسيحيين بين المغول ، باعتبار أن الملك الأرمني لم يجد بدا من أن يكون أحد أتباع (أفصال) مغول فارس ليضمن استمرار مملكته - التي قدر لها أن تقع بين القوى الكبرى الطامنة فيها من جميع الجهات - على الخريطة السياسية .

ولكن في الميدان السياسي باعْتَ جهود المغول بالفشل في التحالف مع الغربيين ضد المماليك رغم العديد من السفارات المتبدلة بين الطرفين . فالمماليك استطاعوا تقويض الكيانات الصليبية نهائياً من بلاد الشام في عام ١٢٩١ ، ووجهوا ضربات متلاحقة لمملكة أرمينيا الصغرى وجعلوا حكامها يديرون بالولاء للقاهرة . واستطاع المماليك أيضاً هزيمة جيوش المغول في أعوام ١٢٧٦ م (في ابลستين بالأناضول) ، ١٢٨١ (موقع حمص الأولى) ، ١٣٠٣ م (في موقع مرج الصفر) ، مما أوقف المد المغولي شرقى نهر الفرات . ولاشك أن الانتصارات الإسلامية على الصليبيين ومملكة أرمينيا الصغرى ومغول فارس كان لها أكبر الأثر في فشل مشروع التحالف اللاتيني - المغولي ضد المسلمين .

كما أن الغرب الأوروبي انشغل بمشاكله الداخلية واهتماماته الإقليمية وحروبه المحلية عن تطلعاته الخارجية في شرق البحر المتوسط ، خاصة بعد أن تقلص نفوذ البابوية التي فقدت

السيطرة على زمام الأمور بأوروبا وتلاشت الروح الصليبية ليحل محلها اهتمامات جديدة فرضتها المتغيرات الاقتصادية والثقافية في الغرب الأوروبي في نهاية القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وكان بعد المسافة بين الغرب الأوروبي والشرق المغولي والاختلافات في الدين واللغة والأهداف أثراً على أن ظل مشروع التحالف المشترك بينهما ضد المماليك حلماً ، ولم يخرج إلى حيز التنفيذ يوماً ما .

أما عن نتائج جهود البابوية في إرسال الرهبان الفرنسيسكان والدومينikan لتنصير مغول فارس على المذهب الكاثوليكي ، فإنها هي الأخرى بما تقرّبًا بالفشل ، اللهم إلا في تحسين معاملة إيلخانات المغول البوذيين لرعاياهم المسيحيين (وهذا عاد بـأبلغ الضرر على الآخرين بعد اعتناق الإلخانين للإسلام) ، فقد حاولت البابوية وملوك الغرب الأوروبي الضغط على إياخانات فارس بتأجيل النظر في التحالف معهم ضد المماليك إلى حين استجابتهم لاعتناق المسيحية الكاثوليكية أملاً في اقتفار رعاياهم البوذيين واليسوعيين الشرقيين لخطى ملوكهم . وأسس الرهبان الكاثوليك أديرة وكنائس في المدن الهامة بإيلخانية فارس وفي الهند والصين أيضاً ، وانشأوا كاتدرائيتين في عاصمة مغول فارس وعاصمة مغول الصين على حد سواء .

ولكن الإسلام - لأسباب كثيرة - بدأ ينتشر رويداً رويداً بين عامة المغول منذ بداية مجئهم إلى وسط آسيا الإسلامية، حتى اعتنقه بعض قادتهم . وتوج انتصار الإسلام باعتناق غازان ١٢٩٥-١٣٠٥ لهذا الذين الذي أصبح الديانة الرسمية للدولة المغولية في فارس . بل وقد ساهم المغول - بطرق عديدة - في نشر الإسلام في مناطق لم تعهد الإسلام من قبل .

وتمثل ميدان النجاح الوحيد في العلاقات بين المغول والغرب الأوروبي في الميدان الاقتصادي إذ سمح المغول للتجار الإيطاليين في ارتياح الأسواق التي كانت تحت سلطتهم ومنحهم الامتيازات المغربية في بلادهم . وساهم الآخرون في انعاش اقتصاد دولة الإلخانية ، وتزويدهم بسلع الغرب الأوروبي . كما أن إيلخانات فارس اتخذوا من هؤلاء التجار سفراء لهم للغرب الأوروبي ، واستخدموهم في قصورهم كمستشارين وإداريين ومتجمعين .

وكان لانهيار دولة الإلخانين بوفاة أبو سعيد خان عام ١٣٣٥ دون وريث شرعى - أثره السىء على استمرارية التجار الإيطاليين في الأسواق الداخلية لقاراء آسيا . وشجعهم على التوقف عن ارتياح أسواق آسيا الداخلية عودة التجارة مع الموانى المصرية الآمنة تماماً ، وحصولهم على امتيازات تجارية جديدة من السلاطين المماليك .

وكان لتوافد العديد من السفرا، الأوروبيين والرهبان الكاثوليك والتجار والرجال الإيطاليين في ايلخانية فارس والهند والصين منذ عام ١٣٤٥ حتى عام ١٢٤٥ تقريرًا أثره الكبير في ازدياد معلومات الأوروبيين - من خلال الكتابات والتقارير التي دونها هؤلاء السفرا، والرهبان والرجال - عن مدن آسيا وموانيها وأسواقها وتجارتها وكنوزها ورخص أسعار منتجاتها مقارنة بأسعار هذه المنتجات في الموانئ المصرية . وكان لتلك الكتابات أهميتها البالغة في إلهاب مشاعر الأوروبيين وتشجيعهم على ارتياح هذه المناطق واكتشافها وهذا ما حدث فعلاً على يد فاسكوداجاما وخلفائه بدءاً من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

الملاحق

الملحق الأول :

ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التي تناولتها هذه الدراسة في الفترة التاريخية المعنية بالبحث : أباطرة المغول ، ايلخانات فارس ، خانات القبيلة الذهبية في روسيا ، سلاطين دولة العمالك الأولى ، ملوك أرمينيا الصغرى ، البابوات ، ملوك كل من إنجلترا وفرنسا ، وقشتالة وأرAGON .

الملحق الثاني :

التقرير الذي قرأه سفير أبخاخان أمام مجمع لبعن الثاني (المجمع السكوني الرابع عشر ، ١٢٧٤م) .

الملحق الثالث :

خطاب أرغون خان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا ، عام ١٢٨٩م .

الملحق الرابع :

خطاب اوجايتوخان إلى فيليب الرابع عام ١٣٠٥م .

المحتوى الأول

ثبت بأسماء حكام وقادة القوى السياسية التي تناولتها الدراسة
في الفقرة التاريخية المعنية بالبحث

أولاً : المغول العظام :^(١)

- ۱- جنکیز خان (۱۲۰۶-۱۲۲۷ م)
 - ۲- اجودای (۱۲۲۹-۱۲۴۱ م)
 - ۳- کیلوك (۱۲۴۶-۱۲۴۸ م)
 - ۴- مانجو (۱۲۵۱-۱۲۵۸ م)
 - ۵- قوبیلای (۱۲۶۰-۱۲۹۴ م)

ثانیا : ایلخانات فارس :

- ١ - هولاكسو (١٢٦٥-١٢٦٥)
 - ٢ - أبغسا (١٢٨٢-١٢٦٥)
 - ٣ - تکودار احمد (١٢٨٤-١٢٨٢)
 - ٤ - أرغون (١٢٩١-١٢٨٤)
 - ٥ - کیخاتو (١٢٩٥-١٢٩١)
 - ٦ - بایدو (١٢٩٥)
 - ٧ - غازان محمود (١٣٠٤-١٢٩٥)
 - ٨ - اوچایتو (١٣١٦-١٣٠٤)
 - ٩ - آب سعید (١٣٣٥-١٣١٦)

ثالثاً : خاتمات القبيلة الذهبية في روسيا : (١١)

I- Boyle , John Andrew : The Successors of Genghis Khan , Trans lated from the Persian of Rashid al - Din . Columba University Press . 342 -45

- ١- بـاتـو (١٢٥٦-١٢٣٧)
 ٢- برـكـة (١٢٦٦-١٢٥٧)
 ٣- مـالـجـوـ تـيـمـور (١٢٨٠-١٢٦٧)
 ٤- تـوـدـيـ مـالـجـوـ (١٢٨٧-١٢٨٠)
 ٥- تـولـىـ بـرقـاـ (١٢٩١-١٢٨٧)
 ٦- طـةـ طـاـ (١٣١٢-١٢٩١)
 ٧- اوـزـ كـ (١٣٤١-١٣١٣)

رابعاً : سلاطين دولة المالبـكـ الأولى : (٢)

١- شـجـرـ الدـرـ (١٢٥٠)
 ٢- المعـزـ أـيـبـكـ (١٢٥٦-١٢٥٠)
 ٣- المنـصـورـ اـبـنـ المعـزـ (١٢٥٨-١٢٥٧)
 ٤- المـظـفـرـ قـطـرـ (١٢٥٩-١٢٥٨)
 ٥- الـظـاهـرـ بـيـبرـسـ (١٢٧٧-١٢٥٩)
 ٦- السـعـيدـ بـنـ بـيـبرـسـ (١٢٧٩-١٢٧٧)
 ٧- العـادـلـ بـنـ بـيـبرـسـ (١٢٧٩)
 ٨- المنـصـورـ قـلـاـوـونـ (١٢٩٠-١٢٧٩)
 ٩- الأـشـرـفـ خـلـيلـ (١٢٩٣-١٢٩٠)
 ١٠- بـيـدرـاـ يـوـمـ وـاحـدـ

١١- النـاصـرـ مـحـمـدـ (الـسـلـطـنـةـ الـأـوـلـىـ) (١٢٩٤-١٢٩٣)
 ١٢- العـادـلـ كـتـبـغاـ (١٢٩٦-١٢٩٤)
 ١٣- حـسـامـ لـاجـينـ (١٢٩٨-١٢٩٦)
 ١٤- النـاصـرـ مـحـمـدـ (الـسـلـطـنـةـ الثـانـيـةـ) (١٣٠٨-١٢٩٨)
 ١٥- بـيـبرـسـ الـجـاشـنـكـيرـ (١٣٠٩-١٣٠٨)
 ١٦- النـاصـرـ مـحـمـدـ (الـسـلـطـنـةـ التـالـيـةـ) (١٣٤٠-١٣٠٩)

خامساً أسرة بیرونیان الأرمنية (ملوك أرمینیا الصغری) :^(٢)

- ١- هیشوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠م)
- ٢- لیسون الثالث (١٢٧١-١٢٨٩م).
- ٣- هیشوم الثاني (مرة أولى) (١٢٨٩-١٢٩٣م)
- ٤- طوروس الثالث (١٢٩٣-٤٢٩٤م)
- ٥- هیشوم الثاني (مرة ثانية) (١٢٩٦-٩٤م)
- ٦- سباد (١٢٩٩-٩٧م)
- ٧- قسطنطین الأول (١٢٩٩م)
- ٨- هیشوم الثاني (مرة ثالثة) (١٣٠٥-١٢٩٩م)
- ٩- لیسون الرابع (١٣٥٧-١٣٠٥م)
- ١٠- أوشین الأول (١٣٢٠-١٣٠٨م)
- ١١- لیسون الخامس (١٣٤١-١٣٢٠م)

سادساً : البابوية :^(٣)

- ١- جرجوری التاسع (١٢٤١-١٢٢٧م)
- ٢- انوسنت الرابع (١٢٥٤-١٢٤٣م)
- ٣- الكسندر الرابع (١٢٦٠-١٢٥٤م)
- ٤- أورسان الرابع (١٢٦٤-١٢٦١م)
- ٥- كلیمنت الرابع (١٢٦٨-١٢٦٥م)
- ٦- جرجوری العاشر (١٢٧٦-١٢٧١م)
- ٧- نیقولا الثالث (١٢٨١-١٢٧٧م)

٢- فایز نجیب اسکندر : مملکة أرمینیا الصغری بین الصلبین و دولة الممالک الأولى ص ٢٩٢-٢٩٤ .

- ٨- مارتين الرابع (١٢٨٤-١٢٨١)
 ٩- هنريوس الرابع (١٢٨٧-١٢٨٥)
 ١٠- نيكولا الرابع (١٢٩٢-١٢٨٨)
 ١١- سلسليين الخامس (١٢٩٤)
 ١٢- بونيفاس الثامن (١٣٠٣-١٢٩٥)
 ١٣- بندكت الحادي عشر (١٣٠٥-١٣٠٣)
 ١٤- كليمانت الخامس (أفينون) (١٣١٤-١٣٠٥)
 ١٥- حنا الثاني والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤) (م ١٣٣٤-١٣١٦)

سابعاً : ملوك إنجلترا :

- ١- هنري الثالث (١٢٧١-١٢١٦)
 ٢- إدوارد الأول (١٢٣٨-١٢٧٢)
 ٣- إدوارد الثاني (١٣٢٧-١٣٠٧)
 ٤- إدوارد الثالث (١٣٢٧-)

ثامناً : ملوك فرنسا :

- ١- لويس التاسع (١٢٧٠-١٢٢٦)
 ٢- فيليب الثالث : (١٢٨٤-١٢٧٠)
 ٣- فيليب الرابع (١٣١٤-١٢٨٥)
 ٤- لويس العاشر (١٣١٦-١٣١٤)
 ٥- فيليب الخامس (١٣٢١-١٣١٦)
 ٦- شارل الرابع (١٣٢٢-)

تاسعاً : قشتالة :

- ١- الفونسو العاشر (الحكيم) (١٢٥٢-١٢٨٣) (م ١٢٨٣-١٢٥٢)

٢ - سانشسو الرابع (١٢٩٥-١٢٨٥م)

٣ - فرديناند الرابع (١٣١٢-١٢٩٥م)

٤ - ألفونسو الحادى عشر (١٣١٢ -)

عاشرًا : ارجون :^(٣)

١ - جيسمى الأول (١٢٧٤-١٢١٢)

٢ - بيتر الثالث (١٢٨٤-١٢٧٦)

٣ - ألفونسو الثالث (١٢٩٠-١٢٨٥م)

٤ - جيسمى الثانى (١٣٢٦-١٢٩١)

٥ - ألفونسو الرابع (١٣٢٧ -)

3- Rothwell , Harry (ed) : English Historical Documents : 1189-1327 . London , 1975 ,
pp . 1004 - 9 .

الملحق الثاني

التقرير الذى قرأه سفير ابغاخان أمام مجمع ليون الثانى (المجمع المسكونى الرابع عشر ، ١٢٧٤ م)

مقدمة :

سبق الإشارة أن أبغا خان قد أرسل سفارات إلى الغرب الأوروبي بدءاً من عام ١٢٦٦ م ١٢٦٦ م يطلب التحالف العسكري المشترك ضد المالكى . وفي عام ١٢٧٤ م أرسل الإيلخان المغولى سفارة مكونة من ستة عشر عضواً على رأسهم الراهب الإنجليزى الدومينيكانى ديفيد الأشبى David of Ashby لحضور جلسات مجمع ليون فى محاولة لجذب أنظار كافة القوى السياسية والدينية فى أوروبا - التى لها ممثلين فى هذا المجمع - لأهمية التعاون معه ضد المالكى فى تدعيم الصليبيين فى الشرق .

وقدم البابا جريجورى العاشر سفراً ابغاخان لأعضاء المجمع فى نهاية الجلسة الرابعة فى يوم ٧ يوليه (١٢٧٤) حيث قام (ريخالدوس) أحد المترجمين اللاتين من أعضاء سفارة ابغا بقراءة التقرير الذى حملوه من ابغاخان .

وقد عشر الباحث الإيطالى جينو بورغيزو Gino Borghezio على هذا التقرير فى الأرشيفات البابوية ، ونشره عام ١٩٣٦ بنفس اللغة اللاتينية للمخطوط وقد له بدراسة موجزة عن العلاقة بين البابوية والمغول (١) .

ونشر الباحث الألمانى بورخارد روبرج Burkhard Röberg فى عام ١٩٧٣ مقالاً عن «التنار فى مجمع ليون الثانى عام ١٢٧٤» (٢) وفى نهايته أعاد نشر نفس التقرير بلغته اللاتينية معتمداً على جينو بورغيزو . والإضافات التى جاء بها روبرج تمثل فى مقدمة مستفيضة عن العلاقة بين التنار وأوروبا وكذلك دراسة لغوية للأصل اللاتينى لهذا التقرير . ومبيناً أن هذا التقرير لم يترجم بعد لأية لغة شرقية أو غربية معاصرة . وقد تفضل

1- Cf . Borghezio , Gino , "Un Episodio Delle Relazioni tra la Santa Sede e i Mongoli , 1274". in Rome Rivista di Studi e ai Vita Romana , XIV , Nov , 1936, no. II , pp . 361-372.

2- Cf . Reberg , Burkhard . "Die Tartaren auf dem 2 . Konzil von Lyon 1274 , " Annuar- ium Historiae Conciliarum , 1973 , Heft 2 , pp . 247-302 .

على البروفيسور فرانز كواز لباور Prof. Dr. Franz Quadlbauer أستاذ اللغة اللاتينية في العصور الوسطى بقسم الدراسات الكلاسيكية بجامعة كبيل - بترجمة هذا التقرير إلى اللغة الألمانية . وهانذا أنقله إلى اللغة العربية لأهميته البالغة لموضوع الدراسة .

وقد تضمن هذا التقرير عدة نقاط هامة استعان بها الباحث في دراسته للسفارات المتبادلة بين هولاكو وأبغا من ناحية وبين الغرب الأوروبي من ناحية أخرى وهي :-

أولاً : أنه أثناء وجود قوات هولاكو ببلاد الشام (عام ١٢٦٠م) فان بطريرك بيت المقدس (في عكا) أرسل الراهب ديفيد الأشبي على رأسه بعثة من الدومنيكان لاستطلاع نوايا المغول تجاه الصليبيين في الشرق ، وقد لجحت هذه البعثة فيما فشل فيه وليم روبروك ورفاقه في البقاء بين ظهراني المغول للتبرشير بال المسيحية الكاثوليكية حتى حضر ديفيد الأشبي على رأس سفارة أبغا لمجمع ليون الثاني .

ثانياً : تحدث التقرير عن اعتناق هولاكو للمسيحية وتعصمه على يد ديفيد الأشبي (وهذا غير صحيح تاريخياً) ، وعن إشار هولاكو وخليفته للمسيحيين ، ومنهم الإعفاءات الضرائية للأخرين ، وتقديم الحماية لهم والاعطف عليهم.

ثالثاً : أشار التقرير إلى أن هولاكو قد سبق وأن أرسل سفارة إلى الغرب الأوروبي ، ولكن الملك مانفريد بن فردریک الثاني قبض على أعضاء السفارة وصادر الرسائل وأعاد السفارة للمغول ثانية .

رابعاً : أوضح هذا التقرير أن هدف أبغا من هذه السفارة هو طلب التحالف مع اللاتين لدحر «البابليين الكافرين» ، وأشار إلى أن الإيلخان المغولي قد أضيق متفرغاً تماماً لمواجهة المصريين .

نص التقرير :^(١)

ليعلم أقدس الآباء رئيس القساوسة الأعلى ،

و (يعلم) الآباء الأفاضل السادة الكرادلة وجميع السادة الأخبار الكثيرون القائمون على خدمة كنيسة روما المقدسة ، ولি�علم جميع ملوك المسيحية وأمراؤها : أن أسلاف الملك معظم أبغا من شعب المغول الذين تسموهم بالتنر - هؤلاء هم الذين أخضعوا - بعون الإله الحبي -

ويقوتهم كثيراً من بلدان الشرق وسيطرها ببطشهم على جميع ممالك الشمال وممالك الجنوب من البداية حتى نهر جيرون .

(ونود أن نبلغكم) بأن والد الملك العظيم أبغا المذكور آنفاً هو واحد منكم ، ووالده هو الأمير الهمام الشريف هولاكو ، أما نحن : فصيغوث الملك أبغا .

(والمملكة هولاكو) هو الذي عبر النهر المذكور بعاليه ، وأخذ بشجاعته جميع ممالك فارس من أيدي المسلمين . وتمكن أخيراً من التقدم حتى وصل إلى مدينة بغداد العظيمة واحتلها بعد حصار وقتل ، وقتل الخليفة : الذي هو أكبر أمراء المسلمين ، وكان قصره يحميه السيف ويدافع عنه قوة حرس كبيرة من المسلمين المذكورين وشعبهم الملعون . ثم استمر الملك بالتقدم وقتل المسلمين (ص . ٣٧) حتى وصل إلى نهر (ببرز ؟) وبعد أن عبر هذا النهر استسلمت له خالدة ؟ وخضعت له منطقة المدر ؟ التي تمتد حتى نهر الفرات العظيم . ثم أخضع بقوته جميع المناطق التي تقع في تركيا (أى سلاحقة الروم) وذلك من جبال الخزر (قزوين) حتى البحر . وهكذا استطاعت جيوشه في التقدم حتى البحر المتوسط حيث تقع المناطق العالية : فريجيا ، بامفيليون كابادوكيا ، وكاليتانيا . وبعد أن سيطر على هذه المناطق عبر نهر الفرات وطارد وأجل سلطان حلب ودمشق (الناصر يوسف) : ذلك السلطان الذي كان يعد من أعظم السلاطين . ثم احتل مدينة حلب وحطم حصنها القوية تحطينا كلباً . وبعد ذلك استسلمت له مدينة دمشق ، وسارت جيوشه مخترقاً مملكة القدس حتى وصلت إلى جبال الصحراء التي وطئت بها أقدام بنى إسرائيل .

وبعد أن جاء مبعوثوا الطريق الذي كان سابقاً في عكا ، والذي كان على رأس جميع المسيحيين اللاتين والسيحيين الآخرين في الشرق ، وأعني بذلك الأب المقدس وهو (كما نعلم) كان أحد الرهبان الوعاظ الدومنيكان^(١) ، (بعد أن جاء هولاكو المبعوثون) إلى الملك العظيم (هولاكو) حدثه كثيراً عن عقيدة الدين المسيحي الكاثوليكي ، وعن قداسة الكرسي الرسولي ، وعن عظمة الملوك اللاتين الذين يدعون بالفرنج .

١- أشارة إلى البابا أوريان الرابع (١٢٦٤-١٢٦١) الذي كان بطريقاً لبيت المقدس (في عكا) إبان وجود قوات المغول في الشام (١٢٥٩-١٢٦٠) وهو الذي أوفد ديفيد الأشبي إلى هولاكو للتفاهم معه .

وكان أحد هؤلاء المبعوثون هو الراهب ديفيد (الأشبي) مبعوث بطريق مدينة القدس ، وممثل ملك مملكة القدس وقبرص والذى رافقنا حتى مقر المجمع إلى هنا وحافظ بصورة تستحق المدح والثناء على سلامتنا .

وكان هولاكو (فى الحقيقة) واحداً منهم (من المسيحيين) وهو الذى ضمن - ويوحى من الإله - للمسريين جميعاً العيش فى سلام ، وأمر بإعفاء كل رجال الكنائس - وفي جميع الناطق المذكورة آنفاً - من الضريبة والإتاوة ، كما ضمن لجميع الكنائس حريتها فى كل مكان .

ويقصد الواقع مع اللاتين وبهدف الوصول إلى عقد تحالف معهم أمر هولاكو أن تتمتع جميع مدن المسيحيين وحصونهم وأراضيهم ومتلكاتهم بالطمأنينة وبالسلام ، ومنع رجاله منعاً باتاً من أن يتعرضوا بالأذى للمسيحيين وأصدر أوامره السلطانية بذلك . (ص ٣٧١) كما أنه استطاع توحيد مدينة بيت المقدس المقدسة مع مملكتها وجعلها تحت إمرته كما يعرف ذلك جميع المسيحيين في أقطار ما وراء البحار^{١١} . وكما يشهد على ذلك الراهب التقى ديفيد (الأشبي) .

وقد ساعد الراهب ديفيد في جميع القضايا - التي ذكرناها - بالاشتراك مع إخوانه الرهبان التابعين لنفس الكنيسة والذين كانوا معه . وكان (الملك المغولي) هولاكو يبيع بأسراره إلى هذا الراهب (ديفيد) وكأنه صديقه الحميم ، ولم يكن يبيع بثل ذلك لأى - إنسان آخر مثل اعتنائه للدين المسيحي ، وحصوله على التعميد !! كل ذلك حقيقة ولكن مشيئة الإله طالبتنا أن ندفع ثمن خطايانا فاختطفت يد المنون (هذا الملك) من بيننا .

وبعد أن توفى هذا الملك الجليل (أى هولاكو) الذي كان عادلاً مع المسيحيين ومنصفاً لهم ، وكذلك كانت عقيلته الأميرة (دوقوز خاتون) الملة المسيحية - لأنها كانت بنت ملك الهند العظيم (الكافن) يوحنا - (أقول بعد وفاة الملك) خلفه في جميع مملكته وفي جميع شؤون دولته سيدنا الملك المعظم الشريف (أبغا) الذي سار على خطى والده المذكور آنفاً ولا يحيد عن طريقه ولا عن فكره . وهو الآن يعرف عند المغول بـ «سنجينين؟» بمعنى صاحب الذات ، وهو بدوره يؤيد جميع الامتيازات التي منحها والده لصالح المسيحيين . كما أنه أصدر أوامره

١- لم يحدث أن استولت قوات هولاكو على المدينة المقدسة أو قامت بتوحيدها مع مملكتها الصليبية .

بزيادة بعض هذه الامتيازات . لقد كانت مساعدة هذا الملك لأرثوذكسيين كبيرة جدا ، ويشهد على ذلك مبعوثوا البابا وبمبعوثها ملوك المسيحيين . (أى الأوروبيين) الذين حظوا بلقائه وقتعوا بلطفه وموته .

وما أشبه هذا الملك بوالده ، فكلاهما رحيم . فقد رجد أسرى مكبلين بالحديد والأطواق فأمر باطلاق سراحهم قبل المدة المعينة ، ومنع إبراهيم الحرية وأمر بإصالهم بسلام إلى البحر المتوسط . ويشهد على ما مر ذكره الراهب التقى ديفيد التابع للكنيسة الدومنيكتة والذي يعيش الآن معنا . وقد شهد (هذا الراهب) بنفسه كثيرا من المعارك ، كما شهد حصار كثير من المدن .

والملك هيلى (أى هولاكرو) هو الذي بعث بأفضل ما عنده من مبعوثين إلى السيد البابا - قدس الله سره - كما بعث بهم إلى جميع الملوك والأمراء بهدف الوصول إلى تحالف دائم معهم وأقل واحد من بين هؤلاء السفراء هو أنا .. ريخالدوس : كاتب العدل عند الملك العظيم ، والمتורג الخاص للغة اللاتينية (له) . وقد اعترض طریتنا نحن المبعوثين السيد مانفريد (ملك صقلية) وهو ابن الامبراطور السابق فردریک (الثاني) ومنع موصلتنا للسفر وأجبرنا بالقرة على الرجوع .

ولهذا نريد أن نعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملکنا صاحب العظمة أبغاء خان يريد التحالف ، ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين لكنيسة روما المقدسة .

وقد قرر إرسالنا - نحن المبعوثين الدائمين - إلى قداسة البابا وإلى المجمع المقدس الحالى لإبلاغهم (قرار الملك هذا) كما يؤيد ذلك ختم الملك على الرسائل (المكتوبة باللغة) المغولية واللاتينية . وقد عرضنا (هذه الرسائل) على الأب المقدس وعلى الأمرا (العلمانيين) بحضور السادة المحترمين الكرادلة والساسة الأخبار الآخرين .

ولربما يتعجب الآباء والساسة الحاضرون من شأن ملکنا وذلك أنه مع عظمته هذه يظهر الآن رغبته وحبه للمسيحيين (ولربما يتتسائلون) لماذا لم يتحرك ضد الباباين (المصريين) أعداء العقيدة المسيحية حتى الآن ؟ وللإجابة على مثل هذه الأسئلة نقول أنه بعد وفاة والد (ملکنا) المحمود السيرة - كما تقتضي الطبيعة البشرية بذلك - أحاط بيوجه ملکنا أشجع أعدائه الشائرين ، فكان كل واحد من هؤلاء الأعداء معززا بثلاثة أمثال القوة المعزز بها سلطان بابل (أى ملك مصر) ، فتقدم ملکنا معززا بروح الإله الذى تحيا هؤلاء الأعداء المذكورين واحدا

فواحداً وفي أوقات مختلفة، وانتصر عليهم في القتال انتصاراً حاسماً^(١). وقد أيد قسم منهم حكمة وخضعوا لطاعته ، وعقدوا صلحاً وسلاماً دائمين معه . وبعد أن قضى (أبيغا) على هذه المشاكل في السنة الماضية ، قرر أن يتقدم تجاه البابليين الكافرين المذكورين آنفاً . فجمع جيشه ، فإذا برسل أولاد الملوك يتلقون عليه ليقدموا له العون في ظروفه الآتية .

وبينما كان (الملك أبيغا) يتدارس هذه الأمور مما إلى علمه في هذه الأثناء معلومات مباشرة فحوها أن المؤمنين اللاتين بقصد عقد المجمع المقدس الحالي ، مما دعاه إلى إرسال تهانيه إلى حبرنا الأعظم (البابا جرجوري العاشر) . وقد عيننا الملك (أبيغا) لهذا السبب مثليين عنه لحضور الاجتماع المقدس الحالي وكما يؤيد ذلك بوضوح مضمون الرسالة المفتوحة .

١- ربما كانت الإشارة عن انشغال قوات أبيغا في مواجهة أعدائه (مغول روسيا ومغول التركستان) في محاولة من سفير الخان المغولي تفسير عدم اشتراك قوات سبيه مع قوات حملة إدوارد ضد المماليك .

الملحق الثالث

خطاب أرغون إلى فيليب الرابع عام ١٢٨٩ م

مقدمة :

وصلت العلاقات السياسية بين مغول فارس والغرب الأوروبي للذروة في عهد أرغون خان حيث أرسل الأخير أربعة سفارات للقوى الكبرى في غرب أوروبا لطلب التعاون العسكري المشترك ضد المحاليلك . وفي عام ١٢٨٩ م أرسل أرغون سفارة يرأسها بوسكاريللو جيزولفو الجنوبي باقتراحات محددة لتنفيذ هذا التعاون ووضع تواريخ وأماكن محددة لالتقاء الجيشين : المغولي والأوروبي في بلاد الشام . وكان هذا الخطاب موضوع هذا الملحق » أحد رسالتين سلمهما بوسكاريللو إلى فيليب الرابع (الجميل) ملك فرنسا .

وكان الباحث الفرنسي راموزا M. Abel - Remusat هو أول من قدم دراسة شاملة عن العلاقات بين المغول والقوى الأوروبية عامته ، وبين مغول فارس وملوك فرنسا خاصة ونشرها في عامي ١٨٢٢ ، ١٨٢٤ ، وفي دراسته . نشر راموزا عشر وثائق (خطابات متبادلة بين المغول والأوربيين) باللغة اللاتينية والمغولية وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية ، وهذا الخطاب جاء ضمن هذه الوثائق التي نشرها راموزا وترجمها^(١) .

وقد نشر ميداؤس Meadows عام ١٨٥٠ - نقلًا عن راموزا وغيره - ترجمة الجلدية لهذا الخطاب مقرنة بالأصل المغولي له^(٢) . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ترجم هذا الخطاب إلى العديد من اللغات الأوروبية . ولكنه لم يترجم بعد إلى اللغة العربية لسبب جوهري وهو أن هذا الموضوع لم يبحث من قبل بحثاً أكاديمياً قائماً على الوثائق الشرقية والغربية على حد سواء .

نص الخطاب :

بقدرة السما ، الأبدية ، وفي ظل (وحماية) الملك

1- Cf . R`emusat , Abel , " M`emoires sur les Relations Poletique des Princes Chre`tiens et particulierement les Rois des France avec les Empereus Mongols " , Memoires de L`Academie Royale des Inscriptions et Belles - Lettres , IV - V , 1821 - 2 .

2- Meadows " Translations and Notice of Two Mongolian Letters to Philip the Fair , King of France " , Chinese Repository , 19 , 1850 , pp. 526-535 .

(فيما يلي) خطاب ملكنا أرغون :

إلى ملك فرنسا

(فيما يتعلّق) باقتراحك الذي أرسلته إلينا في السنة الماضية بواسطة الوفد (السفارة) الذي كان على رأسه بار صاوما ساهورا (مضمونه) : «أنه إذا غزت جيوش الإلخانات (المغولى) مصر فإننا كذلك سنقوم من هنا ببغزوها ونشارك في العمليات (الحربية) مباغتين العدو من الخلف»، فإننا وافقنا (على اقتراحك) ولذلك قررنا - بشينة السماء - أننا سنركب خيولنا في آخر شهر من شتاء عام النمر ^{١١}. (يناير ١٢٩٠م) وسننزل أمام دمشق في منتصف أول شهر من الربيع ^{١٥} (فبراير ١٢٩١م).

ونعلمك الآن بأننا بمقتضى صدق كلامنا سنبعث جيوشنا في الموعد والمكان المتفق عليه . فإذا أخذتنا - بقدرة السماء - تلك الشعوب ، فإننا سنتعطيكم القدس . أما إذا أهلتم الموعد وجعلتم جيوشنا تخوض عملية (حربية) فاشلة . وقد يكون هذا ممكنا (وسوف تندمون) ، وحتى إذا ندمتم عليه فسوف لا ينفعكم الندم . وإذا أرسلتم رسولا من قبلكم إلينا بهمة ما وكلفتموه بحمل أشياء نفيسة من أرض فرنسا مثل الصقرير والجواهر المختلفة الألوان ، فلتشهد قدرة السماء وجلاله الملك على أننا سنكافئكم على ذلك بطريقة ما .

هذا ما أردنا أن نقوله . ومرسل هذا الخطاب (بيد) حامل الكتابة موسكرين (أى بوسكاريللو) .

كتب هذا الخطاب في اليوم السادس من الثلث الأخير للشهر الأول من صيف عام الثور ^{١٢٨٩} (١٢٨٩) خلال إقامتنا في كوندلن .

١- اخترع المغول تقوياً يناسب حياتهم الرعوية ويكون أقرب لعقولهم باعتبار أنهم كانوا - أصلاً - قبائل بدوية تعيش على الرعي وصيد الحيوانات ، وكانتوا لا يعرفون القراءة والكتابة . فربوا السنوات في دورة قوامها أثني عشر عاماً ، وكل عام يسمى باسم حيوان مألوف لديهم وهي بالترتيب : القط ، الثور ، النمر ، الأرنب ، التنين ، الحبة ، الحصان ، الحروف ، القرد ، الديك ، الكلب ، الحنزير . وعلى سبيل المثال كان عام النمر موافقاً للأعوام الآتية :

١٢٥٤ ، ١٢٦٦ ، ١٢٧٨ ، ١٢٩٠ ، ١٣٠٢ ، ١٣١٤ وهكذا كل أثني عشر عاماً . وترتبط على اعتناق غازان خان للإسلام أن بدأ مغول فارس يستخدمون التقويم الهجري الإسلامي في مراسلاتهم :

Cf. Boyle , J. A : The Successors of Genghis Khan . Columbia University Press , 1971 ,
p. 346 .

الملحق الرابع

خطاب أوجلياتوخان إلى فيليب الرابع ملك فرنسا عام ١٣٠٥

مقدمة :

أرسل أوجلياتوخان (١٣١٦-١٣٤) سفارة إلى الغرب الأوروبي في عام ١٣٠٥ لمحاولة إحياء الاتصالات بين مغول فارس والغرب الكاثوليكي . واهتم المؤرخون المحدثون بخطاب أوجلياتوخان إلى فيليب الرابع نفس اهتمامهم بخطاب أرغون خان - الذي سبق ترجمته في الملحق الثالث - لنفس الملك الفرنسي . ومرجع ذلك أنه آخر خطاب يُعْثَر عليه في الاتصالات بين مغول فارس والغرب الأوروبي ، ولأن هذا الخطاب وإن لم يشر لطلب التحالف مع الأوروبيين صراحة - ربما لأن أوجلياتوخان في حالة صلح مع المحالبك - إلا أن السفير المغربي وهو توماس أوجي السيني Tomas Ugi of Siena قد سلم الملك الفرنسي - وغيره من الحكماء ذكرة أو خطاب عن عروض خيالية من أوجلياتوخان للملك الغرب بتمورين وإمداد جيوشهم في حالة الحضور إلى الشرق ضد المحالبك^(١) .

وقد ترجم هذا الخطاب منذ راموزا إلى عدة لغات أوروبية^(٢) ، وقامت بترجمته إلى اللغة العربية لأهميته في دراسة تطور العلاقات السياسية بين المغول والأوروبيين .

نص الخطاب :

هذا خطاب سلطاناً أوجلياتو :

إلى ملك فرنسا

منذ القديم كان لكم يا سلاطين شعب فرنسا جميعاً علاقات ودية مع آباء أجدادنا الكرام ، ومع أجدادنا الكرام ، ومع أبينا الكريم ، ومع أخيانا الأكبر الكريم . وبالرغم من البعد بيننا كنا نجد (من خلال رسالكم إلينا) تقارباً في الرأي ، وذلك في إبلاغكم إلينا جميع أخباركم وفي تبادل البعثات وإرسال هدايا السلم .

ف لماذا أهملتم الآن كل ذلك ؟

١- انظر ما سبق دراسته ص ١٣٧-١٤١ .

٢- عن المراجع المعاصرة التي أوردت ترجمة هذا الخطاب انظر ص ١٦٢ حاشية رقم ١٥٧ .

وخصوصاً الآن ، وقد اعتلينا العرش العالى - بفضل قدرة السماء - وأبدينا الرغبة في الحفاظ بدقة على ما رسمه وما نظمه جدنا الكريم وأبونا الكريم وأخونا الأكبر الكريم ، وعلى الانتهاء عن الاتفاق (الذى وقعه) مع رؤساء الأرضى القدامى الموزعة حسب النظام الجديد . بل إننا نعتبره واجباً مقدساً . ونريد الاتصالات أكثـر مما كانت عليه في الماضي وذلك من خلال تبادل الرسل (المفوضين) .

لقد أثرت افتراضات جلـسـاء السـوء عـلـى حـبـنـا نـحـنـ الإـخـوـانـ ولـكـنـ السـمـاءـ وـهـبـتـنـاـ الرـأـيـ (١)ـ بـأنـنـاـ نـحـنـ وـتـيـمـورـ خـانـ (١)ـ وـطـقـطـاخـانـ (٢)ـ وـجـابـارـ وـتـوـغاـ (٣)ـ ،ـ وـالـآخـرـيـنـ أـحـفـادـ جـنـكـيـزـ خـانـ يـجـبـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـضـعـ حـدـاـ لـلـإـهـاـنـاتـ الـمـتـبـادـلـةـ الـتـىـ شـاعـتـ بـيـنـنـاـ مـنـذـ خـمـسـةـ وـأـرـبـعـينـ عـامـاـ وـحتـىـ الـآنـ وـيـفـضـلـ السـمـاءـ (٤)ـ فـقـدـ تـصـالـحـنـاـ نـحـنـ الإـخـوـانـ وـجـعـلـنـاـ مـرـاكـزـ الـحـدـودـ بـيـنـ لـاـيـاتـنـاـ تـرـتـبـتـ بـعـضـهاـ بـيـعـضـ .

ونحن الآن نـفـيـلـ إـلـىـ الـاعـتـقـادـ بـأـنـكـمـ كـذـلـكـ تـرـيـدـونـ اـسـتـمـرـارـ الـعـلـاقـاتـ الـوـدـيـةـ (ـمـعـنـاـ)ـ كـمـاـ كـانـتـ مـعـ أـجـدـادـنـاـ الـكـرـامـ وـأـبـائـنـاـ الـكـرـامـ وـأـخـيـنـاـ الـأـكـبـرـ الـكـرـامـ .ـ (ـوـلـهـذـاـ)ـ نـبـعـثـ لـكـمـ بـالـرـسـولـينـ مـالـخـ وـتـوـمانـ .

لـقـدـ وـصـلـ إـلـىـ عـلـمـنـاـ أـنـكـمـ يـاـ سـلاـطـينـ الـفـرـنـسـيـنـ جـمـيـعـاـ مـتـنـاهـمـونـ مـعـ بـعـضـكـمـ .ـ وـلـيـسـ هـنـاكـ فـيـ الـحـقـيقـةـ أـفـضـلـ مـنـ التـفـاهـمـ .ـ وـإـذـاـ وـجـدـ بـيـنـكـمـ أـوـ بـيـنـنـاـ أـنـاسـ لـاـ يـرـيـدـونـ التـفـاهـمـ فـسـتـقـفـ بـقـدـرـةـ السـمـاءـ -ـ صـفـاـ وـاحـدـاـ فـيـ وـجـوهـهـمـ وـالـسـمـاءـ شـاهـدـةـ عـلـىـ مـاـ نـقـولـ (٥)ـ .

كتـبـ خطـابـنـاـ هـذـاـ فـيـ عـامـ ٧٠٤ـ هـجـرـيـةـ (١٣٠٥ـ مـ)ـ فـيـ عـامـ الـحـيـةـ فـيـ الـيـوـمـ الثـامـنـ مـنـ الـثـلـثـ الـأـخـيـرـ لـأـوـلـ شـهـورـ الصـيفـ خـلـالـ إـقـامـتـنـاـ فـيـ أـلـيـمانـ .

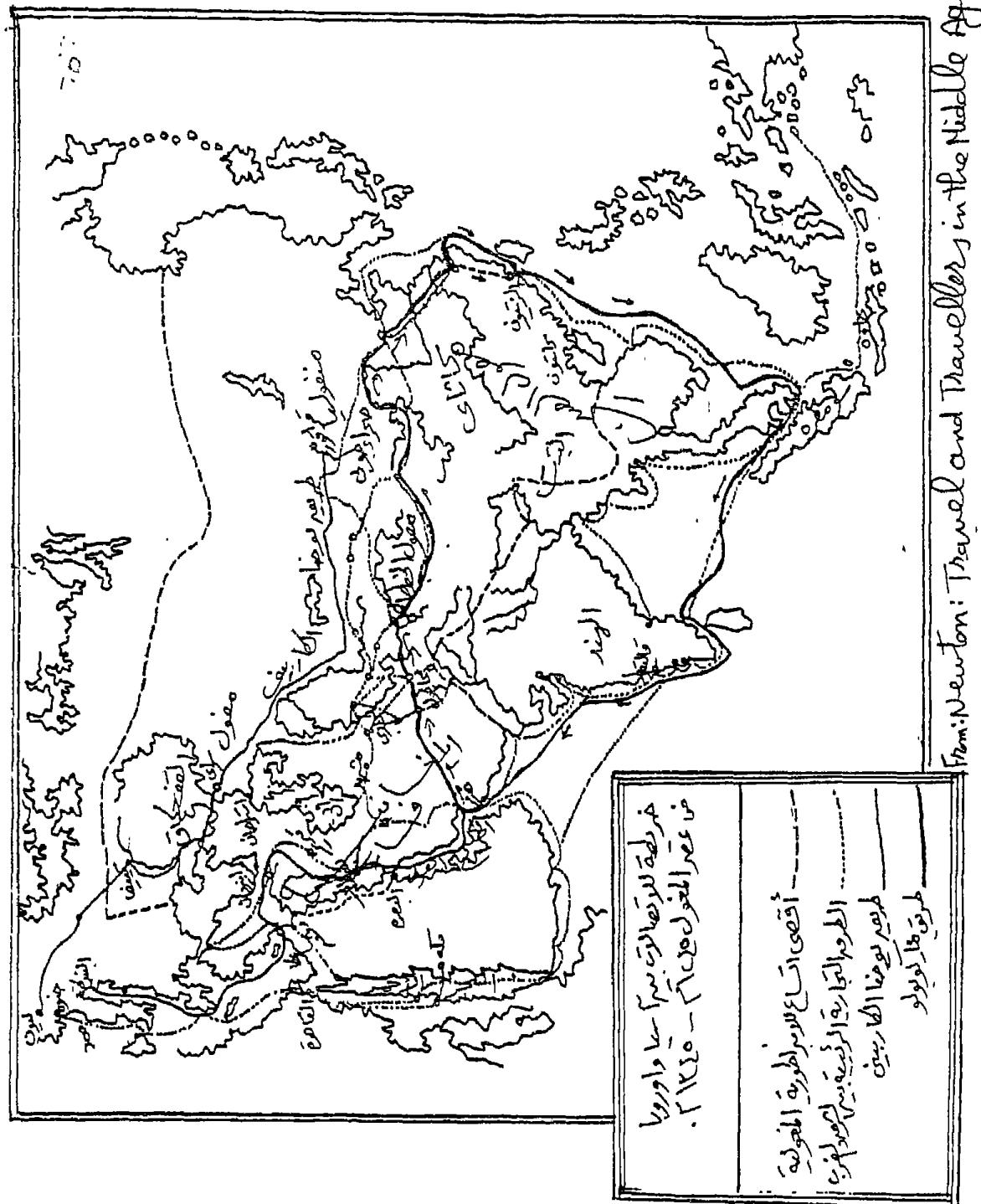
١- خاقان الصين (١٢٩٤-١٣٠٧م)

٢- Toqta Khan حاكم القبيلة الذهبية (١٢٩١-١٣١٢)

٣- توغا خان التركستان (١٢٨٢-١٣٠٧م)

٤- ربما قصدوا جایتو من كتابة هذه التعبيرات اليؤذية في خطابه إخفاه حقائق إعتناق الإسلام عن ملوك الغرب الأوروبي حتى لا يتأسوا من التعاون معه ضد الممالك المسلمين .

المرجع



قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولية :

أ- المصادر العربية والمصرية

ابن الأثير الجزري (ت ١٤٣٠هـ / ١٢٣٢م) على بن أحمد بن أبي الكرم .
الكامل في التاريخ . تسمة أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ .

ابن بطوطة (ت ١٣٧٧هـ / ١٣٧٩م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :

محنة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزمان ، القاهرة ، ١٩٣٤ - ١٩٣٧م .
ابن عبد الظاهر (ت ١٢٩٢هـ / ١٢٩٢م) القاضي معين الدين أبو الفضل .

الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهر . حققه عبد العزيز الخويطر الرياض ، ١٩٧٦م .

شيف الأيام والعمصور في سيرة الملك المنصور . حققه مراد كامل القاهرة ، ١٩٦١
ابن العبرى (ت ١٢٨٥هـ / ١٢٨٦م) غريفوريوس أبى الفرج بن أهرون الطيب الملطي

تاريخ مختصر الدول . بيروت ، ١٨٩٠م .

ابن الفوطي (ت ١٣٢٣هـ / ١٣٢٢م) كمال الدين أبو الفضل عبد الرانق . البغدادي
الحوادث الجامحة والتجارب النافعة في المائة السابعة . طبعة بغداد ، ١٣٥١هـ .

جوانفيل / جان دى:

القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة حسن جبس . القاهرة ، ١٩٦٨م .
ماركتو بولو :

رحلات ماركتو بولو : ترجمتها للإنجليزية وليم مارسدن ونقلها إلى اللغة العربية عبد العزيز
جايد ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
المقريزى (ت ١٢٤٢هـ / ١٢٤٥م) تقى الدين أحمد بن على .

السلوك لعرفة دول الملوك . الجزمان الأول والثانى (٦ أقسام) تحقيق محمد مصطفى زيادة .
القاهرة ، ٣٤ - ١٩٥٨ . الجزء الثالث والرابع (٦٠ أقسام) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور .
القاهرج ، ٧٠ - ١٩٧٢ .

الهمنداني (ت ١٣١٨هـ / ١٣١٩م) رشيد الدين فضل الله:

جامع السوابع (تاريخ المغول) . المجلدان الأول والثانى نقلهما إلى اللغة العربية محمد
صادق نشأت ومحمد موسى الهندانوى ومؤاز عبد المعطى الصياد ، وراجعه يحيى المشاپ .
القاهرة ، ١٩٦٠ .

بـ- المصادر المكتوبة باللغات الأوربية والترجمة إليها

Bretschneider , E. (ed. & trans.)

Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources . Vol . I . London , 1910.

Chabot , J . B .(ed.)

“ Notes sur les relations du roi Argun avec L`Occident , “ Revue de L`Orient Latin , II , 1894 , pp. 566-644 .

The Chronicle of Bury St Edmunds , 1212- 1301 . Trans . from Latin by Antonia Gransden .
London , 1964 .

The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 .

Trans . from Russian by Robert Michell and N . Farbes . Camden Third Series , vol . 25 . London , 1914 .

Clavijo , Ruy G .

Narrative of his Embassy to the Court of Timour at Samercand A.D. 1403 - 6. Trans , by C.R. Markham . London . n.d.

Dawson , Christopher (ed.)

The Mongol Mission : Narratives and Letters of the Franciscan Missionaries in Mongolia and China in the Thirteenth and Fourteenth Centuries . Translated from Latin by a Nun of Stanbrook Abbey . New York , 1955 .

Grigor of Akanc

History of the Nation of the Archers (The Mongols) .

The Armenian text , ed . with Eng . trans . and notes by Robert Blak , and Richard Frye . Cambridge , 1954 .

Haenisch , Erich ,

“Zu den Briefen der Mongolis chen II - Khane Argun und Oljeitu an den Philipp den Schonen von Frankreich (1289 u . 1305 “ , Oriens , II , 1949 , pp . 216 - 235 .

Hebraus , G.A.

The Chronography of Gregory Abu`L - Faraj .

The Syriac text , ed . with English trans . by Wallis Budge .

Amesterdam , 1932 , Pepr . London , 1979 .

Iwamura , Shinabu (ed. & trans.) ,

“ Mongol invasion of Poland in the Thirteenth Century” ,

Memoirs of the Research Department of Toyo Bunko , Tokyo, No . 10 , 1938

, pp.103-157 .

John of Marignolli ,

“Account of his Mission” . Ed. & trans . by Henry Yule :

Cathey and the Way Thither. vol , III . London , 1913 .

John of Monte Corvino ,

“The Letters of John of Monte Corvino” . Ed . and translated to English in C . Dawson : The Mongol Mission , pp . 224-232 ; A.C. Moule : Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 , pp. 171-183,

H. Yule : Cathay and the Way Thither. Vol . III , pp. 45-58.

John of Plano Carpini ,

History of the Mongols . In C. Dawson (ed.) :

The Mongol Mission , pp . 3-72 .

Joseph de Cancy ,

“A Crusader Letter from the Holy Land , May 1282 “ .

Palestine Pilgrims ` Text Society . vol . V, part 3 , pp . 1-16 .

Medows ,

Translations and Notice of Two Mongolian Letters to Philip the Fair , King of France “ , Chinese Repository , 19 , 1850 , pp . 523-535 .

Meyvaert , Paul ,

“An Unknown Letter of Hulagu , Il - Khan of Persia to King Louis IX of France “ Viator , XI , 1980 , pp . 242-249 .

Mostaert , A . & F.W. Clcaves ,

“ Les Lettres de 1289 et 1305 “ dans Harvard Yenching Institute Scripta Mongolica . Series I , Cambridge , Mass ., 1962 .

____ "Trois documents Mongols des Archives Secrètes Vaticanes " Harvard Journal of Asiatic Studies . XV , 1953 , pp. 419-506 .

Odoric of Pordenone ,

"Itinerarium" . Ed , and trans , by H. Yule :

Cf . Cathay and the Way Thither . vol . II . Rev . ed . by . H . Cordier . London , 1913 , pp. XV - 367 .

Otto , Bishop of Freising ,

The Two Cities : A Chronicle of Universal History to the Year 1146 A. D .

Trans . from Latin by Charles Christopher Mierow . Columbia Univ . Press , 1928 .

Paris , Matthew ,

English History from the Year 1235 to 1273 .

Trans . from Latin by J.A. Giles , 3 vols . London , 1852 .

Pegolotti , Francesco Balducci

"Pegolotti's Notices of the Land Routes to Cathay c. 1330-1340 " in H. Yule : Cathay and the Way Thither . vol . III . London , 1913 .

Sawma , Rabban

The Monks of Kublai Khan ... or the History of the Life and Travels of Rabban Sawma . Eng . trans . from Syriac . by . Wallis Budge . London , 1928 .

Schroeder , J . (ed. & trans.)

Disciplinary Decrees of the General Councils :

Tex , Translation and , Commentary . London , 1937 .

Szczesniak , Boleslaw ,

"Hagiographical Documentation of the Mongol Invasions of Poland in the Thirteenth Century" , Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko , Tokyo . Vol . 17 , 1958 , pp . 167 - 195 .

Diplomaticum Veneto - Levantinum . 2 vols . Venice , 1880 , I , Venice ,
1880 , 1889 .

Tisserant , E .

"Une Lettre de L'Ilkhan de Perse Abgha adressée en 1268 au Pape Clement
IV" , Le Museon , 59 , 1946 , pp. 547 - 556 .

Voegelin , Eric ,

"The Mongol Orders of Submission to European Powers , 1245-1255" , By-
zantion , XV , 1940-41 , pp . pp . 378-413 .

William of Rubruck

The Journey of William of Rubruck . In C. Dowson (ed.) The Mongol Mis-
sion , pp . 89-224 .

Yule , Henry (ed.)

Cathay and the Way Thither . 3 vols . London , 1913 .

ثانياً : المراجع الثانية

أ- المراجع العربية والمصرية

أحمد مختار العبادى (الدكتور)

قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام . بيروت ، ١٩٦٩ م

أرنولد ، توماس :

الدعوة إلى الإسلام : بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية . ترجمة إلى
العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسمعائيل النعراوى ،
القاهرة ، د.ت .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

لويس التاسع في الشرق الأوسط . ١٢٥٤-١٢٥٦ م . القاهرة ، ١٩٥٦ .

حافظ أحمد حمدى (الدكتور) :

الدولة الخوارزمية والمغول : غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وأثاره السياسية
والدينية والاقتصادية والثقافية . القاهرة ، ١٩٤٩ .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :

«انتشار الإسلام بين المغول والمتغار» . صحيفة الجامعة المصرية ، ١٩٣٣ .

سيزار ، يارو سلاف ، جوزيف فوزار :

«نقاط التلاقي والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٥-١٠ م.)» .

«ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف : انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى. الاسكندرية ١٩٨٣ .

صبعي لبيب (الدكتور) :

«سياسة مصر التجارية في عصرى الأيوبيين والمماليك» . المجلة التاريخية

المصرية ، مجلدي ٢٨ ، ٢٩ ، ١٩٨١ - ١٩٨٢ .

عبد السلام فهمي (الدكتور) :

تاريخ الدولة المغولية في إيران . القاهرة ، ١٩٨٠ .

عناف سيد صبره (الدكتورة) :

العلاقات بين الشرق والغرب : علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من

١٤٠٠-١١٠٠ م. القاهرة ، ١٩٨٣ م.

فايد حماد عاشور (الدكتور) :

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى .

القاهرة، د.ت .

فايز نجيب اسكندر (الدكتور) :

ملكة أرمينيا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ١٢٥٠-١٣٧٥ /

٦٤٨-٦٧٧٦ هـ . رسالة دكتوراة غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة

الاسكندرية ، ١٩٨٠ م.

فؤاد عبد المعطي الصياد (الدكتور) :

السلطان محمود غازان حاكم المغول واعتناقه الإسلام ، القاهرة ، ١٩٧٩ م.

لويس شيخو اليسوعي :

- «النصرانية بين قدماء الأتراك والمغول . مجلة الشرق ، السنة السادسة عشرة ١٩١٣ ، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .
- محمد صالح داود القزاز (الدكتور) : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية . بغداد ، ١٩٧٠ .
- مصطفى طه بدر (الدكتور) : مغول إيران بين المسيحية والإسلام . القاهرة . ١٩٤٢ .
- ب- المراجع الأجنبية

Andersen , Andrew R . :

Alexander's Gate , Gog and Magog and the Inclosed Nations . Cambridge , 1932.

Ashtor , Eliyahu :

Levant Trade in the Later Middle Ages . Princeton , 1983 .

____ "Observations on Venetian Trade in the Levant in the X IV th Century " , The Journal of European Economic History , vol . 5 . 1976 , pp . 533 - 586 .

Atiya , Aziz Suryal :

Egypt and Aragon : Embassies and Diplomatic Correspondence Between 1300 and 1330 , A.D . Leipzig , 1938 .

____ "The Crusade in the Fourteenth Century " , in Setton (ed) A History of the Crusades , III , pp . 3-26 .

____ The Crusade in the Later Middle Ages . London , 1938 .

Baldwin , W . Marshall :

"Missions to the East in the Thirteenth and Fourteenth Centuries " in K . Setton (ed.) A History of the Crusades . Vol. 5 : The Impact of the Crusades on the Near East . Wisconsin , 1985 .

Barthold , W .

Turkestan down to the Mongol Invasion . 3 rd Eng . ed . with trans . by Mrs . T . Minorsky . London , 1968 .

Bausani , A .

"Religion Under the Mongols . " Cambridge History of Iran , vol . 5 . Cambridge , 1968.

Beazley , Raymond :

The Dawn of Modern Geography . 3 vols . New York , 1949 .

Beckingham , C.F.

"The Achievements of " Prester John " An Inaugural Lecture at the School of Oriental and African Studies , 1966 . London , pp. 3-24 .

_____ " The Quest for Prester Jhon " , Boyle Memorial Lecture , John Rylands University Library of Manchester , 1979 . In Bulletin of the John Rylands University Library 62 , Manchester , 1980 , pp. 291-310 .

Borghezio , G .

" Un episodio delle relazioni Tra la Santa ei Mongoli (1274) " Rome , XIV , 1936 , pp. 361 - 372 .

Boswell A . Bruce :

"Territorial Division and the Mongol Invasions , 1202-1300 " Cambridge History of Poland , Vol . I , Cambridge , 1950 .

Boyle , John Andrew :

"The Il - Khans of Persia and the Christian West" History Today , XXXIII , 8 , 1973 , pp . 551-562 .

_____ The Successors of Genghis Khan . Columbia University Press , 1971 .

_____ " The Journey of Het'um , King of Little Armenia , to the Court of the Great Khan Mongke " , Central Asiatic Journal , IX , 1964 , pp . 175-189 .

Brown , Matthias :

"Missionary Problems in the Thirteenth Century : A Study in Missionary Preparation" , Catholic Historical Review , vol . 25 , 1939-40 , pp. 145-150

Browne , Edward :

A Literary History of Persia . 3 Vols . Cambridge , 1933 .

Browne, Laurence E. :

The Eclipse of Christianity in Asia Cambridge, 1933 .

Chambers , James :

The Devil's Horsemen : The Mongol Invasion of Europe . Londone , 1979 .

Cheshire, Harolde T :

" The Great Tartar Invasion of Europe , " in the Slavonic Review , vol . 5 ,
1926 , pp . 89-105 .

Connell , Charles William :

Western Views of the Tartars , 1240 - 1340 . Unpublished Ph . D . Rutgers
State Univiversity , 1964 . Xeroxed by University Microfilms International
Ann Arbor , Michigan , U.S.A.

Dienes , M . :

"Eastern Missions of the Hungarian Dominicans in the First half of the-
Thirteenth Century , "Isis , vol . 27 , 1937 , pp . 225-241 .

Dmytryshyn , Basil (ed. &Trans.) :

Medieval Russia : A Source Book , 100-1700 . New York , 1967 .

Ehrenkreutz , Andrew :

" Strategic Implications of the Slave Trade Between Genoa and Mamluk
Egypt in the Second Half of the Thirteenth Century " , in A.L. Udovitch(ed.):
The Islamic Middle East , 700-1900 ; Studies in Economic and Social His-
tory . Princeton , 1981 , pp . 335-346 .

Grousset , Rene :

Histoire des Croisades et du Royame Franc de Jerusalem . 3 vols . Paris ,
1936 .

Guzman , Gregory C .

Simon of Saint Quentin and the Dominican Missions to the Mongols , 1245-

- 1248 . Unpublished Ph . D . diss . Cincinnati Univ . , 1968 .
-
- “ Simon of Saint Ouentin and the Dominican Missions to the Mongol Baiju ” .
Speculum , XLVI , 1971 , pp . 232-251 .
- Hart , Henry H . :
Marco Polo : A Venetian Adventurer . Univ . of Oklahoma Press , 1967.
- Heyd , Wilhelm :
Gerchichte des Levantehandels in Mittelattar . 2 . B and . Stuttgart , 1879 .
- Housley , Norman :
The Avignon Papacy and the Crusades 1305 - 1375 . Oxford , 1986 .
- Houston , G . W . :
“ An Overview of Nestorians in Inner Asia ” Central A Siatic Journal , vol . XXIV , 1980 , pp 60-68 .
- Howorth , Henry :
History of the Mongols . vol . III , London , 1888 .
- Hsiang , Paul Stanislaus :
The Catholic Missions in China During the Middle Ages (1294-1368) Ph . D .
Diss . Washangton D . C . , 1949 .
- Jackson . Peter :
“ The Crisis in the Holy Land in 1260 ” , in English Historical Review , 1980
, pp . 481-512 .
-
- “ The Dissolution of the Mongol Empire ” Central Asiatic Journal , XXII ,
vols . 3-4 , 1978 , pp . 187-243 .
- Kedar , Benjamin Z . :
Merchants in Crisis : Genoese and Venetian Men of AFFairs and the Four-
teenth Century Depression . Yale Univarsity Press , 1976 .
- Labib , Sobhi :
“ Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area ” , Recueils de

la Société Jean Bodin Pour L'Histoire Comparative des Institutions , XXXII ,
Premiere Partie . Bruxelles , 1974 , pp . 225-241 .

Lach , Donald :

Asia in the Making of Europe . Vol . I , The Century of Discovery . Chicago ,
1965 .

Lane , Frederic C .:

Venice : A Maritime Republic . John Hopkins University Press , Baltimore &
London , 1973 .

_____ " The Venetian Galleys to Alexandria , 1344 ", Wirtschaftskrafte Und Wirtsch-
aftswege . I . Band , Klett - Catta , 1978 , pp . 431 - 440 .

Latrie , M.:

" Privilige Commercial accordé en 1320 a la Republique de Venice Par un
Roi de Perse " , in Bibliotheque de L'Ecole des Chartes . Paris , XXX , 1870,
pp . 72-102 .

Letts , Malcolm :

" Prester John : Sources and Illustrations " in Notes and Queries , vols 188 ,
189 , 1945 .

Lockhart , L. :

" Persia as Seen by the West " , in A . J. Arberry (ed.) The Legacy of Persia .
Oxford , 1953 . pp . 318-350 .

_____ " The Relations Between Edward I and Edward II of England and the Mongol Il-
- Khans of Persia " , Iran Journal of Persian Studies , VII , 1968 , pp. 21-32 .

Lopez . R. S .:

" China Silk in Europe in the Yuan Period " , Journal of the American Orien-
tal Society , vol . 72 , n . 2 April - June , 1952 , pp . 72-76 .

_____ " European Merchants in the Medieval Indies : The Evidenc of Commercial
Documents " The Journal of Economic History , vol III , Nov . 1943 , pp .

164-184.

_____ "The Trade of Medieval Europe : The South", Cambridge Economic History of Europe , vol . II , Cambridge , 1952 , pp . 257 - 355 .

Martin , M.E.:

"The Venetian - Seljuk Treaty of 1220" , English Historical Review , vol . XCV , 1980 , pp . 321-330 .

Muldoon , James :

"Missionaries and the Marriages of Infidels : The Case of the Mongol Mission" , Jurist , vol . 35 , 1975 , pp . 125-141 .

Moule , A.C.

Christians in China Before the Year 1550 . London , 1930 .

_____ , "The Failure of Early Christian Missian to China" East and the West , 1914 , pp . 398 - 410 .

_____ , "The Primitive Failure of Christianity in China" , in the International Review of Missions , vol . 20 , 1931 , pp . 455-60 .

Nersessian , Sirarpie der

"The Kingdom of Cilician Armenia" , in K . Setton (ed.) A History of the Crusades . Vol . II : The Later Crusades , 1189-1311 . Univ . of Wisconsin Press , 1965 , pp . 630 - 661 .

Nowell , C.E .

"The Old Man of the Mountain" . Speculum , vol . XXII , 1947 , pp. 497 - 519 .

Pelliot , Paul ,

"Les Mongols et la Papaute" , Revue de L'Orient Latin , 3rd Series " 23 (1922 :3) , 3-30 ; 24 (1924) , 225-335; (1931) , 3-84 .

Petrushvsky , I.P. :

"The Socio - Economic Condition of Iran Under the IL - Khans" Cambridge

History of Iran .5 . Cambridge .

Phaire , Barbara Rose :

Papal Motivations for an Asian Apostolate , 1245-1254 : An Analysis. Unpublished Ph . D . New York Univ . 1972 .

Powicke , F.M . :

King Henry III and the Lord Edward . 2 Vols . Oxford , 1947 .

Rachewiltz , Igorde :

Papal Envoys to the Great Khans . London , 1970 .

Richard , Jean :

"European Voyages in the Indian Ocean and Caspian Sea (12th- 15 th Centuries) , Iran Journal of Persian Studies) vol . VI , pp . 47-54 .

_____, "The Mongols and the Franks " , Journal of Asian History , III , 1969 , pp . 49 - 57 .

_____, Les Relations entre L'Orient et L'Occident au Moyen Age . London , 1977 .

Ross . E . Denison :

"Prester John and the Empire of Ethiopia " , in A.P. Newton (ed.) Travel and Travellers of the Middle Ages London , 1930 .

Runciman Steven :

" The Crusader States , 1243-1291" , in K. Setton (ed.) A History of the Crusades , vol . II , pp . 557-599 .

Ryan , J . D . :

The International of the Oriental Mission and Crusade Activities of the Papacy Under Nicholas IV , 1288 - 1292 . ph D. Diss . New York University , 1972 .

Saunders , J . J . :

The History of the Mongol Conquests . London , 1971 .

_____, "John of Plan Carpini " , History Today , vol . XXII , 1972 , pp 547 - 55 .

_____ Muslims and Mongols : Essays in Medieval Asia . Ed . C. W . Rice . Canterbury , 1977 .

Schein , Sylvia :

“ Gesta Dei Per Mongols 1300 , the genesis of a non - event “ , The English Historical Journal , vol . , 14 . Oct . 1979 , pp . 805-819 .

_____ , “ Philip IV and the Crusade : A Reconsideration “ , in Edbury , Peter W . (ed.) Crusade and Settlement . Univ . College Cardiff Press , 1985 .

Setton K . :

The Papacy and Levant . Vol I . London , 1976 .

Sinor , Denis :

History of Hungary . London , n . d .

_____ “ The Mongols and Western Europe “ in K . Setton (ed.) A History of the Crusads . vol . III . Wisconsin University Press , 1985 .

Slersarev , Vsenolod :

Prester John : The Letter and the Legend . Minnesota , 1959 .

Smith , Riley J . :

The Knights of St . John in Jerusalem and Cyprus (1050-11310) London , 1967 .

_____ What were the Crusade ? London , 1977 .

Southern , R.W . :

Western Views of Islam in the Middle Ages . Harvard University Press , 1962 .

Spuler , Barlold :

History of the Mongols Based on Eastern and Western Accounts of the Thirteenth and Fourteenth Centuries . London , 1972 .

_____ Die Mongolen in Iran . Leipzig , 1939 .

Stevenson , W . B . :

۳.۳

The Crusaders in the East . Beirut , 1968 .

Strayer , Joseph R :

"The Crusades of Louis IX " , K . Setton (ed.) A History of the Crusades .
Vol II . The Later Crusades 1189-1311 , pp . 487-522 .

Szczesniak , Boleslaw :

"The Mission of Gioveinni de Plano Carpini and Benedict the Pole of
Vratislavia to Halicz" , in Journal of Ecclesiastical History . Vol . VII , no . I
, April 1956 , pp . 12-20 .

Throop , Palmer A .:

A Criticism of the Crusade : A Study of Public Opinion and Crusade
Propaganda 2 nd ed. Philadelphia , 1975 .

Turner , H . Hudson :

" Unpublished Notices of the Times of Edward I , Especially of his Re-
lations with the Mongul Sovereigns of Persia , " in the Archaeological Jour-
nal . London , 1851 . vol . VIII , pp . 45-5 .

Ullendorff , Edward , C.F. Beckingham :

The Hebrew Letters of Prester John . Oxford Univiversity Press , 1982 .

Vernadsky , G .:

The Mongols and Russia . New Haven , 1953 .

Vine , Aubrey :

The Nestorian Churches . London , 1937 .

رقم الإيداع
٩٧/٣٨٦٢

I.S.B.N. 977-5487-64-1

جامعة العالى
لدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

وأشرهات على العالم الإسلامي



للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

To: www.al-mostafa.com